

# كتب غيرت الفكر الانساني

أحمد محمد السنواني

الجزء الخامس







## الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرحان

رئيسة مجلس إدارته

رئيس التحرير

لطفى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

محسنة عيسى

# كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الخامس

أحمد محمد الشنوافي



١٩٩٥



# فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
● انشودة التوحيد	١١
لخاتون ١٣٦٥ ق.م	
● بيدي	٢١
يورينس ١٣١ ق.م	
● الفطاح	٢٩
أرسوقائس ٤٠٥ ق.م	
● مختلف جالينوس الطبية	٦١
جالينوس ١٥٠ - ٢٠٠ م	
● الجليح لصناعة الطب	٨٢
الصلوى ٤ ... الرازي ح ٦٠٠ م	
● ديوان القتيبي	٦٠٥
القتيبي ٦٠٠ - ٦٦٥ م	
● تاريخ الأمم والملوك	٦٤٢
الطبري ٩٢٠ م	
● رسائل اخوان الصفا	٦٦٦
أخوان الصفا ٦٨٣ م	
● الشاهنشاه	٦٩٢
الفرديوس ١٠١٠ م	
● نزهة المشتاق في اختراق الآفاق	٦١٧
الأدرسي ١١٥٤ م	
● معجم البلدان	٦٢٥
يلاقوت الصوى ١٢٠٠ م	

الصفحة	الموضوع
٢٥٧	● حياة الحيوان الكبرى الدمري ١٤٠٠ م
٢٧٧	● حركات الكواكب السماوية كوبر نيكوس ١٥٤١ م
٢٩٥	● حركة القلب وليم هارلي ١٦٢٨ م
٣١٢	● الخليل مولير ١٦٦٨ م
٣٢٥	● تلخيص الفرب أشبنجر ١٩١٨ م



## مقدمة

منذ فجر التاريخ تفجرت على البشرية طاقات متنوعة من المعرفة ،  
ومع فجر التاريخ بدأ الإنسان يرسى قواعد الحضارة ويضع دعائم العلم  
والثقافة في كل ميادين الفكر ، وأمله ذلك لأن يفرض سيادته شيئاً  
ثميناً على محيطه .

وبينما بقي الكون أخيراً لا يفسح ولا يبين لأنه لا يظل ، ولا يفكر ،  
شرع الإنسان - هذه القصة المفكرة كما سماه بامكاله - في الإعراب  
لأنه لم يقنع بغيره وقلبه وروحه ، وصار يحفر عن رغباته وانفعالاته  
ووجدانياته يوماً تسجل أفكاره ومشاعره بالكتابة على الفخار وعلى الواح  
من الخشب والطين والمطام ، وعلى لحاء الشجر وعلى لفافات البردي وعلى  
شروط من الرق والحرير ، وهكذا وصلت إلينا معلومات شتى عن حياة  
إنسان ما قبل التاريخ في شكل صور وكتابات ، تلك هي آثار من  
الحضارات القديمة البائدة ، ولأجل هذه آثار ومعلومات البشرية  
جدد الاهتمام بالعلم والعلوم التي تنبع من الحضارة .

والوثيقة المكتوبة منذ آلاف السنين والوثيقة المطبوعة منذ مئات  
السنين كلشهما تلعب دوراً أساسياً في نشر المعارف الإنسانية والحفاظ  
عليها برفقته وحسن التصويب في هذه المعارف لنم العليف للبيئة على  
حيلة الحكيم والظهور بالحكمة والحجى ولو تلمست بطن الثقافات على  
التواصل الثقافي أو الإيماني لأن البقاء لن يضمن لها في العصر الحديث  
إلا والتوصل بالكتابة .

ولقد حرصت بعض النظم التعليمية في بلادنا على تعليم الأطفال  
الميلون في هذه عصر ولا يستطيعون أن يقرأوا ولا يكتبوا ، ولا يستطيعون  
ولا يكتبون ما يقرأ ولا يقرأ ، وإذا دونوا منهم لا يتأقن عن وإذا سألهم  
لا يستطيعون أن يكتبوا ، وإذا سألهم عن ما لا يستطيعون أن يكتبوا ، وإذا  
سألهم عن ما لا يستطيعون أن يكتبوا .

والكتب كالحافظة الأمانة تحتفظ فيها تاريخ الأمم وما تطلعت فيه من  
حجرات ، فيها الحكم البالغة ، والعزب القرون الماضية ، كما أنها مرآة

عجائب الطبيعة ، ربما يصعب ان نجد شيئا من مصنوعات الانسان هو  
قاسم مشترك بين جميع ابناء البشر في مستوى الكتاب فقد صار الكتاب  
من الزم الاشياء للانسان ، وكذا يكون كالهواء لا تخلو منه بقعة من البقاع  
الاجتماعية في العالم ، وهو عماد جميع اشكال الحضارة والثقافة في جميع  
المجادين .

وكما قلنا قبا من اصلاح ثم او تقلم حصل . وما من نهضة تحققت  
او رسالة انتشرت ، الا وبدأت خاطرة داودت الاذهان ، او املا جاش في  
الصور ، او مثلا اعل توجعت اليه الهم وتعلقت به النفوس - اى بدأت  
فكرة تقضى بها صاحبها أولا . ثم اصبحت غذاء للآخرين ، ومرتزا للاشباع  
جه ينطلق الفاضح ، وذلك ينطبق بالطبع على انوار صاحب الفكرة بعد  
كتب ومؤلفات ، لانها قطعة منه وجزء من كيانها ، فيها يومه وجوده .  
وانت تحس حين تقرؤها بنفحة من نفعاته .

اذن فالكتاب في الفكر الحضاري هو الانسان ، منذ عروب الامم  
والحرارة بالخير ان هذا الانسان يتغير بالمثل ، وبما يتغير انه يستطيع من  
تقالته بفكر ما يستطيع من غيره . ولذلك فله الكتاب بعد تراثنا الساليا  
القديم فالتدوين عند الشعوب ، فالتدوين لا تحبس فاجل الجهود البشرية  
ولا تمنعها من انما تدور اخرى . وانما هي مزيات فكرية تعلم وتعلم  
في كل يوم نعيش في الفكر بتقالته ومثله .

فالكتاب الطيبة في حياة الانسان ، كالاصول الطيبة ، لا تأتي  
بمرور مسبق ولا يرتبط بمرورها بزمان ولا مكان بحدود ، وانما هي  
فئات توجد بها الحياة كلها اريد الله راضاه وجه الحياة عبارة الطول  
والعرض والارتفاع والخفض .

فالحياة في حياة الانسان غذاء من الكتب الطيبة التي كان لها اظهر  
الآثر على مسيرة الحياة والحسينان والتاريخ والتقليد والفكر والعلوم  
والحياة .

والكتب الرائدة في التراث الفكري العالي كتب كثيرة ومتنوعة ،  
لها اثر في تاريخ الفكر الانساني فيكون كونا عظيمة كان  
لها فضل بالرياسة التي ايدتها على نفس الفاضل الاتقاني والطويل الاماني  
ومما لا يخفى ان كتبها لا يكون الا في تاريخ الفاضل كونه في كتابه  
كتاب فاضل عظيم الكتب ، الا انها من الفاضل ان يكون فاضل في كل  
شيء وذلك لصعوبة الحصول عليها بصعوبة ، او لسهولة بلوغها او لثبات

والذي . فقد تلمسنا في الاجزاء المتصلة من مجلدات الجامعة في كتب  
شرح الفكر الانساني .

والى إذ أقدم اليك عزيزى القارىء الجزء الخامس من هذه السلسلة  
لتكمل فيها عبارة سبعون كتابا من أهم ما قدم بمناقرة العلم والسياسة  
والاقتصاد والقانون والفلسفة والأدب والتي أثرت تأثيرا عظيما على الفكر  
الانسانى على مر العصور والتي تمتد بحق من الألفية فى الحضارة  
الانسانية .

فإن الغرض من هذه السلسلة هو توضيح القوة العانية للكتب  
وللكلمة المطبوعة على التقدم البشرى وذلك عن طريق مناقشة أمثلة معينة .  
ولم يكن فى نيتنا كما قلنا سابقا - تقديم قائمة بأحسن الكتب أو أعظم  
الكتب ، ولكن هدفنا هو اكتشاف الكتب التي كان لها اعظم الأثر وأصله  
على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا .

إن الكتب بأجزائه الخمسة - هو خلاصة قراءات قضيتها بين  
الكتب ... وهي ليست كتابا عربية فحسب ، بل كتب عربية أيضا ، لفت  
نظري اليها ، ما فيها من فكر وعمق وتجربة وخبرة ...

لذلك رأيت أن أضفها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجبت

وما أودت الا الخبر وعلى الله قصد السبيل .

والله أسأل أن ينفع به . وبجمله خالصا لوجه الكريم .

والله المستعان أن يحقق به الفوائد . وهو حسبي وكفى .

**القول**



النسوة التوحيد  
إخفاصون  
١٣٦٥ هـ



## هزلة الأديب في نقوش المصريين القديمة

كان المصريون الكهنة يقدرون الأدب حق قدره ويحفظون بالاعتماد الجيد والقول البليغ وكانوا يرون في اعادة القصير والتخريف في ملحون الحديث فضلا يستأز به المرء ومتلا ينبغي أن يتخلق به الكرم ويرى فيه كذلك ثروة تعين على الهزلة الرفيعة والدرجة العالية فقد كان يناس عبث يحضر على بذل الجهد والاستقصاء في تبيين المعنى والبيان في القول والاعتماد الجيد اعلم من النجس الكرم ومع ذلك فقد جسد المرء عند الاحياء .

ولقد أدرك المصريون ما يكون للكلمة من القوة والافضل وما تشجع البلاغة والمصاحبة من التسلط على الناس وحسن سياستهم والسيطرة عليهم ومكان ذلك من مقومات الازالة الفرية والزراعة النافذة .  
ذلك شاعره من قول أحد ملوك اممهميا لاجنه مر يكارح وهو يحفظ يقول :  
كن للكلام صانعا حتى تكون قنيد الياس لان قوة الرسل في لباسه ولان القول اضعى من اى قتال . وفيما ورد في قصة البحار الفريق قول التابع :  
ان سبط الرسل ينقله وجهه يكتب عنه (الخطيب) الموصوف .

وتستطيع كذلك القول على طرح حب القرائن والافضل وحفظهم به  
ما اوردته لنا في قصة الفلاح الفصيح والاعمال من مشكلاته المعظم مدلولهم  
عليه في الحديث والجود وذلك في اسلوب جدير وقول عظيم يظهر له الملك  
عظم الحكيم للتواضع في البلاغة والفلاح والعلو في دفع الطلب غير لوجزة  
من يلقه كذا لم يتغير بل يفوز ورافعة اليد .

وهذه الفلاح الفصيح كما كتبها المصريون انما تصنعها بهجلاخ  
القارئ والمتابعين به اوردته من النيات والبدع وهي كمال الفطرية  
التي هي الادب الفري . فلا تكاد الشطبية الفلاح تختلف عن الشخصية  
عيسى بن مكنام التي اختبرها بتأنيق الزمان المكنان في الشخصية التي اريد  
المسروحي التي اختبرها الحرير في الجرجة على لسانها من شاعره  
البيسان :

كذلك ورد في بعض ادب المصريين ان الملك مسفرو دعا رجاله يوما  
فسالهم ان يعفوا له من بينهم واحدا فيه من الحكمة والقدرة فيست  
جلاله بالاقوال البليغة والاحاديث المختارة التي تسر قلب جلالة .

ولقد أدرك الملوك والكهان حب المصريين للأدب والبالهم عليه وتأثرهم به فكان أن استخدم في الدعاية الدينية والسياسية وفي توجيه عواطف الناس والمكابرهم إلى بعض مذاهب الدين أو اتجاهات السياسة فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة والرواية فيحدثون إليهم بالقصة الشيقة التي تدم الشغف والاتصالات وهم في أثناء ذلك يبتنون في تضاعيفها ما ضاروا من الدعاية ويروحون للناس بما يجرون على لسان أبطالهم من النبوءات والكهانات . كان ذلك مثلاً لواخر الأسرة الرابعة حين طفق كهان الشمس يشرون يديهم ويغنون لدولتهم التي يقضي رعاياها فيما دورا ملوك زعموا إليهم ولنوا لاله الشمس من أمراء من الشعب وتكرر ذلك أيام الدولة الوسطى في بونة نفرو حو ، التي بشر فيها بحكم أمنسحوتب الأول وفي الدولة الحديثة عزم حورح حاشيشيوت الأولى .

كان الخطر الذي فاضح الأعياب القديمة لما عديدا اليوم من المثاليين والمعايير وإن لم يعيب بل هو المصري القديم الأعمى ولم يحقق لنا كل الذي نريته من أدبيات منذ اليوم فنظرت بذلك قوة نسقية من الزمان وبسطت في تقديرنا مقدرات من القرون في حساب التطور الفكري والأدبي ولذلك ينبغي أن نضرب فهم حكينا على الأدب القديم على أساس من واقع العصر الذي أنشئ فيه والتقاليد التي أخذ عنها وأسهمت في إنشائها .

ومع ذلك فقد وضع المصريون القدامى الأسس الأولى في بناء الفكر الإنساني والإنتاج الأدبي الرفيع والتجود لنا أدبا مازال يؤثر فينا ويجهده إلى حد تعجبنا شعوبا بالرخي والاعجاب .

وعلما ونحن من قراء فقد ملك المصريون قاصية الممانع والافتكار وكانوا يحرصون حذرا عن ذلك على تجويد الكلام والوصف والبالهم إلى أقصى ما استطاعوا من الجمال الفني والتأثير الأدبي بما حل به من عروب اليونان والبربر وما اصطنعوا فيه من التخييل والاستمارة والكناية والتورية والجناس وحسب الذين ينظرون في أدب المصريين القدامى أن يصلوا أنهم يخرجوا للناس كثيرا من الصور والتصورات التي لم تكن في أذهانهم من عصورهم من الأمم والشعوب ثم وجدت سبيلها إلى كتيبتنا القليلة التي أهدت في أدب العالم القديم والحديث وقد كان طبعها أنه تتطبع الكتب للقصة إلى الناس بما كانوا قد ألفوا من قبل من العصور والأجيال والتصورات .



## ثورة أختاتون الدينية

في الوقت الذي كان التاريخ ان يحكم فيه على ديانة مصر القديمة بانها ديانة تعبد ، وبان ملوكها لا شأن لهم بالدين وانهم يخضعون خطوطها مطلقا لسلطة الكهنة ، ظهر ملكها الفيلسوف « أختاتون » ، ليؤكد بظهوره دلالات عديدة اولها : ان مصر القديمة انجبت أول وأعظم « فرد » في التاريخ العالمي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، وفي ظل سيطرة تكاد تكون مطلقة لمبادئ لالة آمون ، وفي ظل السيادة التامة لكهنته كان على هذا التسليم ان يقف موقفا فلسفيا حادا - نتيجة تأملاته الخاصة - جعله يصارع هذه القوة البطشى ، قوة الكهنة رغم ما في معارضتها من خطر عظيم على فرد في مثل رقة وعمالة خلق أختاتون .

ولانها : ان عقيدة « التوحيد » نبتت بمصر امسيل ، غرقها المصريون لبل الأديان السماوية وكان ذلك نتيجة تأملاته كهنتها لتصورات شتى حول الآلوهية وحينما أسلمت تلك الكيانات الالهية التي خلقتها التاملات القديمة نفسها لتأملاته أختاتون كان موقفه الفكري الفريد يرفض كافة مظاهر التعبد وضرورة ان يكون للصلام اله واحد خلق كل شيء وهو يعزى ما خلقه .

« أميل الفيلسوف تلك الدلالات » فهي ان الفيلسوف جمعها العظمى وليس للمسلمة فقط كانت اجسادا مصرى . قال الفيلسوف في مقام الاول موقفه انقلابي يخلصه الفيلسوف من مشكلة ما ، ولا شك ان موقف أختاتون من عقائده صرخة الدخيل كان موقفا فلسفيا فريدا يحثه الاقتناع العقلي الشديد لديه بان عقيدته التوحيدية هي العقيدة الصحيحة وان ما عداها وهم وخضائل . ولقد اكتسب هذا الموقف الفيلسوف ابعادا أصحى بذلك الأدلة والبراهين التي ساقها أختاتون في تصديده الشهيرة للتدليل على صحة معتقده حول واحدة لالة وعبادته .



في عام ١٢٨٠ ق.م مات استوحش القبلت الذي يظن ان حشمه الثالث على عرش مصر بعد حياة حافلة بالعبادة والتعمير الهنوي وخلفه ابنه استوحش الرابع الذي عاشت الأقدار ان يعرف باسم أختاتون .

ولم يكده يتولى الملك حتى ناز على دين آمون وعلى الاساليب التي يتبعها كهنته فقه كان من في الهيكل العظيم بالكرنك من النساء يتخفن سرارى لآمون في الطاهر وليستمتع بهن الكهنة في الحقيقة .

وكان الملك الشاب في حياته الخاصة مثالا للطهر والامانة فلم يرضه هذا المهر للقدس وكانت راحته دم الكبش الذي يقدم قربانا لآمون كريمة نعمة في خياشيمه كما كان اتجار الكهنة في السحر والرقي واستغلالهم ككثرة آمون للسلطة على الابتكار باسم الدين ولتشر الفساد السياسي نعمة تضافه لخصه فصار على ذلك كله ثروة غنية لذلك في حقا : « ان احوال الكهنة لأشد اثما من كل ما سمعت حتى السلة الرابعة ( من حكمه ) وهي ماكد اثما ما سمعته الملك استعجب الثالث . » وثارت فوجوه القضاة على الفساد الذي تدور اليه دين شعبه وكثر اذلال الحرمان وفقرهم المبرهنة التي كانت مثلا للقبائل واخطئه ما كان لطائفة الكهنة كثر ثروة من ضيقة ملكتي حياة الامة ناز الرجل على هذا كله ثروة الثغراء كم جعل ثراويا لا لم يفتح بالانصاف التحول وعلل التي شعاعة ان ثرائية الكهنة وجميع ما في الدين من احتفالات وفكرهم كلفا ونبتة محضه وان ليس للعالم إلا إلى واحد هو سر آمون .

رأت موانع طائفتين كما طوى : أكبر : ( ١ ) في الهند من بعده بتلاني خزانة الفخارومية أكبر . فا تكلوا في الشمس مصدر الضوء وكل ما على فلكهم من سباق ما .

وكانت لهم من أمة أخرى هذه عن بلاد الشام أو بعضها من جنته . وهل كان آتون مجرد صورة أخرى لاديس . وأيما كان أصل هذا الإله فليس على أي شيء . الإلهة في مصر فاستبدل باسمه الأول أمموتب المحتوى على أسمائهم اسم الخنايون ومجده « آتون راني » وامتعان بيضن الترانيم في الجحيم في خصائمه في التوحيد - نشرت في أيام حيله به غلبت أمانى في الجحيم في مصر . آتون في الجحيم . ما يكون له من الإلهة الممثلة في الجحيم .

فما : ذلك من . سراج التوحيد على نأيلو في جنته وعوضها للتلانود في الجحيم . آتون في الجحيم على طائفة والغرض بها في خزانة ر . في الجحيم حاتان الأسودتان أهم ما خلفه لنا . التوحيد من الجحيم في الجحيم . في الجحيم يوضحان لنا قيمة ملحد ذلك الملك الفيلسوف الذي خصي بالكثير لأجله .

١ . ما لم يملح في الجحيم في الجحيم .

٢ . في الجحيم في الجحيم .

٣ . في الجحيم في الجحيم .

خلقت الأرض كلها بجمالك •  
 انك جليل ، عظيم براق ، عال فوق كل الوجود ،  
 اشعنتك تحيط بالأرض بل بكل ما صنعت •  
 انك انت روح ، وامت تسولها كلها أسيرة •  
 وانك تربطها جديماً برابط حيك •  
 ومهما صنعت فان اشعنتك تضر الأرض •  
 ومهما علوت فان آثار قديمك هي النهار •  
 واذا ما غربت في أفق السماء الغربي  
 خيم على الأرض ظلام كالموت •  
 ولما الناس في حيرتهم •  
 وعصيت رؤسهم •  
 وسلبت خيالاتهم •  
 ولم ير واحد منهم الآخر •  
 وسرق كل منهم •  
 وألقى تحت رؤسهم •  
 ولم يعرفوا هم هذا •  
 وخرج كل أسد من هويته  
 ولتفت الأنعام كلها •  
 وسكن العالم بأجسه  
 لأن الذي صنعها يستريح في أفق سماه  
 ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق •  
 حين تضيء يا آتون النهار  
 تدفع أملاك الظلام •  
 اشعنت الأرضان في انبياد يومه •  
 واستيقظ كل من عليهما وولغوا على انفسهم  
 حين وقفتهم  
 فاذا غلبوا أجسامهم • لبسوا ملائمتهم •  
 وولغوا أيديهم يجدون طابقتهم •  
 وانزلوا في جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم •

- واستراحت الأنعام كلها في مراعيها .
- ولاذهر الشجر والنبات .
- ورغرت الطيور في مناقعها .
- واجتاحتها مرفوعة تسبح بحمده .
- ورقصت كل الأغنام وهي واقفة على أرجلها .
- وطار كل ذي جناح .
- كلها ترحب إذا ما أشرقت عليها .
- وأقلمت السفائن ساعدة ونازلة .
- وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت .
- وإن السمك في النهر ليقتل أعماك .
- وإن أسمعك في وسط البحر العظيم الأخضر .
- يا خالق البهة في المرأة .
- ويا صانع النحلة في الرجل .
- ويا واهب الحياة للابن في حسن أمه .
- ويا من يهديه فلا يبكي .
- يا من يقديه وهو في الرحم .
- يا واهب الأنفاس يا من يمشي كل من يصنعه .
- وحين يخرج من الجسم ... في يوم مولده
- تفتح أنت فاه لينطق .
- وتمده بحاجاته .
- والرح حين يزقزق فيه البيضة
- تهب النفس فيها لتسقط له حية
- فإذا ما وصلت به
- إلى النحلة التي عسها تكسر البيضة .
- يخرج من البيضة .
- ليصبح يكل ما فيه من قوة
- ويمشي على قنفيه .
- ساعة يخرج منها .
- إلا ما أكثر أعمالك :

## الخالية علينا !

أيها الإله الأوحى الذى ليس لغيره سلطان كسلطانك .

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك

حيث كنت وحيدا :

إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها .

وكل ما على الأرض من ثابة ،

وكل ما يمشى على قدمين

وكل ما هو فى العلا

ويطير بهجاسه .

والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش

وأرض مصر ،

اللك تضع كل إنسان فى موضعه

وتعلمهم بحاجاتهم . . .

أنت موجد النيل فى العالم السفلى ،

وأنت تأتى به كما تحب

لتحفظ حياة الناس . . .

ألا ما أعظم تدبيرك

يا رب الأبدية !

إن فى السماء نبلا للغرباء

ولم يمشى على قدميه من العام كل البلاد .

إن لسمتك تقضى كل الحقائق ،

فإذا ما اشترفت سموت ليها الحياة ،

أنت الذى تنميها .

أنت موجد القصول

لكى تخلق كل أعمالك :

خلقت الشتاء لتأتى إليها بالبرد ،

وخلقت الحرارة لكى تتلوهك .

وانضكت السماء البعيدة واشترقت فيها

لتبصر كل ما صليت ،

أنت وحنك تسطح في صورة آتون الحي •  
 تطلع ، وتسطح ، وتعود ،  
 أنتك تصنع آلاف الأشكال  
 من مدائن ، وبلد ، وقبائل ،  
 وطرق كبرى وأنهار •  
 كل الأعين تراك أمامها ،  
 لأنك أنت آتون النهار فوق الأرض ...

★ ★ ★

أنتك في قلبي  
 وما من أحد يعرفك  
 إلا أبوك أميناتون •  
 لقد جعلته حكيما  
 بتدبيرك وقوتك •  
 ابن العالم في بلد  
 بالسودة التي خلقه عليها ،  
 فلما أشرقت دبت فيه الحياة  
 وفقا غرمت مات ،  
 لأنك أنت نفسك طوله الحياة  
 والناس يستمدون الحياة منك ،  
 مادامت يحولهم تتطلع الى سداك  
 حتى تشبه •  
 تختلف كل الأعمال  
 حين تتواري في المغرب ...

## جلال آتون

- بروجك جليل في أفق السماء يأنوق يا حي يا عبيد الحياة -
- إذا ما صنعت في أفق السماء الشرقى أفتت على الأرض جبالك -
- هاذلك إلا لآنك جميل عظيم در في السموات العليا تسطح على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشمتك •
- أنت وع • أنت الذي أشرتهم وفيدتهم بحبك -
- أنت يصيد عن الأرض لكنك على اتصال بها بأشمتك •
- لنت عال لكن أثارك واضحة في ضوء النهار •

### الليل

- إذا ما غربت في أفق السماء الغربي أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة
- فيقصد السكان النوم في حجراتهم
- مغطى الرؤوس عادي الأتوف غير
- صبرين فتسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون
- أن يشعروا •
- أما الأسود فتخرج من أجنارها وكذا
- الثعابين اللدغة •
- ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض •
- وماذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح في الله •
- تجمل ظلمة فيصير ليلا فيه يمدوب كل حيوان
- الوعر • الأشبال تزجج لتخطف ولتنمى
- من الله علماها •

## النهار والانسكان

- إذا ما ظهرت في الأفق وأشرقت في النهار  
كأفون أضواء الأورش •  
إذا ما برزت أشعتك في الظلام وتسل  
الفرح قطرى مصر •  
تشرق الشمس لتجتمع وفي مأويها تريض  
الانسكان يخرج إلى عمله وإلى قفله  
حتى للمساء •  
كيف ولا وقد أيقظتهم فيبتسلون •  
ويكتسبون ويتهلون بأذرعهم اليك وقت •  
شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم •

## النهار والحيوان والنبات

- البهائم كلها مستريحة في مراعيها والأشجار والنبات جميعها يانعة  
والصائير تكفئ قوى المياه ناشرة أجنتها ابتهاالا اليك والأغنام ترتع  
على أرجلها والطيور تحلق في الجو فتنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها •

## النهار والمياه

- تسير السفن مع التيار وعلى عكسه  
وكل طريق عسوى يصيح مسلوكا لأنك  
ظهرت في الأفق أما السمك فيلفز أمانك  
في النهر فكفا تخترق أشعتك البحر الخضم •  
هذا البحر الكبير الواسع الأطراف • هناك  
ديابات بلا عدد • صفار حيوان جم كبار •  
هناك تجري السفن • لويثانان عذا خلقته  
لياسب فيه

( مزور ١٠٤ آية ٢٥ - ٣١ )

## خلق الانسكان

- أنت خالق الجنين في رحم أمه • أنت خالق نطفة الانسكان • أنت صاحب  
الحياة للجنين في رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيسكن كيف لا وأنت



المربي في الرحم • أنت معطي نفس الحياة كل مخلوقاتك ..... أنت  
فاتح لهم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلد أمه •

### خلق الحيوان

أنت الذي قهبط الحياة للفرخ في البيضة ليصبح • فإذا اكتمت خلقه  
تكتب بيضته وخرج منها صائغا جده وأبنا بقلمه •

### الخلق عسويا

ما أكثر مخلوقاتك التي تجهلها أنت الإله  
الأحد لا شريك لك في الملك خلقت الأرض  
ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة  
صنعت ملائكة الأرض من شباك •

( مزمور ١٠٤ آية ٢٤ )

بارادتك • ولما كنت وحيدا في هذا الكون  
خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير  
والمخلوقات التي تدب على الأرض أو  
تطير بأجنحتها أنت الذي أحللت كل  
إنسان في سوريا والنوبة ومصر في موضعه  
وأصبحت عليه بحاجاته لفسار كل منهم يأخذ  
نصيبه ويحشى أيلفه المنومة قلده  
استلقت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم  
لمسبحاتك من صير لخلقك •

### رى الأراضي

أنت خالق النيل في الدار الآخرة أنت أوجدته برغبتك فيه لتعالظ  
على حياة الأعالى • أنت سيد الجميع لأبوم شعاب • أنت سيد كل أسرة  
لأنك تشرق لأجلها • أنت شمس النهار الميسب في الأراضي السحيقة كلها  
والوهاب لها الحياة خلقت لهم نيل في السماء ليساطه عليهم ماءه فيسيل  
على الجبال كالبحر الزلضر يروي غيطانهم بين مدنهم •

ما أبهر مشروعاتك أيها السيد الأزل

- نيل السماء ( مخصص ) للغرباء والدواب من كل البلاد .
- والنيل الذي يأتي مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة .
- أشجرك تسمى الجنان . فإذا ما أشرفت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

### الفصول

- جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .
- فالشتاء يطيبهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة .
- أنت التي رمت السماء عاليا لتنظر ما خلقت فيه وحدتك شارقا فيه
- كأنون مسلطا متلأثا ثم راحما ثانية الى حيث ابتدأت .

### تضرعت الملك

- أنت في قلبي لا يعرفك سوى ابنك أختاتون الذي جعلته عاقلا
- بأرائك وأوتك .

العالم كله في قبضتك كما خلقتك

أنت الوجود وحبيب الحياة للآسمان .

- أعين الحلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب والشفق كله يطل
- إذا ما أملت في الغرب . فإذا ما أشرفت جئمت كل ذلك يتمو للملك .
- لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك ومليك الملك العائش في الخلق سيد
- الأرضي نهر - غبرو - رع . وان - رع ( ابن رع ) العائش في الحق
- سيد التيجان أختاتون طال أجله ( وأيضا ) للزوجة الملكية العظيمة خليته
- سيدة القصور نهر - نفرو - آتون ( نفرتيتي ) العائشة الى أبد
- الأبد .

## أقدم رسول في تاريخ البشرية

لا شك أن القاري استنتج من عدم القصيدة أن واضعها كان واسع الإطلاع بالأمور الاجتماعية العالمية من ضلالات النوبة إلى أقصى حدود سوريا معتبرا هذه الأقاليم وحدة لا تجزأ الشيء الذي لم يستد المؤرخون نسبته إلى أمالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ويبدو أن مثل هذا التفسير نتيجة ظهور روح جديدة في مصر يقبل الروح الرحمة العتيقة والمفضل في ذلك يرجع طبعا إلى أخناتون بدليل ما أوردها من السطور السابعة التي تشهد له بسمو الذاكرة في ذلك العهد السحيق وقد توصل هذا الملك العظيم بشاغب فكره إلى معرفة الله العالم خالق الكون وإلى الإيمان برحمته ورافته مخلوقاته حتى التقير منها لقد أبصر في فرقة أجنحة الطيور بين سقان الملعب بالمستنقعات المصرية بوعا من التسييح لحاقها كما تصور قصر السك في القدير جدا لدارتها واعتقد هذا الملك أيضا أن الإله الأحد هو الذي ينجي السات ويعطي الفرخ ويشرف على تفضان النيل الشديده وقد سماه « أب وأم جميع مخلوقاته » ومنه يتضح لنا أن الملك عرف لطف الإله العالمي وحليه . وأشار البند أخناتون أن نصير بعبادة الملعب فيها خلق ملهيه ، وإن سيادة الإله الثلاثة على الشعوب كلها صرحية بطف وحسوي أبوي بدون تمييز بين القومية والعنصر . وأظهر جلالته للمصري المتطرح رافة الخالق لشعوبه كلها فذكر مسوريا وبلاد السوبة قبل مصر في تعداد تلك الشعوب . ولا شك أن هذه العقيدة الغربية هي التي جعلت الأثريين يعتبرون أخناتون أقدم رسول معروف في التاريخ الأسمى كيف لا وقد كان الملوك يعتقدون أن الإله الأعظم هو الذي يهب النصر ويسحق الأعداء ويسوقهم حاملين الجربة أمام عجلة فرعون أما أخناتون فقد رأى في الإله رافة ورحمة لخلق جميعا على السواء ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد في التاريخ . ولا شك أن القاري لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحداية الله وبرحمته ورافته ووجود سره المكنون في كل مخلوقاته وهذا يتشبه تماما مع الروح الصوفية الموجدودة في هذه العقيدة واليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة .

« ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة أنها سر مكنون أيها الإله الأحده الذي لا شريك لك في الملك ! »

ومع اعتراف اخناتون لحد بعيد بمطف الخالق على مخلوقاته لم يمتدحه  
 بصفات روحانية وخلقية سوى ما انصف به آمون من قديم الزمن زد على  
 ذلك انه بالرغم من معرفة اخناتون للطف الله بعباده لم يمتد تملعا الى معرفة  
 الحق جل شأنه ولا الى رغبته تعالى في وجود الصلة في نفوس بني آدم  
 وكل ما ذكره اخناتون بهذا الخصوص في تماليمه التي وجدت مبهمة بين  
 الالاهيد ولقوس مقابر امراء عصره هو الاصرار المستمر على اتباع  
 الحق ، بما لم يكن معروفا سابقا فقد اعتاد جلالتة أن يعقب اسمه بمباركة  
 « العالئ في الحق » مما يشير الى شدة تعلقه بالحق وهو امر ثابت في  
 أخبار عيشته اليومية . وامتاز هذا الملك باعتقاده أن المميشة المادية  
 المبسطة البعيدة عن الكلفة هي اقرب الأمور للحق والصواب وإن كل  
 ما أوجدته الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه لذلك لم ير هو وأسرته فائدة  
 عن الاحتجاب من رعيته . وكان شديقا جدا بأطفاله ويظهر في كل الاحتفالات  
 حصويا يزوجه وأعطاه أمرته كأنه كاتب وضيع في عهد آمون وقد  
 رسم نفسه وهو يعامل أعضاء أسرته ببساطة ويسون تكلف وكان كلما  
 اشترك في حفلات دينية صاحب زوجته وأطفاله ليشاركوا فيها كل ذلك  
 لأنه اعتقد أن الطبيعة فطرت على الحق والصواب ومن ثم اجهد نفسه في  
 اعلان صديق هذا الرأي كلما اقتضت الظروف الاقلاخ عن عاداته أجداده  
 السابقين .

## شعب في جدير بالملك الصالح

ومن مآسي التاريخ أن أختاتون بعد أن حقق حلمه العظيم حلم الوحدة العامة التي سميت بالبصرية إلى الموجات العلى لم يترك ما في دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى في قلوب الناس ويستميلها إليه على العمل - بل عجز عن أن يفكر في الحقائق التي جاء بها فكيرا يتناسب مع الواقع - لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحس وضلال لا يطاق فأصدر أمره على حين غفلة بأن تصحى من جميع النفوس العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم آتون وشبه اسم أبيه بأن محا كلمة آمون من مئات الأكار وحرم كل دين غير دينه وأمر أن تطلق جميع الهيكل القديمة وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة في أختاتون « مدينة الحق آتون » .

وما لبثت طيبة أن تحولت بعد أن خرجت منها دور الحكومة - فحسرت ورائب في طوفانها وأصبحت أختاتون حاضرة غنية أقيمت فيها المباني الجديدة - ونهض الفن بعد أن تحرر من أغلال الكهنة والتقاليد - ولقد كشف ولیم فلندرز بترى في كل العسارة - وهي قرية حديثة أنشئت في موقع أختاتون القديمة - طوانا جميلة تزينة صور الطيور والنسك وغيرها من الحيوانات وصمت كلها أنق رسم وأجسله ولم يفرض أختاتون على الفن قيودا بل كل ما قعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صورا لأتون لأن الإله الحق في اعتقاده لا صورة له وما أسما عنه من عقيدة لم ترك الفن بعدئذ حرا طليقا عدا شيئا دأبه آخر وهو أنه طلب إلى فنانيه : يك ، وأوتا ، وتحتس ، أن يسلوا الأشياء كما يرونها وأن يسلوا العرف الذي جرى عليه الكهنة وصنع هؤلاء بأمره وصوروه هو نفسه في صورة شاب ذي وجه طريف وحيق وقلة تكاد تبلغ حد الوجه ودأس مستطيل مسرف في الطول واسترحسوا في تصويرهم بعقيدته الحيوية في الإله لصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية في تفصيل يتم عن حب وعطف عظيمين ودقة لا تتسم عليها دقة في أي مكان أو زمان وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن لعظم ازدهار .



ولو ان اخناتون كان ذا عقل ناضج لادرك ان ما يريد من خروج  
 عن تعدد الآلهة القديم المتأصل في عادات الناس وساجانهم الى وحدانية  
 لطرية تحضع الخيال لتقبل لادوك ان هذا تغيير اكبر من أن يتم في زمن  
 قصير واحد لسر في عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله  
 على مراحل تدريجية ولكنه كان شاعرا لا فيلسوفا فاستمسك بالحقيقة  
 المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء وانهار على أم رأسه .

ذلك انه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من تراثها  
 فاعضبها عليه وحرم عبادة الآلهة التي جعلتها العبادة والتقاليد عزيزة على  
 الناس ولما أن محاسن لفظ آمون من اسم أبيه خيل الى الناس أن هذا العمل  
 زعيم وصلال إذ لم يكن شيء اعز عليهم من تنظيم الموتى من أسلافهم وما من  
 شك في أن اخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم . وتعالى في فترة  
 الشعب على فهم الدين الطبرى وقام الكهنة من وراء الستار يائسرون  
 ويخاضعون وظل الناس في دورهم وعزلتهم يمدون اليهم القديمة المتحدة  
 وزاد الطين بلة ان سمات الحرف التي لم تكن لها حياة الا على حساب  
 الهياكل اخذت يزعم في السر محسبا على الملك الزليديق بل انه كان من  
 وذرائع وقواده وبطائنه بين جدران قصوره من يحيطون عليه ويتمنون  
 موته .

وكان الشاعر الفتى في هذه الاثناء يعيش عيشة البسطة والاطمئنان  
 وكانت له سبع بنات من زوجته لفرتيش وكان حكم هذا الملك فترة من  
 الحنو والمطف وسط ملحة القوة والسلطان في تاريخ مصر .

وجاءت الرسائل المروعة من الشام تكفص على الملك هذه السعادة  
 السالجة البرينة فقد غزا الحيتيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد  
 التابعة لمصر في الشرق الأدنى وأخذ الحكام المهيئون من قبل مصر يذعنون  
 لمطالب البعثة العاجلة وتردد اخناتون في الأمر ذلك انه لم يكن على ثقة  
 من أن حق الفتح يبرر اخضاع هذه الولايات لحكم مصر وكان يكره أن  
 يرسل المصريين ليهلكوا في ميادين القتال البعيدة دفاعا عن قضية لا ينق  
 بعدائها . ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل طلبها  
 من أول صالحي حكماها المصريين وامتصت في غير جلبة عن أداء شيء  
 عن الخراج وأصبحت حرة مستقلة في جميع شئونها ، ولم يرض من الزمن  
 الا أقصره حتى خسرت مصر امبراطوريتها الواسعة والكثمت حتى عادت  
 دولة صغيرة شبيكة الركعة وسرعان ما أقفرت الحزاة المصرية التي ظلت  
 لنا كاملا تعتمد على ما يأتيها من الجزية الخارجية ونقصت الضرائب

المحلية الى أقصى حد ووقف العمل في مناجم الذهب وبحث العوضى جميع  
غروع الإدارة الداخلية . والفى اختاتون معه ممسما فقيرا لا صديق له  
ولا معين فى عالم كان يتخيل اليه من قبل انه كله ملك له . واندفع لهيب  
التورة فى جميع الولايات التى كانت تابعة لصر وقامت جميع القوى الداخلية  
فى وجهه فتاوتة وتترقب سقوطه .

ولم يكدهم الثلاثين من عمره حتى توفي فى عام ١٣٦٢ ق.م معظم  
القلب بعد ان أدرك عجزه عن ان يكون ملكا وأيقن أن شعبه غير جدير به .





# میرزا

یورپینس

۴۳۱ ق ۰ م



يعتبر يوربيديس أول شاعر مسرحي تراجيلي صور الحياة وما يجري فيها من أحداث تصويرا واقعيا ، كما صور شخصيات مسرحياته كما هي لا كما ينبغي أن تكون وهذا ما يميزه عن زميليه أيسخيلوس وسوفوكليس اللذين صوروا الشخصيات تصويرا صاعيا بعيدا عن الواقع . وهذا التمايز يرجع في الواقع الى الظروف التي أحاطت بكل منهم : فإيسخيلوس كان يمثل عقلية المحاربين القدماء المتدينين الذين التصروا على القرص في هاراتون وسلاميس بفضل آلهتهم وسوفوكليس كان يمثل عصر مبركليسي اللعبي وهو وسط بين القديم والحديث ، أما يوربيديس فهو شاعر أثينا الحديثة . أثينا التي أصبحت المركز الأول للمدينة والعلم والفلسفة أثينا التي أصبحت حداقها وميادنها مسرحا للمساحلات الخطائية والمناقشات الملحية والفلسفية بين شبابها الذي أصبح مولعا بدراسة الخطاية والبلاغة والفلسفة .

تحدثنا الرواية العالمة المشهورة أن أوريبيديس قد ولد في سالااميا في سنة 480 ق.م في اليوم الذي كان فيه أهيوب معركتها يحترم وتحدثنا رواية أخرى بأنه ولد في سنة 485 ق.م .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن والده كان صاحب حانة وابن والدته كانت تاجرة خمر وزعم البعض الآخر بأنه كان من أسرة عريقة .

ولكن النقاد المحدثين يؤكدون انه لم يبد في حياته ما يدل على أنه كان من طبقة أرسقراطية أو متوسطة الحال كما بدا ذلك في حله على إيسخيلوس وسوفوكليس وهذا يدفعهم الى ترجيح الرأي الأول أما نحن فنفضل أن نحتفظ برأينا الى أن نشترعه من إنتاجه نفسه ومن اتعاطفه بالأسامة نحو القاية التي حياته لها الوراثة والبيئة .

ومهما يكن من الأمر فإن اجماع الباحثين الأساسيين منعقد على أن مؤلفاته توشك أن تكون خالية خلوا تماما من التقاليد القديمة التي هي طابع الأسر البليبة .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في سنة مولده وفي طبقة والديه الاجتماعية فأحرى بهم ألا يعرفوا شيئا ذا بال عن نشأته وطفولته وشبابه ونوع ثقافته . ولهذا ظل العالم الحديث يجعل ملك النواحي جهلا يوشك أن يكون ناما وكل ما يعرفونه عنه هو أنه بدأ في سنة 455 ق.م - وكانت

سنة خمساً وعشرين سنة - بتقديم أولى مأسية في إحدى المسابقات فقال فيها الجائزة الثالثة وبعد ذلك الحق أحد يذل مجهوداً متواصلاً في التأليف المسرحي \* ولما لم يكن محبوباً من الاثنين لأنه لم يفز بالأولوية إلا بعد أربعة عشر عاماً انقضت كلها بين الرضى والمخلاف والدرجة الدنيا وبعد هذه الستين الطويلة جعل الحظ يتسم له قليلاً فطفر بالأولوية أربع مرات في حياته وفازت بها إحدى مأسية بعد موته وأنت ترى أن هذا نصيب ضئيل من النجاح إذا قيس بنصيب سوفوكليس ولكن هذا هو الذي كان .

كان هذا الاحفاق المتواصل الذي دأب شاعرنا ذلك الزمن كله يمكن أن يحدث في نفسه أثراً سيئاً يدفعه إلى اليأس من المسرح ويحمله على البحث عن مهنة أخرى ولكن الأمر كان على عكس ذلك فظل وفياً لفته عاكفا عليه رغم تجمعه له ولم يشأ أن يساهم في الوظائف العامة كما كان كثير من أمثاله يقبلون ذلك في سهولة ويسر \* وليس معنى هذا أنه كان لا يأنه لشئون مدينته أو يحترق المصلحة الوطنية الكبرى فمأسية معصية بهذه الجوانب كلها \* وإساً قد شاء ألا يعالج هذه النواحي إلا عن طريق لفة وإنتاجه فطفق يصوب إليها سهام نقده وأشعة بسامه ويفيض عليها من الهام خياله وحي شعره وبراعته في التصوير ودقته في التحليل حتى رسمها عجسة أمام أعين الجماهير .

ولغزاً وبعد هذه الحياة العابسة المنقبضة غادر أثينا - على أثر مأساة أوريسيتيس في سنة ٤٠٨ ق.م - إلى مدينة بيليا حيث استقبله ارجيلانوس ملك مقدونيا في بلاطه استقبالا حافلاً وأكرم ومادته أيضاً أكرام وقد ظل هناك حتى توفي في سنة ٤٠٦ ق.م وكانت سنة خمساً ومبعض سنة ورجع بعض المؤرخين أن وفاته كانت بحادثة ثم دفن في وادي اريثورا بمقدونيا \* وقد أقامت له أثينا هيكل قبر تقضت عليه أبيات تشبه يوحيته ومجده وقد أعقب ثلاثة أبناء كان أصغرهم سناً - واسمه كاسم والده - شاعراً وهو الذي قدم إلى التمثيل مأساة والده بعد وفاته .

### مؤلفاته

عزاً الغناء - وعمل وأسمهم مسويدياس - إلى اوريسيتيس اثنتين وتسعين مسرحية بين مأساة ومأجبة ولكن يبدو أن عدداً قليلاً منها قد فقد في العصر الذي تلا عصر الشاعر مباشرة وأن عدداً آخر فقد بعد ذلك وأن يضع مأس قد ارتاب النقاد في صحة نسبتها إليه .

ولم يبق من هذا الحمد الضخم الذي أنشأه أوريبديس إلا سبع عشرة مأساة ومأجبة ماتيرومية واحدة ولم يعرف إلا تواريف ظهور سبع

منها ، وأما المشر الأخرى فلا يدري أحد متى مثلت إلا على مسيل الترجيح  
وما هي ذى حسب الترتيب الزمنى يقينا كان أو ترجيحا :

- الكيسنيس • • هيدا • • هيونيتوس • • الترواديات • •
- هيلنية • • لورستيس • • ايجينيا هي أوليس • • الباكوميات • •
- اندروماخيه • • الهيراكليسييون • • هيكويه • • الضارعات • •
- ايليكترا • • هيراكليس مغبولا • • ايجينيا هي توريس • • يون • •
- الفبقيات • •

## عاطفة الانتقام !!

ونأتى الآن الى بيت القصيد ، قصد مسرحية ميديا التي قدمت للعرض عام ١٩٦١ ق م .

وميديا هي ابنة ملك كولخيس في جنوب القوقاز وكان والدها يملك قرو الذهب الشهير في الأقاصيص الهيبية والذي كل غاية جميع عظماء ملوك افريقيا ، لأنه كان في عقيدتهم رمز الثراء والسعادة ، فرتحل هؤلاء الملوك حيث يوجه القرو وهم : ثيسوس وصديقه بيرثاس وعيراكليس واسكيليبوس بن أبولون شافي الآلام وأورفيوس وبيليروس والد أختيلوس وكاستور وبوليديكيس أخوا هيلين ، وكانوا كلهم تحت قيادة ياسون لأنه منظم هذه الحملة .

وعندما يصلون الى تلك البلاد وتقع عين ميديا على ياسون تهوى في حبائل غرامه وتريد أن تحقق له أمنيته وتخضع والدها وتمكن حبسها من الاستيلاء على القرو الذهبي ثم ترافقه الى بلاده فيست وراها ابنه وحين يلحق بهما تمكن ميديا معشوقةها بقتله ثم تمزق هي جسمه أشلاء تثررها في الطريق ليراها والده اذا تعقبهما لبياس ويرجع .

وعندما فصل الى بلاد الملدين تلقى بيلياس عم ياسون قد اغتصب عرش شقيقه أوسون والد ياسون فتصمم على أن تسترده بواسطة السحر والحيلة فتبدأ بإعادة الشباب الى والد زوجها لتبرهن على مقدرتها ثم تعرض على بيات ذلك العم المفتصب أن تعيد الشباب الى والدهن كما أعادته الى أخيه ولكنها تفهمن أن هذه الصلية لا تتم الا اذا استقرغ كل الدم القديم المسن من جسمه لتفتح الفتيات حجرة والدهن فيوت . . . لكن هذه التجربة نذر ضجيجا صيحا حول مسعة هذه الأمرة فيضطر ياسون أن يصادر بلاده ليلتجئ هو وهذه الزوجة الآثمة الى مدينته كورنثة .

وهناك تلقى هذه المأساة التي نحن بصددتها وجعلها أن ياسون يهجر زوجته ميديا ويصمم على أن يتزوج من ابنة ملك كورنثة فلا تكاد تعلم هذا البيا حتى يجن جنونها ويلتهب رأسها حقدا على زوجها وغيرة من خطيئته وتمتزم الانتقام السريع لنفسها منها مما . واذا يخشى ملك كورنثة

على ابنته فانه يطلب ابعاد الروجة القديمة وابيها الى مكان ناء ، ليامن الزوج وعروسه غائلة هذا الحقد الذي يندلع اوراقه في قلب هذه السيدة القاسية فتتضرع الى زوجها ان يسمح لها بيوم واحد تمضية في المدينة قبل ارتحالها الى صفاها فيجيب سؤلها ويكون هذا اليوم كاليا لتفيد حطتها الجهنمية ثم يبيى زوجها ويمتثل اليها ويحاول ان يبرز مسلكه معها لتقابله باحتقار واستهانة وقبل ان تنصرف تبعت الى عتقتها - وكانت لا تزال في بيت ابيها - حلة وتاجا ذهبيا مشربين بالسهم الرفاه ولا تكاد حله الفتاة تلبسهما حتى تسقط بحة صاعدة لا حراك بها ولا حياة فيسرع والدها الى اسماقها حين يراها تنلوى من اثر السم فلا يوشك ان يلصقها حتى يخر هو الآخر صريعا ولا تكتفى هذه السيدة الآثمة بتلك الجريمة فتصمم على ان تدبج ولديها على مرأى من ابيها ، لتسلم البقية الباقية من فؤاده ، واداك تشتعل حرب طاحنة في داخل نفسها بين شعور الام الشفيقة واحساس الزوجة المهانة الثائرة تظهر فيها عمقيرة المؤلف ودقته ظهورا واضحا وفي النهاية تنقلب عليها عاطفة الانتقام فتجهز على ولديها أمام أيهما ثم تمطلي في الحلال مركبة سريعة يجرها ثينان لأنها ساحرة وتنصرف ساحرة من أمام هذا الزوج المنكوب الذي يرى بعيني رأسه فلذتي كبته مضرجين بدمائهما فتتجه الى أينما كانت تعلم من قبل ان الملك ايجيوس مستعد لأن يقدم لها المأوى .

ولكن نفهم المسرحية فهما فاما ينبغي الاطاحة ببعض الأحداث التي صبغت بداية المسرحية .

ظل ايسون بحكم مدينة ايولكوس في تساليا حتى انزله اخوه بلياس عن العرش واغتصب ملكه ، وكان له ولد صغير يدعى ياسون خشي عليه ايو - من عسف الملك المقتصب فأتاح نيا موته ثم عهد به خلسة الى المربي العظيم خيرون ليتولاه برعايته ويلقنه العلم والحكمة ويديره على صنون الحرب والقتال . ولما اشتد غضه الفتي ياسون صمم على العودة الى بلده ايولكوس ليسترد من عمه ملك ابيه . يتظاهر عمه بلياس بالفرح لمودته ويلاحظه ويحاول استمالته بان يعرض عليه الزواج من إحدى بناته فيصعب الوديع للعرش من بعده فيرفض ياسون ويخبره بأنه انما أتى ليسترد ملك ابيه . يتكلم غيظه ويفكر في ابعاد ياسون بأية وسيلة فيدعي ان الآلهة قد تجنت له في العلم وأمرته باحضار الفروة اللحية من مدينة كولنيس على ساحل البحر الأسود ولكن شيخوخته تحول بينه وبين نلبية أمر الآلهة ويقسم لياسون بأغلظ الايمان بأنه ان احضرها له فسوف ينزل له من العرش ويترك له كل شيء . يوافق ياسون على التقيم بوله المهمة حقا للعلماء التي سترق لولجأ الى القتال . يقلع ياسون مع شعبة مختارة من أبطال اليونان الى مدينة كولنيس حيث يستقبلهم ملكها

بالفرح والبهجة ، واذ يعلم بقيتهم يضع امامهم المراقيل ويخبرهم بأنه يجب على من يريد الحصول على الثروة الذهبية أن يشد الى المحرات ثورين وحشين ينشقان من مخاريهما لهيبا من نار ، ويحرق بهما قطعة أرض معينة كم ينذر في هذه الأرض أسماك تنس فتثبت في الحال عمالقة صاصلين عليه أن يستاصلهم في الحال فإذا تم ذلك كان عليه أيضا أن يتغلب على الأفعوان الوحشي الذي يقوم على حراسة الثروة الذهبية . وقد استطاع ياسون أن يتغلب على كل هذه المخاطر بمساعدة ميديا ابنة ملك كولنجيس وكانت على علم بعلوم السحر وفتونه . لقد وقعت ميديا في حب ياسون وتغلب في هواء وصارحته بهذا الحب ففرح به وقبل معونتها بعد أن عاشتها على الحب والرفاء والزواج منها ان تم الحصول على الثروة الذهبية وعاد مسافرا الى بلاده وقبلا لم له ما أراد وهرب هو وزملاؤه سرا تصحبهم ميديا التي تركت الأهل والوطن واستسلمت لنداء قلبها وعند عودته الى ايولكوس وجد أن عمه بلياس كان قد حدثه ولايسوي أن يبر بوعده فكيف السبيل الى حله ؟ حل يستطيع هو ومن معه على قلعهم أن يهزموا ذلك الملك الجبار العاتي ١ أو يشر الفتنه ويؤجج حربا أهلية ويطلب منارلة هذا الفاسق في ساحة القتال ؟ ولكن ميديا تجرجه من حيرته وتقدم له العلاج الناجع الذي يخلصه من علوه اللعود ، اذ تستعين بسحرها مرة أخرى وتخلع بنات بلياس وتجعلن يملن لأبيهن شرايا ساما على انه سيعيد اليه الثياب ولكنه يقضى عليه في الحال وبذلك يعود المرش الى ياسون ولكنه بعد فترة يتمازل عن المرش لابن عمه الملك المقتول ويهاجر الى كورنثة مع زوجته ميديا وولديه اللذين أنجبهما منها ، وفي كورنثة يعيش مع زوجته وولديه عيشة راضية زهاء المئتين سنة . ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد فان ياسون لم يستمر على وفائه لروحته وبنى عهده الذي قطعه على نفسه فهاجر ميديا ومزوج جلاوكي ابنة كريون ملك كورنثة . وهذه الحياة وما أعقبها من نتائج مروعة هي موضوع مأساة ميديا ليوريديس .

لقد لخص يوريديس بأيجاز كل هذه الأحداث السابقة على يده المسرحية في المقدمة التي جاءت على لسان المربية :

أيا ليت السفينة أوجو لم تشق طريقها الى أرض كولنجيس . . .  
ويا ليت الأبطال الصنادية لم يجلسوا في السحت عن الثروة الذهبية لبلياس .  
اذ لما استطاعت سيدتي ميديا أن تتركب متن البحر الى ايولكوس ذات البروج العالية وقد حبت بحب كاسون ، ولما قدر لها أن تقيم في كورنثة بعد أن أغرت بنات بلياس ودفعتهن الى قتل أبين لقد كانت ( ميديا )  
تمثل دائما على ادخال السرور على قلب الدين لجأت الى أوصهم ، كما كانت تبدل قصارى جهدها إرضاء لياسون وهكذا تكون السعادة علما لا يلح



الشفاق بين المرء وزوجه . أما الآن فقد تنككت امرؤ وأصدق ما بينهما من عرى المحبة ولم يبق غير الشقاء والكراهية وذلك لأن ياصون قد غدر بها وولدها فهجر فراشها من أجل عروس ملكية إذ تزوج من ابنة كريون ملك هذه البلاد . . . لقد علمتها الكلاوت التي نزلت بها نسيجة هجران الأهل والوطى أنها لتبتغى ولديها ولا تبتغى لزوجها واس لأتوجس خيفة وأخشى أن تتخذ قرارا خطيرا فبقي حادة الطبع ولن تتحسن الإهانة التي أفرعها حق للمعرفة والى أخشى أن تتمثل الى غرقتها حيث يوجد فراشها وسمد فى أحضانها سيفا بتارا أو يعتل الملك زوجها فتجر على نفسها الويلات . ابها مخيفة ومن يقدم نفسه فى عداها معها ففى يحذر لعنه الصر بسهولة ولكن ما هما ولداهما فبلاى بعد ان نمرنا على السباق انبسا لا يكثران بحضائنه لهما ، لأن الصبية الأحداث لا تطيق عبه الأحزان .

وهنا يدخل مربي ولدى ميديا ومعه الولدان ، فيسأل المربية كما كانت تردده من كلام فتتخايت عليه فيهرأ بها ويشعرها أن لديه من الأسرار ما لا تعلمه هي فإذا الحث عليه ليذكر لها تلك الأسرار أخبرها بأن كريون ملك كورنثة سينفى ميديا وولدها عن البلاد .

تدخل الجوقة التي تتألف من فتيات من كورنثة جئن ليسألن عن ميديا يسمع صوت ميديا من الداخل وهي تئن وتئن وتشتكو وتندب يشر مستطير تلحقه بزوجها وبأهل البيت جميعا فينسحب المربي والمربية بالولدتين . تظهر ميديا وهي فى حالة شديدة من الهم والقلق فتصطحب الى أفراد الجوقة بها حازاها به زوجها الحائن ياصون الذى فضله على أبيها وقومها وهربت معه بعد ان سهلت له الحصول على العروة الذهبية وأنه ليحمرها اليوم بعد أن أقسم لها بالوفاء والزوجية الكريمة ثم تقوم تصمها على غاملتها وعدم تمقلها فى اختيار زوجها .

هتدت يدخل الملك كريون مضطرا نائرا وينهى إليها قواله بفيها مع ولدها عن البلاد ذلك لأنه يخشاهم ويخشى أن تستعمل سحرها فى عين شيرير فقد وصل الى مسامحه وعيدها الذي يطوى على الانتقام من الأب الذى زوجه أمته ومن الرجل الذى اقترن بها ومن المرأة التي عقدت بينها فى يده فتطرح اليه وتستعمله بكل عزيز لديه .

ميديا : استعملتك يا بنتك العروس الجديدة وأبشر عند موطنى قدميك .  
كريون : عبثا ما تقولين فانك لمى تفريسي أبدا .  
ميديا : أنت اذن لتفبني ولا تصبني لفسراعتي ؟

كريون : انى لا احبك اكثر مما احب آل بيتى .

ميديا : آه يا وطنى الآن اذكرك .

كريون : ان معزى لابنالى الفصل من آى شىء آخر .

ميديا : واسفاه ان الحب يدفعك الى شر مستطير .

كريون : ولكنى ارى ان ذلك بتوجيه من الاقدار .

ميديا : آى الهى زيوس لاتنس انك مصدر مصائبى هذه .

كريون : ايتدى ايتها العابثة وخلصيتى من الآلام .

ميديا : نحن الذين نتاكم ولدينا من الآلام الشىء الكثير .

كريون : ان حراسى سيخرجونك من البلاد سريعا بالقوة .

ميديا : لا ، لا تلمر بهذا فاننا اتوصل اليك يا كريون .

كريون : انك على ما يبدو آيتها المرأة مستسبين المتاعيب .

ميديا : مستخرج ولكن ما تضرعت اليك من أجل هذا .

كريون : فلم ادن هذا النضال ؟ ولماذا لا تتركين البلاد ؟

ميديا : دعنى اصكت يوما واحدا ادير فيه امرى واعرف اى طريق اسلك

واعد لأطفالى مؤنة فان اباهم لا يرغب فى أن يدير لهم امرا .

بهم عطولا فانت أب لأطفال وتحس بلا شك يحنان الأبوة انى لا آبه

لنفسى لو اتنا طردنا من هنا ولكنى امكن من أجل هؤلاء الاطفال

الذين حظ عليهم البؤس -

كريون : انى لست قاسسيا بل عطولا الى درجة الضقت بى الكثير من

الأذى . وعلى ذلك فاننا امنحك ما تطلبين ايتها المرأة رغم انى أشعر

بأسى محطى فى ذلك . ولكنى املوك أنه اذا طلعت عيسك أنت

وأبنائك شمس الغد وكنت ما تزالين فى هذه البلاد فسيكون جزاؤك

لموت هذه كمتى وهى صاعقة والان اذ كان لشأن تبقى فلتبقى يوما

واحدا ، فانك لن تفعل ما أحشاء من أعمال مريسة فى هذا اليوم .

ويتركها كريون وينصرف وهما تضطك ميديا فجأة ويبدو عليها فرح

شديد وهى تقول : الا ما أحقته اذ سمح لى بفضاء هذا اليوم هنا بينما

كان فى وسع أن يعرقل كل مكائدى لو أنه طردنى من هذا المكان ولكنه

منحى يوما وفى هذا اليوم سأقضى على أعدائى الثلاثة وأجعلهم حنثا

هامة : الأب وابنته وزوجى أيضا ان لدى من ومساكن العتاك الكثير

ولا أدري بأيه أبدا هل أشتعل النار فى بيت الزوجية ؟ أم أسترى الحطب

جلسة الى مضاجعهم وأحمد السيف البتار فى صدورهم ؟ ولكن هناك عقبة

واحدة تلف فى سبيلى ، ذلك انهم اذا قبضوا على وأنا اتسلل لأضرب

فريقى فان موثى سيكون ملالا لأعدائى كما انى سأصبح موضع مخبرتهم  
اذن فعلى أن الجأ الى السبيل الذى اتقنه كل الاتقان واقضى عليهم بقل  
السحر والرقي - حسنا ، ولكن لو تم لى هذا وقضيت عليهم جميعا فالى  
بعد ياويى ... ليس لى من أحمه اذن فلأترت برهة وجيزة فان وجدت  
حسنا أمنا دبرت قتلهم بمكيفة مأكرة أما اذا عرفنى سوء طامعى عن تنفيذ  
هذه المحاولة فسوف أرفع السيف بيدى هذه وأذبحهم بنفسى مخاطرة  
بعيائى فان رجاء الجراء تدفعنى الى القوة والادام -

وبعد أغنية ترددها الجوقة يدخل ياسون قيعاتب ميديا على حماكتها  
فلقد كانت السبب فى غضب الملك لكثرة ما حدث به وصلتت وانزلت  
ما سمعه أهل القصر جميعا وهنا تنور به ميديا فتتهمه بالخيانة والغدر  
وعدم الوفاء ثم تعدد أفضالها عليه ومساعدته فى الحصول على الثروة  
الذهبية وفرارها معه بعد غدرها بأبيها وأهلها ثم دفعها لبيات بدياسر الى  
قتل أبيهن - فيجيب ياسون بأنه قد كافأها على ذلك اذ تزوجها وأحضرها  
معه من بلاد البربر الهج الى بلاد اليونان المتحضرة ، فتثور به ثورة اعنف  
فلا يملك ياسون الا أن يدعى بأن زواجه الجديده مصغره انه وجد نفسه  
طريدا عن وطنه وأنه ما رضى الزواج من ابنة كريون الا لينجب منها أولادا  
يكونون أخوة لولديها فيرتفع بذلك مركزهم ومركزها فترد عليه هائلة :

ميديا : لا لم يكن الباعث لك هو ما زعمت ولكنك رجعت لى فراش إوبرى  
تتقصه الكرامة ليكون نعمة لك فى شيخوختك .

ياسون : كلا لم يكن كذلك ولقى بأتى لم أرغب لى مصاهرة الملك من  
أجل ابنته وأنا - كما قلت لك من قبل - لكى إنللك من كربتك  
وانضم الى ولدينا أخوة من أسرة مالكة أدمع بهم بيتى .

ميديا : بشئ هذا اللون الميقوت من السعادة لا أحب أن يكون لى منه  
تصيب ولا أحب الثراء الذى يمزق قلبى الدامى .

ياسون : الا يمكن ان تغيرى رغبتك وان تكونى أكثر حكمة ؟ لا تقلبى أعظم  
النعم الى شدة ولا تحسبى نفسك شقية وأنت فى أعظم سعادة .

ميديا : وحه الى من الاحاديث ما شئت فأنت عما آمن مطمئن أما أنا فطريفة  
منبوذة عليها أن تخرج من هنا .

ياسون : أنت السبب فى ذلك فلا تلومى الا نفسك .

ميديا : ماذا فعلت حل تروجت وغدوت بك ؟

ياسون : أنك تصبى أفزع العتائم على رؤوس سباتك .

ميديا : أما لتصبى نكبات بيتك على رأسى أنا .

ياسون : لن أبادلك في هذا الأمر مرة أخرى ولكن ان كنت ترغبين في شيء من المال لك أو لولديك تحفظين به لوحة المنفى لاني على استعداد لأن أصطبك ما تريد بسخاء وصوف أرسل إلى أصدقائي توصيات تفصك وهم سيفعلون لك كل صنيع كريم أما إذا رفضت هذا أيتها المرأة فأنت حقا خفي حدة غضبك تتحسن أحوالك .

ميديا : لن استغل أصدقاءك ولن أقبل شيئا من أموالك . لا تعطيني منها شيئا فان عطايا الرجل الحبيث ليست منها فائدة .

ياسون : ولكنني أشهد الآلهة لاني أرغب في ان أكون عونا لك ولولديك ولكذك ترفضين ولن نفسك المتصلة بالحق تكذب أحيائها ولن تجي من هذا الا شقاء أكبر .

ثم يتركها وينصرف تتغنى الجوقة بأنشودة أخرى يدخل بعدها شخص غريب ذو هيئة وولار فتعرف فيه ميديا الملك أيجيوس ملك آينا فتخرج بقلالة وتساله عن سبب مجيئه إلى كورنته فيذكر لها انه عقيم لا يتنجب وأن زوجته عاقرة ولا تلد وأنه في سبيله إلى معبد دلفي ليستوحي كهنتها عن علاج لهذه الحالة فطمئنت ميديا وتذكر له ان هذا أمر حين عليها فإنه لديها من الأعشاب ما تقدر به على لصالح حاله وحال زوجته ولكن عليه أن يستضيفها عنده فإذا سألها عن السبب قصت عليه قصتها فيحزن الملك أيجيوس من أجلها ويقبل عرضها بشرط ألا تصحبه فهو في ضيافة كليون وإنما عليها أن تلحق به بعد سفره إلى بلاده وهنا تضطك ميديا فتنفذ ما سوف تصنعه فهي قد اطمانت إلى مكان تآوری إليه ، لتبث فيديا بأحدى أرواد الجوقة تستدعي لها ياسون لتعلم إليه أسفها فإذا وصل ياسون لقيته ميديا وهي تتظاهر بالندم على ما فرط منها وتطلب إليه الصبح ثم ترجوه أن يتوسط عند الملك لكي يأذن ببقاء ولديها في كورنته حتى لا يذوقا مرارة المنفى فيعدها بذلك ثم ترجوه رجاء آخر هو أن يصحب ولديه إلى عروسه بهدية منها ، هي صندوق متعدد الألوان وتاج من الذهب حتى ترعى العروس بئلك الهدية فتكرم الطغيين في غياب أمهما ، يتخذ ياسون نكلامها ويوافق على طلبها ويتقدم الثلاما وينتهيان بهدية أيهما ومعهما الهدية .

تنشد الجوقة أنشودة أخرى ثم يدخل المربي معلنا :

المربي : سيدتي لقد عدلوا عن الحكم الذي قضى بشي ولديك ، وتقبلت العروس الملكية هديتك -جذلة مسروقة وأصبح ولداك هنا في أمن وسلام . - -

ميديا : واحسرتاه !

للربى : فيم اضطرابك وقد ابتسم لك الحظ ؟ ولماذا تشحين بوجهك  
ولا تبتهجي بما حصلت لك من ألباء ؟

ميديا : واحسرتاه !

للربى : اى لا اجد معنى لهذا مع ما أحصل لك من ألباء طيبة -

ميديا : ومع ذلك عاد الحسرة تملأ فؤادى \*

للربى : هل يقلب اليك من غير وعى منى حبرا سينا فى حى كنت أحسبه  
انى أسوق اليك ما يبهجك ؟

ميديا : لقد أعدت ما تعرف \* ولا جناح عليك \*

للربى : لماذا تفضين العلف الذى ولدت، تتردين الدمع ؟

ميديا : هناك ضرورة ملحة أياها الشيخ فقد أرادت الآلهة كما أرادت ووحى  
الشريرة أن يقع ما حدث \*

للربى : لا عليك \* كان آمالك تحيا حياة ولديك \*

ميديا : سأبعت بهما أولا \* أه ما أتعسنى !

للربى : لست الوحيدة التى تركت أبنائها على البشر الفاكه أن يتصلوا  
البلايا راضين -

ميديا : هذا ما سأفعله أما أنت فادعبي الى الدار وأعدى للولاد ما يلزمهم  
من حليفت اليوم \*

ثم يقبل رسول خائف مفزوع ينصح ميديا بالفرار من القصر ومن  
كورتة كلها فاذا سألته عن السبب أحد يقضى عليها ما فعلته الهدية  
بالمروس وأياها لقد فرحت المروس بالهدية فرحا شديدا علما لبستها  
أخذت تروح وتجيء أمام المرأة مزهوة معجبة وبعد قليل أحسبت بالصدور  
يضطط على صدورهما قلما أرادت نزعها لم تستطع وأشد يؤاها ألما شديدا  
لأنه بدأ يتحول الى توب من نار يشوى جسدها كما بدأ التاج يتحول الى  
سائل منصهر من الذهب يتصبب على جسدها فيحرقه ويهرا اللحم \*  
لم يستطع أحد اقتاذاها حتى أقبل أبوها الذى حاول ذلك وهو يعصر  
ويكي ولكن الصدور لصق به هو الآخر ولم يستطع أن يفصل غنة وصح  
به ما صنع بالمروس البائسة وسقط الى جانب ابنته جثة هامئة \*

تمرح ميديا فرحا شديدا لهذا الانتقام المروع وتخبر أفراد الجوقة بأنها  
مستقتل ولديها أماتا فى ايذاء ياسون زوجها الجائن \* ويقبل الولدان  
فتأخذ ميديا من يوديها وداعا مؤثرا ثم تطلق بهما الى داخل القصر حيث  
تذهبهما واحدة بعد واحدة \*

يقتل ياسون بلحاظا عن ميديا المتوحشة التي قتلت عروسته وأياها  
الملك ليقاتله أفراد البقرة بجبر قتلها ولديه فيكاد يجس ويصرخ قائلا :  
ياسون : أيها الاتباع ادخلوا الأبواب في الحال واسمحوا لي بالدخول لأرى  
هذا الشر الممتطير - مقتل ولدي - ولاقتلها عقابا لها .

تفتح الأبواب وتظهر ميديا وقد ركبت عربة خرافية ترف في الهواء  
ويجرها اعموانان كبيران وقد أخذت معها جثتي ولديها فتزد عليه ساحرة :  
ميديا : لماذا تفرح الأبواب على هذا النحو وتحت كل هذا الضجيج ؟  
هل تبحث عن ولديك وقد أصبحا جثتين ، وعنى بعد ان ارتكبت  
الجريرة ؟ كف عن هذه الجلبة وتحت بما تريد ان كان لك معنى  
أمر ما ، ولكنك لن تمسك بي أبدا فان أبي - الشمس - قد أمضى  
بعربة تقيني من كل بلد يسادني .

ياسون : يالك من امرأة بغيضة ! ان الآلهة تسنتك وكذلك أنا وجميع  
الجنس البشري ٠٠٠ أي ولدي ، لقد صادفتما أما شريرة .

ميديا : أي ولدي لقد قطعت عليكما حماقة أبيكما .

ياسون : ولكن يمتأى لم تطعنهما .

ميديا : ولكن طعنهما حقك وزواجك الجديد .

ياسون : أمن أجل هذا الزواج قتلت ولدي ؟

ميديا : أو تحسب هذا حيناً على المرأة ؟

ياسون : انه كذلك اذا كانت المرأة عاقلة ولكن كل شيء لديك شرير .

ميديا : لقد قضى على ولديك وسيمرق موتها قلبك .

ياسون : ان شبحيها سيصعبان اللعنة عليك .

ميديا : ان الآلهة المادلة تعلم أينما بدا هذه الشرور .

ياسون : كما تعلم أيضا قلبك اللعين .

ميديا : اني أبغضك كما أبغض نباحك الكريه .

ياسون : وأنت كذلك بالسببة لي ولذلك فليسته الأمر بسرعة .

ميديا : كيف ؟ ماذا أفعل ؟ فاني أود هذا من حسيم فؤادي .

ياسون : أعطني جثتي ولدي كي أؤثرهما التراب وأدكيهما .

ميديا : هذا لن يكون ، سوف أدفنها بيدي هذه فوق التل الذي يبارك  
أرضه معبد الآلهة هيرا حتى لا ينالها غضب الأعداء ويؤدى الى  
وفاتها ويخرجها من قبريها ٠٠٠

ياسون : ويلي ! يا لي من باليس ! انى اتوف الى تعييل نفري ولدى والى  
مماقتهما .

ميديا : الآن توحه اليهما الخطاب وتود مماقتهما وكنت بالامس تريد  
أن تبجلهما عنك .

ياسون : اعطينى اياما بحق الآلهة لأمس بشرة ولدى الناعمة .

ميديا : كلا لن يكون هذا وما كلمتك الا هباء منثور .

وهكذا ترفض ميديا أن تسمح له حتى يوداع ولديه وتعييلهما وذلك  
امامنا فى تمذيبه والتكفيل به ثم تنطلق عربة ميديا فى الهواء تاركة  
ياسون يئس ويتحجب ويشهد الآلهة على افعال ميديا القاسية .

## \*\*\*

ان مسرحية ميديا على هذا النحو تعتبر دراسة عميقة لزواج غير  
متكافى بين زوجين مختلفين فى كل شىء تقريباً - فهذا ياسون رجل انانى  
مغالط لا يحب الا نفسه فهو على استعداد دائما لأن يقبل كل ما تقسبه  
له ميديا من خلصات حتى ولو كان سبيل هذه الخدمات ارتكاب بعض  
الجرائم طالما لا تقطع عليه مسئولية أى عمل تقوم به ميديا كما أن زواجه  
منها لم يكن الا بدافع مصلحة الشخصية وصحة لها لم يكن الا نزوة ورغبة  
فى امتلاك جسدها . أما ميديا فهي المرأة البدائية الفطرية التى تسع كل  
كلماتها وروحها للرجل الذى تحب وهى على استعداد دائما لأن ترتكب أبشع  
الجرائم فى سبيل من تحب وتهوى ولكن اذا اكتشفت انها مخطوعة فى  
حبها مخطولة فى كرامتها فانها - وقد استولى عليها بغض لا يقبل عن  
الحب عنفا وقسوة - تنقلب الى وحش كاسر لا يستطيع أن يقف أمام  
ضراوة انتقامها أى صميل حتى ولا عاطفة الامومة .

لقد بلغ يوربيديس القمة فى تحليل شخصيات هذه المسرحية وعلى  
الأخص شخصية ميديا التى أبدع فى وصف عواطفها وتصق فى تصوير  
انفعالاتها بصورة دقيقة رائعة - كما كان نازعا فى السير بأحداث المسرحية  
تحو تلك النهاية الرهيبة التى آتت بها مسرحيته .

## تهذيب فن يوربيديس

بالرغم من أن يوربيديس لم يسجل أى تجديد ملموس على فن كتابة التراجيديات من ناحية الشكل واتباع القواعد المسرحية التي ابتدعها سلفه أيسخيلوس وسوفوكليس إلا أنه غير مضمون التراجيديات تغييرا جذريا . فتراجيديا يوربيديس قديمة في إطارها المادي وجديدة كل الجدة فيما عدا هذا الإطار : فهي جديدة في رسم الشخصيات وفي مظهر ملابسها وآرائها وحديثه أيضا في الأفكار والمناقشات التي تجري على لسان هذه الشخصيات . كان الكاتب المسرحي يستلهم موضوعات تراجيدياته في معظم الأحيان من الأساطير القديمة وقد اتبع يوربيديس هذا المنهج أيضا ولكنه كيف هذه الأساطير لروح العصر الذي كان يعيش فيه وأدخل عليها من التعديلات ما يلائم غرضه فاهتم بالواقع الذي يمكن أن يطبقها وعرضها بالمناظر المألوفة والحوادث اليومية ، وجعل الأشخاص حقيقيين وعاديين واستخطهم للتعميق الفلسفي على الأحداث وأتقن الآلة بطة عادية بها الكثير من الاصطلاحات العامة وبذلك جرد الأساطير من حلالها وقديسيتها فلم يهتم بتجديد الآلهة والأبطال الخياليين ولكنه اعتنى بوصف الحياة الدنيا التي امتزج فيها الحزن والألم والسرور والفرح فحانت معظم مسرحياته وسطا بين التراجيديات والكوميديا . كان الانسان هو المحور الأساسي لمعظم مسرحيات يوربيديس فكان لا يهتم إلا بتصويره وتحليل نفسيته وتحليل سلوكه وتصرفاته ونشج من ذلك أن أتبع له أن يصف الحياة الصائلية بما فيها من مودة زوجية وغيرة وصداة الأطفال وإبراتهم مما يؤثر في المخرج نائرا قويا . كما أتبع له لأول مرة أن يخصص لحب بكل ألوانه مكانا كبيرا في مسرحياته وكان من قبل يعبر من المواطن التي لا تستحق أن تعرض على المسرح وعلى ذلك فإن مسرحياته قريبة الشبه جندا بتسرحيات العصر الحديث . لقد كان يوربيديس يؤمن بالتقدم في حدود حقيقة واحدة هي أن مصدر كل تصرف انساني إنما يرجع أولا وأخيرا إلى طبيعة البشر لا إلى حضينة الآلهة كما كان يؤمن بالديكتراطية التي يتساوى في ظلها الغنى والفقر فمير عن الكراهية للرق واهتم بالدفاع عن العبيد لأن الرق يفسد الأخلاق ويجعل العبد جبانا خائنا وكرة الحرب وأحب السلم لأنه كان يعتقد أن شقاء المنتصر لا يقل عن يؤس المهزوم



فاليونانيون المنتصرون في حرب طروادة قد لاأقوا بكلمات جسيمة لا تقل  
حوالا عما أصاب أهل طروادة من ذل وعبودية .

ونظرا لما أدخله يوربيديس على الأساطير من تعديل وتبديل فقد كان  
مضطرا لأجراء بعض التعديلات في السناد المسرحي ، لقد أصبح كل هم  
يوربيديس يتركز في المناظر التمثيلية التي تعرض الشخصيات الرئيسية  
لتفصال دور الجوقة وأصبحت مجرد أناشيد منفصلة لا تكاد تتصل  
بالموضوع الرئيسي حتى لقد صارت مسرحياته لا تقوم على التفاعل بين الجوقة  
والأشخاص بل على التفاعل والصراع بين الشخصيات المختلفة ، ومن ثم  
ثم تعد الجوقة تشترك في الحوار الا نادرا ولا تمنح على تطور الحدث بل  
مجرد قواصل غنائية بين المشاهد التمثيلية وهي في ذلك على عكس سلفيه  
أيسخيلوس وسوفوكليس وعلى عكس ما نالت به أرسطو خاصة بالنور  
الذي يجب أن تقوم به الجوقة ( قارن فن الشعر ١٣٥٦ / ٦٧ : « يجب أن  
ينظر ال الجوقة على أنها أحد الممثلين وأنها تؤلف جزءا من الكل وتعين  
على تطور الحدث » ولذلك فإن يوربيديس وكاله يفكر في تمويض هذا  
القص في دور الجوقة - قد بذل كل همه في سبيل تهذيب أغاني الجوقة  
وحقل لغتها وتجميل أساليبها وتجويد موسيقا المساجبة لها فجلبات الخالي  
رائعة غاية في الإبداع .

لقد كان يوربيديس يجد نفسه أيضا مضطرا في بعض الأحيان  
لأن يقدم تفسيراً لبعض المعلومات التي تساعد المشاهد على فهم وجهة  
نظره وعلى تتبع سير الأحداث في مسرحياته ومن ثم فقد استخدم لهذا  
الغرض المقدمة ، وهي ذلك الجزء من المسرحية التي يسبق الدخول على  
المسرح لأول مرة ( أرسطو فن الشعر ١٤٥٩ ب ١٩ ) - لقد وجدت المقدمة  
في بعض مسرحيات أيسخيلوس وسوفوكليس ولكنها عند يوربيديس  
تتميز بخلوها من العصر الدرامي وبأنها سرد يعرض على لسان شخص  
باسم الشاعر يفسر بعض الأشياء التي تعين المتفرج على فهم النقطة التي  
بدأ الكاتب منها سر الأحداث في مسرحيته ومن هنا جاء المعنى المصري  
لكلمة مقدمة . أما أسلوب يوربيديس فهو السهل المتنع ، وله اعتراف  
بجبال لغته ورقة أسلوبه كل اللقاء القدماء بما في ذلك أومستوفانيس  
الذي طالما حلججه في كثير من مسرحياته . فهو أول من ابتدع أسلوبا  
غير مزحرف تكثر فيه الكلمات المادية ولكنها مرتبة ترتيبا يسمو بها إلى  
ذروة البلاغة وبذلك خصى التراجيديات من الصارات الرنانة والألفاظ  
الضخمة والكلمات الثقلية وتجنب الثثرة والمهانة والغشوش والإيهام وقدم  
على المسرح مناظر من الحياة الواقعية وشخصيات تتكلم بلغة مألوفة .

ومن ثم فقد ذاع صيت يوربيديس في اواخر ايامه واصبح من اعظم الشعراء واصبحت اشعاره اكثر الاشعار ذوقا وانتشارا لا في آئتنا فحسب بل في كل العالم الاشرقي كما أصبح أحد شاعر الى الاجيال المتعاقبة والنموذج الذي يحتذيه الشعراء في كل العصور والأمصار .

# الضفادع

أوستوفاتيس

٤٠٥ ق ٠ م

## منزلة أريستوفانيس وأثره

لقد احتل أريستوفانيس في العالم اليوناني منزلة سامية وذاع صيته بعد أن نال الجائزة الأولى في أربع مسابقات تسييلية وفاز بالثانية في أربع أخرى وهذا نصر لم يحرزه أى من شعراء الملهاة بمختلف أنواعها فاستحق بذلك تمجيد الأدباء والفلاسفة وفي مقدمتهم أفلاطون الذي صوره في المأدبة أحسن تصوير وأثنى عليه في الجمهورية أيضاثناء وظم فيه الأبيات الرائعة .

واعجب بأريستوفانيس شعراء الرومان أيضا فقلدوا مسرحياته ، أما المربي كورنيليوس فقد انتصح مؤلفاته وأكد ضرورة الرجوع إليها وقرس تلاوتها على تلاميذ المدارس ليفيدوا من نقد أسلوبها ورشائنه وبقوتها على قوة تركيبها وتنفق حوارها بخاصة في الأجزاء الخطابية لذا كان هذا الناقد الروماني يعتبر هوميروس وأريستوفانيس نموذجين لتعليم الخطابة أما شيشرون فقد اعترف لشاعر الملهاة ببراعة النكتة وتوقد الفريجة .

ولكن تأثير أريستوفانيس كان أشد وضوحا في عصر النهضة ، حين اهتم أدباء إيطاليا بتشر أسفاره وترجمتها وتبعهم في ذلك شعراء فرنسا وكتابهم الذين ذهب بعضهم إلى تقليد أريستوفانيس في أسلوبه ومسخرته الملاحمة ومنهم من تكلم بروحه وحاكى طريفته في النقد ومنهجه في التصوير . ويمتبر دابليه زعيما لهذا الفريق من الأدباء ، ثم جاء راسيني وهولبير واقتفيا أثر الشاعر اليوناني في مطلع حياتهما وقلده في إنجلترا بن جونسون وغيره من شعراء المرح الإنجليزي ، ولما بدأ القرن التاسع عشر وتطشت الحركة الرومانتيكية حار أريستوفانيس على أصحاب كتبه من الكتاب مثل براوننج وسوينبرن فتعدد ترجماته وراجت مسرحياته وأخرحت في المسارح الانجليزية والفرنسية والأمريكية وأعدت للاذاعة فلاقت نجاحا عظيما في هذه الدول .

## أريستوفانيس

أجمع القاريون على أن أريستوفانيس شاعر عظيم في فن الملهة . لكن قليلا من الناس هم الذين يعرفون أريستوفان وأقل منهم من قرأه وسبر الفوائد . وهذا شأن كتب الساتيرا والساخرين من الشعراء لأن شعرهم في الملهة مرتبط بالبيئة والأحداث التي عاشوها ومثل هؤلاء سرعان ما تتغير صورهم وتخبو تلميحاتهم بزوال الأشخاص والأحداث . على أن أريستوفان كان أكثرهم حظا فقد تبقى من مسرحياته التي جاوزت الأربعين إحدى عشرة ملهة هي :

- ١ - أخارنيس ( اسم عبث وجي )
- ٢ - القرمسان
- ٣ - السمعي
- ٤ - الزناير
- ٥ - السلام
- ٦ - الطيور
- ٧ - لهستراتي ( مسرحية الجيوش )
- ٨ - تسموفيزومي ( حلوسات العقاليه أو الهرافات )
- ٩ - الضفادع
- ١٠ - الدائيات أو المجتمعات
- ١١ - الفنى أو المال .

وأريستوفان من أولئك الشعراء الذين خلّبت شهرته عملهم الأدبي على تاريخهم فلم يعرف لأن شاعر موعده مولده ووفاته ، كل ما يعرف عنه هو ما كتبه عن نفسه وما ذكره أفلاطون وقد كان ممجبا به - إلى نتائج أخرى نيجها عند بلو تارك وغيره من النقاد والمؤرخين القنص .

المعروف عنه حتى الآن :

- ١ - أنه أتي من عشيرة ( كركيا ) من قبيلة ( بديريدي ) وهي قبيلة عريقة من القبائل العشر التي كونت أليدا منذ القدم .
- ٢ - كما كان يطلق عليه الأجنبي نسبة إلى جزيرة أجيئا القابلة لأثينا .
- ٣ - عرفا والفنى كمن بعد الشاعر .
- ٤ - سلك كثير من عمره ويقال أن أباه أخطب مزرعة بها .

ويذكر جايوسد اللاكيني أن أريستوفان من عشيرة دودوس ويرجع

(أه مصري جاء من مدينة نقراش ( ناوكراتيس ) وكانت مدينة هيلينية بدلنا النيل قرب إقناى البارد ، بعد اطلالها اليوم في كوم جيق وغربها من القرى ، سكنها اليونانيون أيام سمح لهم الفراعنة بسكنها ليكونوا قوة بحرية وتجارية تخدم جيش مصر في حروبها ضد آشور والفرس وغيرهم .  
 وهذه المدينة الاغريقية ظهر تاريخها وحضارتها منذ القرن السابع قبل الميلاد ولعبت دورا مهما في المزج الحضارى وكانت هي وكانوب ( أبو قبر ) وغيرها من المدن أساسا ودعامات لبناء الاسكندرية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

ورغم سريدها ان اريستوفان من طبقة العبيد واعتمد في هذا الزعم على الوثيقة التي أعلنها كليون الحاكم الاثيني : « تطمن في أن اريستوفان الابن اصيل ، لكن يشهر بالشاعر الذي طامح فضحه على المسرح وكانت هذه التهمة دافعة لكل أجنبي فلا يستطيع أن يطالب بحقوق المواطن الاثيني . » ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي ادعى فيها الحاكم على اريستوفان أمام القضاء حيث طالب ببقائه وطرده من أثينا فعندما قام اريستوفان بنفسه كاشفا عن اسمه بعد أن كان مستمارا أصبح المدعى ساقرا بين الحاكم وبين اريستوفان ففاضه وغذبه بالظرب وهذه واغراء ولكن اريستوفان حصد وكتب البقاء للملهة اليونانية على المسرح كما يذكر ذلك بلطسه في مسرحية الزناير (الآيات من ١٢٨٣ ~ ١٢٩١) -

معنى هذا ان الشاعر اضطر لاحتحام الميدان السياسي حتى يخلص نفسه من التشهير به والادعاء عليه .

والثابت ان امه اثينية خالصة والشك انما يدور حول أبيه فوليبي المعروف أن اريستوفان ولده سنة ٤٣٠ ق.م أخذنا القطاعية في جزيرة ايجينا كاثيين خالصين ( وذلك في الدورة الأولمبية ٨٧ ) عندما كانت هذه الجزيرة تحت سيطرة أثينا ولذلك لرى الشاعر في مسرحية آخارنيس في البيت ( ٥٦٣ ) يستخر من امبرطة التي طالبت بتصيب في هذه الجزيرة المستعمرة كي يجعلوا من اريستوفان ملكية خالصة لاسبرطة -

ويبدو ان اريستوفان نفسه كان متشككا في تسمية الاثيني على رده بالملكبة يذكر تظرة من شعر هوميرو يقابل معناها في العربية : اكرم للسر الا يعتمد على حسب ونسبه وانما على اسمه ونسبته . ٢٠٠ وحتى لو كان اريستوفان غير أصول الدم الاثيني فان ثقته الاتيكية كانت على أعلى مستوى بين معاصريه من القصر .

لمج اسم اريستوفان من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٨٥ ق.م والمعروف

أن مسرحية الفرسان أخرجت سنة ٤٢٤ ق.م ومن قبلها مسرحية ( ديناليس ) سنة ٤٢٧ ق.م كلها الشعاع تحت اسم مستعار ، ويقول بنفسه في مسرحية السحب انه افتتح ميدان المسرح في من مبكرة ومن هنا يفترض لمولده سنة ٤٥٥ ق.م على الأكثر .

أما تاريخ وفاته غير محدد كذلك غير أنه علم علماة ( الغنى ) المدلة سنة ٣٨٨ ق.م في أعياد ديونيس وكتب بعدها مسرحيتين : كوكالوند وديولومبيكون فزعهما ابنه أراون بأصه لا باسم أبيه وقد قصد هذا أريستوفان ليحصل من ابنه خلطا له في المجتمع الدينى .

ومن هنا يفترض زمن وفاته سنة ٣٨٥ ق.م أو سنة ٣٨٤ ق.م ويرجح هذا ما كتبه أفلاطون في السيمبوسيون لاجل منه شاعرا كوميديا مرموقا في الألب اليوناني لدرجة أن يجعل سقراط في المائدة وقد يكون هذا من أفلاطون تكريما للشاعر واعلاء لاسمه قرب موته .

أما عن ثقافته فيبدو من شعره أنها واسعة متنازة على أحسن ما كانت الثقافة والفنية في عصر بيركليس الذهبي .

وأريستوفان يقول انه قبل أن يكون ربانا لسقينة الكوميديا قد كان بحارا ماهرا وحفانا قديرا متبكنا ، وتلقه الأديب في الموازنة بين استخيل وجوريد في الضفادع يثبت انه راسخ في العلم ذواق في الفن .

كذلك يذكر بعض النقاد أن أريستوفان متأثر بأوريبك وهذا صحيح لكن لا ينكر انه استمدحت أساليب جديدة على المسرح اليوناني وفي مسرحية الطيور نرى غرارة معلوماته الأوروبية وفي مسرحية السلام نلاحظ عبق معرفته بإسبوب ذلك مع حفظه الكثير للشعراء السابقين عليه والمعاصرين له .

ويظهر انه كان متدلل الثراء لأنه كان يطلع للممثلين أجورا وينفق بمسئد على أدواته للمسرحية .

أما جرأته كشاعر كوميدي ضد حكام الدولة وكهنتها لتقصرنا بقوته واستغفاله عن الأثراء .

وأما عن حياته فقد عرف عنه انه يحب الأصول والهدوء والسلام ويحافظ على التقاليد وأنه محتشم متفان في له . ومسرحياته كلها تضايل صريح أو مستور في سبيل تلك المبادئ .

وفي مسرحية السلام سنة ٤٢١ ق.م يصور نفسه الصالح الراسخ كذلك عرف عنه انه أكثر من الشراب طلبا للنوح والإلهام ، وتحدث شعراء عصره فوحسه مناقصه ( كراتينوس ) بأنه مدح سارق لانتكار غيره

عن وعي وعن غير وعي وأطلق عليه لقبه اليوروبيدي . ولكن من يقرأ  
يوروبيد وأريستوفان قراءة فيلولوجية يخرج بأصالة أريستوفان وعرفته  
خاصة في الكورس .

### أعمال أريستوفان

عاش الرجل حياته منقطعا للمسرح فكتب أربعاً وأربعين ملهاة أصاب  
الشك منها أربعاً وهي : (١) الشعر (٢) الخريق (٣) الجزر (٤) ليوبس .  
ورقيت من أعماله إحدى عشرة أصيلة ذكرناها أما الأخرى فمفقودة لم يبق  
منها الا متناثرات في بطون المراجع منها .

١ - ديتاليس أو مجلس الشراي : سنة ٤٢٧ ق م قلعت باسم المفضي  
الأول في الكورس وأسس فيلوبيد وقد حارب فيها بدعة التعليم  
الجديد في أثينا ( السفسطة ) .

٢ - البابلون : سنة ٤٢٦ ق م باسم معلم الكورس كالبيستراتوس  
قلعت في ديميات ديونيس وهي خربة جريئة للنظام الانتخابي  
التي اكتسح طاقات السا ووضع في الحكم رجلا مهرجين على غير  
خبرة أو علم من أمثال كليون الذي فتح بابا للأحزاب فملأوا أثينا  
فاصبح البلد كبرج بابل .

وعندما عرضت هذه المسرحية اتهمه كليون بأنه عدو الشعب وعذبه  
وحاكه ونادى باهتلال الكوميديا من المسرح الأثيني .

٣ - لوككازيس : درست بعد مسرحية الفرسان في أعياد لينيا سنة  
٤٢٣ ق م وفيها هجوم واضح ضد أنصار كليون الحاكم محب  
الحروب .

٤ - الشيفوخة : عن شيوخ أثينا المتصايين الذين هجروا ، والباقي  
منها قطعة تصور المجائز مكاري يستولون على مخبر ويلقبونه  
رأسا على عقب وزادوا في العريضة بشكل لا يعلمه حتى الشباب  
الجامع .

٥ - أمفياوس : سنة ٤١٤ ق م تصور شيخا عجوزا يحج مع زوجته  
الى معبد أمفياوس من أجل تجديد شبابه .

٦ - تريفلتيس : قلعت على المسرح بين سنة ٤١١ ، سنة ٤٠٨ ق م  
وتسخر من ألكياديس .

٧ - ليونيا : قلعت على المسرح بين سنة ٤١١ ، سنة ٤٠٨ ق م وتسخر  
من مشاهير الأعياد والتقاليد المحيية والبدع .



- ٨ - شيوخ : سنة ٤٠٧ ق.م من نوع الضمادع لقد أدنى للمعمره .  
 ٩ - الفينيقي : سنة ٤٠٥ ق.م معارضة مسرحية يوروييد بهذا الاسم ،  
 ١٠ - كوكالوس : سنة ٣٨٨ ق.م عرضها ابيه وموضوعها خداع لثناة  
 ومن هذه المسرحية يختفى الكورس تماما .  
 ١١ - ايلويسيكون : سنة ٣٨٨ ق.م اخرجها ابيه من غير كورس وفيها  
 نقد للشعراء .

ما بقي بعد ذلك من ١٢ الى ٢٦ لم يبق منها الا اساساها ولا داعي  
 لذكر اساساها الآن .

واعظم ما في اعمال الشعراء بروز حفايا عصره ولهذا بقيت اعماله  
 كوثائق تاريخية وعملية صد دفع افلاطون الى ان يسجله بهذا البيت :  
 « دلت التعم جست في البحث عن صمد لها فلم تجد غير روح  
 اريستوفان هيكلا سرمديا » .

### المسرحية

تبدا المسرحية فيظهر ديونوسوس الى المسرح . وقد ارتقى ملابس  
 هيراكليس ثم يتجه الاله مع خادمه الى منزل هذا البطل ليسأله النصيح  
 قبل ان يتعصب الى عالم الموتى ، ليرجع يورويديس الى ايلنا التي كانت قد  
 افترت بعد موته من شعراء المأساة المتأخرين وبعد ان يوضح له هيراكليس  
 معالم الطريق الذي سبق ان اتبعه في الذهاب الى العالم الآخر يشرح  
 ديونوسوس في رحلته مع خادمه كسانثياس . فلما يصلان الى البحيرة التي  
 تقع على شواطئ هاديس يصيرها ديونوسوس في رورق خازون ، الملاح  
 الذي يقوم بقرن الموتى ويسمح الاله ائنه عبوره تشيد الضمادع التي  
 تسكن مستنقعا قريبا من البحيرة ليقاطعها ويتحداها في القنطرة على الانحدار  
 وتجري بينه وبينها مباراة غنائية تنتهي بفوزه .

ائماء ذلك يكون كسانثياس قد انتهى من النيران حول البحيرة على  
 قلعيه ، اد لم يكن من حق الصدا ان يعبر في الرورق مع سيده . وبعد  
 بلوغهما الشاطئ تأخذ الجوقة في ترويد مقطوعات دينية وسياسية ثم  
 يقترب ديونوسوس وكسانثياس من مملكة بلوتون الى الموتى نيقابان  
 اياكوس حارس القصر فيعلمهما من الفصول ويلجا الى الشرطة لتعاوله في  
 اداء واجبه . عندئذ يتناول الزائران ملابسهما ورغبة من ديونوسوس في  
 ان يخدع اياكوس ويضلله وفجأة يصل خادم آخر بعثت به بروسيرينا  
 زوجة بلوتون ليشعو هيراكليس المزييف ( اى القادم بعد ان ارتقى ثياب

تياب ديونوسوس ) لحضوره مادية ملكية ويامر ديونوسوس الخادم من جديد بأن يغير ملابسه لكن ، بعد لحظات من تبديل الثياب يدخل اثنان من أصحاب الفنادق ويتمان ديونوسوس بأنه احتال عليهما أثناء زيارته السابقة لعالم الموتى ويهددانه بالانتقام ثم يخرجانه بعدد يعود اياكوس حارس القصر ومعه نفر من الشرطة القساة فيداهمون كسانثياس ويهجمون عليه في عتف شديد فلما منهم بأنه هريراكليس فيؤكد الخادم انه لم يات الى ذلك المكان من قبل ثم يقترح معاقبة نائبة اذا ثبت انه قد جاء الى هذه الديار فيما مضى . عندئذ يعلن ديونوسوس ( وقد ارتدى ثياب الخادم ) بأنه اله وان كسانثياس عبث . ثم يطلب الاثنان الى اياكوس ان ينهال عليهما ضربا بالسياط ليعرف الحقيقة فيضربهما ضربا مبرحا ليتعرف على شخصيتهما فلاله صوف يتحمل الضرب ، لانه الالهة بطبيعتها لا تبال ، ويقبل اياكوس ولا يستطيع التمييز بينهما فيتخل عن هذه المهمة ويسعد بها الى اله العالم الآخر وذوجه .

عندئذ يخرج جميع الممثلين من المسرح وتبقى الجوقة وحدها تشد مقطوعة عن أفكار أريستوفانيس السياسية ثم يظهر كسانثياس مع خادم يلوثون وهنا ينتهي الجزء الفكاهي من الملهة وهنا أيضا ينقلنا الشاعر الى الفكرة الرئيسية للمسرحية وتعود حول دراسة الشعر التشيل في عصره .

ولقد لاقت هذه الملهة نجاحا كبيرا حين قلمها أريستوفانيس على المسرح الاثيني لأول مرة عام 4٠٥ ق-م ولا أدل على إعجاب اليونان بها من أنهم طالبوا بمرضاها مرة ثانية وهذا تقدير لم تنله الا الايالة . لما السبب في أن هذه المسرحية احتلت هذه المنزلة السامية ؟ يرجع ذلك الى ما تضمنته من نكاحات مضحكة وطرائق شائقة ؟ أم الى ما عالجه من مشاكل وطنية وموضوعات سياسية ؟ أم الى ما تناولته من دوافع دقيقة في النقد ونظريات مهمة في طبيعة الشعر ووظيفته ؟

يتحمل انها مالت إعجاب الاثينيين لأهميتها السياسية ولكنها في الواقع لم تستمر في الصالمة الحديث من أجل ذلك اما أثار اهتمام الباحثين لأنها أقدم نص أدبي يتضمن دراسة مفصلة للمأساة اليونانية وتحليلا دقيقا لمسرحيات أيسخولوس ومسوقوكليس ويوربيديس لذا ، وصف القناد الغربيون « الضعاع » بأنها تفوق أعمال دريدن دقة ومقالات كولردج عمقا ، وأبحاث ثولوله وسان ييف أمالة .

ولقد عرض أريستوفانيس هذه الملهة بعد أن كان زعيما للمأساة الثلاثة قد انتقلوا الى عالم الموتى وخلت أثينا من شعرائها الكبار وأصبحت تصح كما قال ديونوسوس بمئات من المتشاعرين الذين سطوا من قدر الفن : « فلم يوجد بينهم شاعر أصيل يارع ينظم شعرا ساميا بل كانوا جميعا

ييونون والفلسل ، وتختفي أسماؤهم من عالم الأدب ، بعد عرض أول مسرحية يقدمونها ، لذلك رأى اله المسرح انه لابد من التوجه الى هاديس لارجاع يوريبديس الى عالم الأحياء لأن أتيئا كانت قى حابة الى شاعر مبتكر .

وما إن وصل ديونوسوس ملكة بلوتون ، حتى سمع بخلاف شديده قد احتدم قبل مجيئه بلحظات بين أيسخولوس الذى تربع على عرش الأسرة وبين يوريبديس الذى يريد أن يقتصب العرش ويحل مكانه ويقترب ديونوسوس من الشعارين المتخاصمين ليقف على تفاصيل الموضوع فيطلبان اليه أن يحكم بينهما فيقبل الحكم ثم تبدأ المباراة فينتقد كل منهما الآخر قى لغته وأسلوبه وفلسفته الخلقية وفى مقدمة مآسيه وفى تركيبها ووظيفتها وفى أوزانه وأشعاره الضالية . ورغم ذلك كله يصعب على الاله أنه يفضل شاعرا على الآخر فيلجأ الى وسيلة جديدة للموازنة بينهما فيسأل كلا منهما رأيه فى سياسة القائد الأثينى المشهور الكبياديس ، فيقول يوريبديس : « انه يكره الرجل الذى يتكلم فى خدمة وطنه ويسارع الى إلحاق الضرر به الرجل الذى يسعى الى تحقيق مآربه الشخصية ولا يؤدى واجباته القومية » ويود أيسخولوس قائلا : « لا ينبغي أن نرى إشبالا فى المدينة أما اذا رينا واحدا كبيرا بيتا فيجب أن نرضى عن تصرفاته » .

لكن الحكم لا يرضى عن اجابة الشعارين ويطلب الى كل منهما أن يوجه النصيح السديد الى أتيئا فى محتتها الشهيدة فيجبر يوريبديس عن رأيه قائلا : « يجب علينا أن نرتب فى هؤلاء الذين نتق فيهم اليوم ونعتمد على الذين لم نتق فيهم من قبل وأن نلجأ الى وسائل غير تلك التى اتبعناها فيما مضى » . أما أيسخولوس فينادى برفع الضرائب والاستمرار فى الحرب وعندئذ يقترب بلوتون اله الموتى من ديونوسوس ويطلب اليه أن يختار الشاعر الذى يفضلهُ فيقرر الحكم فجاء اوجاع أيسخولوس الى أتيئا .

ومع ان أريستوفانيس لم يعتمد على التفوق الأدبى قى تفضيل شاعر عن آخر . الا أنه علق مقارنة مفصلة بين الاثنين أبرز فيها محاسن كل منهما ومثالبه .

### أريستوفانيس فى نظرى الأجيال :

على حله القاعدة نجد لأريستوفان قسما من الإنجاد على مر العصور فعلى المسرح الميكندرى فى عصر البطالة لاقى أريستوفان شعبية لم يظفر بها شاعر الملك ( مياندرو ) وفى روما وفى القسطنطينية بالذات لم نجد رواحة لمسرح أريستوفان فى المال بخاصة ثم بسكت المسرح قليلا أمام النضال المسيحى وما أعقبه من الفتحح الاسلامية والحروب الصليبية ويعود

يجتأ أريستوفان مع النهضة الإيرانية فتتذب الحركة في اوصال المسرح  
وتتسبك البحث - لكن الخواص تكون قد فقدت الكثير من أعمال أريستوفان .

وفي القرن الخامس عشر نرى غراسموا راييليه ( ١٤٩٤ - ١٥٥٣ )  
التي الصراع ضد الاقطاع يهتم اهتماما كبيرا بأريستوفان ويقتبس كثيرا  
من لمحاته الدكية . كذلك حدث في إنجلترا فقد تأثر الكتاب بخاصة من  
نحاذي منهم بعض من الديمقراطية والتعاون الاجتماعي أمثال توماس هوبز  
( ١٥٧٨ - ١٦٣٥ م ) بل ان شكسبير نفسه لم يسلم من التأثير بأريستوفان  
في ( حلم ليلة صيف ) وهي الى حد ما تذكرنا بطيور أريستوفان وابن  
جونسون كان متأثرا بمسرحية المال .

وفي القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وما بعدها تجد مساحة  
المسرح الأريستوفاني تتوسع ويزداد عدد المعجبين بأريستوفان وعدد  
الناقنين عليه . ففى بوالو يهتم أريستوفان بالاسفاف والخشونة والفظة  
بينما تجد راسين من هذه المعجبين به ويؤلف على غراره مسرحية على  
أساس ( الزناهير ) وتمثل على المسرح سنة ١٦٦٨ م .

وفي إنجلترا نرى موهبت يعيد على المسرح أريستوفان ويتخذ من  
وسايله سلاحا لضرب الاقطاع والفساد والفن الاجتماعي كذلك فعل هنري  
فيلدينج ( ١٧٠٧ - ١٧٥٤ م ) والذي ترجم للمال - كما كتب لستيج متروفا  
يان - مسرح أريستوفان ليس بأقل من حوار سقراط في تربية المجتمع .

ثم نرى جيته في يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٨٠ يقدم على مسرح  
جيسار ( الطيور ) على أسلوب أريستوفان ويعلق اعجابه بأريستوفان طول  
حياته .

أما الشاعر هايس فقد عشق أريستوفان عشقا يعيد على المدى ومضى  
تبعه ( أريستوفان الجرماني ) واعترق بأريستوفان أبا ووحيا له .

على ان أريستوفان لم يزدهر في الأدب وحده وإنما نرى المسرح  
كلما ازداد اتساعا وإمكانا . علا فيه صوت أريستوفان بمسرحياته  
أو بالقتبس من أفكارها وأساليبها وإن ما يشاهد من نشاط حركة النقد  
والصراع بين كل مسرحية من مسرحياته لدليل على اهتمام الناس بالشاعر  
أبهر الكوميديا وأنه عاش في ضمائر الأجيال .

ولعلنا لا نبالغ في القول اذا قلنا ان عظمة أريستوفان كميل  
لللهة اليونانية القديمة وكذلك معاز في القرن الخامس تمزى الى حد  
يعيد الى ملهاته الضخامع التي يفتبرها النقاد أجسمون أروع مسرحياته

وأجدرها بالقراءة والدراسة للحكم على فاعليها ، كشاعر موهوب وإن فقد  
يسارع . \*

وسير بسرعة حتى تصل الى بريخت افلا تلاحظ أسلحته في المشعونة  
والسخرية الملاحقة لمحاربة الاستعمار والاستغلال البشري ، وهي أسلحة  
عليها خاتم أريستوفان ولا ينكر بريخت ذلك . \*



وصفات جالينوس الطبية  
جالينوس  
١٥٠ - ٢٢٠





جالينوس هو آخر أئمة الكتاب في الطب بببلاد الاغريق ليعدها  
 القديم وقد نبه ذكره مفرحاً وعالمًا طبيعياً وطبيباً ممارساً وجراحاً  
 وصيدلانياً ، وعرف أيضاً بأنه فيلسوف له أثر ، وإن لم يكن من أئمة  
 الفلاسفة . ونسب اليه نيف ومائة وعشرون كتاباً في الطبعة الأخيرة  
 لثبيت الكامل بمؤلفاته اليونانية وهي الطبعة التي قدم بها كون ليبسك  
 في المئمة من سنة ( ١٨٢٦ - ١٨٢٣ ) ولا يمثل هذا الثبيت بحال انتاجه  
 حقيقياً ، وبقي بعض كتبه مترجماً الى العربية أو المهرية أو اللاتينية لحسب  
 اما البقية فقد فقدت .

وما من موضع سلك فيه جالينوس في المصنف الأول ومع ذلك غلب  
 شهرته وبخاصة في الطب لمت نموا مطرداً في القرون التالية وأصبح آخر  
 الأمر أعظم معلم الطب أرباً هو وأضراره الذي ساءله جالينوس على توطيد  
 مكانته من حيث هو الطبيب الأمثل والنموذج الكامل ، كما تناول بالفضير  
 رسالته في شروح مستفيضة ، ولما أصبح تعليم الفلسفة والطب الاغريقيين  
 جزءاً من برنامج التعليم في سنة ٥٠٠ تطلق بقائه الجزء الأكبر من  
 مصنفاته المبدية واستقرت مكانته السامية في ألف السنة التالية ، على  
 حين أن مصنفات أسلافه في الاسكندرية وغيرها قد انقرضت ، وسلم  
 جالينوس ما جنته من الأعمال العظيمة لأطبائه العصر اليوناني المتأخر  
 ( الهلنسي ) الذين عرف فيهم بعد استقلالهم في الرأي ودرس ذلك بتعبه  
 إلى الأجيال اللاحقة . وكان هذا التراث الذي سلكه إذاً هو في الغاية  
 مئة الطب المعلمي راسخة لم تنقص ولم تقب عن الأنظار قط . .

## حياته جالينوس

ولد جالينوس في عام ١٣٠ للميلاد في مدينة بيرغامون وكانت واحدة من أجمل مدن الإغريق على سواحل بحر ايجه وموقعها العالي شمالي ازهر في تركيا .

ولقد أخذ جالينوس ذلك الملاق في تاريخ الطب أيام مسماه وبواكير شبابه في بيرغامون ترى ما هو حال هذه المدينة الآن ؟ وهل هنالك ما تزال بقايا الاسكليون أول مركز طبي في العالم .

عندما بلغ جالينوس السابعة عشرة من عمره كان قد حفظ الفلسفات الأفلاطونية والأرسطوطالية والرواقية والاييتورية ، وقد ظهر آنذاك أن ذلك الشاب اللامع الفكرة سيصبح واحدا من أعظم فلاسفة عصره ورأى والده في المنام أن ابنه يدرس الطب وتحول الابن من الفلسفة الى الطب لكي يحقق حلم أبيه . والتحق جالينوس بمدرسة الجراح العظيم سانبروس في بيرغامون حيث درس التشريح ، وعندما كان جالينوس لا يزال تلميذا تلقى في المدينة ربه الجورة الضخمة والهيك الأستاذ في مكانة هذا الويه وكان جالينوس يقف عند عرق الأستاذ الذي كان يجري العمليات الجراحية لتطبيب مرضاه .

ولم يكن اهتمام جالينوس منصرفا فقط الى طريقة معالجة المرضى وإنما كان يبدق النظر في الأوصال الجريحة ويحاول القيام بتشخيص كامل لها ، إذ كان يطلب من المريض أن يحرك أعضائه التي تناوشها مشرط الجراح لكي يتأكد من علاقة مختلف العضلات بحركاتها . وكان جالينا يفتق النظر في شريان أووريد أو عصب وقد كان وأستاذه يلاحظان أمورا تشريحية كان سائر الأطباء لا يلاحظونها .

واسرف جالينوس على نفسه في العمل حتى مرض لفرط الاعياء وبمه حنة وجيزة على شفاة من مرضه توفي والده وهكذا وجد الشاب نفسه وحيدا في عالم الدنيا لهجر بيرغامون وكان والده قد ترك له قدرا من المال مساعده على المحافظة على استقلال نفسه وانتقل الشاب الى أزمير حيث تابع دراسته عند الطبيب بيلويس والفيلسوف الجينوس وقام الشاب بجولة

طاف خلالها اليونان وكيلىكا وفيسبيا وفلسطين وكريت وقبرص وكان  
أثناء طوافه يشار على دراسة الأمراض والملاحة وعادات الناس وأخيرا  
وصل الى الاسكندرية وكانت آنذاك أعظم مدن شرق البحر الأبيض المتوسط  
وذلك لدراسة علم التشريح فى مدرسة الطب .

وكان رجال التشريح فى الاسكندرية خلال مرحلة من مراحل تاريخ  
المدية يقومون بتشريح اجسام المجرمين وهم أحياء وكان ملوك المطالبة  
يقدمون لدراسة الطب عددا من هؤلاء المجرمين لتشريح اجسامهم نظرا لشدة  
اعتمادهم بالطب وعدم احساسهم بالام الشر . وعندما وصل جالينوس  
الى الاسكندرية كانت تلك العادة الوحشية قد ابطمت ولذلك انصرف  
جالينوس الى تشريح القرود لمتابعة دراساته .

وفى عام ١٥٧ للميلاد عاد جالينوس الى بيرغاموم وكان عمره آنذاك  
٢٨ عاما وقد عينه رئيس كهنة الهيكل الطبى طبسا للمجلودين وكان  
جالينوس مكلفا بالاشراف على ما يشاؤه هؤلاء الرجال البائسون من طعام  
ومعالجة جراحيهم الرخيصة بالقدر المستطاع .

وبالإضافة الى عمله هذا فقد فتح جالينوس عيادة خاصة به وفى  
هذه الفترة من حياته كتب أول مقالاته وصار جالينوس شخصية معروفة  
فى اسكليون حيث كان يجتمع أعظم أطباء عصره .

وأخذ جالينوس يطم ويتابع أبحاثه ويكتب الكثير من أبحاثه الطبية  
حول الطب فى هذا الهيكل الذى كان ملتقى أطباء العصر الذى كانوا فى  
نفس الوقت كهنة للهيكل . وفى أيام الميزتطين حول الهيكل الى كنيسة  
ويمكن للمحمودية .

إن معظم الناس فى يومنا هذا يظنون أن العلاج بالمقابر وبالماء وبالفن  
وبالأدوية والتحليل النفس لشفاء الأمراض العقلية هي من ابتكار هذا  
العصر الحديث ومع ذلك فإن اعتساب المقابر كانت تستل فى اسكليون  
لتحقيق الشفاء وكانت الجراحة فنا متقدما وكانت الأمراض العقلية فى  
هذا الهيكل تعالج بالملاحة المائية وبالمقابر وبالأدوية . ومن يزد  
بيرغاموم يشاهد سردانا طويلا تحت عيكن امكسيون كان المصابون  
بأمراض عقلية يوضعون فيه بعد إعطائهم أنواعا من المخدرات وتصل بولا  
السرداب أنابيب خفية كان الأطباء من خارج السرداب يتحدثون عن طريقها  
ويقدمون البصائح للمرضى فيتصور هؤلاء أنهم يظنون هذه البصائح من  
مصادر الهية ، ولذلك كانوا يتقبلون هذه البصائح ويميلون بقتصاصها .

ومن جهة أخرى كان مركبى آخرون يستعملون على الأمراض العقلية

بالاشتغال بالأعمال الفنية كالرسم والنحت حتى يتمثلوا للشقاء ، حين  
كان غيرهم يمارس التسليل في مسارح خاصة أقيمت لهذا الغرض وكان  
آخرون يأخذون الحمامات الشمسية ويستمعون إلى الألحان المبدية وكانت  
هناك في الهيكل مكتبة طبية تبرع بها إليه الامبراطور يندريان الذي كان  
في وقت من الأوقات يزيل هيكل اسكليبيون الطبي وما تزال آثار غرف  
الفن الموسيقي والمكتبة والمنحرج والمجرات الانفرادية موجودة حتى وقتنا  
هذا .

ولقد قام الامبراطوران الرومانيان كاراكالا وماركوس أوريليوس  
بزيارة اسكليبيون طمنا للشقاء ، وما لاشك فيه ان ماركوس أوريليوس قابل  
جالينوس في الاسكليبيون التي زاره عام ١٦٢ للميلاد ، وهو العام الذي تلا  
ارتقاء العرش وكان الامبراطور في ذلك العام يقود كتابه في حرب هريرة  
ضد البارثيين على الحدود الشرقية لامباطوريته .

وعادت جيوش روما من هذه الحرب ولكنها كانت مصابة بطاعون  
دهيب وانتقل جالينوس إلى روما حيث اسهم في مكافحة الطاعون وصار  
طبيبا وفيلسوبا ذائع الصيت . وصار عليه القوم في روما من رواد عيادته  
طمنا للطب للاستماع إلى المحاضرات التي كان يلقيها وعرف جالينوس  
بعد ذلك باسم « بارادو كسيوبويوس » ومضاهيا في الاغريقية صانع  
الاعليجيب .

وذاث يوم استدعاه ماركوس أوريليوس إلى القصر الامباطوري  
حيث كان أطباء البلاط يعالجونه من حمى أصابته والتي جالينوس نظره  
على الأحكام المسند على قراض المرض وقال ان سبب المرض هو السمعة فقال  
الامباطور : صدقت لقد أسرفت في تناول الطعام . بوصف له الدواء  
الصحيح لعلته .

وفي روما تاجر جالينوس على الأبحاث الطبية وتابع دراسته للهيكل  
المطبي بصرية كانت أم حيوانية وكان جالينوس كلما سمع بأن ضريحا  
قد فتح مراع إليه لدراسة العظام المدفونة فيه وإذا قتل أحد المسافرين  
لمسا انبرى له في الطريق لم يكن الناس يهتمون بدفن الناص ولذلك كان  
جالينوس يستولى على الجثة ويعرضها للجوارح التي كانت تلتهم الهجوم  
في يومين وترك له الهيكل المطبي ممنا كليلجث والمدرس وقد وصف  
جالينوس الهيكل المطبي بالنسبة للجسم بأنه شبيه بأصبع الخيام  
أو بجدران المنزل بالنسبة للخيام والمشارك ومع أنه جالينوس لم يعلم أكثر  
مما كان معلوما من قبل عن العظام فانه درس وضع الأوصاف العملية  
لاكثر من ثلثمائة عضلة وكثير منها على يزال حينئذ حتى الآن ، لقد

أثبت لأول مرة أن التلصص هو الحركة الوحيدة للععضلات وأن حركة العضلات أثناء الاسترخاء تنتج عن تقلص عضلة مقابلة \*

وقد اهتم جالينوس من وراء دراسته للعضلات إلى دراسة الأعصاب التي بين أنها الوسيطة التي يحكم الدماغ العضلات بواسطتها . وذات يوم كان جالينوس يشرح خسريرا وأحد الحيوان الجريح يصرخ من الألم فما كان من جالينوس إلا أن قطع عصبيا متصلا بصندوق الصوت ( للجريرة ) في حلق الخنثري فلم يعد قادرا على الصراخ وتبع مصرى العصب فوجد أنه متصل بالدماغ وعندئذ أثبت أن مكان الفكة عند الإنسان والحيوان على السواء هو الدماغ \*

كذلك درس جالينوس تأثير العواطف على جسم الإنسان لقد دعى ذات مرة لمعالجة شابة رومانية جميلة ، ولاحظ جالينوس أن الفتاة كانت مضطربة الحركة مسهدة رغم أنها لم تكن مصابة بحمى وكانت ترفض الإجابة على الأسئلة التي وجهها إليها وبينما كان جالينوس يحاول تهدئة الفتاة وتطبيب خاطرهما دخل أحدهم إلى الغرفة وقال عرسا أنه قادم من المسرح حيث شاهد شابا يدعى بيلاديس يرقص وعندئذ لاحظ جالينوس أن ملامح الفتاة ولونها تبدلا عندئذ جسي ليضعها لآلفاء مضطربا \*

وفي زيارة ثانية طلب من أحد الأتباع أن يدخل الغرفة فيقول أنه شاهد رجلا آخر يدعى موريوس يرقص في المسرح ولم تضطرب الفتاة لدى مشاهدتها هذا التباين \*

وعاد جالينوس الكرة وأمر ذلك الشخص بأن يقول أنه شاهد بيلاديس وهو يرقص وعندئذ عادت الفتاة إلى الاضطراب \*

وقال جالينوس لقد أدركت أن الفتاة كانت عفرمة بهذا التصليب بيلاديس \*

وتوفي جالينوس عام ٢٠٠ للميلاد عن عمر يبلغ السبعين وظل اسمه لمدة ثلاثة عشر قرنا يعد أعظم اسم في دنيا الطب . وظل أطباء القرون الوسطى يتبعون تعاليمه وينسحبون بها \*

وربما كان جالينوس من أعز الكتب القدامى وقد شاعت بمفهوم مؤلفاته ولكن ما بقي منها يشخص واحدا وعشرين مجلدا ضخما وعلى ذلك يكون من المستحيل دراسة كل آرائه الطبية ، ومع ذلك فبسبب تنظيم الفسيولوجي فقط لأنه أصبح النظام المتأخذ به في أواخر العصور القديمة \*

كان الجوهر الأساسي للحياة طبقا لفلسفة جالينوس هو الروح أو النفس المستند من الروح الفكرية في عملية التنفس وهو يدخل الجسم عن طريق القصبة الهوائية ليصل بذلك إلى الرئة ومن هناك يدخل في ( الشريان ) الشبيه بالوريد الذي نسميه اليوم الشريان الرئوي إلى البطين الأيسر حيث يقابل الدم ولكن ما أصل الدم ؟ لقد كانت إجابته على هذا السؤال بارعة ولكن الأخطاء التي تصنعها بقيت حتى عصر هارفي .

كان جالينوس يعتقد أن الكبدوس ( هو مستطاب الطعام المهضوم ) الذي يأتي من القناة الهضمية عن طريق الوريد البابي يصل إلى الكبد وقد اعتقد أن في استطاعة هذا العضو أن يحيل المستطاب إلى دم وريدي وأن يشربه بروح خاصة أو نفس يوجد بصورة فطرية في جميع المواد الحية طالما كانت محتفظة بالحياة ويشار إلى هذا النفس باسم « الروح الطبيعية » فإذا حمل الدم بالروح الطبيعية المستمدة من الكبد وبالمواد الغذائية المستمدة من الأمعاء فإن الكبد يوزعه ، كما كان جالينوس يعتقد ، في جميع أجزاء الجهاز الوريدي الذي يتفرع منه هناك حيث يمر في حركة انقباض واستساط خلال الأوردة وأحد الفروع الرئيسية في الجهاز الوريدي هو الجانب الأيمن من القلب .

أما الدم الذي يدخل هذا الفرع المهم ، وهو الجانب الأيمن من القلب - فقد حدد له نظام جالينوس مصيرين محتملين فالجزء الأكبر منه يبقى قلبا في البطين ليتخلص مما فيه من شوائب ، يحطها « الشريان الوريدي » الذي يسمى الآن الشريان الرئوي ، إلى الرئة حيث تخرج مع الرقب ، فإذا تخلص الدم الوريدي الذي في البطين الأيمن مما كان فيه من شوائب فسانه يعود إلى التدفق في الجهاز الوريدي العام ولكن جزءا صغيرا من الدم يمر في طريق آخر وهذا الجزء الصغير يقطر في القنوات الدقيقة المرحودة في الجدار الحاجز بين البطينين ليصل إلى البطين الأيسر نقطة فتقطر حيث يلتقي بالنفس أو الهواء الذي تحطه القصبة الهوائية والشريان شبه الوريدي من العالم الخارجي ، وحين تختلط هذه النقطة المدعوية بالهواء في البطين الأيسر تتحول إلى نوع من الألبان وهو روح الحياة التي توزعها الشرايين مع الدم الشرياني .

ومن هذه الشرايين ما يصمم إلى الدماغ وبذا تحمل روح الحياة إلى قاعدة المخ وهنا يتجزأ الدم إلى أجزاء دقيقة بواسطة قنوات شبكة الأوعية الدموية المتحدة المصدر ، وفي هذا المصو الخفى يحصل الدم بنوع ثالث من الألبان وهو الروح الحيوانية ، كانت نوعها الأعصاب التي كان يعتقد أنها جوفاء ؟

وكان عدد يسير من مؤلفات جالينوس هذه يحتوي على كل المعلومات المعروفة في العالم في علم وظائف الأعضاء من القرن الثالث الى القرن السابع عشر ، وكل الأفكار المتعلقة بعلم الحياة تقريبا حتى القرن الثالث عشر ومعظم علم التشريح وعلم السمات حتى القرن السادس عشر وفي الآراء المتعلقة بالبناء الطبيعي للكائنات الحية خلال العصور الوسطى. وطلت مؤلفات أرسطو وثيوغراسيوس في علم الحياة تتناولها بطريقة مضطربة بضع مخطوطات قليلة باذرة في أديرة الشرق وقد دمر بعضها كاملا كل ما الصحة نشاط مئات السنين في الاسكندرية وبرغامة كما عفا السيان على المؤلفات الأيونية في علم الحياة التي سما القليل منها بمسحرة ولكن مؤلفات جالينوس الصحة السببية التريب ظلت باقية ، وقد ترجمت الى اللاتينية والسريانية والعربية والعبرية وتشبعت بها الحركة الفكرية في العصور الوسطى وقد علق عليها وشرحها الكتاب الاغريق المتأخرون وترجمت هذه الشروح بدورها الى نفس اللغات المتأخر اليها أنما فأصبحت تتداول مرة أخرى تحت أسماء مؤلفين مخترعين آخرين .

ما هو السر الكامن وراء حيوية آراء جالينوس هذه في علم الحياة ؟ يمكن الاجابة عن ذلك في أربع كلمات : كان جالينوس يائسا غائيا أي أنه يعتقد أن كل شيء قد خلقه الله لهدف خاصة محددة يضاف الى ذلك أن غايته كانت من نوع تصادف أنه كان يتماشى مع الاتجاه الديني السائد في العصور الوسطى سواء أكان مسيحيا أم اسلاميا أم يهوديا . ففي رأيه ان كل شيء يوجد في جسم الانسان ويظهر نشاطا هو من ابداع كائن مفكر ابدعه بحسب خطة ذكية بحيث يكون الطور في بنائه ووظيفته نتيجة هذه الخطة - لقد كانت الحكمة اللانهائية للعالم هي التي تخبرت أفضل الوسائل للوصول الى أغراضه البعيدة ، وان من الأدلة على قدرته الشاملة انه خلق كل شيء حسب الخطة التي وضعها وبذلك حقق ارادته . وقد مرت بعد جالينوس ألف عام من الجهالة ، وكاد ينقطع تاريخ الطب وعلم الحياة .

### مخططات جالينوس الطبية

ولجالينوس من المصنفات كتب كثيرة جدا وهذا ذكر ما وجدناه منها منتشرا في أيدي الناس مما قد نقله حنين بن اسحق الصادي وغيره الى العربية ، وأغراض جالينوس في كل كتاب يتكس وهو القهرسة وغرضه في هذا الكتاب أن يصف الكتب التي وضعها وما غرضه في كل واحد منها ومن دعاه الى وضعه ومتى وضعه في أي حد من سته وهو مقالتان : المقالة الأولى ذكر فيها كتبه في الطب وفي المقالة الثانية كتبه في المنطق والفلسفة والبلاغة والنحو : كتاب في مراتب قراءة كتبه مقالة واحدة وغرضه فيها

أن يخبر كيف ينبغي أن تكتب كتبه في قراءتها كتابا يسهل من أولها إلى آخرها كتاب الفرق مقالة واحدة . وقال جالينوس أنه أول كتاب يقرؤه من أراد تعلم صناعة الطب وغرضه فيه أن يصف ما يقوله كل واحد من فرق أصحاب التجربة وأصحاب القياس وأصحاب الحيل من تنبؤ ما ينبغي الاحتجاج له وليرد على من خالفه وكيف الوجه في الحكم على الحق والباطل منها . وكان وضع جالينوس لهذه المقالة وهو شاب في الثلاثين من عمره عند دخوله درجته لأول مرة كتاب الصناعة الصغيرة مقالة واحدة وقد قال جالينوس في أوله إنه أثبت فيه بطل ما قد بينه على الشرح والتعليق في غيره من الكتب وإنه ما فيه بمفرقة النتائج بما فيها البض الصغير وهو أيضا مقالة واحدة عنوانها جالينوس إلى طوكريس ومسالر المتعلمين وغرضه فيها أن يصف ما يحتاجه المتعلمون إلى عمله من أمر النبض ويعدد فيه أولا أصناف النبض ولم يذكرها جميعها وإنما ذكر ما يقوى المتعلمون على فهمه منها ثم يصف بعد الأسباب التي تغير النبض ما كان منها طبيعيا وما كان منها ليس بطبيعي وما كان خارجا من الطبيعة وكان وضع جالينوس لهذه المقالة في الوقت الذي وضع فيه كتابه في الفرق كتابا إلى أغلوقن في الثاني لثمنا الأمراض وبعض أغلوقن باليونانية الأورق وكان يفسرها وعندها رأى من آثار جالينوس في الطب ما أعجبه سأل أن يكتب له ذلك الكتاب . ولما كان لا يصل المداوى إلى مداواة الأمراض دون معرفتها قدم قبل مداواتها دلائلها التي تعرف بها ويوصف في المقالة الأولى دلائل الحميات ومداواتها ولم يذكرها كلها لكنه انتصر منها على ذكر ما يمرض كثيرا وهذه المقالة تنقسم قسمين : وصف في القسم الأول من هذه المقالة الحميات التي تخلص من الأعراض الخفية ويوصف في القسم الثاني الحميات التي معها أمراض غريبة ويوصف في المقالة الثانية دلائل الأورام ومداواتها . وكان وضع جالينوس لهذا الكتاب في الوقت الذي وضع فيه كتاب الفرق كتاب في العظام هذا الكتاب مقالة واحدة وعنوانه جالينوس في العظام للمتعلمين . وذلك أنه يريد أن يقدم المتعلم للطب تعلم علم التشريح على جميع فنون الطب لأنه لا يمكن عمله دون معرفة التشريح أن يتعلم شيئا من الطب القياسي وغرض جالينوس من هذا الكتاب أن يصف حال كل واحد من العظام في نفسه وكيف الحال في اتصاله بغيره وكان وضع جالينوس له حين وضع سائر الكتب إلى المتعلمين .

### كتاب في العضل :

هذا الكتاب مقالة واحدة ولم يملوه جالينوس إلى المتعلمين لكن أهل الاسكندرية أدخلوه في مداه كتبه إلى المتعلمين وذلك أنهم جمعوا مع هاتين المقالتين ثلاث مقالات أخرى كتبها جالينوس إلى المتعلمين واحدة في تشريح العصب وواحدة في تشريح المروق غير الضوارب وجعلوه كتابه دون كتابا



واحدة ذا خمس مقالات وعنوانه : « التشريح الى المعلمين » ، وغرض جالينوس في كتابه هذا أن يصف جميع العضلات في كل واحد من الأعضاء كم هي ؟ وأي عضل هي ؟ ومن أين يبتدىء كل واحدة منها وما قملها بزيادة الامتصاص .

### كتاب في العصب :

هذا الكتاب أيضا مقالة كتبها الى المعلمين وغرضه فيها أن يصف كم نوعا من العصب تنبت في النخاع وأي الأعصاب هي وكيف وأين تنقسم كل واحدة منها وما قملها . كتاب في العروق هذا الكتاب عند جالينوس مقالة واحدة يصف فيها أمر العروق التي تنبض والتي لا تنبض كتبه لتعلمين وعنوانه : « الى انطشاس » ، فأما أهل الامكنة فقسموه الى مقالة في العروق غير الضواريه ومقالة في العروق الضواريه وغرضه فيه أن يصف كم طرعا تنبت من الكبد وأي العروق هي وكيف وأين تنقسم كل واحد منها وكما شريانا تنبت من القلب وأي الشريانات هي وكيف هي وأين تنقسم .

### كتاب الاستقسات :

على رأي ابقراط مقالة واحدة وغرضه فيه أن يبين أن جميع الأجسام التي تغل السماد وهي ابدان الحيوان والنبات والأحسام التي تتولد في بطن الأرض إنما تركيبها في الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض وإن هذه هي الأركان الأولى البعيدة لبطن الانسان وأما الأركان الثانوية القريبة التي بها قوام بدن الانسان وسائر ما له دم من الحيوان فهي الاغلاط الأربعة أعلى الدم والبلغم ( خلط من الصغراء والسوداء ) .

### كتاب المزاج :

ثلاث مقالات وصف في المقالتين الأوليين منه أصناف مزاج ابدان الحيوان فبين كم هي وأي الأصناف هي ووصف الدلائل التي تدل على كل واحد منها وذكر في المقالة الثالثة منه أصناف مزاج الأدمية وبين كيف تختبر وكيف يمكن تعرفها .

### كتاب القوى الطبيعية ثلاث مقالات :

وغرضه فيه أن يبين أن تدبير البدن يكون بثلاث قوى طبيعية وهي القوة الجابلة والقوة المنوية والقوة المادية . وأن القوة الجابلة مركبة من قوتين احدهما تفهم المنى ويصله حتى تعمل منه الأعضاء المتشابهة

الأجزاء • والأخرى تركيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء بالهيئة والوضع والمقدار أو العدد الذى يحتاج اليه في كل واحد من الأعضاء المركبة وأنه يخدم القوة العادية أربع قوى : وهى القوة الجاذبة والقوة الممسكة والقوة المتضربة والقوة الدافعة •

### كتاب العلل والأمراض تحت مقالات :

وهذا الكتاب أيضاً لجالينوس ومقالاته متفرقة وإنما جمعها الاسكندر يون وجمعوها كتاباً واحداً وعلون جالينوس المقالة الأولى من هذه المقالات الست في أصناف الأمراض ووصف في تلك المقالة كم أجسام الأمراض وقسم كل واحد من تلك الأجسام الى أنواعه في القسمة الى اتصى أنواعها وعنون المقالة الثانية منها : « في أسباب الأمراض » وغرضه فيها موافق لغايتها، وذلك أنه يصف فيها كم أسباب كل واحد من الأمراض وإلى الأسباب هي • وأما المقالة الثالثة من هذه الست فعنونها : « في أصناف الأمراض » ، ووصف فيها كم أجسام الأمراض وأنواعها وإلى الأمراض هي وأما ثلاث المقالات الباقية فعنونها : « في أسباب الأمراض » ووصف فيها كم الأسباب الفاعلة لكل واحد من الأمراض وإلى الأسباب هي •

كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة ويعرف أيضاً بمواضع الآلة تحت مقالات وغرضه فيه أن يصف دلالات يستعمل بها على أحوال الأعضاء الباطنة اذا حدثت بها الأمراض وعلى تلك الأمراض التي تحدث فيها أى الأمراض هي ووصف في المقالة الأولى وبعض الثانية منه السبل العامة التي تنحرف بها الأمراض وواضعها وكشف في المقالة الثانية خطأ ارجحيانس في الطرق التي سلكها في طلب هذا المرض ثم احدث في باقى المقالة الثانية وفي المقالات الأربع التالية لها في ذكر الأعضاء الباطنة وأمراضها عصوا عضواً وابتدأ من الدماغ وحلم جرا ، يصف الدلالات التي يستدل بها على واحد واحد منها اذا اعتل كيف تتعرف علته الى أن انتهى الى القصصا •

### كتاب النيفس الكبير :

هذا الكتاب جعله جالينوس في ست عشرة مقالة وقسمها الى أربعة أجزاء في كل واحد من الأجزاء أربع مقالات وعنوان الجزء الأول منها : « في أصناف النيفس » وغرضه فيه أن يبين كم أحاسيس النيفس الأول ، وإلى الأجسام هي وكيف ينقسم كل واحد منها الى أنواعه الى أن ينتهي الى أمصاها وعنون في المقالة الأولى من هذا الجزء في ما يحتاج اليه من صفات

أجناس النبض وأنواعها فبحثها فيها عن أحمره وأفراد ثلاث المقالات الباقية من ذلك الجزء للتحجاج ، والبحث عن أجناس النبض بأنواعه وعن حله . وصواب الجزء الثاني في تعريف النبض وعرضه فيه أن يصف كيف يتصرف كل واحد من أصناف النبض بحسب الحركتين وعنوان الجزء الثالث : « في أسباب النبض » ، وعرضه أن يصف من أي الأسباب يكون كل واحد من أصناف النبض وعنوان الجزء الرابع : « في تقسمة المعرفة من النبض » وعرضه فيه أن يصف كيف يستخرج سابق العلم من كل واحد من أصناف النبض .

كتاب أصناف الحيات : مقالتان وعرضه فيه أن يصف أجناس الحيات وأنواعها ودلائلها ووصف في المقالة الأولى من جنسيتين من أجناسها أحدهما يكون في الروح والآخر في الأعضاء الأصلية ووصف في المقالة الثانية الجنس الثالث منها الذي يكون في الأخلط إذا جمعت . كتاب البحران ثلاث مقالات وعرضه فيه أن يصف كيف يصل الاتصال إلى أن يتقدم فيعلم هل يكون البحران أم لا وإن كان يحدث نمتى يحدث وبماذا وإلى أي شيء يؤول أمره . كتاب أيام البحران ثلاث مقالات وعرضه في المقالتين الأولىين منه أن يصف اختلاف الحال من التي يكون البحران الحادث فيها محدودا وأياها يكون البحران الحادث فيها مضموما وما يتصل بذلك ، ويصف في المقالة الثالثة الأسباب التي من أجلها اختلفت الأيام في قواها هذا الاختلاف .

كتاب حيلة البر : أربع عشرة مقالة وعرضه فيه أن يصف كيف يداوى كل واحد من الأمراض بطريقة القياس ويقتصر فيه على الأعراض العلوية التي ينبغي أن يقصد قصدها في ذلك ويستخرج منها ما ينبغي أن يداوى به كل مريض من الأمراض ويفرب لذلك أمثلة يسيرة من أشياء جزئية وكان وضع ست مقالات منه لرجل يقال له أريان ، بين في المقالتين الأولى والثانية منها الأصول الصحيحة التي عليها يكون معنى الأمن في هذا العلم ونسخ الأصول الخطأ التي أصلها أرسطاطرس وأصحابه ، ثم وصف في المقالات الأربع الباقية مداواة تفرق الاتصال من كل واحد من الأعضاء . ثم أن إيادى توفى فقطع جالينوس استتمام الكتاب إلى أن سأل أوجانيوس أن يتمم فوضع له ثمانى المقالات الباقية ، فوصف في الست الأولى مداواة أمراض الأعضاء المشابهة للأعضاء وفي المقالتين مداواة أمراض الأعضاء المركبة ووصف في المقالة الأولى من الست الأولى مداواة أصناف صوم المراح كلها إذا كانت في عضو واحد وأخرى أمرها على طريق التسهيل بما يحدث من المدة ثم وصف في المقالة التي بعدها وهي الثامنة من حيلة الكتاب مداواة أصناف الحمى التي تكون في الروح وهي حمى يوم . ثم وصف في المقالة التي تتلوها وهي التاسعة مداواة الحمى المطبقة . ثم في

العاشرة مداراة الحصى التى تكون فى الأعضاء الأصلية وهى التى ووصف فيها جميع ما يحتاج الى عمله من امر استعمال الحمام - ثم وصف فى الحادية عشرة والثانية عشرة مداواة الحميات التى تكون من عطوة الإسهال . أما فى الحادية عشرة فما كان منها حلوا من أعراض غريبة وأما فى النامية عشرة فما كان منها مع أعراض غريبة .

كتاب علاج التشريح - وهو الذى يعرف بالتشريح الكبير كتبه فى خمس عشرة مقالة وذكر أنه قد جمع فيه كل ما يحتاج اليه من أمر التشريح ووصف فى المقالة الأولى منه العضل والرباطات فى اليدين وفى الثانية العضل والرباطات فى الرجلين وفى الثالثة العصب والعروق التى فى اليدين والرجلين وفى الرابعة العضل الذى يحرك الخدين والشفيتين والعضل الذى يحرك البنى الأسفل الى ناحية الرقبة والكتفين وفى الخامسة عضل الصدر ومراق البطن والكتفين والصلب - ووصف فى السادسة آلات الغذاء وهى للمعدة والأمعاء والكبد والطحال والكليتين والمثانة وما أشبه ذلك وفى السابعة والثامنة وصف تشريح آلات التنفس ، أما فى السابعة فوصف ما يظهر فى التشريح فى القلب والرئة والعروق والصواريب بعد موت الحيوان ومادام حياً ، وأما فى الثامنة فوصف ما يظهر فى التشريح فى جميع الصدر - والرد المقالة التاسعة بأسرها بصفة تشريح النخاع والنخاع ووصف فى العاشرة تشريح العين واللسان والمريء وما يتصل بهله الأعضاء - ووصف فى الحادية عشرة الحنجرة والمظم والذى يقسمه اللام فى حروف اليونانيين وما يتصل بذلك من العصب الذى يأتى هذه المواضع ووصف فى الثانية عشرة تشريح أعضاء التوليد وفى الثالثة عشرة تشريح الصواريب وغير الصواريب وفى الرابعة عشرة تشريح العصب الذى ينبت من النخاع - قال جالينوس : • وهذا الكتاب المضطر اليه من علم التشريح وقد وضعت كتاباً أخرى لست يضطر اليها لكنها نافعة فى علم التشريح ••

اختصار كتاب ماينس فى التشريح - وكان ماينس قد ألف كتابه هذا فى عشرين مقالة وإنما جالينوس اختصره فى أربع مقالات ( اختصار كتاب لوتس فى التشريح ) وهذا الكتاب أيضاً ألفه صاحبه فى سبع عشرة مقالة ، وقد ذكر جالينوس أنه اختصره فى مقالتين • كتاب فيما وقع من الاختلاف بين القدماء فى التشريح مقالتان وغرضه فيه أن يبين أمر الاختلاف الذى وقع فى كتب التشريح فيما بعد من كان قبله من أصحاب التشريح أى من من أنما هو فى الكلام فقط وأى شئ منه وقع فى المعنى وما سبب ذلك • كتاب تشريح الأموات مقالة واحدة يصف فيها الأشياء التى تعرف من تشريح الحيوان الميت لأى الأشياء • كتاب تشريح الأحياء مقالتان

وغرضه فيه أن يبين الأشياء التي تعرف من تشريح الحيوان الحي  
 أي الأشياء حي . كتاب في علم ابقراط بالتشريح : هذا الكتاب جعله  
 جالينوس في خمس مقالات وكتبه ليوبتوس في حادثة منه . وغرضه فيه  
 أن يبين أن ابقراط كان صادقاً بطم التشريح وأنه على علم ذلك يشاهده  
 من جميع كتبه . كتاب في آراء أرسطاطس بالتشريح : هذا الكتاب  
 جعله في ثلاث مقالات وكتبه أيضاً ليوبتوس في حادثة من سنة وغرضه  
 فيه أن يشرح ما قاله أرسطاطس في التشريح في جميع كتبه ثم يبين له  
 صوابه فيما أصاب وخطأه فيما أخطأ فيه . كتاب فيما لم يطلبه لوقس من  
 أمر التشريح أربع مقالات . كتاب فيما حالف فيه لوقس في التشريح  
 مقالتان . كتاب في الرحم هذا الكتاب معالة واحدة صغيرة كتبه لاهراء  
 قابلة في حادثة منه فيه جميع ما يحتاج اليه من تشريح الرحم وما يتولد  
 فيها في الوقت الذي للحمل . كتاب في معضل الفقرة الأولى من لفاف  
 الرقبة واحدة . كتاب في اختلاف الاعضاء المتشابهة الأجزاء مقالة واحدة .  
 كتاب في تشريح آلات الصوت مقالة واحدة وقال حين أن هذا الكتاب  
 عطل على لسان جالينوس وليس هو لجالينوس ولا لغيره من القدماء ولكنه  
 لبعض المحدث جعله من كتب جالينوس وكان الجامع له مع هذا أيضاً  
 ضمياً . كتاب في تشريح العين هذا الكتاب أيضاً مقالة واحدة وقال  
 حبيب . أن عنوانه أيضاً باطل لأنه يسمى إلى جالينوس وهو ليس  
 لجالينوس وخليف أن يكون لروفس أو لمن دونه .

كتاب في حركة العضو والرلة : هذا الكتاب جعله في ثلاث مقالات  
 وكان وطمه في حادثة من سنة بعد عودته الأولى من رومية وكان حينئذ  
 مقيماً بمدينة سمونا عند فالقصر وإنما كان سألته إياه بعض من كان يتعلم  
 منه . وصف في المقالتين الأولىين منه وفي أول الثالثة ما أخذه عن فالقس  
 معلمه في ذلك الفن ثم وصف في باقي المقالة الثالثة ما كان هو المستخرج  
 له . كتاب في علل النفس هذا الكتاب جعله في مقالتي في رحلته الأولى  
 إلى رومية ليوبتوس وغرضه فيها أن يبين من أي الآلات يكون التنفس  
 عفواً وعن أيها يكون باستكراه .

كتاب في الصوت : هذا الكتاب جعله في أربع مقالات بعد الكتاب  
 الذي ذكرته قبله غرضه فيه أن يبين كيف يكون الصوت وأي شيء هو  
 وما مادته وأي الآلات يحدثه وأي الأعضاء تمنع على حدوثه وكيف تختلف  
 الأصوات . كتاب في حركة المعضل مقالتان وغرضه فيه أن يبين ما حركة  
 المعضل وكيف هي وكيف تكون هذه الحركات المختلفة من العضل وإنما  
 حركته حركة واحدة ويبحث أيضاً عن النفس هو من الحركات  
 الإرادية أم من الحركات الطبيعية ؟ ويخصص فيه من أشياء كثيرة لطيفة

من هذا الفن . مقالة في مناقضة الخطأ الذى اعتقد في تمييز البول من الدم . مقالة في الحاجة الى النبض . مقالة في الحاجة الى التنفس مقالة في العروق الصوارب حل يجرى فيها الدم بالطبع أم لا ؟

**كتاب في قوى الأدوية المسهلة :** مقالة واحدة يبين فيها ان اسهال الأدوية ما يسهل ليس هو بأن كل واحد من الأدوية يحيل ما يصادفه في البدن الى طبيعته ثم يدفع ذلك ليخرج لكن كل واحد منها يجتنب خطأ موافقا متاكلا له . كتاب في العادات مقالة واحدة وغرضه فيه أن يبين أن العادة أحد الأعراض التى يسببها أن يطر فيها ويوجد متصلا بهذا الكتاب ومتحدا معه تفسير ما أتى به جالينوس فيها من الشهادات من قول فلاطن وشرح ابروليس له وتفسير ما أتى به من قول ابقراط بشرح جالينوس .

**كتاب في آراء ابقراط وفلاطن :** عشر مقالات وغرضه فيه أن يبين أن فلاطن في أكثر أقواله موافق لابقراط من قبل أنه عنه اخطأ ، وأن أوسيطوليس فيها خالفا لما فيه قد اخطأ ، وبين فيه جميع ما يحتاج اليه من أمر قوة النفس المدبرة التى بها تكون الفكرة والوهم والذكر ومن أمر الأصول الثلاثة التى منها تنبثق القوى التى بها يكون تدبير البدن وغير ذلك من فنون شتى . كتاب في الحركة مقالة واحدة وغرضه فيها أن يبين أمر سرركات كان قد جهلها هو ومن كان قبله ثم علسها بعد . كتاب في آلة الشم مقالة واحدة .

**كتاب منافع الأعضاء :** سبع عشر مقالة بين في المقالتين الأولى والثانية حكمة البارى تبارك ونعالى في اتقان خلقه اليد وبين القول الثالث حكمته في اتقان الرجل وفي الرابع والخامس حكمته في آلات الغذاء وفي السادس والسابع أمر آلات التنفس وفي الثامن والتاسع أمرها في الرأس وفي العاشر أمر العينين وفي الحادى عشر ما في الوجه وفي الثانى عشر الأعضاء التى هي مشاركة للرأس والعنق وفي الثالث عشر نواحي السلب والكثفين ثم وصف في المقالتين التى بعد تلك الحكمة في أعضاء التوليد ثم في السادس عشر من أمر الآلات المشتركة للبدن كله وهى العروق الصوارب وغير الصوارب ثم وصف في المقالة السابعة عشرة حال جميع الأعضاء ومقاديرها وبين منافع ذلك الكتاب كله مقالة في أفضل حشرات البدن وهذه المقالة تنل المقالتين الأولىين من كتاب المراج وغرضه فيها يتبين من عنوانها . مقالة في خصيب البدن وهى مقالة صغيرة وغرضه فيها يتبين من عنوانها . مقالة في سوء المزاج المختلف وغرضه فيها يتبين من عنوانها . يذكر فيه أى أصناف سوء المزاج هو مستوف البدن كله وكيف يكون الحال فيه وأى أصناف سوء المزاج هو مختلف في أعضاء البدن .

### كتاب الأدوية المفردة : هذا الكتاب جعله في إحدى عشرة مقالة

كشف في المذلتين الأولين خطأ من أخطأ في الطرق الرديئة التي سلكت في الحكم على قوى الأدوية ثم أحصل في المقالة الثالثة أصلاً صحيحاً لجميع المصنفين على القوى الأولى من الأدوية ثم بين في المقالة الرابعة أمر القوى الثواني وهي الطعوم والروائح آخر بما يستعمل عليها منها على القوى الأولى من الأدوية ، ووصف في المقالة الخامسة القوى الثلاث من الأدوية وهي أفاعيلها في البدن من الاستحسان والتبريد والتحفيف والترطيب ثم وصف في المقالات الثلاث التي تعلو تلك قوة دواء من الأدوية التي هي أجزاء من النباتات ثم في المقالة السادسة قوى الأدوية التي هي أجزاء من الأرض كى أصناف التراب والطين والصجارة والمعادن وفي المقالة السابعة قوى الأدوية التي هي مما يتولد في أبدان الحيوان ثم وصف في المقالة الثامنة قوى الأدوية التي هي مما يتولد في البحر والماء والمخ

مقالة في دلائل علل العين : كتبها في حياته لعلام كمال ، وله لخص فيها العلل التي تكون في كل واحدة من طبقات العين ووصف دلائلها . مقالة في أوجات الأمراض وصف فيها أمر فوجات الأمراض الأربعة أي الابتداء والتزويد والانتهاء والاحتفاظ . كتاب الاحتلاء ويعرف أيضاً بكتاب الكثرة وهو مقالة واحدة يصف فيها أمر كثرة الإخلاط ويصفها ويصف دلائل كل واحد من أصنافها . مقالة في الأورام : وسميها جالينوس أصناف الفلظ الخارج عن الطبيعة ووصف في هذه المقالة جميع أصناف الأورام ودلائلها . مقالة في الأسباب البادية : وهي الأورام التي تحدث من خارج البدن يبين في هذه المقالة أنه للأسباب البادية علل في البدن وتنفذ قول من دفع عللها . مقالة في الأسباب المتصلة بالأمراض ذكر فيها الأسباب المتصلة بالمرض الفاعلة له . مقالة في الرعشة والناقص والاختلاج والتشنج . مقالة في أجزاء القلب يقسم فيها الطب على طريق شتى من القسم والتقسيم .

### كتاب المنى : مقالتان وغرضه فيه أن يبين أن الشيء الذي يتولد منه

جميع أعضاء البدن ليس هو الدم كما ظن أرسطوطاليس لكن تولد جميع الأعضاء الأصلية منها هو من المنى وهي الأعضاء البيض . وأن الذي يتولد من دم الطمات إنما هو اللحم الأحمر وحده . مقالة في تولد الجنين المولود لسبعة أشهر . مقالة في المرأة السوداء يصف فيها أصناف السوداء ودلائلها . كتاب أدواء الحميات وتراكيبها مقالة واحدة يناقش فيها قوما ادعوا الباطل من أمر أدواء الحميات وتراكيبها وعنوان هذا الكتاب عند جالينوس : « مناقضة من تكلم في الرسوم » . قال حنين : « وقد توجه مقالة أخرى نسبت إلى جالينوس في هذا الباب وليست له » .

اختصار كتابه المعروف بالعنبر الكبير . مقالة واحدة ذكر جالينوس انه اكمل فيها البصر . قال حنين . « وأما أنا فقد رأيت باليونانية مقالة ينحو بها هذا النحو ولست اصدق أن جالينوس الواضع لتلك المقالة لانها لا تحيط بكل ما يحتاج اليه من أمر النبض وليست بحصيفة التأليف أيضا ويجوز أن يكون جالينوس قد وعده أن يضع تلك المقالة فلم يتهبأ له وضمها فلما وجدته بعض الكذابين قد وعد ولم يكف فحرص على وضع تلك المقالة وأثبت ذكرها في الفهرست كما يصدق فيها ويجوز أن يكون جالينوس أيضا قد وضع مقالة في ذلك غير تلك وقد درست كما درس كثير من كتبه واقتلعت هذه المقالة عوضها ومكانها » . كتاب في البصر : يناقش فيه أوكسيجناس . قال جالينوس : « انه جعل في ثماني مقالات » . كتاب في ودانة التنفس هذا الكتاب جعله في ثلاث مقالات وغرضه فيه أن يصف أصناف التنفس الرديء وأسبابه وما يدل عليه وهو المذكور في المقالة الأولى منه أصناف التنفس وفي الثانية أصناف سوء التنفس وما يدل عليه كل صنف منها وفي المقالة الثالثة يأتي بشواهد من كلام أبقراط على صحة قوله » .

وكتاب نوادر مقدمة المعرفة : مقالة واحدة بحث فيها على تقسمة المعرفة وعلم حيلة لطيفة تؤدي الى ذلك ويصف أشياء بديعة تقدم فعلها من أمر المرض وأخر بها فحسب منه . اختصار كتابه في حيلة البرية مقالتان . كتاب الفصل : ثلاث مقالات فخصه في المقالة الأولى منها المناقضة لأرسطاطلس لانه كان ينسج عن الفصل وناقض في التسمية اصحاب أرسطاطلس الذين برومية في هذا المعنى يعنيه ويوصف في الثالثة ما يراه من السلاج بالفصد . كتاب الذبول مقالة واحدة وغرضه فيه أن يبين طبيعة هذا المرض وأصنافه والتدبير الموفق لمن أشرف عليه . مقالة في صفات لصبي يصرخ . كتاب قوى الأحمدة : ثلاث مقالات يحد فيه جميع ما يتخلل به من الأعطال والأشربة ويوصف ما في كل واحد منها من القوى . كتاب التدبير الملقب بمقالة واحدة وغرضه موافق لعنوانه اختصار هذا الكتاب الفيزي في التدبير الملقب بمقالة واحدة . كتاب الكيوسوس الجيد والرديء مقالة واحدة يصف فيها الأغذية ويذكر أيها تولد كيوسوسا محمودا وأيها تولد كيوسوسا رديئا . كتاب في أفكار أرسطاطلس في مداواة الأمراض ثباتي مقالات اختبر فيه السبيل التي سلكها أرسطاطلس في مداواة الأمراض ويبين صوابها من خطئها . كتاب تدبير الأمراض الحادة على رأي أبقراط مقالة واحدة . كتاب تركيب الأدوية جعله في سبع عشرة مقالة أجمل في سبع منها أجناس الأدوية المركبة فعدد جنسا جنسا منها وجعل مثلاً جنس الأدوية التي تبني اللحم في القروح على حدته وجنس الأدوية التي تحلل على حدته وجنس الأدوية التي تعمل وسائل أجناس



الأدوية على هذا القياس وإنما غرضه فيه أن يصنف طريق تركيب الأدوية على الجمل ولذلك جعل عنوان المقالات السبع منه في تركيب الأدوية على الجمل والأجناس وأما عشر المقالات الباقية فجعل عنوانها في تركيب الأدوية بحسب الموضع وأراد بذلك أن صفته لتركيب الأدوية في تلك المقالات العشر ليس يقصد بها إلى أن يغير أن صنفا منها يفعل ما في مرض من الأمراض مطلقا لكن بحسب الموضع أعني العضو الذي فيه ذلك المرض وابتدأ فيه من الرأس ثم حلق جريا على صوب الأعضاء إلى أن انتهى إلى أقصاها .

نقول . وجملة هذا الكتاب الذي وضعه جالينوس في تركيب الأدوية لا يوجد في هذا الوقت إلا وهو منقسم إلى كتابين وكل واحد منهما على حدته ولا يبعد أن السكندريين لتبصرهم في كتب جالينوس صنعوا هذا أبو هريرة فالأول يعرف بكتاب فاطاجانس ويتضمن سبع المقالات الأولى التي تقدم ذكرها والآخر يعرف بكتاب الميامر ويحتوي على عشر المقالات الباقية والميامر جمع ميمر وهو الطريق ويشبه أن يكون سمي هذا الكتاب بذلك إذ هو الطريق إلى استعمال الأدوية المركبة على جهة الصواب .

كتاب الأدوية التي يسهل وجودها : وهي التي تسمى الموجودة في كل مكان مقالتان وقال حنين : أنه أضيفت إليه مقالة أخرى في هذا الفن ونسبت إلى جالينوس لكنها لفيلسوفوس وقال حنين أيضا أنه قد الحق في هذا الكتاب هديان كثيرا ومصحات يديه عجيبة وأدوية لم يوجد جالينوس لم يسمح بها قط . كتاب الأدوية المتباينة للأدواء : جعله في مقالتين ووصف في المقالة الأولى منه أمر الترياق وفي المقالة الثانية منه أمر سائر المصوبات . كتاب الترياق إلى فيليطوس مقالة واحدة صغيرة . كتاب الترياق إلى قيصر وهذا الكتاب أيضا مقالة واحدة . كتاب الحياة لحفظ الصحة ست مقالات وغرضه فيه أن يعلم كيف يحافظ الأصحاء فيه على صحتهم من كان منهم على غلة كمال الصحة ومن كانت صحته تقتصر على غاية الكمال ومن كان منهم يسير بسيرة الأفراخ ومن كان منهم يسير بسيرة العبيد . كتاب إلى لسبولوس مقالة واحدة وغرضه فيه أن يلخص هل حفظ الأصحاء على صحتهم من صناعة الطب ثم هو من صناعة أصحاب الرياضة وهي المقالة التي أشاد إليها في ابتداء كتاب تدبير الأصحاء حين قال أن الصناعة التي تدبر القيام على الأبدان واحدة كما بينت في غير هذا الكتاب .

كتاب الرياضة بالكرة الصغيرة : هذا الكتاب مقالة واحدة صغيرة يحشد فيها الرياضة بالكرة الصغيرة واللعب بالصوبلجان ويشرح على جميع أصناف الرياضة . تلخيص كتاب عهد أفقراط مقالة واحدة . تفسير كتاب

الفصول لأبقراط جعله في سبع مقالات . تفسير كتاب الكسر لأبقراط جعله في ثلاث مقالات . تفسير كتاب ود الخلج لأبقراط جعله في أربع مقالات . تفسير كتاب تقسمة المعرفة لأبقراط الذي نجده من تفسير لهذا الكتاب هو ثلاث مقالات وقال جالينوس في فينكس كتبه انه فسره في خمس مقالات وأن ثلاث المقالات الأولى هذه هي تفسير الجزء الصحيح من هذا الكتاب والمقتاتان الباقيتان فيهما تفسير المشكوك فيه .

تفسير كتاب القروح لأبقراط : جعله في مقالة واحدة . تفسير كتاب جراحات الرأس لأبقراط مقالة واحدة . تفسير كتاب اجذيا لأبقراط : فسر المقالة الأولى في ثلاث مقالات والثانية في سبع مقالات والثالثة في ثلاث مقالات والسادسة في ثمانى المقالات هذه التي غيرها اما الثلاث الباقية وهي الرابعة والخامسة والسادسة فلم يفسرها لانه ذكر انها منقطة على كسان أبقراط . تفسير كتاب الاخلاط لأبقراط . جعله على ثلاث مقالات . تفسير كتاب تلدمة الانذار لأبقراط : وهذا الكتاب لم يجد له نسخة الى هذه الغاية . تفسير كتاب قاطيطرون لأبقراط جعله أيضا في ثلاث مقالات : وقد وجدت بعض النسخ من هذا التفسير أيضا في أربع مقالات الا أن الأول هو المصحح عليه .

تفسير كتاب الغذاء لأبقراط جعله في أربع مقالات . تفسير كتاب طبيعة الجبن لأبقراط . وقال جنين : هذا الكتاب لم يجد له تفسير من قول جالينوس ولا نجد جالينوس ذكر في فهرس كتبه انه أعطى له تفسيره الا اما وجدناه قد قسم هذا الكتاب ثلاثة أجزاء في كتابه الذي عمله في علم أبقراط في التشريح وذكر أن الجزء بين الأول والثالث من هذا الكتاب منقول ليسأ لأبقراط وإنما المصحح منه الجزء الثاني وقد فسر هذا الجزء جامببوس الاسكندراني وقد وجدنا لجميع الأجزاء الثلاثة تفسيرين أحدهما سرياني وسم انه لجالينوس قد كان ترجمه مرجس فلما فحصناه علمنا انه لباليس والآخر يوناني فلما فحصناه وجدناه لسورانوس الذي من شيعة المتركي فيجي . وترجم جنين نص هذا الكتاب الا قليلا منه الى العربية في خلافة المعتز بالله .

تفسير كتاب طبيعة الانسان لأبقراط جعله في مقالتين . كتاب في فن داء أبقراط في كتاب طبيعة الانسان وفي سائر كتبه واحد جعله في ثلاث مقالات وقال جالينوس انه ألفه بعد تفسيره لكتاب طبيعة الانسان وذلك عندما بلغه أن قرما يصيبون ذلك الكتاب ويدعون فيه انه ليس لأبقراط . كتاب في أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا : مقالة واحدة . كتاب في كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة مقالة واحدة وكتاب في البحث عن صواب ما كتبه أصحاب أبقراط الذين قالوا بالكيفيات

الأربع مقالة واحدة وقال حتى : ان هذا الكتاب لا اعلم الحقيقة انه لجالينوس ام لا ولا احسبه ترجم كتابا في النبات على رأى ابقراط وقال حتى أيضا : ان القصة في هذا مثل القصة في الكتاب الذى ذكر قبله كتاب فى الفاظ ابقراط قال حتى : هذا الكتاب أيضا مقالة واحدة وغرضه فيه أن يفسر غريب الفاظ ابقراط فى جميع كتبه وهو نافع لمن يقرأ باليونانية فاما من يقرأ بغير اليونانية فلا يحتاج اليه ولا يمكن أيضا أن يترجم أصلا . كتاب فى جوهر النفس ما سوى عقل رأى اسقلياس مقالة واحدة : كتاب فى التجربة الطبيعية مقالة واحدة يقص فيها جميع اصحاب التجربة واصحاب الالباس بمشهور على بعض . كتاب فى البحث على تمهيم الطب مقالة واحدة وقال حتى : ان كتاب جالينوس هذا نسخ فيه كتاب ميتودوطس وهو كتاب حسن نافع . كتاب فى أجسل التجربة مقالة واحدة . كتاب فى صحة الفصل الأطباء مقالة واحدة . كتاب فيما يستفاد رأيا مقالة واحدة يصف فيها ما علم وما لم يعلم . كتاب فى الاسماء الطبية وغرضه فيه أن يبين أمر الاسماء التى استعملها الأطباء على أى المعانى استعملوها وجعله خمس مقالات والذى وجدناه قد تكل الى اللغة العربية انما هو المقالة الاولى التى ترجمها حبش الأعظم .

وما من شك فى أن مصنفات جالينوس الطبية بتمامها وطرائفها والنتائج التى وصل اليها قد هضمها كل الهضم وقدمها كل التقدير جميع الأطباء العرب والمتأخرين واصبحت حزا لا يتجرأ من معارضة الطبية التى تمثلت فى صورتها الأصلية كما تمثلت فى ملخصاتها وترويحها والكتب الجديدة التى اعتمدت عليها وان كان تفصيل ذلك لا يراد يتطلب التثبت منه وتمييزه فى الرسائل ولا يصدق ما ذكرنا بأية حال على أمة الأطباء أمثال صحبه بن زكريا الرازى أو ابن سينا فحسب بل يصدق أيضا على كثيرين غيرهم والمقارنة بين جالينوس وبين ابن سينا فى كتابه القانون فى الطب خليفة بأن تسفر عن نتائج مهمة جدا حقا . وجالينوس جدير بأن يشمل بابا عظيما فى أى تاريخ يكتب مستقبلا عن الطب العربى حتى النصف الأول من القرن العشرين وتدين الدراسات التى عملت عن جالينوس فى أوروبا أيام القرون الوسطى وأيام النهضة بالكثير جدا الى ما سبق له العرب والى ما ترجم من جالينوس عن العربية .

ويطول بنا الحديث لو أننا دخلنا فى ذكر أبحاث جالينوس وكشوفه وعلمه عامة . وان مؤلفاته لشيء كثير ضاع أكثره وبقي الآن وبعض ما بقي ذهب الى العرب فادادوا منه كثيرا . . . ومن العرب دخل أوروبا بعد أن ناله التمييز والتعديل .

وظل جالينوس مدى ١٤ قرنا إبا الطب الذى لا ينافى له لم يجرؤ واحد على

أن يقول غير الذي قال وانصرف الناس عن التشريع في العالم المسيحي  
والعالم الاملاكي لتبقى حرمة الانسان مصونة وقالوا : ماذا يجب المشرع  
ولم يبق معه الذي وعده جالينوس علم !٢

وظل جالينوس وظلت معالجه عمدة أهل الراى أربعة عشر قرنا  
حتى جاء عصر النهضة في أوروبا فأطاح بالكثير مما كان شاع طوال هذه  
القرود \* \*

وما أن جاء القرن السادس عشر حتى تبدل الحال \* \*

أها لثورة علمية التي بدأها فيساليوس وألقى بدأها بالرجوع الى  
الجسم الانساني بالمشرع يستقى منه علمه \* \* ورويدا وويدا يدخل  
الطب في عصوره الحديثة \* \*

الجامع لصناعة الطب  
«الحاوي»...الوازي  
ج ٩٠٠ م

الرازي حجة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر للميلاد  
ويصده مفاصله طبيب المسلمين غير مدافع

ظهر في منتصف القرن التاسع للميلاد ، واشتهر في الطب والكيمياء  
والجبرع بينهما وهو في نظر المؤرخين من أعظم أطباء القرون الوسطى  
كما يده غير واحد أنه أبو الطب العربي .

قال عنه صاحب الفهرست : « كان الرازي أوجد دهره وفريد  
عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب » ومما ابن أبي أصيبعة  
بجاليونوس العرب .

### ★ ★ ★

#### عصره .

ولابد لمعرفة الرازي حق معرفته وفهمه حق فهمه من معرفة البيئة  
التي نشأ فيها وترعرع ولاسيما البيئة الطبيعية .

عاش في العصر العباسي الثاني وظهر في بغداد في أيام الخليفة  
المعتضد وكانت النهضة العلمية التي أرسى المأمون قواعدنا وعمل على  
نشرها لاتزال تسير في طريقها إلى الرقي والازدهار إذ لم تكن جعاهل  
الشر قد بلغت تتحرك ولم يكن القواد التثار قد فكروا بمل في القضاء  
على الخلافة العباسية واحتلال بغداد . وإذا كانت سلطة الخليفة في بغداد  
قد أصيبت بضعف شديد بدليل استقلال كثير من أطراف الدولة البعيدة  
من الهيبة والقوة ، فهذا الخليفة المعتضد العباسي كان على درجة من الشجاعة  
والقوة والاقدام ويصفه بعض المؤرخين بأنه كان ميالا لسفك الدماء ومن  
أجل ذلك سموه « السفاح الثاني » واستطاع بما عرفت عنه من هذه  
الصفات أن يمد إلى الدولة العباسية شيئا من سطوتها وسيطرتها فأعاد  
إلى حظيرة الخلافة بعض الولايات التي انفصلت عنها وحارب السيرطيين  
في جرات وشجاعة واقتصر عليهم واسترد بعض الماقل والحصون على  
الحدود في آسيا الصغرى وكان الروم قد انتزعوها من المسلمين ، وقام  
الأكراد بطورة في الجزيرة فقصى على ثورتهم وطردهم من بلاد الجزيرة ثم  
تمكن من اخضاع الفتن التي أكلها الأمير الحمداني في الموصل .

وقامت بينه وبين خمارويه الحاكم الطولوسي مصلات ودية قوية  
 اسفرت عن زواج المعتضد بالأميرة قطر الندى كريمة خمارويه وزفت اليه  
 في احتفالات أخذت تتحدث عن ذكرها الركبان إذ كانت مضرب الأعتسار  
 فيما أحاط بها من مظاهر الثراء والاهبة والمظبة . وجاء في بعض الروايات  
 التي نتحدث عن مظبة هذه الاحتفالات انه بنى للعروس قصرا تتوافر فيه  
 كل وسائل الراحة والتسليه بين كل مرحلة وأخرى في الطريق بين  
 مصر وبغداد لكي تقيم فيه بعض الوقت طلبا للراحة من عناء السفر ولا شك  
 ان انتقالات الطائفة التي تتطلبها هذه الاحتفالات تمت دليلا على ان الخلافة  
 في بغداد كانت على قدر كبير من الفعامة والمظبة والثقة لذلك اتسع أمام  
 المعتضد لكي يقوم ببعض الإصلاحات وتشجيع العلماء . وكان الرازي يقيم  
 في بغداد واشتهر فيها بطبه وسوته الدقيقة في الكيمياء ، فأراد المعتضد  
 أن يتمتع بعلمه وطبه ويقال انه اختاره لكي يعمي له المكان الذي يصلح من  
 الناحية الطبية لإقامة ( البيمارستان ) وهو المستشفى الذي عرف فيما بعد  
 باسم ( البيمارستان المعضدي ) ولذلك قصة طريفة : فحينما وقع عليه  
 الاختيار أمر بإعداد قطع من اللحم الطازج ، في عدة أماكن من مدينة  
 بغداد وقد لاحظ أن الفساد قد أسرع الى بعضها وبقيت قطع أخرى  
 لم يسرع إليها الفساد فاختار مكانها لبناء ( البيمارستان ) ويقول  
 ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء : « ان عهد الدولة استشار الرازي  
 لاختار له مكانا لبناء مستشفى يحمل اسمه فطلب الرازي أن يعلق في كل  
 ناحية من جاني بغداد شقة لحم واعتبر الناحية التي لم يتغير فيها اللحم  
 فأشار بإقامة المستشفى عليه » .

ويذكر المؤرخون ان الخليفة أراد بعد ذلك ان يختار بعض الأطباء  
 للإشراف على هذا المستشفى الكبير فوضعت له قائمة تتناول مائة طبيب  
 كان منهم الرازي أمر باختصارها الى خمسين ثم الى عشرة ثم الى  
 ثلاثة فكان الرازي من بين المختارين في كل مرة وما أريد تفضيل واحد  
 من الثلاثة كان الرازي الأول فاختاره المعتضد مديرا للبيمارستان . وتدل  
 هذه العملية على دقة بالغة في اختيار الأطباء الذين يتولون تطبيب الناس  
 وعلاجهم في مستشفيات الدولة وتدل هذه العملية أيضا على انه كان  
 لا يصعد لصناعة الطب الا العلماء الذين درسوا دراسة علمية . واشتهروا  
 بالنبوغ ويسكن ان يقال انه لم يكن يزاول الطب أحد من الادعية .

ثم قامت الدولة السامانية في أيام المعتضد وصار لها شأن كبير  
 في توجيه الحركة العلمية . والنهوض بها ويذكر ابن النديم ان الرازي  
 كانت بينه وبين المتصور بن اسماعيل أحد ملوك هذه الدولة صداقة  
 قوية ويروي انه ألف كتابه المختصوري في الطب فيجعل اسم الكتاب

منسوبا اليه ويعد هذا الكتاب من أشهر الكتب الطبية . لقد كان الجو السياسي في هذه الأيام متسحونا بطاقة قوية من الموصاف والاضطرابات بدأت تلبد السماء وتلوها بسحب قائمة بعد قتل المتوكل على الله المتأسى ولكن عنه الفترة بالرغم من كل ذلك لم تحل من بعض الخلفاء الأقوياء الذين استطاعوا ان يحتفظوا بشئ من حياة الدولة .  
 واما الحركة المدنية فهي وان كانت قد فقدت المأمون الذي كان اعظم نصير لها - الا انها مع ذلك استمرت تسير في طريقها ذلك لأن الدول الناشئة بعد استقلال الاطراف - كانت في حاجة قوية الى دعم سلطاتها - فلم تجد وسيلة اقوى الى تحقيق هذه الغاية خيرا من تشجيع العلماء وممارسة الحركة العلمية وفي هذا الحو عاش الرازي .

### حياته

ولد ابن بكر محمد بن ذكريا الرازي في الري من أعمال فارس والرازي نسبة الى الري وهي نسبة الى غير قياس .

ويقول البيروني في إحدى رسائله : ان الرازي ولد في الري في غرة شعبان سنة ٢٥١ هـ وتوفي بها في الخامس من شعبان سنة ٣١٣ هجرية . وكان منذ صغره يميل الى العلوم الادبية ويقول الشعر مولعا بالموسيقا وكان حريصا كاهل رمانه على تربية لحيته وشاربه فامسك يوما بلحيته وقال : كل هذا يخرج من بيتي شارب ولحية لا يستطرف . وما لبث ان انصرف عن الفناء واشتمل بالطب والعلوم العقلية وكان على استعداد قوى لمكعب على دراسة كتب الطب والفلسفة وقرأها قراءة باحث مدقق ويذكر ابن ابي أصيبعة في طبقات الأطباء رواية لأبي سعيد زاهد العلماء يتحدث فيها عن سببه تعلم الرازي الطب فيقول : انه عند دخوله مدينة السلام دخل ( البيمارستان ) المضدي ليشاهده . فاتفق ان يلفظ الرجل برجل ضيق يعمل صيدلانيا في البيمارستان فسأله عن الأدوية ومن كان يظهر لها في البلد فأجابه بأن قال :

« ان أول ما عرف منها كان ( حي العالم ) وبيان ذلك ان قولان صليل ( اسفليبيوس ) كان يذراعه ورم يؤله ألما شديدا فمال يوما الى الخروج الى تلبيز نهر وعندئذ أمر غلمانه لحملوه اليه . وكان على شاطئ النهر ذلك النبات فوضع ذراعيه عليه تبردا به فخب الله بذلك فامتطال وضع يده عليه ثم اصبح من غد لفعل مثل ذلك فبري . فلما رأى الناس سرعة برئه وعلموا انه اسأ كان بهذا الدواء فسموه ( حياة العالم ) وتداولته الألسن وخففته فسمى ( حي العالم ) فلما سمع ذلك الرازي أعجب به ثم دخل مرة أخرى هذا ( البيمارستان ) فرأى صبيا مولودا بوجهه ورأس



واحد فقال الأطباء عن سبب ذلك فأخبروه به فأعجبه ما سمع ولم يزل يسأل عن شيء وشيء ويقال له وهو يعلق بقلمه حتى تصبى لتمام الصبغة ينبع فيها فأصبح يدعى « جالينوس العرب » .

وفى رواية أخرى إن الرازي كان فى جلسة من اجتماع على بناء هذا البيمارستان المسمى .

ويقال : إن عهد الدولة استشاره فى تعيين المكان الصالح لبناؤه وابن الرازى أمر بعض الخدم بأن يلقوا فى كل ناحية من جابى بعدد شفة لحم ثم اعتبر مكان الشفة التى لم تتغير ولم يسهك لحمها بسرعة بأنه صحي وأشار إليه البيمارستان فى هذا الموضع ثم مالبت الرازى أن أصبح تشييد العبد لعلم الطب والرحمة فى طلبه ويتحدث عن ذلك فيقول : « فإنا محبتي للعلم وحرصى عليه واجتهادى فيه لمعلوم عند من صحبنى وشاهد ذلك متى أنى لم أزل منذ حدثنى والى وقتى هذا مكباً عليه حتى أنى متى اتفق لى كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألقه - لم التفت الى شغل ( يته ) ولو كان ذلك على عظيم ضرر - فإني أكتب - وأعرف ما عند الرجل وإنه بلغ من مسرى واجتهادى أنى كتبت بمثل خط التماويه فى عام واحد وأكثر من عشرين ألف ورقة وبقيت فى عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمل الليل والنهار حتى ضعب بهرى وحدث على نسخ فى عقل يدى - يثمانى فى وقتى هذا القراءة والكتابة وأنا على حالى لا أضعها بمقدار جهدى فأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لى » .

وفى هذه المبارات ترجية دقيقة للجهود العظيمة والمطاولات الكبيرة التى كان يلقها الرازى من تحصيل العلم والإلام بأكثر مقدار منه فإذا أقدمت به السبل لأن آلات اليد التى تميزه على تحصيله قد تعطلت فإن اليأس لا يتسرب الى نفسه الكبيرة ولا يزال مستمراً فى الطب بمختلف السبل . ومن أساقفته الذى قرأ عليهم بعض كتب الطب أبو الحسن الطبري . كان يهوديا ثم أسلم وله كتاب مشهور فى الطب يسمى « دروس الحكمة » ثم قرأ كتب الفلسفة على البهني وأهتم الرازى بمدرسة الطب فقرأ جميع الكتب من يونانية وهندية وفارسية وبدأ سلك أول الأمر مسلك قدامى الأطباء فى ممارسة هذه الصمعة ولكنه ما لبث أن انفرد بطريقته الخاصة فى مزاوله الطب يقول « سيدو » فى كتابه تاريخ العرب العام : « لا أحد يعدل الرازى وابن سينا اللذين سيطرا بكتهما الطبية على مدارنا زماناً طويلاً » . ويقول سارطون : « إن الرازى من أعظم أطباء القرون الوسطى » . وما كان ينتهى من دور التحصيل والدراسة حتى رحل عن الرى قاصداً بغداد وكانت سنة تبلغ الثلاثين كما أقام بدو السلام . ومنذ ذلك الحين بدأت شهرته تملأ الآفاق شرقاً

وغربا . يقول صاحب الفهرست : « أبو بكر محمد بن ذكرى الرازى من أهل الرى أوسع دهره وأفرد عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء ميميا نظمه وكان يشغل فى البلدان وبينه وبين المنصور بن اسماعيل صداقة وله ألف كتاب المنصور » ، وأما ابن أبى أصيبعة فيسميه فى كتاب طبقات الأطباء ( جالينوس العرب ) . وألفاد الرازى من مراولته نفسى الموسيقى والصدا فائدة كبرى فقد روى أنه كان يتردد على صديق له يشتغل صيدليا بمسعى مدينة الرى التى هى ممقط رأسه وكان من عادته حينما يحتجم بصديقه هذا أن يماوده الحنين الى الموسيقى فكان يعزف عنده بعض الوقت داخل المستشفى بقصد التسلية والطرب ولقد ما كانت دهشته حين رأى المرضى وهم يعانون ألما قاسية يتركون أمرتهم ويلتزمون حوله يستمعون فى مرح وسرور الى أنغامه الساحرة وقد لاحظ الرازى أن بعض هؤلاء المرضى عصابون بأعراض تسبب ألما مبرحة وبالرغم من ذلك فقد سبوا هذه الآلام وشملهم الهدوء والسكون والسرور عندما سمعوا الألحان الشجية والنغمات المحلقة فادرك بأحاسيسه الفتيق المرحف أن الموسيقى لابد أن يكون لها أثر فى تخفيف الآلام وفى شفاء بعض الأمراض ولكنه لم يقتنع بهذه النتيجة من أول مرة وأخذ يدرس بدقة تأثير الموسيقى فى شفاء المرضى حتى انتهى بعد التجارب الكثيرة الى رأى حاسم وهو أن نغمات الموسيقى الجسيمة لها تأثير قوى فى شفاء بعض الأمراض .

وعند ذلك الحين أصبح يعتمد عليها بوصفها أسلوبا من أساليب العلاج الطبى وصارت الموسيقى لونا من ألوان العلاج التى يؤمن بها الطب الحديث فى عصرنا . وقد وصل الرازى وهو يعالج المرضى بنغمات الموسيقى الساحرة والناجها المذبة أن بعضهم لم يتم شفاؤه الا بصلوات جراحة فبدأ يدرس علوم الجراحة وتشرريح الأجسام واسمعان بأستاذة الطبرى وأثناء دراسته للطب الجراحى أصبح له اد فداى الأطباء قد بنوا آراهم على نظريات خاطئة وعن المجيب أنه كشف عن كثير من هذه الآراء فى كتابه ( جالينوس ) وبالرغم مما له من شهرة عظيمة وبالرغم من انتشار كتبه التى كانت تعد من أعظم المراجع فى علوم الطب وكان الشك لا يمكن أن يتسرب اليها . ومن المعروف عن الرازى أنه لم يكن يسلم بأراء غيره الا بعد أن يتمكن هذه الآراء ويختبرها ويضعها موضع التجربة ثم يحكم عليها ولهذا السبب خطأ كثيرا من الآراء . ولما عين هديرا ( لبيمارستان المصلى ) تجاوزت شهرته البلاد القاصية والديانة فكان المرضى يأتون اليه من الهند والسند والصين وبلاد الافريج يلتصقون عنده الشفاء من مرضهم لما تراضى اليهم من أخباره التى نتجت عن دقته فى دراسة المرضى وأحوالهم ومبر المرض والعلاقة بين الحالة النفسية والمرض كذلك عاف بأمانته العلمية : فعندما وصح كتابه من الحصة والمندى لم ينس أن ينصف

فى هذا الكتاب الطبيب اليونانى ( جالينوس ) فقال : « لو زعم احد  
 الاطباء ان جالينوس العظيم لم ينوئ فى كتاباته عن الجندى - فان ذلك  
 اما ان يرجع الى ان الطبيب لم يقرأ كتابات جالينوس اطلاقا - واما انه قرأها  
 قراءة سطحية » . وفى هذه العبارة دليل على ما اتصف به الطبيب العربى  
 الكبير من حب الانصاف والتقدير لى سبقه من الاطباء وهذا الروح الطيب  
 السامى المتميز بالانصاف والاعتراف بالفضل لكل من أسهم فى خدمة  
 العلم والطبيب يختلف تماما عما اتصف به بعض علماء أوروبا من الذين  
 دأبوا على انكار فضل العرب على العلوم الطبية وغيرها من العلوم التى  
 بنيت عليها الحضارة الانسانية ومن شىء الى بعضهم فقط لأن هناك  
 عددا كبيرا من المنصفين الذين اعترفوا بفضل العرب العظيم على التراث  
 الانسانى الحالى فهذه جامعة « برستون » بالولايات المتحدة الأمريكية  
 تقدم دليلا ساطعا على تقديرها للمزوج بالاحترام لطبيب العرب العظيم  
 ( أبو بكر الرازى ) مترفة بما له وبما للحضارة الاسلامية بصفة عامة  
 من فضل كبير على الثقافة الانسانية لذلك خصصت جانبا مهما من أبنيتها  
 الرائعة لتسجيل مآثر هذا الطبيب الحالى وأتت الى جانب ذلك معهدا  
 خاصا لدراسة العلوم والمحطوطات العربية - ولا ريب أن كل ما فى هذا  
 العمل الجليل اعتراف بامجاد العرب الخالدة فى التواصى الانسانية .

### منزلة فى الطب

كان للمراد منزلة رفيعة فى الطب وأطلق عليه ( أبو الطب العربى ) .  
 كما كان يدعى ( جالينوس العرب ) لأنه ابتكر فى الطب أشياء لم يسبق  
 انبياء من ذلك أنه استخدم للموسيقا لوما من الولى العلاج لبعض الأمراض .  
 كذلك كان من أول الذين عرفوا أثر الضوء فى حدة العين وأنه يساعد  
 على انبساطها ليلا وانكماشها نهارا وقد استغل هذا الكشف فيما قام به  
 من بحوث عصبية وفى مداواة أمراض العصبية وكان صاحب الفضل على  
 طب الأطفال إذ جعله فرعاً من الطب قائما بذاته وكتب فيه كتاباً مستقلا  
 وكان يسلك فى علاج المرضى مسلكا علميا يشهد له بالبصيرة والعبقريّة  
 فلم يكن يسمح لمرضى يتناول العقاقير الطبية - الا بعد قيامه بتجربتها  
 على الحيوان - وصار يروى عنه أنه عندما أراد أن يقدم مركبات الرئيق  
 كيميائى لبعض المرضى جرب الدواء الذى أعده على قرد ، فلما أثبتت التجربة  
 نجاح الدواء بدأ يعطيه للمرضى . وكان نبوغه فى علوم الكيمياء من  
 الأسباب التى عاونته على اعداد الادوية بنفسه فكان يعمل طبيا وصيدليا  
 فى وقت واحد ومن أجل ذلك نراه يلمس شفا المريض بأنه نتيجة تفاعل  
 كيميائى يحصله الدواء فى جسم المريض . وهو أول من استخدم مركبات  
 الرصاص فى صنع المراهم وأول من توصل الى استعمال الشبوط

المصنوعة من اعضاء الحيوانات فى خياطة الجروح المفتوحة بعد التماسه  
 العمليات الجراحية ويبيى الراوى السر فى ذلك فيقول : ان الخيوط  
 المصنوعة من الاعمدة ينقصها الجسم فتصير جرحاً منه \* وهو اول من قام  
 بمعالجة الحمى بالماء البارد فسبق بذلك اطباء العصر الحديث ، اد لايرال  
 الماء البارد الى اليوم علاجاً نافعا لبعض انواع الحميات والى ذلك كله كان  
 من اوائل الاطباء الذين تسيهوا الى العدوى الوراثية وأول من وصفها بدقة  
 ووضوح امراض الجدري والحصبة وميزوا بينها ويقول البرومسور  
 « بوشو » الفرنسى : « لقد وصف الرازى ضرباً من الجدري يظهر بشوره  
 على سطح الجسم يبعث متلاصقة كأنها بقعة من اللحم » وقال : « ان آخرتها  
 معززة » واني والحق يقال لم أجد أجود من وصفه لها ولا أصدق مما قال  
 ونحو أول من كتب فى امراض الاطفال وفى واجبات الطبيب \* .

• وقد نبه الفحص الطبي بيوغا منقطع النظر الى زمانه فكان فى  
 الصلح الأول من أطباء العرب بل من أطباء العالم فى عصره الذين يمتازون  
 بدقة الملاحظة السريرية وهى التى تقوم على دراسة سير المرض وتتبع حالة  
 المريض • وسجل المششرق ( مايرهوف ) للرازى ما يقرب من ثلاث وثلاثين  
 ملاحظة سريرية وله فضلا عن ذلك ابتكارات طبية أخرى تعد من أسس  
 المعالجة الحديثة فى الامراض التناسلية والولادة وجراحة العيون • وقه  
 اشترنا من قبل الى براعته فى تشخيص الامراض وقد سجل فى كتبه كثيراً  
 من ذلك فمما قاله فى تشخيص بعض الحميات وكانت قد أصابت أحداً  
 مرضياً ويدهى عبد الله بن سودة :

أصيب عبد الله بن سودة بأنواع مختلفة من الحميات كانت تاتيه  
 كل ستة أيام مرة تعيب يوماً ومرة تأتى كل يومين ومرة كل أربعة أيام  
 ومرة كل أسبوع ويتعقها شيء من الرعدة القليلة وكان يقول مصرات  
 كثيرة ، حكمت أنه لا يخلو ، اما أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب  
 ربما أى تأتى كل أربعة أيام ولما ان يكون به حراج فى كلاء فلم يلبث  
 الا بديعة أى وقتاً قليلاً حتى هال قيحا وصدينا ثم أعلمته انه لا توارده  
 هذه الحميات وكان كذلك وانما صرغنى فى أول الأمر عن قولى بأن به  
 خواجة لى كلاء - انه كان مصاباً بالحمى قبل ذلك وكانت تاتيه فى يوم  
 وسبب منه يوماً كما كان مصاباً بحميات أخر فكان للطن بأن تلك الحميات  
 بالخلطة من انحرافات تريد ان تصير ربما موضع أقوى - ولم يشك الى ان  
 قلته يكون شبه الثقل منق منه اذا قام • وأعملت أنا أيضا ان أسأله عنه  
 وقه كانت كثرة البول تقوى ظنى بالخراج فى الكل الا اننى لا أعلم ان  
 أيام أيضاً ضعيف المثانة يعتره هذا الداء ولما بال المدة أكبت عليه بما يدر  
 البول حتى صفا البول من المدة ثم أسقيته الطهي المختوم بصد ذلك

والكدرد ودم الأخوين وتخلص من علته شفاة تاما سريعا في نحو شهرين  
وكان الخراج صغيرا دلى عليه انه لم يشك الى ابتداء تقلا في قطه لكن  
بعد ان بال المدة قمت هن كنت تجه ذلك ؟ قال نعم ولو كان كبيرا لقد كان  
يشكو الى ذلك أى يشكو اليه الألم وان امدة انسى ( ترشح ) سريعا تدل  
على صغر الخراج فاما غيوى من الاطباء فاعلم كانسوا حتى بعد ان يسأل  
( المدة ) أيضا لا يعلمون حالتهم ( البتة ) .

ويدل هذا الوصف الدقيق على ان الرازى كان باصة في الفحص  
الطبي وتشخيص الأمراض وملاحظات سيرها في اجسام المرضى وان كان  
يقصص العليل الذى يمرض عليش بكل دقة وبالوسائل التى وصل اليها  
والتي لا تقل في دقتها عما هو معروف اليوم وفي هذا التشخيص اشاره  
لا تفلو من معنى دقيق فقد اشار الرازى ان الأمراض قد تورث وهذا امر  
مسلم في الطب الحديث . ويتسه الرازى الى اثر العامل النفسى في صحة  
المريض ليفول : « ان مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » . ولذلك كان يرى  
من الواجب على طبيب الجسم ان يكون أولا طبيبا للروح وقد جاء في كتبه :  
« على الطبيب ان يوجه مريضه بالصحة ويرجيه بها وان لم يثق بذلك فمزاج  
الجسم تابع لأخلاق النفس » . وقد كان ذلك مما حمله على وضع قانون للطب  
الروحاني الذى هو ضرب من التدبير للنفس ويحتل العلاج النفسى اليوم  
منزلة كبيرة بجانب العلاج بالمعاقير الطبية ومن أطباء العرب الذين برعوا  
في العلاج بطريق التحليل النفسى ابن سينا .

## مؤلفاته

ترك الرازى مؤلفات كثيرة في الطب تمايز بقستها العلمية الكثرة  
وهي تعد جزءا عظيم الشأن من التراث العربى الخالد في الطب والكيمياء .  
وقد ذكر ابن النديم في الفهرست ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة منها  
ومن هذه الكتب كتاب الشكوك على ( جالينوس ) وكتاب من أن الحمية  
المحرطة تضر بالأبدى وكتاب المائع وكتاب هيئة العين وكتاب هيئة القلب  
وكتاب كيفية الاعتناء وكتاب خواص الأشياء وكتاب تقسيم الأمراض  
واسبابها وعلاجها وكتاب دفع مضار الأغذية وكتاب ما يعرض في صناعة  
الطب . ومن كتبه التى مالت شهرة عظيمة كتابه « المنصوري » ويتناول  
فيه وصفا دقيقا لتفريع أعضاء الجسم كلها كما يضمه بحثا على جانب  
كبير من الأهمية الطبية في بيان قوى الأعذية والأدوية ومواد التزينة والتطهير  
وطائفة كثيرة من الارشادات الصحية والطبية العملية التى كشفت عنها  
تجاربه والكتاب مؤلف من اقسام عشرة وهذه الأقسام هي :

- ١ - المقالة الأولى في المدخل إلى الطب وإلى شكل الأعضاء وخلقتها .
- ٢ - المقالة الثانية في تعرف مزاج الأبدان وحيثتها والاختلاط العالية عليها وامتنعالات وجيزة جامعة من العراسة .
- ٣ - المقالة الثالثة في قوى الأغذية والأدوية .
- ٤ - المقالة الرابعة في حفظ الصحة .
- ٥ - المقالة الخامسة في الزينة .
- ٦ - المقالة السادسة في تدبير المسافرين .
- ٧ - المقالة السابعة وتناول حملا وجوامع في صناعة الجبر والجراحات والقروح .
- ٨ - المقالة الثامنة في السموم والهوام .
- ٩ - المقالة التاسعة في الأمراض العادة من القرن إلى اللدم .
- ١٠ - المقالة العاشرة في الحيات وما يتبع ذلك مما يحتاج إلى معرفته في تحديد علاجها .

ولد سبط المنصورى باسم المنصور بن أحمد الساماني وترجمه إلى اللاتينية ( جيرارد الكريموني ) كما طبع مرارا في ميلانو والبندقية وليون ويادو إذ كان مع قانون ابن سينا من أعظم المراجع التي يعتمد عليها في تدريس الطب بالمعاهد الطبية الأوروبية إلى القرن السابع عشر . وأما رسالته في الجندي والحمية فتعد بحق بلا منازع زهرة الآداب الطبية العربية وتجلو في هذه الرسالة عبقرية الرازي بوصفه طبيباً محنباً مدققاً مجرداً من الأوهام والاعتقادات الزائفة كما يبدو في هذه الرسالة تلميذاً نبهاً اقتنى خطوات أستاذه ( أبوقراط ) ولكنه فاقه وبزه في كثير من النواحي . ويتحدث الرازي عن أسباب نشأة الجندي فيقول : انه ينشأ بسبب فوران الدم ويتشبه ذلك بفوران الخمر أثناء تحمرها وقد أثبت العلم الحديث أن كلا من التخمير والمرض الفعن ينشأ بسبب ميكروب خاص وهذا التشبيه الدقيق يدل على أصالة في الرأي ودقة في العلم والتجربة .

وكان كلام الرازي في نشأة مرض الجندي نقطة انطلاق للبحوث المستمرة التي أدت إلى كشف الميكروب فيما بعد ، ولو أن الرازي عرف المجهر في زمانه لكان بلا شك صاحب الفضل الأول في كشف الميكروب ولعرف ( الميكروب ) باسمه ونسب إليه بدلاً من نسبته إلى ( باستور ) . ويتميز طبيبنا العربي الكبير بقدرته العجيبة على ملاحظة أعراض الأمراض ووصفها وصفاً دقيقاً فيقول في وصف أعراض الجندي :

ويسبق ظهور الجدري حمى مستمرة تحدث ووجع في الظهر واكلاان في الأنف وقشعريرة أثناء النوم والأعراض المهمة الدالة عليه هي : وجع الظهر مع حمى وآلم لأذع في الجسم واحتقان في الوجه وتقبطه أحيانا وحسرة سادة في الخدين والعينين وشعور بضغط في الجسم ويزحف في اللحم وآلم في الحلق والصدر مصحوب بصعوبة في التنفس ومسيل وجفاف في الفم وغلظ في الرق وبعث في الصوت وصداغ في الرأس وضغط في السماع وهيجان وقلق وغثبان وفلة راحة ولكن التهيج والقلق والعثبان أظهر في الحصة منها في الجدري ، في حين أن وجع الظهر أشد في الجدري منه في الحصبة \*

ويقول الدكتور « سارطون » : « إن رسالة الرازي في الحصبة والجدري تتناول أقدم وصف سريري للجدري وهي إحدى رواال الطب الإسلامي » \*

والرازي كتاب آخر في صفات ( اليمارستان ) وأحوال المرضى الذين يعالجون فيه ويقول عبيد الله بن جبرائيل : « أنه لما عي عضه الدولة ( اليمارستان ) الجديد الذي على طرف البحر من الجانب الغربي من بغداد وكان الأطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع وهم أربعة وعشرون طبيباً كان يجري لهم الرواتب الكبيرة ومن جلستهم أبو الحسن علي ابن إبراهيم وأبو يعقوب الأهوازي وأبو عيسى بقيقة والنفس الروحي وبنو حسون - وكان مع هؤلاء الأفاضل الثقات بعض المجبرين المشاهير منهم أبو السلت وبعض الجراحين ومنهم أبو الخير وأبو الحسن بن قفاح ويقال : أن الرازي كان متولياً العمل في ( بيمارستان الري ) ثم نقل إلى اليمارستان المصنفي فأظهر عطشه الشديد على المرضى وكان يقضى وقته كله في العمل على أراحتهم وبذل كل ما في طاقته من مهارة طبية في سبيل تطعيم وعلاجهم » - ويقول محمد بن اسحق النديم في رواية لمحمد ابن الحسن الوراء : « قال لي رجل من أهل الري وكان شيخاً كبيراً سأله عن الرازي : كان شيخاً كبير الرأس عصفه وكان يجلس في مجلسه دونه التلاميذ ، ودورهم تلاميذهم ودورهم تلاميذ آخرون قبعف ما يجده الأول من يلقاه فإن كان عندهم والا تعلمهم إلى غيرهم فإن أمسأوا والا تكلم الرازي في ذلك » \*

« وكان الرازي كريماً متفضلاً باراً بالماس حسن الرأفة بالمرضى حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويسرضهم ولم يعارق القراة والسخ وما دخلت عليه قط الا رأيتة يسخ ما يسود أو يبيض وكان في نظره رطوبة لكثرة أكله ( الباقلاء ) وكف بصره في آخر عمره ، ولهم من هذه الرواية أن الرازي كان حريصاً كل الحرص على الاتصال بتلاميذه

والاجتماع بهم والتحدث اليهم فى شئون صناعة الطب وفى أثناء ذلك كان  
يسمى بالمعلومات ويرودهم بالتجارب وانه فضلا عن ذلك كان انسانا  
كريما ببلا يتصدق على الفقراء ويشركهم فى ماله وينفعهم بخبرته فى  
الطب فيطيبهم بالمحان وهو بذلك يضرب مثالا عالميا لكل من يريدون  
صناعة هذه الصناعة ومن يمارسوها بالفعل ويصون أنفسهم لتخفيف الازم  
المرضى وبخاصة هؤلاء الذين اشتهروا بالخلق والمهارة . كذلك كان الرازي  
قارئا لا يسل القراءة شديدة العناية بتسجيل آرائه وتجاربها اذ كان وقته  
موزعا على المادة للامينة والعناية بالمرضى والقراءة والاطلاع والكتابة  
والبحث فى غوامض صناعة الطب والكشف عن الجديد فى اصول  
المعالجات .

ومن كتبه ايضا كتاب « منافع الاعدية » وهو يعطى فكرة واضحة  
عن اتجاه اطباء العرب فى اساليب العلاج فقد كان هؤلاء الاطباء لا يهتمون  
بعلاج المرضى فحسب ولكنهم كانوا مع ذلك يذلون عناية خاصة بتدبير  
الوسائل التى تساعد على حفظ الصحة عملا بالحكمة القائلة « ديم  
ولاية خير من قنطار علاج » .

وما يروى فى ذلك ان الخلفاء كانوا يستحبون الى نصيح اطبايهم وينقلون  
فى دفة ما يسيرون به عليهم ويمنحونهم ساول بعض الاغذية ويوضحون  
لهم ما تسبب من نساد اللات البدن وفى هذا دليل على اهم جهودهم فى  
دراسة مختلف انواع الاغذية من حيث نفعها ودمج مضارها فقد درسوا  
خواص المأكولات والمشروبات ويتتبع احوال المرضى كانوا يعرفون ما يضرهم  
من الاغذية وما يسببهم منها وكانوا فى الوقت نفسه ينصحون الاصحاء  
بالابتعاد عن تناول بعض المأكولات او التخفيف منها لأنها تجلب للجسم  
المضايقة وكتاب الرازى مثال لذلك . ويشطت عنه الدكتور الأب (ج) شحاته  
قنوائى فيقول « انه يتكون من تسعة عشر فصلا فيتحدث الرازى فى  
الفصل الأول عن السجى فى تأليف كتابه وفى الفصل الثامى يتحدث عن  
صانع الحسنة والقبح . والخبر الذى يؤخذ منها مضاده وما يتخذ من  
الوسائل لمنع هذه المضار ثم يتكلم عن أصناف الخبز ويبين ما يناسب  
عنها فى حال من الأحوال وما لا يناسب . وفى الفصل الثالث يبين منافع الماء  
الذى يشرب وأصناف الثلج والجيد والماء البارد والبارد وفى الفصل  
الرابع يتحدث عن منافع القتراب المسكر ومضاره وفى الفصل الخامس  
يتكلم عن الأثرية غير المسكرة وفى الفصل السادس يتكلم عن اللحوم  
ومنافعها ومضارها وفى الفصل السابع يتحدث عن القديد وهو اللحم  
المجفف بالخمر وفى الفصل الثامن يتحدث عن السمك ومضاده وفى  
الفصل التاسع يتكلم عن أعضاء الحيوان واضعلائها وطبائنها ومنافعها



ومضارها وفي الفصل العاشر يتكلم عن الوان الطبيع والوارد ومافعيا  
وفي الفصل الحادي عشر يتكلم عن الكوامخ والجبي المشي والقيبط  
والزيتون والمخللات وفي الفصل الثاني عشر يتحدث عن اللبن وما يتخذ  
منه وما يحرق مجراه وفي الفصول البالية يتكلم عن البيض والبقول التي  
تؤكل نيئة او مطبوخة والتوابل والابازير التي تستعمل مع الطبخ تم  
يتكلم عن الفواكه الرطبة واليابسة والحلواء وغيرها .

وكذلك من كتب الرازي كتاب في الأمراض التي تصيب جسم  
الاسان وكيف تعالج مختلف الادوية وأنواع الاغذية .

وقد احدث هذا الكتاب ثورة في عالم الطب في العصور الوسطى  
وكتاب آخر طريف في موضوعه وهو كتاب ( من لا يحضره الطبيب ) وقد  
وصفه ليؤدي به خنجة كبرى للقراء الذين لا يستطيعون احضار الطبيب  
للمعصر عن مرضهم والقيام بمعالجتهم لذلك اطلق على هذا الكتاب « كتاب  
طب الفقراء » وفيه يشرح كيفية معالجة المرضى في العن الجليل العلاج  
لكل اسان ولا شك ان هذا الصنيع يدل على الحائب الاساسي العظيم  
الذي عرف به هذا الطبيب العربي الكبير .

### يخلص آرائه في الطب

وللرازي آراء طبية عظيمة القيمة في هذه الصناعة وهي مبعثرة في  
كتبه غير انها في جمعتها تكون دستوراً طبياً يعرف به الطب الحديث  
اليوم وما يزال يستفح بتطبيق الكثير مما تضمنه ذلك الدستور الطبي  
وصا ورد فيه من آراء قوله : « اذا كان الطبيب عالماً والمرضى طبياً  
فما أقل لبث العلة » وغير شك ان هذا الرأي يترجم عن نظرية طبية منتظلة  
صادقة الى ما شاء الله وقوله : « ما اجتمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس  
وعضدته التجربة فليكن امامك » . وقوله على طالب الصناعة « يتسدد  
صناعة الطب » ان يزور على الدوام المشاوسبات ، ودور العلاج وان  
يوجه انتباهه لا يفتقر الى احوال من فيها وظروفهم وهو في صحة أعظم  
امانة الطب ذكاه وان يكثر من الاستفسار عن حالة المرضى والأعراض  
الظاهرة عليهم ذاكراً ما قرأه عن تلك التغيرات وما يدل عليه من خبر  
أو شرفه هو فعل ذلك - بلخ مرتبة عالية في هذه الصناعة وقوله :  
« اذا استطعت ان تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب » وقوله :  
« الحقيقة في الطب غاية لاندرك والعلاج بما تصنع الكتب دون أعمال الماهر  
الحكيم برأيه خطر » نقوله : « ان الحقيقة في الطب غاية لاتدرج ، دليل  
على ايمانه القوي بتطور صناعة الطب وفي قوله « ذاكراً ما قرأه عن تلك  
التغيرات » حث على الاتصال بكتب الصناعة ومداومة الاطلاع وبذلك يبلغ

الطبيب منزلة عظيمة ثم يقول : « ان العمر يقتصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الامراض فعليك بالاشهر مما اجمع عليه ودع الشاذ » ، وقوله : « حتى اجتمع حاليوس وارمسطولطاليس على معنى فذلك هو الصواب وحتى اختلفا صعب على العقول صوابه جدا » وقوله : « ومن لم يمن بالامور الطبيعية والمعلوم الفلسفة والكوابين المنطقية وعدل الى اللذات الدنيوية فاتهمه في علمه ولا سيما في صناعة الطب » وقال : « الامراض الحارة اقل من الباردة لسرعة حركة النار » وقال : « الناقضون من المرضى اذا اشتبهوا من الطعام ما يضرهم فيجب على الطبيب ان يحتال في تدبير ذلك الطعام وصره الى كيفية موافقتهم ولا يمنهم ما يشتهون ( البنية ) » ، وقال : « الاطباء الاميون ولقلدون الاحداث الذين لا تجربة لهم ومن قنت عنايتهم وكثرت شهواتهم قتالون » وقال : « ينبغي للطبيب ألا يدع مسألة المريض عن كل ما يمكن ان تتولد عنه علته من الداخل ومن الخارج ثم يضي بالآخرى ويسمى للمريض ان يقتصر على طبيب واحد ممن يوثق بهم فخطؤه في حنب صوابه يسير جدا » ومن تطيب عند كثير من الاطباء بشك في خطأ كل واحد منهم » وقال : « متى كان اقتضار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل » وينبغي ان تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقلدا على الدنيا ( كناية ) ولا معرضا عن الآخرة ( كناية ) فيكون بين الرعية والرهبة » .

ومما يدل على عبقرية الطبية اشارته الى اختلاف خطوط عروص البلدان وأثر ذلك في العلاج ومزاج الجسم فقال بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات وباختلاف عروص البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والغذية حتى يكون ما في الدرجة الثانية من الأدوية في الرابعة وما في الرابعة في الثانية . وقال : « اذا استطاع الحكيم ان يداوى بالأمثلة دون الأدوية فقد وافق السعادة » .

تلك بعض أقواله في أصول صناعة الطب وهي دالة بلا ريب على عقلية فذة في هذه الصناعة فقد تناولت دستورا طبيا عمليا يستطيع ان يمتنع به كل من الطبيب والمريض في عصرنا وحيدا لو اقتضت جامعات الطبية العربية بجامعة ( برنستون ) الأمريكية فعملت على اعداد اركان خاصة لدراسة الطب العربي واحياء ذكرى هؤلاء الأعلام من أطباء العرب ، وأن تبصرت نرات هؤلاء العلماء وأن نقرر فصولا كثيرة من كتابي الحاوي للرازي والقانون لابن سينا لكي تدوم في الجامعات العربية الطبية .

ولم يكن لبوغ الرازي مقصورا على الطب وحده فقد اضاف اليه تزيينه على الكيمياء وعلم اعداد الأدوية ( الاقربالين ) والصسلة قوية بين علوم

الطب والكيمياء . واستطاع الرازي أن ينتفع في الطب بمعلوماته في الكيمياء فكان أول من استعمل المليات واستخدم المركبات الكيماوية في الطب كما مهر في التشريح يدوغة عظيمة واستطاع بذلك أن يميز أعضاء الجسم بعضها من بعض وما يذكر أنه حينما فقد بصره في أيامه الأخيرة لم يرض بأن يقوم له أى طبيب بعملية قدح في عينيه إلا بعد امتحانه في عدد اثنتية العين ويقول : « هاتزشير » في كتابه روح الحضارة العربية . « عرف المتبحرون اللاتينيون الرازي ويعد بحق أكبر طبيب بين المسلمين وهو في الطب تلميذ « حالبينوس » ولكنه في الوقت نفسه ذو اتجاه تجريبي دقيق فقد كان يبنى مستعينا بمركزه عديرا لبيمارستان بغداد - بالملاحظات ( الاكلينكية ) ويصف تجارب صيدلية دولة للعمرى ولكنه يحاول في الوقت نفسه أن يعالج الأمراض بوصفات صحية وقائية ونظم للنظمية » .

ذلك طبيب من أطباء العرب يحترف بفضل العربون وقد كانوا أحرص على انكار فضلهم منهم ال اعتراف بهذا الفضل لولا عظمة الطبيب ولولا بقية من الأمانة العلمية فهل بعد ذلك يمكن أن يتعجب الشك البنا منقلبه الثقة بأنفسنا ١٧ ٠٠

## الحاوي في الطب

كتاب الله أبو بكر محمد بن زكريا الرازي فيه الامراض الكائنة في جسم الانسان ومعالجتها وسماء الحاوي لأنه يحتوي على جميع الكتيبة والاقاويل القديمة الفضلاء من أهل هذه الصناعة وقد بدأ يذكر ذلك من رأس الانسان وما يزل به من الأمراض -

والكتاب مطبوع طبعته الأولى عن نسخة إسكوريال ( رقم ٨٠٦ ) ورمزها ( الف ) وقد طبع طبعته الأولى هذه بطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن ، الهند سنة ١٢٥٥ م -

ويطبع الكتاب في اثني عشر جزء يقع الجزء الأول في نحو ثلثائة صفحة ويختص بأمراض الرأس وقد قسمه الى عشرة أبواب أصبحت الباب الأول في السكتة والقائح والغدر والرعدة وعسر الحس ويطبائنه والاضمحلات وعلاج الرأس والمغفوليا ، كما يتحدث في الباب الثاني عن الرعدة المتبدية والكائنة بعقب الأمراض وأوجاع العصب واسترخائه، وفي الباب الثالث يتحدث عن المالحوليا والألمعية الدوائية والمضادة لها وفي الرابع عن قوى الدماغ وفي الخامس عما ينشأ من الرأس بالمطوس والسموط والشموم وفي السادس تحدث عن القوة والخلع الفك واستيائه كما تحدث في السابع عن الصرع والكابوس وأم العصبان والتفرغ من النوم وخص الباب الثامن بالتشنج والتمدد والكزاز وتمدد العصب والمفاصل كما عالج في بقية أبواب الكتاب عددا من أمراض الرأس -

وقد قسم كل باب الى عدد من المقالات فتكلم في المقالة الأولى عن الأعصاب الآلية وقال : " ينبغي ان تكون عالما بالعصب الذي يأتي الى كل واحد من الأعضاء وما منها عصب الحس وما منها عصب الحركة فالعصب الذي ينبعث من الجلد يحس والذي يكون منه الموتى يحركه وفصل العصب يبطئه اما يثقل البتة في العرض أو رضى أو مده أو لورم يحدث فيه أو لبرد شديد يهيبه الا ان الورم والسدة والبرد قد يمكن ان يرجع فعله اذا ارتفعت عنه وان حدث في نصف العصب عرضا قطع استترخت الأعضاء التي في تلك الناحية وان شق العصب بالطول لم ينل الأعضاء ضرر البتة فانصد أيضا عنه مطلقان حتى عضو أو حركة الى أصل العصب الجاني

اليها فان كان قد برد فلا تفضله وان كان قد ورم فاجعل عليه المحللة وان  
 كا قد قطع فلا حيلة فيه ، \* وهو يستشهد بأقوال جاليتوس وأبقراط وحنين  
 وشمعون وسرايون وغيرهم ولاشك انه حارس التشريع فيقول : رجل سقط  
 عن ذابته فذهب حس الخنصر والخنصر ونصف الوسطى من يديه فلما  
 علمت انه سقط على آخر فقار في الرقبة علمت ان مخرج النصب الذي  
 بهمة الفقارة المسماة أصابها في أوب مخرجا لأي كنت أعلم من التشريع  
 ان الجزء الأسفل من أجزاء العصبية الأخيرة التابت من العلق يصير الى  
 الأصبعين والخنصر والخنصر وينتقل في الجلد المحيط بهما وفي النصف  
 من جلد الوسطى ، \*

وقد تناول الرازي في الجزء الثاني من كتابه طب العيون وفي الجزء  
 الثالث طب الأنف والأذن والاسنان وهكذا خص الرازي كل جزء من  
 أجزاء كتابه « الحاوي » بالمشرة بطب عضو أو أكثر من أعضاء الانسان .

وهو يذكر ما يسميه علامات كل حالة ويصف لها ما يراه من الوان  
 العلاج ويستشهد بأهله كتعريف أو حالات مرضت له .



ويقول ابن النديم : « ويسمى الجامع الخاص لصناعة الطب وينقسم  
 الى اثني عشر قسماً فالأول في علاج المرض والأمراض والثاني في حفظ  
 الصحة والثالث في الرقبة والجبر والزرع في قوى الأغذية والأدوية  
 وجميع ما يحتاج اليه من مواد في الطب والخامس في الأدوية المركبة  
 والسادس في صناعة الطب والسابع في صيدلية الطب والأدوية والوان  
 وطبوعها والثامن في الأبدان والتاسع في الأوزان والمكاييل ،  
 والعاشر في التشريع وعناقب الأعضاء والحادى عشر في الأسباب الطبيعية  
 من صناعة الطب والثاني عشر في المسهل الى صناعة الطب وهو مقالتان :  
 الأولى في الأسماء الطبية والثانية في أوائل الطب فالكتاب كما يبدو من  
 أقسامه الكثيرة سجل دقيق حافل تساؤل فيه الحديث من كثير من  
 للعلوم الطبية المعروفة من عصره ، \*

ويمكن انه يقال : ان الرازي في هذا الكتاب اهتم بشيئين وليسين في  
 صناعة الطب فهو يتناول الدرس العميق موضوع علم الأدوية (الاقرياذين) ،  
 كما يتناول موضوع الملاحظات السريرية وهي التي تتعلق بممارسة مهنة  
 المرض ويوصف العلاج الذي استعمل لكل حالة من حالات مريض أو مرضي  
 وتطور حالة المريض وما أسفر عنه العلاج من نتائج ويقال : ان الغنية  
 حاجته قبل ان يمسه ، \*

وكان ابن القيم يستحب آثار الرازي فوصل الى علمه ان هذا الكتاب في حوزة اخذ الرازي فاشتره بها بسبلغ كبير من المال ثم اتصل بتلاميذه الرازي في بغداد والري وطلب اليهم حرصا على حفظ آثار استاذهم وصيانة لها من التفرق والضياع - ان يقوموا بترتيب كتاب الحاوي وان ينسوا اليه ما نقص منه وما سمعوه من استاذهم فاستجابوا الى طلبه وقاموا بما عهد اليهم ونقول بعض الروايات : ان تلميذ الرازي جمعوا بعد وفاته ملاحظاته الطبية وأودعوها دائرة معارف طبية واسعة لتسجلها اتنى عشر قصدا أطلقوا عليه اسم كتاب ( الحاوي ) وقد فاقت شهرة هذا الكتاب غيره من الكتب الطبية ولقيته العظيمة اختصره كثير من الأطباء ومنهم علي بن داود في سنة ٥٣٠ هـ وترجم الى اللاتينية في سنة ١٤٨٦ م ثم طبع بعد ذلك بالبنسقية في سنة ١٥٤٢ م ومن هذه الترجمة الأخيرة نسخة في مكتبة جامعة ( كامبردج ) وبعض نسخ في مكتبة جامعة ( ليك ) . ويقول الأستاذ : ( براون ) : « انني متأكد نظرا لما اتصل بي انه لا يكاد يوجد نصف هذا الأثر العظيم » ويشايه في ذلك عدد من العلماء واذا صح القول فمعنى هذا ان كتاب الحاوي لا يوجد كاملا وأنه لابد ان تكون قد ضاعت منه أجزاء مهمة بسبب الأهمال من ناحية ولما أصاب الدول الإسلامية في أعاصير حروب التنازع تلك الحرب التي كانت سببا في انقلاف مجلدات لا حصر لها من التراث العربي الإسلامي من ناحية . ويؤكد جميع المؤرخون على ان التنازع قد أخرجا أكثر ما في خزائن بغداد من الكتب وألقوا بها في نهر دجلة كي تعبر فوقها جنودهم ولا تزال أكثر مجلدات هذا الكتاب صبغرة في مكتبات أوروبا غير انه في دار الكتب بالقاهرة نسخة مخطوطة تقع في أربعة أجزاء وقد كانت ملكا للحاج إبراهيم فان الملاحه المتبادلة بين الآتي والمتخلف تتعاقب في الحاضر ، بل ان الثلاثة ( أيضا ) والى جلة الشيء الذي يدعو الى مزيد من الأسف ان هذا الأثر الطبي النفيس لم يجد من علمه العرب وأطبائهم اهتماما جديا بالتقييم والبحث دقيق عنه وتحقيق الأجزاء المبعثرة منه في مختلف المكتبات في الشرق والغرب تهيدا لطبعه وإسراجه وص المؤكد ان الأوروبيين كانوا يجلبون هذا الكتاب في المنصور الوسطى ويمتدونه أعظم مرجع في الطب والدليل على ذلك تلك النسخة الطريفة التي تقول : ان جامعة باريس الطبية في القرن الرابع عشر وقع بعض أبنيتها خلل وأراد مجلس ادارة الجامعة ان يقوم بإصلاح هذه المباني ولكن المال كان يورثه فاضطر أعضاء المجلس الى طلب مائة مائة من أحد رجال المال الخروفين ولما كانت طريقة الاقتراض تستلزم تقديم ضمان للمبلغ المطلوب تحرير أعضاء مجلس ادارة الجامعة اد لم يكن عندهم ذلك الضمان الا الكتب ، وعنده اشترط صاحب المال كتاب ( الحاوي ) للرازي ضمانا لماله وغير شك ان هذا الرواية تترجم في وضوح ما كان لكتاب الحاوي من منزلة عليية عند الأوروبيين

ومن أجل ذلك علمه وجال المال في تلك الصور وصيغنا عظيم القدر تعادل  
قيمتها مقدارا كبيرا من الذهب .

ويتحدث الرازي في المجلد الرابع من النسخة المخطوطة المحفوظة  
بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٧١٧٦ طب عن أمراض المثانة ومجاري البول  
وأعراض النساء والولادة بما يتبع حلقه ومهارته في تشخيص هذه  
الأمراض ووصف الدواء وأنواع العلاجات المفيدة التي تؤدي إلى الشفاء  
والشفاء .

فيقول في الصلابة الحادثة في الكلى : « إن حدث في الكلى ورم صلب  
مستحجر لم يحدث معه وجع بل يحس الخليل بأن شيئا ثقيلا معلقا في  
كليته ويكون هذا الثقل في القطن ويتبعه ضعف الساق وخدر في الورك  
فيكون البول مائيا قليلا لأنه يكون صافيا ويحدث لذلك ترهل في البطن  
وفساد مزاج لذلك يجب أن يعالج بالأدوية التي شأنها أن تلي الصلابة  
وتفشي الودم نحو الادھسان وبالتدليك والتسريح الرطب والحق بالمليحة  
ثم يسقى المريض الأدوية المسكنة التي تدر البول أدرا سحلا » .

ويقل في القروح الحادثة في أجهزة البول : « إذا كان في هذه  
الأجهزة قروح حدث بول لثة أياما كثيرة مع عسر البول ويعرف أثر  
القرحة مما يبرز مع البول فإن كانت القرحة فوق الكبد ونواحيه - كان  
البول مضروبا مع اللثة ولم يسم أياما كثيرة وإن كان بالبول قطع لحم فانه  
من الكلى وإذا كان فيه تشویر فانه من المثانة أو من مجاري البول اليه  
والفصل بينهما أن التي من المثانة تنزع ریح وليس التي من مجاري البول  
يتنا . فإن احتبس البول فالك تعرف ذلك من مكان الوجع وشدة فاك  
كانت القرحة في الكلى يكون الوجع في القطن والتي من مجاري البول  
يكون في الحالبين والتي في المثانة يكون في العانة وعسر البول يكون  
إذا كانت القرحة في المثانة ، فأما إذا كانت في الكلى فإن البول يجري  
يسهولة وإن كان الوجع شديدا جدا فالقرحة في المثانة وإن كان متوسطا  
ففي مجاري البول وإن لم يكن وجع فهي في الكلى والنقل معه لازم له  
وإن حرت اللثة بلا بول فإن القروح قريبة جدا » . ثم قال : « وقروح الكلى  
تبرأ بسهولة فأما قروح المثانة فتعسر وتعالج هذه القروح باستعمال  
الأدوية المثقية للبدن والوسخ الذي في القرحة حتى إذا بقيت استعملت  
الأدوية المقلصة ومن الأدوية المفيدة عمل مزيج معين من بشر ( القنما )  
القنن ويزيد البطيخ مع الجسل أو من ماء الجسل المصقول بغير الكولس .

ويلاحظ أنه يبدأ أولا بوصف أعراض المرض والعلائق المميزة له في  
كل حالة من حالاته ثم يصف الدواء في ضوء الأعراض التي يحس بها

المريض أو تظهر عليه وهذه الخطوات شبيهة جداً بما يجري عليه الطب الحديث في عصرنا فالطبيب يفحص المريض للتعرف على نوع المرض ثم يصنف العلاج المناسب لمرضه ، واعتراكا بفضل الرازي لايعوتنا ان نشير الى انه كان اول من شخصى امراض المثانة فى المصور الوسطى تشخيصا دقيقا وأنه كان الى جانب ذلك حجة فى علم الولادة . ومن رآه ان السبب فى امراض المثانة يرجع الى اختلاط الدم بالبول وكان من اول من استعمل الحقن فى علاج الامراض .

اذا اردنا ان نجمل الصفات الطبية للرازي اجمالا يبين مزايده - لم نجد جبرا من وصفه بأنه كان أستاذا ، وكان طبيا ممارسا ناجحا ، وفى هاتين الساميتين تلخص حياته العلمية .

كان أستاذا ، فكان عليه ألا يخرج خروجا صارخا على أسس العلوم الطبية كما عرفها أهل زمانه ومن سبقهم ، وأساتذة الطب لا يرون من واجباتهم ان يتورعوا على النظريات الطبية القائمة ، ولا ان يقدموا للناس نظريات جديدة حتى يفسدوا الزمن ويتبين خطأها او صوابها .

وكان الرازي كثيره من الأطباء العرب يؤمن ايماناً راسخا بالطب اليونانى ، فهو قائم على مطلق لا يقبل البطل ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يعترض على بعض آرائهم ، يفندنا نقيدا قد يكون أحيانا قاسيا عتيفا .

لقد أورد ابن أبي أصيبعة أسماء اثنين ومائتى كتاب تصبها للرازي فى مختلف فروع المعرفة ، وذكر مساعد الانلسى بأنه ألف ثلثا على مائة تأليف وأكثرها فى الطب ، وأشار الفهرست الى لمانية وستين كتابا وتسع ومئتين رسالة ، وذكر راتكنج ان الرازي ألف مئتا وخمسين مقالة فى الطب وثلاثين فى الطبيعة ومئتين مقالة فى المنطق وعشرا فى الرياضيات والتجوم ومئتين رسائل فى التفسير والتلاخيص وعشرين رسالة فيما وراء الطبيعة ومئتين مقالة فى الفلسفة وثلاثا وعشرين رسالة فى الكيمياء وأحد عشر مؤلفا فى مواضيع شتى . وقد لاقت بعض كتب الرازي فى الطب رواجا كبيرا فى أوروبا ونقلت الى اللاتينية فى أكثر من طبعة ويعتبر سبارتن كتاب ( الحاوى ) من أكثر كتب الرازي أهمية ، ووصفه بمجموعة عظيمة فى الطب تحتوى على ملخصات كثيرة من مؤلفين اغريقين وهنود اضافة الى ملاحظاته الدقيقة وتجاربه الخاصة . وقد أشار الرانزى نفسه الى المصادر التى استقى منها المعلومات الطبيعية من اغريقية وهندية ، وترجم الحاوى الى اللغة اللاتينية وطبع لأول مرة فى برشيا فى شمال إيطاليا عام ١٤٨٦ م وهو أضخم كتاب طبع بعد اختراع المطبعة مباشرة ،



ثم أعيد طبعه مرارا في البندقية في القرن السادس عشر للميلاد ، وفي الطبعة اللاتينية قسم الحاشي إلى خمسة وعشرين مجلدا . - والحاشي تحت الطبع باللغة العربية الآن تشرف على طبعه دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد وقسم في هذه الطبعة إلى عشرين مجلدا وقد صدرت المجلدات باستثناء المجلد الأخير - وتصح مهارة الرازي في هذا المؤلف العظيم الذي اعتمد عليه كبار علماء أوروبا ، وأخذوا عنه الشيء الكثير ، وفي ترجمته في مدارسهم وحاضراتهم إلى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد . . ولهذا اعتبر الرازي بحق أعظم أطباء الإسلام وظل الكتاب حجة الطب بلا منازع حتى القرن السابع عشر !



ديوان المتنبي

المتنبي

٩٠٠-٢٩٦٥



قليل من الناس بلغوا مبلغ المتنبي في الشهرة مع أن العبارة والالفاظ يملأون صفحات التاريخ بأخبارهم وأثارهم - ولو أن الأدب العربي أتج لها ما أتج لأدب العرب من الذيع بالترجمة والنقل لكأن المتنبي في مقدمة المشاهير الذين يلهج الناس بذكرهم في الشرق والغرب على حد سواء - ولو أن الغريبيل قوما شعر المتنبي لأهملتهم تلك العبارة الجبارة وهذا الروح الثواب القلاب الذي يكتسح حتى لا تكاد ترى أمامه إلا المناقس \*

م - لو قرأ الغربيون شعر المتنبي لوقفوا أمامه ذاهلين وأستلقى القول على عواصف قلل أذهلت ربايات الخيام أديبه العرب وقرأه الأدب فيه وفقت أمامهم أكانا جديدة لم يروها من قبل وتائق نجم هذا الشاعر الفارسى في أودوا وهريكا كما لم يتائق لظ في الشرق ، مع أنه الخيام دون المتنبي مرتبة فهو شاعر يشد على وتر واحد بينما يشهدو شاعرنا على أوتار هي جصاع الفن والحكمة والفلسفة \*

و أول ما نلاحظه من أمر هذه الشهرة التي لازمت المتنبي في حياته ولازمت تاريخه بعد موته أنها مركزة على أسس متينة ودعائم قوية \*

والشهرة عندنا هي الصعود للخصر ومقابلة معاول الهنم - وما أكثرها ! - وقد صمدت شهرة المتنبي في حياته فتخطت دولها معاول الهنم الذين في نفوسهم حقد وفي قلوبهم تنقي مرابل الحصد وتلهيه تار البغضاء ، والذين مازالوا يذكرون مثالبه ونقائصه فيعتفون - أو يترفح حسهم - بشاعريته التي لا تجارى على وغير مكلون في الصدور \*

ثم صمدت شهرته للنقاد الرايين عليه بتقديمهم بعد حياته مع أن طريقا منهم حاولوا ختمها بمحاول هيئات أن تهيم التراث الادبي لبقى المتنبي حيا ولم يذهب رسمه ولم يطف أثره \*

وصا يزيه في رسوم هذه الشهرة أنها بلغت قايته على الرغم من أن شعر المتنبي لم يكن كالنسمات تهب رجاء أو كزقات الصخر تروى الشاربين بل كاف شعرا جليلا يهتف به شاعر عبقري فيذكر في القلوب ناز الحماسة والنبالة ويتمم الانظار والالامبال بالوان من الفن الرفيع ، يعطاول إليها الناس ويتشوفون لها كل أن يلقوها ومثل هذا الشعر لا يقدره حق قدره إلا الراستقون في دراسة الأداب الرقيقة التي تسمى

بالأذواق إلى ما هو أعلى من أذواق العامة والمتفرجين من عشاق الألفه المخذت .  
فهذا الشعر خلقه المتنبي وعلى هذا الأساس المتنبنى شهرته ونقلى اسمه  
على الصخر بينا خط معظم مفاصيره من الشعراء أسماهم على الرمال .

والك لتعجب وانت تقرا ديوانه كيف انه استطاع أن يجمع كل  
جمله الأقوال الماثورة والأبيات الحكيمه في صعيد واحد ، لعلك أن معظم  
السابقين واللاحقين من الشعراء كانوا يتشخصون والبيت المأثور بعد  
الذي ان الطويل \*

ثم انك لتعجب من هذا الروح الغلاب الذى رجع الشعراء وسادهم  
دون أن يدروا طوره وتعجب لتلك الحوادث الجسماء واندماجه فيها ماحدا  
وحاجيا وحكيما بعد أن حلب الشعر أشطره ولاعتداده بنفسه وشيوخ ألفه  
وشيلاله ولتعباريه وتغافته التى يبدو لها مثل .

لعمرك لتعجب لكل هذا إذ تفاجأ به أول وعلة وأنت تقرا ديوانه  
وأخباره فتعود إلى نفسك فتقول : لا جرم إذا خلق المتنبنى وطبقت شهرته  
الأناق ..

ثم ان المتنبنى فخره ينزعة أخرى غير لوعة الشاعر الفنان إذ كان  
يخسب اليه أوقع من الشعر والشعراء منزلة وأن الشعر عطية إلى الملك  
والسؤود ويرى أن يخضسه ألفا أن تسكن اللحم والطعم .. والحق يقال  
انه كان عطيا في شعوره وحركاته وسكناته فقد كان شعره على دباب  
سيفه وسية قوسه وكانت له أبيات تهول ، وقد أضفت عطية نفسه على  
شعره هذا الجلال وتلك الروعة ( التى تركت في الدنيا دوياء ) كان يود أن  
يكون ( للسيف والمفتكة البكر ) لا للشعر والمدائح فلا تعجب أن تشتهر  
قصائده من وحى الملك والبطولة والفرى الرعي .

أما مفاصيره من الشعراء فقد كانت قصاوى آمالهم صلات الامراء  
وعطاياهم وكان الخوف من شياخ هذه العطايا سباجا يحول بينهم وبين  
استجار ما شعروا به .. لقد كانوا أذنايا ولم يكونوا سادة وكانوا ملهات  
وأداة من أدوات التسلية كالانزمام فى ملاط الفراشة سواء بسواء ، كانوا  
ينطقون بلسان سادتهم وأمرائهم ، فلم يجرؤ أحدهم على مجازاة المتنبنى  
فى قوله :

وما الدهر الا من روعة قصائدى إذا قلبت شعرا أصبح الدهر منكسدا

ولم يدع أحدهم اليه ( خلق ) أميا من الأمراء بل كان الأمرهم هم  
الذين يخلقونهم بينما يحق للمتنبنى أن يفخر بأنه ( خلق ) كالمسود

بمحانه المقلح ومخريته اللذعة - - فلولا لما تمثل كاهن في أنفاسنا عبدا  
 حصيبا بطيئا حشيره نصفه وتكاد تحسبه متعبا وهو حافي القمصين ، ولد  
 كان شعور المتنبي يتفوق شعره على شعر تصويحه عظيمًا حتى أن هذا  
 المشهور القلب إلى الإعجاب بالنفس وشيلا لا أحد لتطاولها ما جاء  
 أن يقول :

أني كل يوم تحت ضجى خسوسر ضعيف يثاويني ، قصير يطاول ؟

ناظر إلى كلمة ( خسوسر ) هذه وتأمل فيما تحويه من معاني الزاوية  
 والسخرية الاليسية ، ثم إن جلال شعره وفخامة جرسه جملة يميز في  
 البلاد ويؤثر في الأنام الضعاف ما يؤثر شعر منافسه وحسانه وهذا  
 ما جعل الأمراء يستقسمونه ويحللون له العطاء ، وقد بلغ قلبي بعضهم على  
 لقلته وحرسهم على مجيئة حد الضحك ككافور الذي كان يلقى بالمتنبي  
 ويقرب قلوبهم ولا يزال يتراوح بين اليأس والرجاء حتى يقبل لهذا أعصابه  
 ويطنن قلبه -

وقد ساعدته على بلوغ تلك المكانة عند الأمراء والولاة عدم استقراره  
 في حاشية أمير واحد أملا طويلا وعدم قصره مدينته على رجل واحد فكان  
 يشد الرحال إذا سئم المقام في قصر أمير أو وزير وينهب إلى غيره ليمسكه  
 ولينعم عنده شهرا أو عاما ثم يهضمه أهوام تاركًا وراءه الإعجاب بشعره  
 والحدق عليه مستقبلا وجوها جديدة متقبلا عطايا جزيلة لا يدفع لها أمنا  
 من كرامته وعزة نفسه ، ومن هنا تهاوت عليه طلاب المدح فعلا تمته في  
 سوق الشعر بينما كسفت بضاعة جبل منافسيه فصعدوا إلى غيظه -

ومما زاد في غيظ منافسيه وحسانه أن شعره خلا - أو كاد يخلو -  
 من الفزل والنخش متخالفا بذلك جبهة الشعراء القدامى والمحدثين  
 وأنه لم يكن متهاككا على النساء شأن غيره من محبي الترف وأصحاب الشهوة  
 الجامحة ولم يكن لشهوه منه إلا ساعة ثم يسه ريشه ، قللة إلى غير اللقاء  
 تجاب ، ثم أنه لم يكن سكرانا عريضا فخلا شعره من أوصاف الخمر إلا فيما  
 ندر وظل جالسا مطورا إلى آخر زيت في ديوانه - كل ذلك كان ترفعا  
 عما درج عليه الناس من هالوك التفرل والمنازمة ومسوا بالسر والفر  
 إلى قنن الرجولة والبطولة -

والمتنبي هو الشاعر العربي الوحيد - ليسا نعم - الذي كان لا ينجيب  
 الأمراء بل يدخل عليهم ويخطبهم مخاطبة الند للند والصديق للصديق ،

وقد روى أنه كان ينتقد الشعر وهو جالس أمام سيف الدولة وإن طاهرا  
 العلوي أجلسه على سريرته وجلس بين يديه ، وهذا نصر عظيم للشاعر  
 ولشعر نفسه فقد بيض المتنبى وجهه بعد أن سوده الشعراء الملاحون  
 المستضعفون وإن شعرا يقوله شاعر معتدا بنفسه متقلبا عما درج عليه  
 الشعراء من الصغار والزراية لخصي بأن يذيع قيلهج به كل لسان .



## الحياة الفكرية في عصر المتنبي

كان يميز الحياة الفكرية في القرن الرابع الهجري الذي عثر فيه المتنبى شيوع الفلسفة وأزدها ، فاثبتت الفلسفة وأكثر العلوم العقلية منذ هذا العصر مذهباً علمياً وصار لها أسلوب مدعبي خاص وقد مشى معها علم الكلام وأقبل عليها المتكلمون .

وقد ظهر ابن النديم بكتابه « الفهرست » في الربع الأخير من هذا القرن حاشداً فيه صفوف المؤلفات في عصره وما قبله وقبيلها من كتب الفلسفة مقدار يدل على رواجها واتقانها وتفرغ العلماء للبحث والتأليف في هذا العصر تفرغاً لم يهتد السابِقون .

ورق شاع في هذا المنتصر اقتناء الكتب وكثرة المكتبات وغبار الملوك والأمراء بعه الخليفة الأمين يفاخرون باقتناء المصنفات وتجاهلون إلى شراء لوادعها . وفي أواخر هذا القرن أولت بغداد بالكتب والتأليف وصبح مثل ذلك أمراء الأندلس فكان الحكم منساجب الأندلس ينسج إلى المشرق بالمسند والتجار الذين كانوا ينتقون له أحسن المخطوطات وأطرف المؤلفات منذ ظهورها وبلغ فهرس مكتبته أربعة وأربعين كراساً كل كراس بمئتين ورقة وكذلك كان الأمر بمصر ، فأنشأ في سنة ٤٠٩ هـ وظهرت الكتب على التراكات والموازين في صدر هذا العصر وحسن توفى « محمد بن نصر الحاجب » خلف كتباً قومت بأكثر من ألف دينار .

وكانت حلب في أيام سيف الدولة دار علم وأدب وملتقى الفكرين والضيعة وقد كثرت فيها المكتبات ، وكان قصره في ظهر حلب في مكان يسمى « البهية » مزجها بنوادير المصنفات وكان يجري على العلماء حرايات عالية ليعرضوا للمسلم والتأليف فأجرى على الفيلسوف والموسيقى أحمد نصير الهاراني المتوفى سنة ٢٢٦ هـ أربعة دراهم كل يوم ، وكان الهاراني أشهر من ظهر من الفلاسفة في عصره قبله عن معرفته عن الموسيقى العربية ، كما ظهر « أخوان الصفا » برسمائهم الفلسفية القديمة التي أنشأوها بعونها وجوارها في الطبيعة وما وراءها وفي المجهول والظواهر وكان لها أثر عظيم في تبصير العقول على نكاد نهجها من أساليب التوفيق الفكرية وكانت حورداً عالياً لكثير من الفكرين .

كما ظهر في هذا العصر أبو الريحان البيروني وأبو علي ابن سينا  
وقد مهد الفيلسوف الكندي الذي جاء في العصر السابق كثيرا من مباحث  
الفلسفة لمن جاء بعده .

أما البيروني فلم يكن فيلسوفا محسب وإنما كان موسوعي المعرفة  
والثقافة وهو مؤرخ وجغرافي وقد عاش بعد منتصف القرن الرابع وحيث  
نضج تفكيره ونرس بالمجتمع على دراسة التطور في حياة الأمم وكان له  
فضل كبير في أن ينقل إلى علوم العرب وتاريخهم ما كانت عليه الهند من  
العلوم والمعارف فنقل من عبرة أربعين عاما في نقل هذا التراث الهندي  
إلى العربية وكان بيته وبيت ابن سينا مكتاتيات قافاد كل منهما في الآخر .

وأما ابن سينا الذي احتفل العالم العربي والفارسي في عصرنا بمرور  
ألف عام على مولده ، فقد انتهت إليه الفلسفة والطب وكان له في تصانيف  
الفلسفة دراسات لعمية تشبه إلى حد قريب مرامى علم النفس اليوم  
في نظرياته وتجاربيه وكان هذا العالم إلى عقله روحانيا حكيما .

وقد عاش أبو الطيب المتنبى في عصر تألق بالأدب من كل صنف .  
وله راجت سوق هذا الأدب وتقرب به أهلوه إلى الملوك والأمراء وكانوا به  
يحي متكسبين للمعيشة وبين محبين موهوبين ولا عجب ، فقد كان الأدب للامة  
العربية عند صدر الاسلام حتى فواخر العهدين العباسي والأندلسي ديوان  
حكمتها ولبناتها ومظهر تفكيرها وشعورها .

أما الأدب فكان في القرن الرابع الهجري مرآة مصحابة وصور  
نقوشهم وأحوالهم ولم يكن يسهل من الجامعات ففيه آثار كثيرة صورت  
مجتمع هذا العصر في الشعر والنثر .

أما الشعر في هذا العصر فقد اصبحت في قريحة المتنبى عبقرية قياضة  
ومواهب متجاوبة . وكان أبو الطيب أكثر الشعراء طموحا بل كان في هذا  
التألق والتجند ثمرة تطور فني وتمازج فكري بدأ من الثلث الاول للقرن  
الثاني وذلك بقيام الدولة العباسية فمعه يقصر بين يرد حدثت في عصر  
العرب حمرة جديدة وظل الشعر طفرة رائدة وجاء أمستاذ الشعراء  
أبو تمام لفتح بابا جديدا لصناعة الشعر العربي وخصي تلميله البحتري  
على غمراه في صنع الشعر وقوله وإن أدخل عليه من ذوقه وغنه الشعر  
الكثير سواء في الوصف والتصوير لم في دقة المصن والتعبير كما أحلت  
تلوح بوارد الابتكار في المعاني الطريفة . وكان أبو نواس وصحبه من شعراء  
العصر والمجاعة يدعوا في هذا الشعر فبهطوا فيه روح التجند والتفنن كل  
ذلك مع حفاظ على ديباجة القول للحكم الرصين وإبراز القصائد والمضامات  
في طراد دقيق تزيين حاضر هذا الشعر بإغنيته لكن الروح القدية الحديثة

دخلت هذا الشعر وأذنت الحصاره يتنازع التقاتلات ، كما آذن الزمن  
أن يرث القرن الرابع كل هذه الصفات والمزايا في الشعر العربي ليستقل  
أبو الطيب هذه الموازين ماثلة مستحبة فيتداول أروعها ويختصر شعره  
بأقوى ما فيها .

وكان بين الشعراء المبرزين آخرون دونهم في الشهرة والقصيد في  
هذا القرن - وكانت لهم آكار فنية شاعت لدى القوم حتى تساهل النقد  
والبحت - فيهم الشاعر أبو بكر الصموي الحلبي الذي كان خازنا لمكتبة  
سيف الدولة وكان له شعر حسن ومن سوء حظه أن لم يمت به الثعالب في  
« يتيمة الشعر » ولا الاصبهاني في « المغانية » .

وكان في بلاط سيف الدولة شاعر آخر هو كشاحم وله مغارلات  
كطيفة في الشعر كما كان يجول بين حلب والموصل شاعرا ناضرا  
الخلدريان وكان يسمىها الثعالب بالناحرين .

وفي « يتيمة » الثعالب شعراء كثيرون غير هؤلاء عاشوا في ظل  
سيف الدولة كالناعمي أبو العباس ، وكان المهدي أبو فراس الحمداني وعائش  
آخرون من الشعراء عند البويهيين في فارس أو بالعراق .

## المتنبى فى عصره

### ١ - مولده ونشأته :

ولد أبو الطيب المتنبى بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ واسمه أحمد بن الحسين ابن عبد الصمد الجعفى . وقد فتح عينيه على الدنيا فى حى « كنفه » وهو حى نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتح الى هذه البقاع وهم من أصل يمانى من كنفه فسموا منازلهم الجندية باسماء منازلهم الأولى للذكرى والفتن . وفى شعر أبي الطيب ذكريات فى هذا الحى من الكوفة وكان عازقا فقال فيما يحن اليه :

أمنسى السكون وحضرموتنا      ووالدنى وكنفه والسبيما

كل هذه أماكن بالكوفة ذاتها عرفها المتنبى فى نشأته وصباه وكانت الكوفة من أجمل بلدان العراق .

وقد جاء شعر المتنبى موضحا لسيرته وحوادثه ولم يتفق لشاعر عربى برزت أطوار حياته وعصره فى شعره مثلما اتفق لأبى الطيب ، ففى ديوانه صور نفسه ومراحه وخصائص فكره وضروب المحن التى لازمت زمره ولايست أهله وحكامه وتستطيع أن نقسم سيرته وحوادثه الى الطسود أربعة :

### ( ١ ) الطسود الأول :

لما أبو الطيب بالكوفة متنفلا بين الوراقين مستجيبا لوصى فى تفكيره مبكر نال متشبها ما يقع بين يديه من كتب ودفاتر فلذا سُمى القراء حتى الى مجالس العلماء يتلقى عنهم أصول الجدل واللغة والبيان ثم دلف الى فريق من قومه اختصوه بالتقدير ، فأحاط علما بأبناء الحكام وسياسة الدولة مما كان يزيد فى شجونه وأضيقاته وشغلت الى المحطوطات والمنعنين ليجد نفسه صفر البدين ملحوظا من حاسديه . لكنه يحس الغزاء فى جدته التى كانت تحبه وتقديره ولم يجد بها من الانطلاق الى البادية لعله يلقي حظا وحيرا فلم توفق بيته فيها ولم يكتسب الا مودة ومعرفة غارت الى

جدته يقاسمها الحسرة والضغينة إذ عانت قبله من العلويين ما عانت وإن  
محموا إليها بعد حين بالهودة والمروءة \*

وفي عام ٣٢٠ هـ راح إلى بغداد دون رضى جدته فشهد الوفاة من  
الخطوب والأحداث من تمارع الأمر والولاة وتضارب الأهوال بين الشعب  
والأمراء وكان يرجو هناك نصيبه من الرزق يمدح من يستحق المدح  
فتأبى على هؤلاء المتنازعين المترصين ورفض أن يشي شعره على أحد  
منهم بل زاد حقه وثارت هواجسه وقد صور الشعور في أبيات كثيرة  
موزعة في قصيدته \*

وشاقت عليه بغداد بما رحبت فاذتعل إلى بادية الشام وجال في  
مدنها وقراها حتى هبط دمشق بعد عام وهو يرسم الخطط ويبعث في  
نفسه أمورا خطيرة يحقق بها مجدا وانتقاما فخر بعلب وانطاكيا واللاذقية  
حيث احتفى به طر من الأعيان والكبراء كصبيد بن عبد الله الكلابي وأبي  
المنصور الأزدى ويزيد بن عمار الأردني ومحمد بن زوية الطرسوسي وغيرهم -  
ولقد مدحهم بشعره على عادة العرب ولا يجوز أن تشبهه بالشعراء الجوالين  
كما رأى الأستاذ بلاشير إذ منبهم وتقدم الأكبر منهم ولم يكونوا من  
انفسه وحظي لدى أولئك الأمراء لفطر منهم بالهنايا والعطاء ثم ارتحل  
وحضى إلى طرابلس الشام فلقى فيها اسحق الأعور المروءي بأبن كيقطن  
وكان أميا لا يقدر الشعر قدره ، فأوزن إليه حساد لأبي الطيب بأن يخلص  
منه مئة فاحتل الشاعر وهاج كبه المتطاول فلم يجد أبو الطيب مناصا -  
من هجوه - إذ حال بينه وبين المسير ومعه عليه اللدب - فجهاد بقصيدته  
لو حسم ما قاله القرزقي والأخطل وبشار في التفتيح والافتداح لما رجع  
على ما في قصيدته أبي الطيب هذه وقد جاء فيها من الأبيات التصورية -  
اللاذقية غير الاقتداح قوله في وصف ابن كيقطن :

وإذا أشار معدنا فكانه فرد يهيمه أو مجوز تلطم

وفي رواية ثانية أن أبي الطيب وصل به العجول إلى اللاذقية حيث  
لقى حمادا بن اسماعيل فراء حسن السميت فصيح اللسان جدى القول  
فتماروا وتبادلا الرأي وقد بلغ الزهو من التنبس مبلقه حتى زعم حمادا أن  
أبا الطيب قال له أنا نبي مرسل ثم رأى من البراعة والاقتدار ما جعله  
يؤمن ما ادعى من النبوة والمجزة - وإلى هذه الزورة للاذقية المنار أبو العلاء  
المعري في رسالة الغفران ودفع عن شاعره تهمة النبوة بقوله : ه لأن لطق  
اللسان لا ينسب عن اعتقاد الانسان \* وكان قد وصل إلى اللاذقية كلام نسب  
إلى أبي الطيب يمارض به القرآن \*

من أجل ذلك حيسه امر حصص حتى استتاب وليس من المقول هذا  
الادعاء فقد خلط الرواة بين النبوة المزعومة وبين تسمية المنتهى نفسه  
بالمعلوية حيث يقيم فريق من العلويين الى يوم الناس هذا . لقد حققنا  
على ابي الطيب لانه انتسب اليهم فزعموا انه ادعى النبوة وقد خالفوا ان  
يستهو القلوب بسحر بيانه ولبل غايته فنبذوه واحاقوه .

ان شجاعة ابي الطيب هي التي جعلته يقتحم الأرض التي ضمت  
طوائف من العلويين قبهم الفاطمية والباطنية واليهيم أشار بقصيدته الدالية  
التي استلطف بها :

فلا نسمعن من الكاشحين ولا تميأن بعجل اليهود

وما تراء هذه الأرض موطن الطوائف العلوية وفيها ظهر منذ بضع  
سنين شخص ادعى الألوهية وليس النبوة حتى لظى عليه الكضاء بالموت  
شنعاً .

والحقيقة السياسية في النبوة المزعومة ان أبا الطيب حين مر بقبائل  
البادية وأعمال الشام وتلقى دعوة بالحفاوة والرضى لما شهدوا من نقلا  
علمه ولبل مقصده ورجاسته وقد استجاب له بالتأييد منهم بنو كلب . وكان  
يدعو للمروية ورد الأعاجم الى ما كانوا عليه قبل ان يتطاولوا وينشدوا  
المساواة بولاية أمرهم ولا أشك في انه تزعم حركة عروية ثورية غرضها  
سياسي لا ديني وقد آل أمره الى السجن والاعتقال بعد المطاردة والتشريد .  
وفي سجنه كان عظيم النفس لكن عجز الحديد والجوع أجبراه على التماس  
المفر من الحاكم في ذنب نوله ولم يفعله ويعين هذا من قوله في القصيدة  
الدالية :

وكن صادقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأوا بعينه  
وعطف قلب الحاكم على الغريب وأيقن أن الوشاة زوروا أقواله  
نقال :

يئس أيتها الأصم الأريب لا لشئ الا لأنني غريب  
طالب عابى لديك ومعه خلقت في ثوب العيوب العيوب  
وقد أفرج عنه الحاكم بواسطة بعض التلويحين الذين سعى اليهم  
بالشكر بعد خروجه من السجن .

## ( د ) الطور الثاني :

خرج المتنبي من سجنه لا يرى على شيء وإذا هو بعد مدين يجره  
انطاكية فيمدح أميرها أيا العشائر الحسداني ويؤزر سيف الدولة هذا  
الأمير وانطاكية في انطاكية فيقدم أبو العشائر شاعره المتنبي لأمير حلب  
وكان المتنبي قد منح نفرا من الأمراء ونال عطائهم ورضاهم .

وبدأت الصلة بينه وبين سيف الدولة منذ ذلك اليوم فعاد لمديحه  
وشيافته فقبل المقام بشروط تقس حريته وكرامته .

كذلك بدأ أبو الطيب بهيا الطور الثاني من سيرته فبقى في حلب  
من سنة ٣٣٧ حتى سنة ٣٤٥ وفي هذا الطور قال اروع شعره في تصوير  
المعارك والوقائع ، اذ كان يحضر مع سيف الدولة حروبه لبيزطة وبيد  
ضربها من البطولة والمغامرة ، اذ كان فارسا صوارا وقد ازدادت صرخته  
بالصلاح والحرب منذ لزم سيف الدولة .

ووجد المتنبي ضالته في شخصية سيف الدولة ، وطالما جاب الآفاق  
باحثا عن مثلها ليجعلها عوضا لشعره يصور فيها الآباء والفروسيه  
متجلبين في السماء عظيم حتى وجد أمير أحلامه سيف الدولة الحسداني  
فاودعه آماله الجسام التي عجز هو عن تحقيقها في وحدة العرب .

## ( ج ) الطور الثالث :

فارق أبو الطيب حلب ووجهته الى دمشق لأن حصن التي أحبها  
كانت من أعمال سيف الدولة فلم ينهب اليها بل اتخذ طريقه الى دمشق  
وكان عليها من كافور حاكم مصر واليهودي يعرف بأبن ملك . فلما نزلها  
أبو الطيب طلب منه واليها أن يمدحه بشعره أسوة بشعره فرفض وكره  
المقام بدمشق من أجله لكن هذا اليهودي جعل كائنور الأجنبي يطلب  
أبا الطيب . فسار الى الرملة في الجنوب وتلقاه أميرها الحصن بن طنج  
بالتكريم اذ حمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفاً محلياً واعطاه هدياً  
غالية فمدحه أبو الطيب بقصيدة اشاد فيها الى ما لحقه من تهديد ووعيد  
من الأعداء والفساد .

ولما كتب كائنور الى أمير الرملة في طلب أبي الطيب لم يجد هذا  
بدا من الرحيل اليه وأقبل المتنبي على كائنور مصر فاحتفى به وأمر له  
بمسزله ووركل به من يتخذه ويعني بأمره ثم خلج عليه الخلع وطلابه يمدحه  
فاستجاب أبو الطيب على حذر ومخبرية وحمل نفسه على أن يقول ما لا  
يعرضه فقال أول أمره معه لصيدته التي كان مطلقها :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنيا ان يكن لعائيا  
تميتها لما تميت ان تسمى صديقا فاعيا او عدوا مداحيا

ولم يستطع أن يشترط على كافور ما اشترطه على سيف الدولة  
وهو يشده شعره فوقه بين يدي الاخشيدي يلقى شعره وكان كله حسا  
مبطنا بالتهكم والاستهزاء موجبا بالهم والاسى .

وكان كافور ادبيا سياسيا فلم تنف عليه خافية مما جاء يشعر  
ابى الطيب لكنه احتمله على مضض لعله يكتسب مودته ويظهر بدمه  
وتنازعت حياة ابى الطيب وهو فى مصر عداوة من الحساد والمتردين به  
لا تقل عما لقي فى حلب وقد أصابته الحصى فطرحته قرأته حتى شفى  
وقال فى قصيدته للميمية التى يقول فيها :

نزلت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركاب ولا أمانى  
ولما صار ود الناس حيا جزيت على ابتسام بأبتسام

لقد أقام بمصر كارها ضجرا ، وكان يمكن على طرفة من قصر  
كافور ومن مجلسه ويظهر هذا من قوله :

أرى لى يفرى منك عينا قريوة ولكن قربا بالجماد يضاب

ولما ضاكت به مصر وضاق بها أعد العدة للرحيل وكان موسم العيد  
يستقبله كافور بالفرحة ويوزع فيه الهدايا على كبار جنديه وحاشيته وكان  
الموسم سائعة هوائية للحرب ، إذ أن كافورا حال بينه وبين السفر ولكن  
المتنبى خلص ليلا فرى يطلب النجاة ويطوى القلادة وفر بماله ورجاله  
وابله وخيله حائرا فى دونه أيكون أنى نجد والحجاز أو يضى الى العراق ؟  
وطلبه كافور فقاته وقد غلب الشاعر الحنين الى موطنه الأول لضرب فى  
البادية الى الكوفة بعد أن أقام بمصر أربع سنوات وثليل انطلاقه منها قال  
قصيدته المشهورة :

عيد بأية حال عدت يا عد بما مضى أم لأمر فيك تجسديد

## ( د ) الظهور الرابع :

لبث أبو الطيب فى مصر أربع سنوات وبضعة أشهر مكرما هائلا  
حيثا وحسودا منضحا أحيانا وطامعا منذ أكبل على حاكمها الاخشيدي  
كافور بما لم يطلع عند سيف الدولة الذى أفتاه بالطايا والهبات عن  
التنافس لفرقة من المال .



وبقى أبو الطيب يروج من كافور أن يوليه صيداء من بلاد الشام  
أو سواها من الصبيد وكافور يماطل ويروغ من الحيلة والترغيبية بالذهب  
حتى حب اليأس في صدر أبي الطيب ومن ثم القلم لكن لازمه السقام ومعه  
الفرش تحدثته نفسه بالرجيل لولا صديقه فالك أبو شعاع الذي كان  
يمزيه ويسليه فلما أئذرك الموت أمد أبو الطيب كل ما يحتاج إليه في  
السفر وأرسل إلى كافور يستأجر في السير فرقص وجعل يملأه بالبقا  
ومسكه بين اشفاق وخشية من التعريض به والتشجيع عليه لكن المتنبى  
كان قد أحكم الحيلة وفضل العودة إلى بلده .

وكان في صدوه من السخط والموجة أشد مما كان وهو يضاد سيف  
الدولة ، مضى يماي خيبة فادحة ودمعا اليما وقله تمثل له سيف الدولة  
الذي علق عليه الأمل ثم تخيل كافورا الذي راغ منه وضحك بالتطيل  
والطال فمير عن غيظه وغسه بقصيدة الممد رجعا فيها كافورا والبلد الذي  
ضاه . ومضى حتى دخل البلد الذي استوى قبر جدته وذكريات نساته  
ومسبته .

ارتد إلى الكوفة بعد عراك عنيف بينه وبين عبيده ومراقبيه وبينه  
وبين نفسه حتى دخل موطن المرأة التي أعدته للحياة الرقيقة ولكن الموت  
كان أسبق إليها وصار يهوى لثواها وما ضما ، وما هو ذا يرى الكوفة بعد  
سنة عشر عاما ( ٣٥٠ - ٣٥١ هـ ) غير عابيه بالشامتين والذين صدوه عن  
العودة إليها ظنما وحقدًا ولا حكرث لما ينتظره من مكايه جديدة .

فلما عاد إلى الكوفة عاد السوق إلى صدقه العظيم ، كما أن سيف  
الدولة لم يصبر على قرأق شاعره فنبذ يلفه أن أبا الطيب سار إلى الكوفة  
أرسل ابنه من حلب يدعو إليه ومعه هدية غالية ولعل حدا الأمير الكريم  
شاه أن يجبر خاطره وهو أذرى بطبع المتنبى وطموحه فتقبل الهدية وأرسل  
إليه عام ٣٥٢ هـ قصيدته التي قال فيها :

ما لنا كلنا جو يا رسول أنا أحسوى وفلك المتبول  
من عبيدي أن عشت في ألف كافور د ولي من نفاك ريف دليل

وبقى أبو الطيب يبعث بشعره إلى أميره متوددا حاملا والأمير يستجله  
للمودة إليه وهو متريث متردد وقد عى له قل أن يتلقى دعوة سيف  
الدولة أن يخرج من الكوفة إلى بغداد ليستطلع عن قريب حياة الناس  
ومياسة الحكم فيها وهو العظيم بأسباب الاضطراب ومظاهر النشة في  
ذلك العهد وكان أول الناقمين على أولئك الاحاجم الذين دخلوا في شئون  
الدولة ليتقاسموا المقام فيها والمناصب .

وفي بغداد أقام أبو الطيب كتابه عتاطما معرضا بالوزير المهلبى  
الذى زين للشعراء والنثريين أن يكتدوا الطيب البصرى فى مطارحاته  
ومجالسه فتألبوا عليه بالهجد وأعادوا إلى الخواطر تشبث المنصبى بأدعاء  
الملوية . فراحوا يلززون نسبة من جديده ويصرونه بالشح والتقتير .

أما أبو الطيب فزادهم غيظا بالتأنى عليهم وعلى خليفتهم العباسى  
ورجال قصره وحكمه . مرددا شعره على كل من كان فى مجلسه دون تهيئه  
ولا تخرج حتى عاد إلى الكوفة ولم يرجع إلى بغداد حتى مات الوزير المهلبى  
خصه وظلله . وبعد عودته ازدادت ثقته على الأوضاع السياسية  
ومستغنى بالحكم من الملوك والأعاجم وازدلت إلى باله صورة سيف الدولة  
وما لمس من بطولته وكرامته وكأله يستنجزه وعلا فارسل إليه قصيدته  
التي قال فيها :

أنت طول الحياة للروم غاز      فمتى الوعد أن يكون القول  
ومسوى الروم خلف ظهرك يوم      فعلى أى جاتبيك تصيل  
ما الذى عنده تدار المنايا      كالفى عنه تدار الشومون

وجاءت دعوة من شيراز إلى أبي الطيب أرسلها عضد الدولة طالبا  
زيارته فتردد فى الاستجابة لكن ابن الصيد أقراه وأطمعه بما قد يتلقاه  
من مكرمات .

واستقبل رسول من قبل عضد الدولة بالتكريم ولما طلب أن يسمح  
من شعره ألقته الكهيفة التي فيها :

فلما اتخبا ركزا الرماح      بين مكسارنا والملى  
فأحسن هذا الرسول تماظم أبى الطيب على الديلم فنقل ما سمع  
إلى عضد الدولة الذى داخله الرية فى ضيفه .

ولا أنشده قصيدته التى استهواه فيها حال الطبيعة بفارس  
ومطلعها :

مثنى الشعب طيبا فى المغانى      بمنزلة الربيع من الزمان  
وجدها طلبة الدولة مديحا مزوجا يتم لكنه لم يبعه بدا من أن  
يضفى على مادحه وشيقه أصناف الطيب والكساء ومعها صرة من  
الدنانير .

وقد استطاع عضد الدولة بما أوتى من مكر ودعاء أن يندوى إليه

الطبيب وهو الذي يعلم طوابعه وما يكن تقومه من عداوة وبغضاء - فيقال  
انه أوهز الى من يختص بهم منه بعد رحيله وقد أقام ثلاثة أشهر في  
ديارهم .

ولقد ابتلى الشاعر - الذي لم يسأله الدهر حيلما كان - بأن  
تعرض له وهو بنارس أبو المباس صاحب بن عباد طالما في زيارته أيام  
ياضبهان والحصول على مسحة وأجرائه مجرى مقصوده من رؤيته الزمان  
وهو إذ ذاك شاب وحاله حيلة كما قال ، ولم يكن استوزر به وضمن  
له مشاطرة ماله ، فلم يحم له المتنبي وزنا ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده .  
فحظه صاحب عليه وأقام الدنيا والآخرة يتسلط متالبه في شعره لكنه  
كما يقول المتألم كان أعلم أن سفره له لدى عهد النبوة نجحت ورجعته  
وحصل منه على أكثر من مائتي ألف درهم .

كذلك خرج أبو الطبيب من شيراز مكرما بأحسن توديع وقد أشبه  
عنه بأصطحاب الخراء فإني اعتد إذا بنفسه فكان أن خرجت عليه سرية  
الأعراب في رواية المتألم - فلقى المتنبي صبره مع ابنه محسن وبعض  
عليائه واقتسم الأعراب ماله ، وكان قائلوه من أعدائه المتربصين يحملون له  
الخطأ .

الطبع والالهام أساس الشعر وقد كان المتنبي شاعرا مطبوعا نطق  
بالشعر وتأتى له وهو غلام . وفي ديوانه قصائد قالها في صباه دلت على  
ما سيكون لصاحبها من شأن ومكانة وكان لحياته الأولى في البادية وبين  
الاعراب وعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة في موضعها من كلام  
العرب أثر واضح في موهبته وطبعمه حتى ان مياضم البادية ما فارقت  
قصيدة واحدة من قصائده . لقد مزج روحه بالبداءة وعمق احساسه  
فيها فقال :

كم زورة لك في الاعراب خافية أدمى وكف زوردا من زورة الذهب  
وعرف أسرار الجبال فيها فقال :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب  
حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداءة حسن غير محبوب  
وصور ممارسته للبادية مقيما ومرتعلا في هذا البيت :

أوانا في بيوت البدو رحلي وآونة عسلي قتله البعير  
وفي أوجاتها امتد خياله وطلعت بذممه بقاعها وفلوالها ، وجرى على  
لسانه لفتها في تصوير سلاحها وخيلها وأيلها وكأنه واحد من أهلها حتى  
يبد تجواله في البلاد وتمازجه بالملوك والكبراء وأهل الحضر والترف .  
لقد رفا هذه الفطرة والسليقة بمعرفة واسم في كلام العرب وإدراك  
لخفايا اللغة وسحر البيان فجاءت صياغته من طراز رفيع فيه الأصالة  
والجزالة وفيه الفكرة الصائبة والروعة الباقية .

وكان مرد المتانة في الشعر العربي واحكام صوغه الى الشعر  
الجاهلي . وحين تحول هذا الميراث الى العصر الأموي فبدأ في الشعر  
الجزل دخل عليه التطور حتى جاء عهد العباسيين والأندلسيين فطبع  
بطوابع التجديد وجاء عصرنا فأعاد اليه رونقه السابق وخصه مما علق  
به في عهود التخلف نالوا الى أبي الطيب وكأنه نبراس لا يطفى لأحياء  
الشعر العربي على مدى الزمن .

ولا يصيب أبا الطيب ما جاء في بعض شعره - مما تبعه عليه المتألمون  
في البيتية - والمجرجاني في الوساطة فإن للملاحقين آفات تلازم أفعالهم -  
كان هذان يجبان به لكن هنالك فئة من الباحثين عن عيوبه فهووا بروح  
حساد أكثر مما تناولوه يتسامح العلماء - على أن هذا الشعر لم يسلم  
من الشوائب وأى شعر خلا قصيده من خطأ أو زلل .

كان شعر أبي الطيب المكتنبي صورة صادقة لعصره ومرآة للحواشي  
والحن في أيامه وما من شك أن السياسة والعروبة المتأصلة في فؤاده  
والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر عبر به عن رأيه وملحميه  
وخلجات نفسه - فهو يقول في واحد من المأثورات حين مدح الأمير أبا محمد  
المستنير بن طنج بالرحلة :

ولارقت شر الأرض أهلا وتربة بها علوى جده غير هاشم  
ولقد فرح في شعره صورا لكل ما كابته في حياته وعلمه الصور  
كان يأتي بها خلال قصائده موزعة حسبما تدعو إليها المأثورات والحواشي  
التي كان يسوقها .

رأى ما كانت عليه السياسة في زمنه من تحكم ملوك العجم وأمرائهم  
بخليفة المسلمين وملوك العرب وعلماء الأئمة العربية يومذاك بما أصابها  
من الترك والعجم والزنج فتدس في شعره عن مسقط المكبوت -

وكان المكتنبي يحسن في نفسه حالوا قويا لاستماتة الأمجاد العربية  
وقد شاعت في شعره حينما قاله - نزعاً إلى العروبة وبهجاً وتصميها فكان  
يصف الكرماء وأهل النجدة والأبطال بأن خصالهم عربية وقضل السيوف  
العربية على السيوف الهندية بمثل قوله :

تهاب سيوف الهند وهي حذاء فكيف إذا كانت تزاوية عربا  
كما كان يلم العجم وينال منهم في مثل قوله :

أفعال من تلد الكرام كريمة أفعال من تلد الأفاعيل أجم

وكان المكتنبي أكثر شعره عصره حساسة للقومية العربية وأحبه لها  
بل كان ينصب إلى أبعد من ذلك - إذ قرأ في عزيمته أن يعيد للأمة العربية  
مجدها الزائل بتأليف العرب وتأليبهم على الصجم في حرب عاصفة يكون  
هو قائدها وقد كتف عن عزيمته هذه حين قال أربابنا يحاطب بها أبا  
عبد الله معاذ اللذان في يوم نزل عنده باللاذقية سنة ٢٣٦ للهجرة وهو في  
صغر عمره متوقفاً للنخوة والهمة يصف فيها مطلبه الجسيم وما هو قادم  
عليه من المفاسدة والخطر وكان انذار المكتنبي بتورثه العربية بادياً في هياجه  
النفسى الذي عبر عنه بقوله المتوعد :

لا تركن وجوه الخيل مصامة والحرب أقدم من ساق على قدم  
 تنحى البلاد يروق الجو بأوقى وتكتفى بالسلم الجارق عن القديم  
 صيد كل رايق الثمرتين غدا ومن عسى من علوك الحرب والمحم  
 وقد عاين أبو الطيب الحالة الاجتماعية في الأمراء والعبيد فقال  
 متهمكما :

— ولعل ذلك لما قاماه من كافور — :

فلا ترج الخير عند امرئ عرت هذا اللغاس في رأسه  
 وسين حبا كافورا راح يقول بأسلوب التهكم اللدغ فضلا من  
 الهجاء :

الميد ليس الحر صالح بأخ لو أنه في تبلي الحر مولود  
 لا تشتري العبد إلا والمصا معه إن العبد لا تجاس مناكيسه  
 من علم الأسود المخصى مكرمة ألوهم الأبيض أم أباقه الصبي  
 أم أدته في يد اللغاس دامية أم قلوة بالفلبيسجى مردود

ولقد تعددت نواحي العبقرية في شعر المتنبى وتجلت فيه طوابع  
 الحكمة والتجربة يقولها في كل شعره وإنشدها بوجاهات الفكر والمخاطر  
 يقف عليها مستريعا . وكانت ثقافته المتعمدة وجواله في البلاد ميلا إلى  
 تعدد ألوان شعره فمن غرر ألوانه في الحكمة والعبرة هذه الأبيات :

وما انتفاح الخي الدنيى بنظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم  
 خط ما تراه شيئا صمحت به في طلعة البدر ما ينيك عن زحل  
 لعل عتبك محمود عواليه وربما صمحت الأجسام بالعلل  
 وإذا التبيخ قال آف فما مل حياة وإنما الضعف خلا  
 آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء فلي  
 (هو خلق) الدنية حبيبا تدميه فما طلب منها حبيبا تدميه  
 ما كل ما يحنى للره يهركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن  
 غير أن الفتى يلقى الثنايا كالحات ولا يلقى الهوانا  
 واتعت من ناداك من لا تجيبه وأخبط عن عاداك من لا تشاكل  
 فلا تظلمن من حاسبك بمودة وإن كنت تبديها له وتنبيل

ومن ألوان شعره التي انتهت إليها البراعة والبراعة شعر الحرب  
 لقد بلغ شأوا ينحى به هومبروس في ملحمة « الإلياذة » ولو جمع شعره  
 في وصف الحرب والمبارك في تنابع واحد وأعطى العرض والتحليل فكان  
 في ذلك بعض الوفاء لشاعر أعطى العربية روحه ودعه فقد وصف الخيل

وصفا يميز فيه ما قاله الأوائل من تصوير حياتها وحركاتها وصيغها  
وأمرتها وتسلسل بنفسه إلى الوقائع الحربية مع البيزنطيين فكان شعره  
يقول الحرب الذي تلم حصف الدولة في قبره على حدير صوته فمن هذا  
الشعر الرابع وصفه وقعة : الحلت الحراء » سنة ٣٤٣ هـ .

هل الحلت الحراء تعرف لونها وتعلم أي السالطين القائم  
بتلها فاعلى والقنا تفرح القنا وموج المايا حولها متلاطم  
خيس بشرق الأرض والقرب زحمة وفي أذن الجوزة منه زمام

ومن ألوانه المديح التي ضمن له مكاسب عمره وتسايق إلى الحصول  
عنه الملوك والأمراء لأنه يصور ممدوحه في شعره صورة يرضى لها  
البقاء . وهو الشاعر الذي يكاد يكون وحيدا في الشعراء المادحين بطريقته  
إذ يضع نفسه في منزلة الممدوح فيتكلم عن الصفات التي يجب بها من  
فطانة وكرم وشجاعة ويتناول ممدوحه بقل هذه السجيا .

وهذا ضرب من الصنم لم تشهده عليه للمادحين الذين كانوا  
يتواضعون ويحتضنون أمام الرؤساء والملوك . ومن عزاي المديح به أبي  
الطيب كلوته على إبراز ممدوحه بصفات تلوذ به كالمصور المزارع  
إلى المخطوط المؤسسة لشخصيته ثم يقيم عليها قطعه الفنية ومن هنا  
برزت مسألة المدح عنده .

مدح سيف الدولة يوما وله أهدى إليه سيفا وأمدحه فيه هي  
المجسوة الكبرى من شعره التي اختص به صاحب حلب فهو يقول فيه :

مطى الكواعب والجرد السلاصبال	بيض القواصيب والحصالة الفيل
ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك	حل الزمان وعل السهل والجبل
قنح في جلد والروام في وجل	والبر في شغل والبحر في خجل
ليت المذائح تستوفي مناقبه	فما كليب وأهل الأعصر الأول ؟
جار المرويه إلى ما خلفه خرشدة	ورال عنها وذلك الروح لم يزل

حتى يقول له على عادته في المديح في مساواة نفسه بالممدوح :

ناديت مجلد في شعري وقد صدنا يا غير منحل في غير منحل

ومن ألوانه الرثاء : فقد برع فيه وأجل مرثيتين قائما في حياته  
التسرية . وهنا يسلان الكثير ما قاله الشعراء في الحزن والتسجع -  
مرثيته لحدثه والثانية لخولة أخت سيف الدولة التي توليت بعده سبع  
سنين من بركة لحلب وقد شغفت الشنتان عن عاطفة رقيقة وحسن وصف  
قمن قوله في الأولى :

لك الله من ملجوعة بحبيها      تنية شوق غير ملحقها وصا  
أحن الى الكأس التي شربت بها      وأحوى لثواها التراب وما شمسها  
حرام على قلبه السرور فأننى      أمان الذى مانت به بطنها سمسما

ويتجلى فى دلائله الحزن العميق والشعور الصادق المتدفق وهو لا يقصره على تعداد المزايا فى المرنى وأما يثير حوادث وذكريات فيصير فى نطاق من حزنه الحى ويسلسل الحوادث حتى تبدو فى شعره نراة الى أسلوب القصيدة فلا يكون القارئ والسامع غريباً عن أفكارها وأما هو ينسجم ليصير فيها مع الشاعر وهذا منهى البراعة فى التجاوب والتأثير .

أما لون الهجاء الذى عساه فهو كما يقول الغربيون فى أدبهم يشخذ شكل ( ساتير ) بل هو حرب عاصفة ينزلها أبو الطيب على من كادوا له وخيبروا قلبه وهو لا يكون فى أماجيه الا منتقما أو مدافعا عن نفسه . فقد هجأ جميلته فى الشام وهجأ كافورا الاخشيدي أمر هجأ ولو نهض اليوم هو وسامه لاشفق سا ترك لهم من أوصاف السود ترونها الصبور وترددوا الأجيال .

**وأما الوصف والفزل** فإن فى القصائد التى قالها أبو الطيب فى الرثاء والهجاء وفى المدح والفخر صوراً رائعة وصف فيها كل ما مر بخياله ونفسه من حياة البادية ومواقع النضال التى شهدها مع سيف الدولة . وكان هو يهف الخيل والفرسان بعصره . وكأنه تصور أمام لوح يودعه المخطوط المعبرة والألوان الناطقة ولم يترك منظراً من مناظر الفوز والهزيمة الا صوره . كما انطبع فى بآله وخالط احساسه وكانت اللفظة الجبلة تحل كثيراً من المعاني والأفكار فيؤدى بها ما يريد من تصوير شعوره بالحياة ورأيه فيها . وهو حين صور حراخ ابن عمار للأسد أتى بتهافت وتبذير وجبن وصف شعب بوان وهو يستأنف يفارس نزلها كان وصافاً ماهراً للطبيعة . ومن فنه فى الوصف انه يملأ الأشياء روحاً وحركة وهو الذى أدرك جمال السكون وجمال الحركة ولعله اطلع على فلسفة زينون الايلاني فانضمها للفكر حينما تسلسلها وراح يصف حسنة قال فيها :

تتأهى سكوك الحسن فى حر كآلها .

وجرى أبو الطيب على عادة الشعراء فى الفزل فكان يستهل أبياته متفولاً ثم ينساب مع طبعه وشعوره ليقول المعانى التى يريدونها وأكثر ما بدأ غزله رقيقاً شعاعاً حين كان فى حى سيف الدولة وبعد أن فارقه أسفا حزناً .



لم يكن المتنبي شاعرا غزلا المرصد شعوره للحب والفرام لكنه على  
عقله وحلابة عقله كان الوقت يستجيب لمواعي الهوى والعاطفة .

ولقد كشفت احاديثه لأمير حلب عن عشق طواه طويلا لكنه في شعوره  
لم يستطع ان يحفيه فقد تملك حسه ومرى في أبياته أننا وشكوى لنا  
ماتت المحبوبة التي تطلقها ، دل دناؤه ايضا على لوعة لم تكن في غير  
الهائمين المعاصرين .

فالمتنبي عرف العشق واقتر به في شعره وردد من الفاظه ما آكله هواه  
فقرله اذن تعبير صادق ولم يكن تكلفا وتقليدا .

## تأليف المتنبي في الشرق والغرب

لقد اتفق لأبي الطيب من العناية بشعره ما لم يثفق لشاعر عربي قبله فكانت تحلق بحصر على أيامه فيها حلقة لشرح ديوانه وكانت هذه الحلقة تحت إرشاده - وفي حلب لم تغل محاسن الأدب من ذكره وحفظ شعره وتفسيره وروايته وكان اسم المتنبي دوماً مقروناً باسم صيف الفولة - وفي شيراز وجبت عاش عصر الفولة زماناً كان شعر أبي الطيب موضوع بحث ودراسة واستشهاد حتى انتقل إلى بغداد وفيها تفضل المرح للشاعر وديوانه حياً وميتاً \*

ولم يتح لشاعر عربي من النقد والتحليل لأثاره في القديم والحديث ما أتبع لأبي الطيب وكان له في القاصي محبوبون وخمسون وكذلك في المحدثين من المتنبيين بدراسته والمقارنة بينه وبين غيره \*

تتبع الحائس البغدادي شعر المتنبي وادعى أنه اجتمع به وناقض فيه ذكر ذلك في رسالته البالية ، وذكر فيها سرفاته والساقط من شعره ومما ذكره أن مصدر الآراء الفلسفية عند المتنبي هو أرسطو - أما ابن جني فقد شرح ديوانه شرح معرفة وملزمة للشاعر وقد روى أن شعر أبي الطيب كثير وأن ما في الديوان هو المتداول في أيدي الناس من شعره وكذلك أبو العلاء المعري ألوح به وشرح شعره \*

أما المتأخرون فقد كان من أفضل جهرتهم في العناية بالديوان الشيخ ناصيف اليازجي الذي أسدى إلى المتنبي يدماً لا تنسى في سجل الزمن لذكر حل معانيه وضبط شعره وتوابعه بما يوافق روح الشاعر ولده \*

وكان الأستاذ عباس محمود العقاد سابقاً إلى دراسة المتنبي على المنهج العلمي الحديث لجاء بحثه المنشور في مطالعاته جامعاً بين الجدة والدقة في الاستنباط والتقصي والمقارنة \*

كما أن من آثار الدكتور عبد الوهاب عزام كتابين في المتنبي واحداً للذكره وآخر هو شرح ديوانه - في الأول أثبت الانطباع المائل لشعر المتنبي

في نفسه وعرض لسيرته الزاخرة بالأحداث وقد قسم للمصنف في شرح  
الميراث بذكر طرولها وأحوالها الاجتماعية والميامية .

هذه المصنفات قالها أبو الطيب مثلما يطلع التيسيم أو تهيه المصنف  
وقد فرغ منها ثم ترك الخلق يبحثون فيها في عهد ومن بعده وهاولون  
الرائي والتقد ونام هو عنهم جميعا يبين طاب لها الرقاد في ظلال الخلود  
وهو القائل :

إنما ملء جفوني عن شيوادها ويسر الخلق جراحا ويخصم  
أنا السطى نظر الأضى إلى أدبي وأسحت كلاني من به صم  
حتى حار أبو الغلاء المرى في هذه النبوة التي جاءت من المنين يوم  
نظر بشعره بعه عوته .

وقد تتبع المستشرق الاستاذ بلاشير أكثر ما ألف في موضوع المنين  
عند الشرقيين والفربيين وعنى المستشرق الإيطالي جابريلو بدراسة المنين  
وهو يرقى في شعره ما يأتي :

١ - المنين أقرب إلى الكلمة منه إلى المحدثين .

٢ - ديوانه صمدى المعرفة الصيفة بدواوين الجاهليين والإسلاميين  
والمولدين وقد كتب هذا المستشرق دراسة حياة أبي الطيب من  
الوجهة الذاتية لا الموضوعية لاستخلص الأمور الآتية :

١ - ابتداء ديوانه بالمخارج والرائي وهذا قسم شائقه المنفية الخاصة .

٢ - ألغى التصنع في هذا القسم مقام الاختيار وحلت التشبيهات والمجاز  
محل السمات الخاصة بكل شخصية بمعنى أن الحقيقة في مديحه  
حسب رأيه بقيت ظلالا باهتة . وما يزال المستشرقون يطيئن كل  
الصناية بدراسة المنين وشعره لأنهم يبحثون فيه مجال القول ذا سعة  
وموضوعات متعددة النواحي يسهوزه الشرح والتحليل على المنتج  
الجدية .

كان كلامنا على حياة أبي الطيب وسيرته مزوجا بنزعات شعره فان  
أبها الطيب شاعر . فنحن نحياتنا وهو نحياتنا فن شعره ولم يهجم - والذين  
تسلفوا ديوانه حسب أدوار حياته صنعوا الجيل لتاريخ أدبنا أكثر  
حما صنع المكبرى . ومن رتب ديوانه على حروف الهجاء مثله فكان أن  
شاع بذلك على الدراسين والباحثين منهج التسلسل في حياة الشاعر  
جزوا على الطريقة السبعية التي سار عليها الأوائل وبعض الأواخر في

جمع دواوين الشعراء ونشرها حسب حروف الهجاء في القوافي والروى  
وحله الطريقة ان دلت على شيء فلا تدل على أكثر من لغة تصنيف  
للحروف واحصاه بعد الأبيات \*

ومن اعظم قصائده أبي الطيب « صيفياته » التي قالها في مدح سيف  
الغولة بن حمدان صاحب حلب. ويلاحظ المستشرق الأستاذ ريجيس بلاشير  
في كتابه الذي وضعه عن المتنبي سنة ١٩٣٥ قبل ذكره الألفية بعام واحد  
أن أبا الفرج الاصبهاني لم يذكر أبا الطيب في كتابه لكرهه للشاعر  
وأي أن اغفال هذا الذكر ربما كان عبدا وأن الاصبهاني الذي صنف  
اغانيه في خمسين عاما وقدمه الى سيف الغولة فأجازه عليه بألف دينار  
واعترف \*

قد يكون هذا الاعتقاد على أنه تلقى الكتاب في أواخر عمره حين  
هاقت يده عن جزالة الأكرام وذلك بعد غلبة اليزنطين وخيبتة قبيل  
طولته ومن عجب ان لم يستطع المتنبي أن يصل الى أبي الفرج المذكور المتنبي  
وفي هذا احتمال لاأمر ففعله \*

ولقد تلقى شعر المتنبي تحيزا فانقسم نقاده لريقتين وأعدا عليه وآخر  
عليه والقوا الكتب الطويلة في ذلك وكان أعظمهم القاضي الجرجاني المتوفي  
سنة ٤٩٢ هـ كان قاضيا في الري فوضع في أبي الطيب كتابا سماه  
« الوساطة بين المتنبي وخصومه » كما وضع أبو الحسن الأفريقي المعروف  
بالنسيم الذي عاش في عهد نوح بن منصور السلجوقي في أواسط القرن  
الرابع للهجرة كتابا عن أبي الطيب سماه « الانتصار المتنبي عن فضل  
المتنبي » - وتجدد البهيم العلبي الذي توفي سنة ١٠٧٣ للهجرة قد وضع  
كتابا عن الشاعر سماه « الصحيح للمتنبي في الكشف عن حقيقة المتنبي » \*

أما المكي أبو البقاء فقد شرح ديوان أبي الطيب سنة ٥٩٩  
لهجرة وقرأه في مصر على كبير أعيانها في عصره محمد بن صالح التميمي  
البحري كما قرأه على أبي الخرم بن زياد الأندلسي بالموصل سمعنا على  
أبي الفتح بن جني في شرحه لديوان أبي الطيب ثم علي شرح أبي الملا  
شمرى وأبي زكريا بن الخطيب واستفاد من شروح أبي علي بن فودة  
وأبي الفضل المروزي \* وهذان من أهل القرن الرابع للهجرة. كما كانت  
مخطوطة كبيرة يشرحها أبو الحسن الوائلي المتوفي بعد منتصف القرن  
الخامس للهجرة \*



١. تلقى المتنبي نقادته الأقطاب في « كتابه » « بالكونية » كان يخطه لولده  
الأمان بن الكوفي. فتعلم العربية لغة هاروط وفسخها لم يرتد إلى

مستعمل شياؤه إلى البداية حيث صاحبه الأعراب ولا يسمهم وأخذ عن  
شيوخهم كثيرا من أواجه اللغة وشواردها ورجع إلى الكوفة بعد سبعة  
شهورا حاذقا علما باللغة وأمرارها ونقل من بداية العراق إلى بداية الشام  
ومن القسوة إلى الحضر ومن الحضر إلى الرور مترددا بين القبائل ومخايل  
العبقرية مبشرة بشيء منه كثير وكان الفضل بذلك لأبيه الذي لارمه في  
علمه الأسفار الأولى ولما استند ساعده قرأ على آباء العلماء في عصره منهم  
الزجاج أبو اسحق والسراج أبو بكر . كما قرأ على لطفه وابن دوستويه  
ولزم أبا بكر محمد بن دود . وقرأ عليه ولم يترك كثيرا من علماء عصره دون  
أن يصل به ويحلق عنه .

وقد لازم الوراقين واتخذ كرايس يودعها شعره ويخبرهم  
ويقرئهم فيها . ورواه أو لا يرواه من شعر حماد بن أبي بكر تمام والبحري  
ويستار وأبو نواس وكانت هذه الكرايس عتيقة وزاده في تجواله ورحلته  
ولقد بقي أثر البداية عبقا في حياته طويلا فهو ذهنة وغياله فكان شعره  
لا يخلو من الأثر حتى بعد انتقاله إلى الحضر فكانت لغة البدايات في صباه  
وهذا فيه لم يجمع فزاده بالأعرابيل . ويقرئ بيتا الجليل انتهى إلى التبيت  
ويحلق بالرجع والسيوف وسجلت النحل وهدى (البحر) .

لكن المتنبي الذي تناهت إليه كثافة البدايات والتفاوت لم يقتصر عليها  
وما وقف دونها بل خرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة - كما قال  
القاضي الجرجاني - وراح يقرأ الفلسفة والمنطق ولا شك في استفادته من  
الفلسفة الفارسية الذي كان مجروفا يطلب في مقامه عنه سونغ الدولة كمل  
ثأثر بقولان أرسطو وعكف على كتب التصوف حتى فهم المعاني فيه  
والغرامي ودخلت شعره الفاظ الصوفية والحكمة واستغاضت فيه ظلمات  
نفسية وزوجية ذلك على استنساخ ما تلقى من ثقافة حضرة تلامذت  
بالأولى . أما مدرسة الكبرغا التي عب عنها حتى ارتوى وبقى فيها حتى  
انقضى فهو الحياة نفسها نفسوا يتجاربها ومقاليها . م يشقائها ونسبها فاكتمل  
شعره وظهرت خصائصه على الشعر في تكثيره وشعره غني منسجمة هو  
أثر البدايات ولا خالية من دواهي اللحن والإضطراب فاستطاع أن يجمع بين  
ثقافتين وفيه من حياة البدو وعرفه الحضر .

وكان شعره مثابها - في مصطلح عصرنا - حبر زينة . عكروا كذا خلا  
تشيها أعظم . جملوه بغيره خصومه واجباته وبلغ من تأثر هذا الشاعر بشعره  
أن خاله المارك وطبقوا بسننه وقه أثر إلى ذلك مجرى السياسة في عصره  
وأخبارها فاصبح المديح والقناء على رجال وكال الهجاء والطعن لاخرين  
فيصل (الكناز) في عهده يساقط يطوا هذا الهجو وذلك المديح المرم  
صوره على كل شيء من التوبيخ إلى التعديل .

كما أثر في الشعراء الذين اتوا بعده فهم عالة على قصيدته لا يرمون عنها حتى يذكروهم الترخيم وقد يرسلون إلى ديوان أبي الطيب كلما عجزهم القرائح وتبرحت المغانى فراسوا يقتنصسون أدوع ما عنده من الكرواني والمواطر ولهؤلاء قصائد لو حملت كتابها ومعانيها - كما يقال - مضاطيبيسة الرجوع إلى تواصلها عند المتنبي لما بقي لهم سوى الأوزان الجافية مثل  
 مسكة ذهب لديها وبلى شوكة

### تأثيره في أبي العلاء وشيوخه

أثر شعر المتنبي - من حيث هو فن - في الشعر العربي بمصر وقبيل أبي بعده ، فيمت في الشعراء علة إلى رفع شعرهم نحو طيقتة لأن من عادة أهل الأندلس والاندلس والاندلس قاهو قورس الحماني وأكثر الشعراء الحمانيين الذين ذكروهم الثعالب كانوا يسبحون على أثر أبي الطيب وهم الذين جسدوه وتبعوا أخطاه

وأما الذين اتوا بعده وتأثروا به فهم كثير لو عجز مؤلف هذه لهم بكتاب كبير لزم على أن أكتفي بمساعرين عظيمين أحدا في ظلال أبي الطيب أو في تنقسم وحده وكان له في كل منهما أثر عميق على وجه صوره وقد يختلف القول في أصلها عن الآخر

أولها أبو العلاء المعري الذي أقبل على شعر أبي الطيب البلاء ما عرف من شاعر آخر مثله فحاز بأدائه السياسية والاجتماعية والدينية أيضا قبايات أبي الطيب التي يقول فيها :

نتج من سهاد أو وقاد ولا تأمل كرى تحت الرحام  
 فان ثأله المالح مسمى سوى معنى التيلك والتنام

نرى لها صورا أختانا في البرزخيات لا تكاد تحصى وترجع هذه الألفاظ منه أبي العلاء بروحا إلى المتنبي ، ونحن يتركنا أبو العلاء بفلسفته الوعظية وزعمه في الحياة وقمة للمرأة وتبنياته للأحياء النفسية والجنسية من أجل بقاء النوع ودعونا إلى ترك التمثل لتبديل العالم نجد كاستاذة  
 أثير الطيب يقول باختصار :

هل الولد المحبوب إلا تلة وهل خلوي الحسنة إلا أذى  
 وهل الحمى الخليل إلا عظمي حله نية وإن يشتاق فيه إلى التمثل  
 وأما فلسفة الموت والحياة التي عجز بها شعر أبي العلاء عسجا جاتا  
 يجمعها كلها معنى هذا البيعة عند أبي الطيب :

التيكم لمراتنا على غير رغبة      تفوت من الدنيا ولا مهرب جزل  
إذا ما تأملت الزمان وأمله      تيقنت أن الموت مهرب من القتل  
لو نسوة :

يكنن بعضنا بعضا ويمشي      أوأخرنا على هذه الأوال  
والشاعر الثاني هو أحمد شوقي شاعر العربية في القرن العشرين  
الميلادي . لقد أولع بشعر أبي الطيب فقلعه في سبكه وتبنيه والتزم في  
أكثر قصائده أوزان المتنبي وقوافيه وزورها ولكن شوقيا لم يكن يصنع علما  
لنفسه تيمنا بأبي الطيب فحسب إلى اعتقاده أنه لا يقل عنه شائنا فهم  
مطبوع على الشعر متكن من العربية فلماذا لا نقيم روائع كالنبي . أبي بها  
أبو الطيب يضاهيه بذلك المحاكاة ربما كان فيها الإبداع .

كان تأثر شوقي الذي جاء بعده بسورة محمود أقوى من تأثره بشعره  
الغريب الذين قرأهم وتعلم ثقافتهم وأقام مدة في بلادهم فتجلت طرايع  
المتنبي في كثير من شعر شوقي وقد حاكوا في بعض قصائده وألفاظه ودرج  
جذته . تمرار . يكسيدة طرقت فيها غيبة أبي الطيب التي رثي فيها  
جسامته .

### منزلته في الشرق والغرب

لقد احتل أبو الطيب المتنبي في أدب العرب مكانة رفيعة ارتقي إليها  
وتصبح فيها بقوة واقتدار متناظرا ومربوفا فيه ولم يشع مثلها لغيره من  
شعراء العربية وليس للحظ دخل في ذلك فإن حساسي الحظ يسقط في  
القيم الأدبية الخالصة ويكاد يكون هذا الفصل من الكتاب بجلسته بيان  
لمنزلة الشاعر في أدب العرب حين تلقم الكلام على ديوانه وشرائه ومن  
كتب عنه من الأتقيين والمعاصرين وكل من يرى الجرجاني قاضي الرى بل  
قاضي الأدب أن تناول الشاعر بما هو أهل له في كتابه « الوسيلة » حتى  
خلص إلى أن المتنبي هو الشاعر المتفوق وأن حيلة النقاد الكبرى التي حيلت  
عليه كانت لتوزيع الكفاية والحسد أكثر مما كانت لغاية القد والأنيب  
وقد خلفت له شهرة وجعلت الأنظار تتجه إليه راضية وموت منزلة الشاعر  
عبر الصور فإذا تناولها الخطيب البغدادي للتوفي سنة ٤٥٢ هـ لم يمس  
إلى شاعريته فيها وإن تبسط يذكر شوائبه وجاء ابن خلكان سنة ٦٨١  
للهجرة فترجم للمتنبي في كتابه المشهور « وفيات الأعيان » وكان قاضيا  
عاديا كالجرجاني فوضع الشاعر في أرفع منزلة من الأدب العربي ثم لقي  
على أيدي البديهي في القرن الحادي عشر للهجرة فأطال البحث في قصة  
المتنبي في الشعر والحياة بكتابه « الصبح المنبي » .

ولاحيك بما لقي المتنبي من حماية الماسريين بما تقدم ذكره من الحماية  
على القادة الطول الدراسية لشعره وأدبه في ذكرى صيد الألفى سنة ١٩٣٦  
في المواسم العربية وباريس وأهمها مهرجان دمشق .

أما منزلة المتنبي في أدب الغرب فقد احتلتها رفعة مرموقة ، إذ أن  
الأديب المائي الذي يزن القصائد والأدباء وأهل الفن يميزان المصاني  
الإنسانية ويطلب في أن يسمع الشاعر أناس أصداً نفسه وروحه وأن  
يعطيهم صورته الصادقة في الألم والحب والفرحة والبغضاء وأن يكون  
شبيهاً ملحوظاً في تاريخ البشر بأفكاره الخالدة ونفاذاً بظاهريه وربه الوجود  
وكل هذا يجعله العربيون في شعر المتنبي فكان من المتألفين إلى التعريف  
بأبي الطيب في أواخر القرن التاسع عشر وصدد القرن العشرين الأستاذ  
المستشرق القديم غوستاف شلومبرج الذي ترجم لمتنبي بمواضع كثيرة  
من كتبه وعرف به وبشعره وبفروسيته وحروبه للشيرازيين والمؤرخ  
الرومي استكندر فازيليف وهو من السباقين أيضاً في الغرب إلى التعريف  
بـ المتنبي .

ثم خطى على أثرهما اعتقاداً كبيراً أحدهما الأستاذ المستشرق  
ماريوس كانار فوقف جزءاً كبيراً من آله الأدبية في فرنسا والجزائر  
على أبي الطيب المتنبي والحمدانيين والنامي الأستاذ المستشرق ريجيس  
بلاشير الذي ترجم في كتابه الذي ألفه عن أبي الطيب قصداً كبيراً من  
شعره للغة الفرنسية .

وقد قدم هؤلاء وغيرهم من المستشرقين الألمان والروس والبولنديين  
والإيطاليين أبا الطيب للعالم العربي وللأدب العالمي فزادوا شاعراً للعربية  
من طراز أعلى يعلم شعره المجد والمروءة والأخلاق ويسمك في النفس روح  
الحماسة والبطولة وهم جميعاً عدواً أبا الطيب شاعراً منهم حدثنا والماء في  
أدب أمته .

وقد عني غير هؤلاء بالمتنبي بلائحة من المستشرقين درس كل منهم  
خاصة من نواحيه في الأدب والفلسفة فعنى المستشرق لويس  
جاسبرسون بأجانب غربية في شعر أبي الطيب فجزاً ما علمه من صلاية الأسر  
وتوليد الحماقة والميل إلى الحرب إلى نزعة ( قريظية ) سماها النرعة إلى  
رميك الدماء وهذا ملخص ارتاد الأستاذ ماسينيون بين وجه الترابط  
بينهم الأصداء في عصر أبي الطيب وقد جاءوا البصرة والكوفة وأصلوا  
فيها التهم والفساد .

والذي أجد أنه ميل أبي الطيب إلى الغرب كما نؤدع لغوية بحرة  
في عصر عاني فيه السبب الانهزام والظلم وكفاية الفرض والحرق فكان



أبو الطيب صاحب رسالة حربية في تحرير العرب من رقة العجم وتجديد حياتهم يردعهم إلى مثلهم العليا السابقة ولا نستغرب هذه الرسالة من شاعر عربي حر كالمختبي وتاريخ نضاله ورحلاته ومحتوى ديوانه يدلان أوضح دلالة على هذه اللحظة التي ما حاد عنها حتى مات - وليس ما يسوغ تفسير النزعة العربية الواضحة الصريحة عند أبو الطيب بزعة قرمطية دعوية مرادها السفك والتقتيل وقد رأى المستشرق عاصميون رأى كل من الدكتور طه حسين والدكتور شوغري ضيف .

لهل تكون دعوة من مانع عن بلاده في ذلك الحين وقد تحكم بها الأجانب إذا حصل السلاح ودعا لتحرير والكفاح نزعة قرمطية لأنها تهدد بسفك الدم ؟ أو إذا قام في عصرنا داعية تاتر لتحلص بلاد العرب من سلطان الأجبي والمستعمر والصهيونية الفاسية فأخذ بالشعر ليمتدح الحمية والتفوة في العرب يكون قرمطياً ؟ إن الوضع لم يختلف في عصر المختبي عما في عصرنا ولكن كان من حظ القرن الرابع أن وجه فيه شاعر كالمختبي ينهض بتلك الرسالة فمن لنا في عصرنا بشاعر ؟ وشعراؤنا بينه مستزل أو مستزل ، أو لا يطامع الدنيا ...

وقد عني بالمختبي عدا أولئك المستشرقين أنداد لهم معاصرون فيهم ، كأول بروكلمان وكارادوفو كما كتب المستشرق الإيطالي جاييريللي عن حياة المختبي التي عرضها في معرض التحليل ووجد صاحبها شاعراً يرتفع إلى مصاف شعراء الغرب الخالدين وقد مارس هذا المستشرق دراسته لأبي الطيب خلال الأعوام ١٩٢٧ - ١٩٢٩ و ١٩٣٦ . ويستخلص من هذا أن المختبي بيا ترك من شعر ودوى يعد من مفاخر الأمة العربية وأنه لا يقل قدراً ومنزلة عن الشعراء والمفاخرة في أمم الشرق والغرب ..



## مقتاورات من ديوان المتنبي

### ٩ - التوقب والطموح

دل شعر المتنبي في كل صورة والوانه وخاصة في صدر حياته على  
توقب وطموح لتحقيق أمر يفسره الشاعر ويبت صور هذا التوقب بعزيمة  
واستعداد أو بتوعد وتهديد أو باعتزاز بالنفس ولساذج هذه الطفرة الروحية  
بشيء شعر أبي الطيب يدل على اتجاذه الذي كان أبدا يسعى إليه .

### وثبة ماجد

إلى أي حين أنت في زى محسوم      وحتى متى في شسفرة ولي كم  
وان لا تبت تحت السيوف مكرما      تمت وتكاسى اللئيم غير مكرم  
لقب. واتقا بالله وثبة ماجد      يرى الموت في الهيباجنى النحل في النمل

### وسائل العلى

تغر عندي حتى كل مطلب      وقصر في عيني المدى المتطاول  
ومازلت طودا لا تزل ملاكبي      لئى ان يبت للضميم في ذلال  
كأنى من الوجناء في ظهر موجه      رأت برى بعثا ما لهن سوا حل  
يخيل لى أن البلاد مسامى      وأنى فيها ما تقول. الموال  
وتن يرخ ما أبلى من الجاه العلى      تساوى المحايا عنه والمقاتل  
ألا ليست المليات إلا نفوسكم      وليس لنا إلا السيوف ووسائل

### الجله الشجاع

أبا عبد الله ماذا أنى      خفى عنى فى الوبجا ملقى  
ذكرت جسم ما طلى وأنا      نفلر فيه بالهوج الجسم  
أمنى تأخذ التكبات منه      ويجزع من ملاقات الصلم  
ولو 'برز' للزمان إلى شخصا      لخصب فعر مفرقه حلقى  
وما بلغت حبيبتها الليالى      ولا سارت ولمى بها زمنى  
أنا امتلات عيون الخيل منى      فويل فى التيقظ والملم

## ( ب ) التنقل في البلاد

ولا بد لمن يطلب المجد ان يطلبه في كل مكان وأوان فلذا ضاق به  
بله تركه الى سواء سمعاً وداه أمانه النفس ورغبات الهمة والعزم :

### الرحالة

أوانا في بيوت البلاد وحلى وأوفى على قتله الجير  
العرض للرماح الصم نحى وانصب حر وحى للهجير  
وأشربى على ظلام الليل وحى كاني منه في قبر منير

### ظلمات الغرور

لا اقترى بلداً الا على غرور ولا أمر بخلق غير مصطفى  
ومدغمين بسبوت صحتهم عارين من حل كاسين من دق  
خداين بلدية غرور بطونهم مكن الضباب لهم زاد بلائين  
يسخرون في اعطيتهم خبري وما يطيش لهم صيهم من الطن

### البيعة السامية

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا الا لخالقه حكما  
ولا يهيبا لكيا الا قواد عجاجة ولا واجدا الا لكريمة طعما  
ولا يظن في حارته في كل بلدة وماتتني؟ ما أبغى جل ان يسمي

### جبل وبحر

جبل في جبل جيت تشبه اتنى ال بحر وبحر تشابه اتنى البحر  
تغرق مكان الميس منه مكاننا من العيس في واسط الكور والظهور  
ينفذ بنا في جوزه وكاننا على كرة أو أرضه صفا سفر  
وجوه وصلناه بليل كانما على الله عن يرة ظل حبر  
تؤيل وصلناه يوم كانما على سقته من حنية حلي خضر

### ظلمات النجاشي

مطارد النجاشي وكيف يقطعها زهو الهداء وصيهم شجرة  
يكن القلوج بها على مسالك فكانها بيتنا نحنها حنود

## هجرة المريج

الفت لرحلى وجصيت غوى فتوى والفوزى والجلالا  
فما حاولت لى اوضر مصلحا . ولا اذمت تقى الزهى زوالا  
على قلق كان المريج تحير اوجها جنونا او قسيلا

## ( ج ) الغزل

قبل ان ابا الطيب تكلف الغزل على عادة الشعراء فلم تكن له عاطفة  
الماشق المتيقن وقد علم المتقاد هذا الراى بان المتنبي غلبت عليه على عبقريته  
فكن قصائده المتنبي نفسها هى التى تدل على احساسه الرقيق فى الايات  
التي صر فيها عن هواه ولم يستطع ان يخفى ههنا الحققة بل قد جاءت  
صود الغزل فى هذه الايات المتفرقة بدوية الاوهان والملايح فلسفية  
المناظر احيانا فيها حكاية وتكرارا ، لكن روح المشرق مضيت لى الفاها  
وقوافيها فعمله ايات منها :

## البسوة

من الجبال فى ذى الاعارب حمر الجلى والمطايا والجهلايب  
ما اوجه الحضر المستحسنات به كادجه البليات الرعايب  
اين المميز من الارام ناطرة وغير ناطرة فى الحسين والطيب  
افدى ظله فلا حة عرفن بها مضع الكلام ولا صبح الحواجب  
ولا يرون عن السمام لباللة اولاهن صليات الرعايب  
ومن هوى كل من ليست موهة تركت لونى حشوبى غير مستحويه

## الماشق المبلى

وما كنت ممن يخلع المشرق قلبه ولكن من يصر جفونك يمشق  
وبين الرضى والسخط والرهب والذى جمال للبحر بالثقة الخرقى  
واولى الهوى ماشك فى الرضن ذبه رضى الهجر فخر الشعر روى رضى  
وعطبتى من الادلال يسكنى من الحشى شمس آية من شمسى بريق  
واشرب مصدول الصيات والاح مكرت قنى صبيحة القبلان نقرى  
وايجاد فزوان بجيدك زدتى نظم فى ابي علقا من مطوق  
وما كل من يوى عطف اذا خلا طلاق فريدى فى القلبي والطين كلقى

## ( د ) الفخر

منا اثار حقه الناس على ابي الطيب من بنى قومه ومن الامراء  
والملوك ومن العلماء والشعراء تثبت بالنسب وتفاخر بالشرف وتناظم  
بما اوتي من مجد وفصل وتقوى واقدام عبر عن كل ذلك في شعره بهذه  
اللماني في مختلف قصائده ولا تكاد تخلو واحدة من بيت أو أبيات يمدح  
فيها ويفاخر :

ما يقومى حرقت بل فرفوا بهي  
ويهم فخر كل من نطق الفضا  
ليس التعلل بالآمال من اربى  
لا تركز وجوه الخيل مساهمة  
اي محل اوتقنى  
وكل ما قد خلق  
محظور في عتقى  
انا السلى نظر الاعلى الى اذنى  
وما النحر الا من رواء قصائدى  
اساو به من لا يسير حشورا  
تغرب لا مستظما غير نفسه  
فلا عبرت بي ساعة ولا تمرى

وبنفسى بخرت لا يستوى  
د وعوذ الجاني وغوث المطريد  
ولا اللقاعة بالاللال من شيسى  
والحرب اقوم من ساق على قدم  
اي عظيم القس  
الله وفا لم يخلق  
كفيرة في عرقى  
وتشت كسائى من به صم  
انكلت شعرا امبيح المعر متفندا  
وغنى به من لا يغنى مرددا  
ولا قابلا الا لخالفه حكما  
ولا صحبتى موجهة تقبل الضيما

## ( هـ ) الفصح

ومن امداحه في عيد الاضحى سيف الدولة انفسلما وهو على  
لوحه وسيف الدولة على قرص مقابل في ميدان حلب تحت قمره :

## اليوم الواحد

لكل امرئ من دهره ما تمودا  
والن يكفب الارجاف عنه بضفة  
ذكى تظنيه بطبيعة عينه  
وصول الى المستصبات بخيله  
لذلك سمى ابن السميت يومه  
مريت الى جيجان من ارض آمد

وعاد سيف الدولة الطعن في المعنى  
ويسى بما تولى اعليه أسطا  
يرى قلبه في يومه ما ترى غفا  
فلو كان قرن الشمس ماء لا وزدا  
ماتة وسماه السميتى مولدا  
لانا لكاه ادناك ركضى وايضا

قول واعطاك ابنه وجيوشه جينا ولم يخط الجميع لحياتنا  
عرضت له دون المحبة وطرفه وابصر سيف الله منك مجردا

### ( ٥ ) الشك في الحكيم

تسوس أبو الطيب بكل شأن من شئون الحياة فذاق حلوها ومرها  
وعرف يؤسها ولميسها وأحاط بثقاتها وعاش بجوارها ومحبها ، ولم يفتح  
بما تعلم فكان دائب التطلع الى كل جديد وقد تمثل هذا في معانيه التي  
اقتبست من غروض الصوفية ومن مذاهب الفلسفة التي عاشت في عصره  
فظهرت في شعره وهذه آياته قليلة ترد في كل زمان ومكان تجري مجرى  
الأمثال وتعبير أصلي تعبيري عن كثير من المعاني والأمر على اختلاف  
الحوادث والصور :

ذلك من يضبط الدليل بعوضي      وبه عيبي أخف عنه العلم  
من بين سهل الهوان عليه      ما لجموح بسيط إيمان  
أفاضل الناس أغرض لنا الزمن      يتلو من الهم الخلاص من القطن  
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته      وإن أنت أكرمت النسيم ترفاه  
ووضع الندي في موضع السيف بالمل      ظفر كوضع السيف في موضع الندي  
ما كل ما يمتنى المرء يدركه      تجري الرياح بما لا تشتهي السفن  
ومن نكده الدنيا على المر أن يرى      عوا له ما من صداقة به  
وإذا كانت النفوس كبارا      تعبت في مرافها الأجسام  
وإذا أتت شطحي من ناقص      لهم الشهادة لي يأتي كامل  
واحتماله الأدنى ودوية جاتيبي      له فله تضوي به الأجسام  
وإذا ما خلا الجبان بأرضي      طلب الطعن وحسده والنزالا  
تصفوا المحبة لجامل أو غافل      عما حضي منها وما يتوجع  
ومن يخالط في الحقائق نفسه      وهو بها طلب للحال فطمع  
وأحب خلق الله من زاد حسه      وقصر ما تشتهي النفس وجهه  
وما يند الأتقان غير الوافي      ولا لهل الأذنون غير الأصاديق  
لولا المشقة صاد الناس كلهم      الجود يقرر والإقدام قتال  
ذر العقل يشقى في النعيم بعقله      ولو الجهالة في الشقاوة ينعم  
ومن البلية عذابي من لا يعنوي      من جهله وخطيب من لا ينعم  
ومن الصفاة ما ينالك نفسه      ومن الصداقة ما يضر ويؤلم





تاريخ الأمم والملوك

الطبري

٢٩٢٠



تميزت الحركة الفكرية في القرن الثالث للهجرة بأمرين كان من أهم نتائجهما التمجيل بإرث عاز الفكر العربي الإسلامي وفتح الباب واسعا أمام جداول الثقافات الغامية لتصب في النهر الكبير ، نهر الثقافة العربية الإسلامية .

وأول هذين الأمرين هو اقتراب العلوم الإسلامية من النضج والكمال سيما وإن العمليات الأولية ( كالرحلة في طلب العلم وجمع المعلومات ) والتبويب ( تبويب الأحاديث والأخبار وتمييز صحيحها من فاسدها ... الخ ) وتموين الروايات في الحقول المختلفة كانت قد انتهت وبدأ المستقلون في العام يصنفون المطولات في مختلف العلوم والفنون .

وفي هذه الحقبة من تاريخ الفكر العربي كانت اللغة قد جمعت من أفواه الأعراب وصيغت فيها الكتب ووضعت كتب السيرة والمغازي والفتوح وتبلورت الآراء والمذاهب الفقهية وأصبحت تركز على أسس ثابتة وجمع الحديث وألفت فيه الكتب الصحاح واتسعت آفاق الرجال فأصبح المحدث من بينهم يلم بالشعر والأخبار والمستقل بالنحو يأخذ بالنصيب الوافر من الحديث والفقه لا تغلو جميعته من شعر وشعره .

وثاني هذين الأمرين هو الكسار الطوق الذي كان يحصر مراكز الفكر في العراق بمذاهب الثلاث : الكوفة والبصرة وبغداد وسريان نور الثقافة إلى مراكز جديدة خارج العراق كالشام ومصر والمغرب وفارس وخراسان وما وراء النهر والري وغيرها ، أصبحت هذه المراكز الجديدة تزخر بحلقات الدرس والتحصيل وتوفر لها من العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل اللغة والخبر ما حملها مصطافى أقطار الدارسين وطلاب العلم بمصنفونها للاستماع إلى شيوخها والاتخذ عنهم وتلقى العلم على أيديهم .

### نشأة ابن جرير الطبري \* \* ليعود صبحي

في هذه الفترة من تاريخنا الفكري ولد دهاش المؤرخ الفقيه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .

ولد بأمل عاصمة إقليم طبرستان وأكبر مدينة في سهلها وهي مدينة  
خرجيت كثيرا من العلماء ولكنهم ينسبون إلى طبرستان فيقال لكل منهم  
الطبري \*

والإقليم الذي يشمل طبرستان متسع ممتد لتشمل الجبال أكثر  
مساحتها \*

وقد سمي بهذا الاسم لأن سكان الجبال كثير الخروب وأكثر  
أصباغهم الأطيار ، فليس بينهم صعلوك ولا غنى ولا صير ولا كبير إلا ويده  
الطير تسميت بلادهم طبرستان أي بلاد الأطيار أو موطن الأطيار .  
وهو إقليم كثير المياه متهدل الأشجار متنوع المأكلة قال أبو العلاء  
الروى في وصفه :

إذا الريح فيها جرت الريح أصحلت  
فواختها في النسيم إذ تترونا  
فكم طيرت في الحو وردا مدرا  
يقله فيه ووردا مدرعا  
وأنشيجار تصاح كان ثمارها  
عراش أبكار فمباحكن عفرها  
فإن عذتها الشمس فيها حسبتها  
خمدوا على الكفبان فذا وتواما  
عوى خطباء الطير فوق غصونها  
تبت على العفناق وجدا مكنما

بدأ سعيد بن العاص فتح الإقليم في عهد عثمان بن عفان فلما تول  
معاوية يمت إليها مصقلة بن هيرة ومعه مئرون ألف رجل فأدخل فيها  
لكن أهلها أخرجوا لهم في المضائق فقتلوا مصقلة وأكثر رجاله \*

فكان المسلمون بعد ذلك إذا غزوا هذه البلاد تحفظوا وحذروا  
التوغل فيها \*

فلما تولى يزيد بن المهلب خراسان في أيام سليمان بن عبد الملك  
سار حتى وصل إلى طبرستان وقتل أهلها فصالحوه ولم يزالوا يفتون  
بصلحهم مرة ويقتلون أخرى إلى أيام مروان بن محمد فانهم تقضوا عنهم  
ومنوا جزيتهم فوجه إليهم السفاح عاملا فصالحوه على مال \* ثم غلبوا

وَقَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حُلَافَةِ الْمَصُورِ فَاتَّوَسَّلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ قَوَائِدِهِمْ جَابِرُوهْمَ  
وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ .

وفي أيام المأمون افتتحت جبال شروين من طبرستان وهي من أمنع  
الجبال وأصعبها قولي المأمون على طبرستان المازيار بن قازو - وكان قد  
شارك في فتح الجبال - ومساء محمدا فلم يزل واليا عليها حتى توفي  
المأمون فأثَّره المعتصم ولم يعزله لكنه بعد ست سنوات من ولاية المعتصم  
غدر وخالف . فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر واليه على المشرق  
( خراسان والري وقومس وجرجان ) يأمره بمحاربته ، فلما قصده جنود  
الخليفة وحمود ابن طاهر سلم ، وحمل إلى مصر من رأى ( سامراء ) سنة  
٢٢٥ هـ فضرب بالسيف بين أيدي المعتصم حتى مات .

ثم وليها بعد عبد الله بن طاهر ابنه طاهر وخلفه عليها أخوه سليمان  
فخرج عليه الحسن بن يزيد العلوي سنة ٢٤٩ فأخرجه عنها وغلب عليها  
إلى أن مات وخلفه أخوه محمد بن يزيد .

### ★★★

أما اسمه فمحمد ولما كثرت فابو جعفر .

والمؤرخون متفقون في نسبه حتى جده فهو أبو جعفر محمد بن جرير  
ابن يزيد لكنهم بعد ذلك مختلفون . فيزيد هذا ابن كثير بن غالب في رأى  
أكثرهم ولم يذكروا رأيا آخر وفي رأى آخرين أنه ابن خالد ويظهر من  
عبارة ابن خلكان أنه يعتقد صحة هذا النسب ويضعف الرأى الآخر .

على أن أبا جعفر نفسه لم يكن يزيد في نسبه (سما آخر على أبيه .  
فقد سأل عن نسبه فقال : محمد بن جرير ، قال السائل : زدنا في النسب ،  
فأنشده بيت رؤبة بن العجاج :

قد رجع العجاج ذكرى قاعدنى  
باسمى إذا الأسلاب طالع يكفى

وله في آخر سنة ٢٢٤ أو في مطلع سنة ٢٢٥ هـ ( ٨٣٩ م ) وقد  
سأله القاضي ابن كامل أحد تلامذته الذي أروا له : كيف وقع لك الشك  
في سنة مولدك ؟ فقال أبو جعفر : كان أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دول  
الستين فأوتج مولدى بمحادث كان في بلد فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث  
فلختلف المخبرون قال بعضهم : كان ذلك في آخر سنة أربع وثمانين  
وما تثنى . وقال آخرون : بل كان في أول سنة خمس وعشرين  
وما تثنى .

• وكانت وفاته بعدد يوم ٢٦ من شوال سنة ٢١٠ هـ في عصر الخليفة  
المبلى المتعذر بالله •

• ويكنى ابن مؤتية بسببتهنوني ما قيل عن وفاته في سنة ٢١١  
او ٢١٢ هـ

• وهم مجموعون على ان وفاته كانت بعدد اذ انه دفن هناك •

وقد ذكر ابن خلكان انه رأى يبصر في الفرافة الصغرى عند مبعج  
لقطم قبراً يزاد وعلة رأسه حجر مكتوب عليه ( هذا قبر ابن جرير  
الطبرى ) والناس يقولون انه صاحب التاريخ المشهور ثم قال ان هذا  
ليس بصحيح • بل الصحيح انه دفن بفلسد وكذلك قال ابن يونس في  
تاريخه المختص بالقرباء •

ثم يذكر ابو جعفر يبلغ السى التي توهله لتعلم حتى يهد به والده  
الى علماء ( أمل ) وسرعان ما يتفتح عقله وتبدو عليه مغايل النبوغ وهو  
حلت فقد قال : • انى حلفت القراءم على سبع سنين وصليت بالناس وانا  
ابن ثمانى سنين وكتبت الحديث وانا فى التاسعة •

وكان هذا النبوغ المبكر حافظاً لآبئة على الجهد فى اكمال تعليمه  
وبخاصة انه رأى سلطاناً تغايل من تأويله قال الطبرى : • رأى لى كهن فى النوم  
اننى جبر يقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه مخلقة مخلوقة  
تلاحيث وانا ابرمى بين يديه •

وقص رؤياه على المعبر فقال له : ان اهلك لى كبير تصبح فى دينه ،  
وقب دهر هريضة فخرهم أبى على • عموك كى الحلى طلب العلم والى حيث صبي  
صنوه •

وألغى الظن ان والده لم يعجبه هذه الرؤيا فى نفسه بل أحمر بها  
انه الصغرى ولعله أخبره بها مرار فكانت هذه البشارة من حواجز أبى جعفر  
الى الاجتهاد فى طلب العلم والتمسب الشيط فى الاستزادة من هيايمه •  
ثم الكه المتصل فى التدريس والتأليف طيلة حياته •

ها هو ذا يقضى سنوات فى • أمل • تزيد الى المعرفة طمة متيقن  
بين ملند طبرستان وغيرها من بلاد الفرس يستقى من يابسة ما يورد  
غلته قيبداً بالمفر الى الرى وما حاورها ليأخذ الحديث عن حميد بن حميد  
الرازى والنس بن ابراهيم الابلج ويقول : • كذا نكتب عن ابن حميد فيخرج  
الىا فى الليل مرات ويسألنا عما كتبناه وقرؤه علينا •

وفي هذه المنطقة يدرس التاريخ على محمد بن أحمد بن حماد  
!المولاي مع حرص شديد على مجالس ابن حميد قال : « كنا نضي الى أحمد  
ابن حماد المولاي وكان في قرية من قرى الري ثم سلبو كلبجاني حتى  
يمود الى ابن حميد فحلق مجبسه » . ويقال انه كتب عنه أكثر من مائة ألف  
صحة .

على أنه درس عليه .التغبير أيضاً وأخذ عنه أهل العراق عن أبي  
مقاتل بالري ، فإذا ما ارتوى من هذه الينابيع أحسن بطلاً جديد الى شامل  
أخرى .

قال ابن بختيشوع :

يشخص الى بغداد ليسمع من علمها أحمد بن حنبل ويبنى نفسه وهو  
في طريقه بأنه سيتلقى من الإمام المحدث الفقيه ، لكن الأقدار لم تطق له  
ما كان يأمله إذ توفي ابن حنبل قبل أن يصل أبو جعفر الى بغداد ويبلغ  
بوفاته وهو على مقربة منها فيصرف عنها ولا يفكر في أن يمود الى بلد  
فتجه الى البصرة ويسمع من علمائها : يسمع من محمد بن موسى الحرشي  
وعناد بن موسى القزاز ومحمد بن عبد الأعلى الصنعاني ويشر بن معاذ  
ومحمد بن بشير الحروف بنسار وأبي الأئمة ومحمد بن الطلي  
وغيرهم .

ثم ينتقل الى واسط فيسمع من بعض شيوخها .

ويحدوه الكلف بالمعرفة الى أن يرحل الى الكوفة فيكتب الحديث عن  
هناد بن السري واسماعيل بن موسى وأبي كريب محمد بن الملاء الهمداني  
، وأحد القراءات عن سليمان الطلعى .

ويتبين زملاؤه في الكوفة انه أقدمهم وأخطهم ثم يحيى أبو كريب  
أن الطبري أنهم . فقد كان أبو كريب من كبار علماء الحديث لكن كانت  
فيه شراسة وشدة . وقد وصف الطبري لقاءه لتلاميذه مرة فقال : « حضرت  
الى داره مع طلاب الحديث فاطلع من باب خوخة له ، وطلاب الحديث  
يلبسون الدخول ويصيحون فقال : أيكم يخط ما كتبه عنى ؟ »

فالتفت بعضهم الى يخط ثم انظروا الى وقالوا : أنت يخط ما كتبت  
عنه ؟ قلت : نعم قالوا : هذا يسأله فقلت : حدثنا عن كذا ، يكتله وفي  
يوم كذا يكتله .

فاخذ أبو كريب يسألني الى ان عظمت في نفسه فقال لي : ادخل الى  
فالتفت لسكتني من حديثه .

ويقال انه سمع من ابي كريب أكثر من مائة ألف حديث . هل يتبع  
المطالع النهم بما حصل في الري والبصرة . واسط والكوفة ؟ لا ولمل علم  
الدراسة . قد زادت الى العلم شوقاً وزادته به كلفاً .

لقد كان يريد بغداد ليمس على ابن حنبل فانصرف عنها لما علم  
يسوته ولم يدخلها .

فلماذا لا يتجه اليها الآن وفيها من جلة العلماء من يروون علماء او  
ينقل عنهم الى المعرفة ؟

وسرعان ما يندفع الى بغداد فيلوس القراءات على احمد بن يوسف  
الطبري . ويتلقى فقه الشافعي عن الحسن بن محمد الصباح الزعفراني  
وعن ابي سعيد الاسطخري .

فهل ان لهذا الطمان ان يرتوى فلا يرتحل الى بناييع اخرى ؟

ان هذا بعيد لان العطش الى المعارف لا يرتوي مهما يتهلوا ولعلمهم  
كلما تعلموا استطابوا العلم فازدادوا اليه شأاً واحتملوا في سبيله نصيباً .

انه يعتزم رحلة طويلة الى بلاد بعيدة فهو اليه نفسه . فليتمعه الى  
حصر ليستفي من مناهلها التي طالما سجع بها .

لكن شوقه الى المعرفة يخرج به الى الشام فيقيم في بيروت مدة يلقى  
فيها العباس بن الوليد البيهقي القري . ويقرأ عليه القرآن كله برواية  
الشمسي .

فاذا ما قضى من الشام حاجته انطلق الى مصر ليوصل اليها سنة  
٢٥٣ هـ في اوائل عهد احمد بن طولون .

اقام مدة بالفسطاط ثم عن له ان يعود الى الشام فلما قضى من هناك  
أدبا علميا وجع الى مصر سنة ٢٥٦ هـ . ( ٨٧٠ م ) .

- ولقد كانت مصر حينئذ تروى بعلمائه الذين استلقاهم الطبري .

ما هو ذا يفرس في مصر فقه الشافعي على الربيع بن سليمان  
المرادي واسماعيل بن ابراهيم المزني ومحمد بن عبد الله بن الحكم وابنيه  
عبد الرحمن وعبد الله مالك على تلاميذ ابن وهب .

ويلقى يونس بن عبد الاهلي الصقلي فيأخذ عنه قراءة حمزة وورش .  
وكان بمصر وقت دخوله اليها أبو الحسن علي بن سراج المصري وكان متادبا  
فاضلا يقصده من دخل الفسطاط من أهل العلم فلما ظهرت شهرة الطبري  
بمصر وبأن فضله وعلمه بالقرآن واللغة والحديث والفقه والنحو والشعر



لقية أبو الحسين بن سراج فوجده واسع المعرفة سيدي الجواب في كل ما سأله عنه .

فسأله عن شعر الطرماح بن حكيم ولم يكن في مصر من يحفظه فوجد الطبري يحفظه لسأله ان يحمله ويحضر غريبه فأتاه يحمله عند بيت المال في الجامع .

ثم يناقش المرتضى - بعد أن حوس عليه فقه الشافعي - في عدة مسائل منها كلام في الإجماع . وكان الطبري قد اختار من مذاهب الفقهاء قولاً اجتهد فيه بعد أن كلف نفسه في بطلان على مذهب الشافعي وبعد أن درسه بمصر .

وقد سأله أبو بكر أحمد بن كامل فيما بعد عن المسألة التي تناظر فيها هو والمزني فلم يذكرها لأنه كما قال ابن كامل : « كان أفضل من أن يرفع نفسه وأن يذكر تلوقة على خصم في مسألة » .

وعنه حفظ المواتي ان يجتمع بمصر بمحمد بن اسحاق بن خزيمة وان يقرأ كتابه في السيرة ثم يستمد عليه في مصادر تاريخه .

وقد اجتمع بمصر في ذلك الوقت أربعة من العلماء الواقفين اسم كل منهم محمد هم : محمد بن جرير الطبري ومحمد بن اسحاق ومحمد ابن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني وقد أبى الخيال الا ان يزخرف من اجتماعهم بمصر أسطورة كبرى من تبل أخلاقهم وطهارة نفوسهم وتبلي على تقدير الحاكم للعلم والعلماء .

ذكر ياقوت نقلاً عن كتابه المسحاني وذكر الخطيب البغدادي في ترجمته لمحمد بن حرب أن الرحلة حصلت بين أولئك المحمدين بمصر فأرملوا وانفكروا ولم يبق عندهم ما يرونهم ولحق بهم الضرر فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأتون اليه وانطلقوا على أن يستهوا - يفتروا - فمن خرجت عليه القرعة سأل الناس لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على محمد بن اسحاق فقال لأصحابه : اهملوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة - فاندفع الصلاة فاداهم بالشموع وخص من قبل والى مصر يدق عليهم الباب ففتحوه له فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل له : هذا وأشاروا اليه فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً ودفعها اليه .

ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقيل له هذا فدفع اليه عنقه .

ثم قال : أيكم محمد بن اسحاق ؟ فقالوا : هو ذا يصلي فلما فرغ من صلاته دفع اليه صرة فيها خمسون ديناراً .

ثم قال لهم : ان الأمير كان في قيلوته فرائ في النوم طيلة يقول له :

ان المعتمد اشتد بهم الجوع فبحث بهذه الصرر وهو يقسم عليكم اذا فعلت  
ان تمشوا اليه ليزيدكم .

ويظهر ان الحنين الى بغداد ماوده فقصه اليها .

لكنه لم يلبث ان اتجه الى طبرستان وكانت هذه زورته الأولى لها سنة  
ان فارقتها في طلب العلم .

فقضى بها مدة رجع بعدها الى بغداد ثم عاد الى طبرستان مرة ثانية  
سنة ٢٩٠ هـ .

لكن بغداد ابت الا ان تجتديه فعاد اليها واقام بها وانقطع للتدريس  
والتأليف الى ان ودع الحياة .

ويظهر من تتبع اساتذته انه تلقى على الكبار من علماء عصره وسمع  
من الشيوخ الثقات الذين مر ذكر بعضهم .

ومناك كثير غيرهم من اصحاب الاسانيد العالية بمصر والشام  
وبغداد والكوفة والبصرة والري .

فقد تلقى القرائن على سليمان بن عبد الرحمن بن جواد (خلاد)  
الطليحي . وكان الطليحي قد قرأ على خلاد وخلاد قرأ على سليم بن عيسى  
وسليم قرأ على حمزة وثلقاها كذلك عن يونس بن عبد الأعلى عن علي  
بن عبيدة عن سليم بن عيسى .

تطور المنهج التاريخي  
عند الطبري

كان التأريخ لجبل الطبري وفي عصر الطبري قد غطا خطوطه  
اسمعتين في ميدان تطوره . أولاها هي استقلاله وانصاله من الحديث  
في القرن الثاني منه تخصص كثير من المؤرخين في موضوعات معينة  
اشتهروا بصرفتها وجمعها وتلويها : فمحمد بن السائب الكلبي المتوفى  
سنة ١٤٦ يشتهر بالانساب وعوانه بن الحكم الكلبي المتوفى سنة ١٤٧  
يسون أخبار بني أمية وأبو محمد لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٥٧ هـ يؤلف  
في حرب الردة وفي موقعة الجمل وفتح الشام ومقتل عثمان ومقتل علي  
الخ ، وصيف بن عمر المتوفى سنة ١٧٠ يؤلف في الفتوح وعشام بن محمد  
الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ يسون أخبار الأوائل وأيام العرب واسماهم  
واسمائهم ويؤلف في بعض أخبار الاسلام -

وكان بعضهم قد تخصص في تواريف الأقاليم فكان أبو محمد أعلم من غيره بأموال العراق وأخبارها وفتوحها ، وكان المدائني أعرف بأموال فارس وخراسان والهند وكان الواقدي أجدر بالسيرة النبوية وتاريخ الحجاز وحولها الثلاثة أكثر من غيرهم علما بفتوح الشام ثم اتضح هذا التخصص حينما انقسمت الدولة العباسية منذ منتصف القرن الثالث وتمتدت الممالك والإمارات والديولتات وكثرت العواصم والحوضر التي نافست بغداد فلادانت بالعلماء أصفهان وعزبة والري وبلخ وحلب والقاهرة والقبروان  
ترجمة -

وكان من أثر هذا الاستقلال أن ازدهر التاريخ القلبي وإن كثرت  
كتب التراجم والطبقات .

لأمن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ ألف في فتوح مصر والمغرب  
والبلادي المتوفى سنة ٢٧٩ ألف في أساليب الاشراف وفي فتوح البلدان  
وابن يونس ( ٢٨١ - ٣٤٧ ) أرخ لحوادث مصر ورجالها ومن طرأ عليها  
من الغرياء والكهفي ( ٢٨٢ - ٣٥٠ ) ألف كتابا في ولاة مصر وقضاها  
كتابا في خطتها وكتابا في موالها .

على ان التأليف في التاريخ العام لم يتوقف عن مساهمة هذه  
الاتجاهات فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ ألف كتابه المعارف وغيره -

وهناك آخرون دونوا تاريخ العالم منذ الخليقة ، وسرعوا لتاريخ  
التحويب وبخاصة الفرس والروم كاليعقوبي المتوفى سنة ٢٧٨ (أو ٢٨٤) ،  
صاحب التاريخ المعروف باسمه والديوري المتوفى سنة ٢٩٠ مؤلف  
الأخبار الطوال .

وأما الخطوة الأخرى فقد كانت تمثل المكانة العالية للتاريخ والمؤرخين  
اد تملكت مصادرهم الموثوق بها في القرن الثالث فصار لا يعتمد على  
الأساطير والأخبار التي لا صابط لها بل يعتمد على كتب مدونة في السيرة  
وتاريخ الأقاليم والتاريخ العام وعلى وثائق وسجلات ويعلني كتب مترجمة  
من اللغات الأجنبية الى جانب اعتماده على المفساهة والمفاهدة  
والرحلات .

ولم يعد المؤرخ يسمى اخباريا ، كما كان يسمى من قبل ، واقتصر  
مدلول الاخبارى على راوى القصص والنوادر والحكايات .

وبهذا صار التاريخ علما لا يستنكف العلماء والفقهاء من التوفر على  
دواسته ولا يتعالمون التأليف فيه وأصبح المؤرخون ذوي مكانة عالية بين  
العلماء . -

## بين الكتاب ومؤلفه

يستمد المؤرخ المطبوع نظريته الخاصة الى جملة التاريخ وأجزائه من نظريته الى الكون كله وهذه النظرة قائمة على شخصيته وأخلاقه ومراحه ومصرعه المفضل في الحياة عن اختيار أو اضطرار ولا شك أن لتألفته وبيئته ومصره آثارها في نظريته العامة والخاصة . ولكن هذه الآثار لا تظهر الا من تأثرها في نفسه ومن خلالها أولا ثم تظهر بعد ذلك في كل ما يصدر عنه ومن ذلك نظريته التاريخية والكونية . فالشخصية الانسانية هي ملقني الآثار من كل ما يحيط بها ومن يحيط ومنها تصدر دوافع الأعمال والأقوال .

ولذلك تختلف نظرات الناس الى التاريخ باختلاف أنماط شخصياتهم وخصائص كل سبط والفروق الفردية بين كل فرد وغيره فلا يستوى في النظرة التاريخية النظريون والصلبيون . ولا يستوى فيها الفنانون والفلاسفة والعلماء ونحوهم . وان كانوا جميعاً نظريين . ولا يستوى فيها أفراد كل طائفة من هؤلاء ولو كانوا على نهج واحد في النظر لاختلافهم في الأمزجة والأخلاق والمكائات والسير أو لاختلافات أخرى تعود الى تسرع المصنوع والبيئات والألوان الثقافية والضرورية الخالصة على كل منها وكلها مع موروثات الانسان قوام شخصيته التي هي مورد مصليات الوجود له ومصدر ما يحدث منه .

وليس صورة الكون عنه أي انسان الا وفق ما تطبع في نفسه أو في صورة نفسه التي تطبع طابعها كل ما تلتهم من الحياة والاحياء فإذا عرفنا كيف ينظر الانسان الى التاريخ مثلاً عرفنا ما هو أو طبيعته وإذا عرفنا ما هو عرفنا كيف ينظر الى التاريخ أو غيره .

والطبرى في تاريخه يؤرخ لخلق العالم بسماواته وأرضه ومن ليه فتسبح في نظريته الى العالم نظرة الحواري أو رجل الدين الذي يتصور حكمته الله وفضله في ابداع خلقه وما دبر لمخلوقات من اقدار ومنظم لهم من سنن . فتاريخ الكون ومن فيه مجال للمعة والمرة وحلقه آية حول الله بطوله . ولقد خلق الله ليه الانس والجن لعبادته وخلق لهم السموات والأرض وما بينهما على وفق مصلحتهم كما اقتضت حكمته ونعمته .

وفهم الطبرى للزمان هم الحواري كذلك فالزمان ساعات الليل واليهاء - ليحرف عباد الله من ذلك عند السنين والحساب فيميتوه وفق موافقت معينة ويبتعوا من فضله نهارا ويسكنوا الى الراحة ليلا وبذلك يستوجب الله عليهم شكره وجزاء مصته لمن شكره وادبه ومن عصى عاقبه بذنبه او عفا عنه بفضله - والطبرى - كما ينبغي ان نتوقع - يحتاج لكل ذلك بالاثار القرائية ليدعم قلمه ببراهينه ويزداد يقينا الى يقينه وحذنه عناية وفاء الطبرى لحوارته في تاريخه وفي سائر مؤلفاته وهي من أقوى الأدلة على أصالة هذه الطيبة فيه وانطباع كل ما يصدر عنه بمصانصها الحية القويمة - فالتاريخ عنده من العلوم الدينية ، والكون كله معبود وعابدون وإن كان فيهم أنوار وحطاك أو مطيرون وعصاة والله وراء كل شيء محيط وهو صاحب الأمر والخلق وليس كمثل شيء وهو الأول قبل كل أول والآخر قبل كل آخر وقد خلق الخلق وهو الثاني عنهم فضلا عنه ونعمة وهو المدبر لهم وفق حكمته وكرمه وقدرته ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون \*

ولد أراد أن يخرج الكتاب - وفق سمة علمه بموضوعه - في ثلاثين ألف ورقة فحال ملاه دون ذلك فخرجه في ثلاثة آلاف ورقة تبلغ في الطبعة المصرية - ٣٣٠٠ صفحة \*

### محتويات الكتاب

يبدأ الكتاب بخطبة ( مقدمة ) يليها تمهيد ثم التاريخ وهذا يشمل تاريخ الخلق منذ بدأ حتى سنة ٣٠٢٠ وهو شطران يحصل بينهما الهجرة لتبوية وسباجيل فيسأ على كل قسم من أقسامه للأربعة ونهجه الخاص به .

#### ( ١ ) الخطبة :

وهي تتبع في ثلاث صفحات وتبدأ باسم الله وحملته بما هو أحله من قديم وبهاء وحنانية وقدره وتجرد عن المكان ولطف عن الإدراك ثم شكرهم على فضله والأقرار بوحسانيته ونبوة محمد عليه السلام وبحبودته لله الذي أرسله لنفس رسالته ثم شرح حكمه الخلق كما لتصانها حين وضعنا نظرة المؤلف التاريخية ودلالاتها على طبيعته ثم اشادة الى موضوع الكتابية وهو ذكر ما انتهت الى المؤلف أخبارهم منذ بدء الخلق من الرسل والملوك والمتلفاء مع جملة من حوادث الأمور في كل عصر منهم ، إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه السمر وتطول به الكتب ، ثم أشار المؤلف الى أنه سيمهد لذلك بالكلام على ما هو أولى وهو الزمان ، ما هو وكم قدر جميعه وأبناؤه أوله والتهل أخرى وهل كان قبل خلق الله تعالى آياه شيء غيره وهل هو فان وهل بعد لثاته شيء غير وجه المسيح الخلاق تعالى ذكره

وما الذي كان قبل خلق الله اياه وما هو كالمى بعد خلقه وانقضائه وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى اياه وكيف يكون تناؤه والدلالة على أن لا قديم الا الله . . . . . يوجب من الدلالة غير طويل اذ لم تقصد بكتابتها هذا قصد الاحتجاج بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك للناحية وجعل من احبارهم . . . . .

ثم اشار الى أنه سيتبع ذلك بتاريخ العبي ومسابته وتاريخه ومن بعدهم . . . . . ومن حملت روايته أو رفضت وسبب ذلك . ثم اشار الى أنه أدى ما وصل اليه كما وصل لأن الأخبار تعرف بالنقل لا باستنباط الفكر والعجج العقلية ويبرأ من عنة ما ينقله من خبر قد يستنكر أو يستبشع وأن المهمة في ذلك على الرواة لا عليه على نحو ما قمنا في هذا آفا عن كلامنا على نظريته التاريخية ومنهج كتابه .

### ( ب ) تمهيد في الزمان وبه التعلق :

يقع التمهيد في نحو خمسين صفحة وفيه يوضح الزمان ما هو قيسره بأنه ساعات الليل والنهار ، وأن من معانيه المدة المطوية أو القصيرة ويلاحظ لهذه التمرينات بكلام العرب وعن تعريض عالم خفيه ليوحي لا تمرينات فيلسوف .

ثم يحكم عن مقدار الزمان من بدته الى عاقبته ويذكر الأقوال فيه فينقل بسنده عن ابن عباس تقديره بمئة ألف مئة ألف مئة ألف . . . . . كما يروي الأحبار أنه ستة آلاف سنة ومن وافقه على ذلك ويتبعه بأقوال من يقدرون تقديرها بمئة اعتمادا على قرب مبعث نبينا محمد - عليه السلام - من قيلم الساعة صتمدا على أحاديث يروونها ونهجه هنا أنه يذكر الرأي المروي فطائفة من أقوال أصحابه بأسانيدها اليهم منها بكل السد أو الجنة ثم يذكر رأى اليهود في قدر الزمان اعتمادا على توراتهم وأنهم يقدرونه من بدء الخلق حتى الهجرة النبوية بألفين وأربعين مئة وأربعة آلاف ويذكر أن اليونانية من النصارى يؤمن بطلان تقدير اليهود ويقدرونه وأنهم يقدرونه هذه الفترة بألفين وتسعين سنة وخمسة آلاف وعلت أشهر اعتمادا على التوراة التي في أيديهم أيضا والاختلاف ديني أن من اعتقاد كل من الطائفتين في المسيح هو ابن مريم التي ظهر قائمه النصارى ورفضه اليهود أم هو لم يأت بعد فاليهود ينظرونه على ما يدعون . ثم يذكر رأى المجوس في أن آدم ( أبو البشر ) حتى الهجرة النبوية وهم يقدرونه هذه المدة تسع وثلاثين ومئة سنة وثلاثة آلاف ثم يختم ذلك باختلاف الاخباريين في قسوه هذه المدة ولا تعرض لرى أهل الهند فجها كما تعرض له المسجدي في « مروج الذهب » وهم يحسبون مدة العالم بالدورات الكونية وتبلغ ملايين السنين .

ثم يذكر حدوث الزمان وأن له بدءاً ونهاية وأن وجود الله قبله وبمعه دائم ، ويحتج لذلك بالنقل عن القرآن والعمل واحتجابه في الخلق احتجاج حواري لا هوتي وليس احتجاج فيلسوف مع اطلاعه على الفلسفة وغاية ما يقرب فيه من الفلسفة تفرقه بين وجود الله بغير زمان ووجود الخلق مع الزمان وأدلتته أضعف من الأدلة القرآنية على ذلك وهو يقتصر من بينها على دليل الابداع أو الخلق الذي يسميه الأوربيون « البرهان الكوني » وخلاصته « أن كل موجود يتوقف على غيره ، وهكذا فلا بد من سبب للموجودات بوجودها ولا يتوقف وجوده على غيره » وهذا عند أرسطو هو برهان « المحرك الذي لا يتحرك » .

ثم يذكر بدء الخلق وأن أوله الضلم الذي كتب القدر ثم الضمام ( وهو أشبه بما يسمى « الضياء » في بعض ما تسبب إلى النسي عليه السلام وما يسمى في الفلسفة ( المهيول ) أو « القابلية » ثم يذكر ظهور مخلوقات أخرى : العرش والماء والرياح وسائر السموات والأرض وما فيها من الكائنات ومن بينها الجن والإنس وبين اختلاف الأقوال في اليوم الذي خلق فيه كل منها بين الأيام الستة وبين مقدار اليوم معتمداً على القرآن الكريم الذي يشير إلى أن اليوم عند الله مقداره ألف سنة مما تعدوا وبذلك ينجو المؤلف من الانحصار الذي يقع فيه العالم حين يفهم اليوم بمعنى الليل والنهار ، ويخلص من الإشكال الذي يتورط فيه العالم حين يفهم ذلك ثم يجد أمامه أن الفسوس أو الأرض لم تخلق في اليوم الأول أو الثاني بل بعد ذلك وبهما تعرف الأزمنة .

ثم يذكر سبب خلق الزمن ليلا ونهاراً وما كان لابليس - على بعض الأقوال - من ملك السماء الدنيا والأرض حتى كشف الله عن كبر ابليس بخلق آدم ففضح دعواه الربوبية ثم نزع عنه مجده ويذكر تحدى الله الملائكة بآدم حين عارضوا خلقه إياه فامتنعوا وأطاعوا فآلحوا وشابوا ثم أذعنوا إلا ابليس ثم يذكر حياة آدم قبل خروجه إلى الأرض وبمعه ومن هنا يبدأ التاريخ البشري .

#### ( ج ) التاريخ البشري حتى الهجرة :

يبلغ هذا القسم نحو خمسمائة صفحة وهو يستوعب بقية الجزء الأول وجميع الجزء الثاني الا خمسين صفحة ، وفيه يذكر المؤلف خروج آدم أين كان ، وما تزود به في خروجه وما وقع في عهده من أحداث أصحها ما نسلته له حواء من بنتين وبنت فيذكر عهدهم وتزويجه هؤلاء هؤلاء ليبقى النسل وتعمد الأرض ويذكر اختلاف الرواة في ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر وسبب نزاعهما وزمنهما وهل هما من ولد حواء لآدم أم هما من بني إسرائيل .



ثم يذكر زعم الفرس في آدم أبي البشر وأنه عندهم « جيومرت » .  
ويذكر آراء من يوافقهم ومن يخالفهم في ذلك وفيما يسمونه اليه من  
أعمال ويرجع رأي من يرى أن جيومرت هو جلمر بن يافث بن نوح وأنه  
ملك طبرستان ( موطن المؤلف ) ثم فارس ثم اتسح ملكه وملك أبنائه  
فشمش بابل وسائر الأقاليم ويحتج لذلك باتفاق العلماء على أبوة جيومرت  
للفرس وأن ملكه هو وأولاده لم يزل متصلا حتى قتل يزجرجرد آخر ملوكهم  
في زمن عثمان بن عفان .

ثم يذكر ما قيل في هند ولد حواء لآدم وعند الأنبياء من نبيه وأنهم  
أربعة وعشرون ومائة ألف منهم ثلاثة عشر وثلاثمائة رسول . ويختم القول  
في آدم يوفاته ودفنه ثم تكاثر ذريته وانتشروا في الأرض شرقا وغربا  
وحوادثهم حتى أيام نوح فيحصل الأقوال في دعوتهم وعصيان قومه وصفته  
السلسلة وقصة الطوفان ومن نجا معه في السفينة من حيوان الأرض  
وناسها وتنازل الخلق بعده من أبنائه الثلاثة سام وحام وياقت وخصائص  
كل منهم . فهو الأب الثاني للبشر بعد آدم وكلهم حتى الآن من ولده  
الثلاثة فليس منهم إلا من هو سامي أو حامى أو يافثى كما يذكر قوله  
للجوس في انكسار الطوفان ويكره عليهم اعتمادا على القرآن والحديث  
الشريف وأقوال العلماء .

وحنا يذكر « بدأ التاريخ على منسوب أهل الكتاب وغيرهم » فقلع  
الكتاب يؤرخون بالخلق ثم خروج آدم ثم بعث نوح فالطوفان وتغرق أبنائه  
نوح ثم ناز إبراهيم ثم بعث يوسف ال مبعث موسى ال ملك داود  
وسليمان ثم بعث عيسى وهذا عند المؤلف ينهى أن يكون على تاريخ  
اليهود . وأما النصراني فتؤرخ بعهد الاسكندر وأما الفرس في عهد  
المؤلف فكانت تؤرخ بعهد يزدجرد وأما المسلمون فيؤرخون بالهجرة النبوية  
وأما العرب قبل الاسلام فكانت قريش بينهم تؤرخ بحام القبل وسائر  
العرب يؤرخون بأبائهم « وقائهم العربية » .

وحنا يقف المؤلف ولغة حاسمة في تاريخه الحوادث كانت لها نتائج  
خطيرة في كتابه ستعرض لها في ختام كلامنا على هذا القسم من كتابه .  
وحسبنا هنا الإشارة الى أنه جعل التاريخ ( التوقيف ) الفارسي قبل  
الهجرة النبوية في المحل الأول واتخذ نظاما رئيسيا يقاس به غيره من  
التاريخات ويركب عليه ولا يقاس بتاريخ آخر حتى تاريخ اليهود والسبب  
في ابتداء تاريخ الفرس على التاريخ « التوقيف » اليهودي ان الأول  
« كما أشار المؤلف » مرتبط بظهور المملكة الفارسية واتصال أحداثها  
قوى متصل منظم واضح الأزمنة وليس الثاني كذلك ولهذا يصح كتابا

للتاريخ الفارسي وان كان يقول على التاريخ اليهودي حين يرتبط بين حوادثه الخاصة به فيما بين بعضها وبعض .

ومن هنا لا يكاد المؤلف يعرض لتاريخ ما بعد الطوفان حتى يظهر عنه تاريخ المملكة الفارسية تم يزفاد ظهورا وانتظاما مع توالي الأزمنة فيبعد أن يذكر « جيومرت » - « آدم عند الفرس » كما قلنا - نواه يذكر بعده « أوشهنج » الفارسي الذي قيل انه ملك الأقاليم المسجلة وأسس مدينة بابل ومدينة السوس . وعند اشارته الى حوادث بني آدم من عهد « شيمت » الى أيام « يرد » - « بن مهلائيل بن قينان بن أنوس بن شيمت بن آدم » يذكر رأى بعض الفرس في ان « أوشهنج » هو مهلائيل بن قينان عليه شيمت بن آدم ثم يذكر انه وله لأوشهنج ولد فلما صار ملكا كان محبود السيرة وهو فيشداذ ( ومعناه أول حاكم نائمدل ) واليه تنسب الدولة الفيشدازية أقدم دول الفرس . وبذلك يقرب المؤلف تاريخ اليهود الفرس الى تاريخ الفرس الذي اقتضه أساسا .

والمؤلف في تاريخه حريص على ذكر الحوادث المتعاصرة معا ، ولو اختلفت موضوعاتها ولم تكن لاحكاما صلة بالآخرى ، الا المتاصرة التي هي اقرب صلة بينها عنده وهو على هذا التهج يجري هنا فيذكر عصر ملك فارسي أو أكثر ويطلق في سيرته ويتبعها بحدوث عصره في الأمم الأخرى فاذا فرغ من ذلك ذكر عصر ملك فارسي آخر أو أكثر من ملك فيضيق مثل ذلك وهكذا .

ولعلنا كانه الملك أحدث كثرت الأخبار المتصلة بالأمم التي تعاور حيلته شرقا وغربا كالترك والعرب واليونان والروم وقد يتعرض لأخبار أصل الهنود والصين . أما « التاريخ الفارسي » فهو يلاحق التاريخ الفارسي خطوطه فيطوره طويلا معه على ما عناه منذ أيام شيمت بن آدم ثم يوح الى حيث « المسيح عيسى بن مريم » وتشتت اليهود في عهد الروم ولهذا كان التاريخ الفارسي للفرس فيلجأ وأحلافهم وأصحا يارزا فيه وان كان نابسا في توقيته للتاريخ الفارسي بل يبدو في المبدأ كان هذا التاريخ خادما للتاريخ اليهودي .

فالمؤلف يذكر من ملوك الفرس « أوشهنج » وولده « فيشبهاذ » ثم يذكر قولاً آخر هو ان الذي تلا أوشهنج هو « طهمورت » الذي ظهر في عهده « يوراسب » ودعا الى حلة الصابئين ثم جاء « جهم » أو « جشمي » فقتل « طهمورت » وملك مكانه ثم ملك « يوراسب » وهو الازدعاق الذي تسميه العرب الضحاك وكان ظالما ويقال انه « اللبروذ » الجبار وقد قتله الفريلون وحكم مكانه وهنا يشير المؤلف الى انه ذكر هؤلاء ووضع صبرهم هنا لظهور لوح في عصرهم على بعض الأكوال . بل يقول بعض نسابة

الفرس ان نوحا هو الفريدون الذي قتل الضحاك كما قيل ان بينه وبينه  
« حم » عشرة آباء وان ملكه كان خصماتة ستة ، كما قيل ان ظهور اوج  
حتى عهد ابراهيم كان في عهد الضحاك ولذلك يذكر المؤلف الحوادث  
بين عهد نوح الى ابراهيم خلال عهد هؤلاء الفرس ويخصها في وفاة :

ثم يذكر ولاية « منوشهر » بعد افريدون والزراع بينه وبين العبريين  
ويشير الى دلائله على اليقين من اهلها كالرائش وغيره ، كما يشير الى ظهور  
موسى وقارون في عهده ويصل القول مسهما في تاريخ اليمن وتاريخ  
بنى اسرائيل على يد موسى ثم فناء يروشع بن نون على عهد « منوشهر » :

وهنا يذكر المؤلف اعتماده تاريخ الفرس اساسا فيقول : « ذكر القائم  
ببابل من الفرس بعد « منوشهر » اذ كان التاريخ انما تذكر صحته على  
سبيل عفة اعمار ملوكهم ثم يذكر منهم « فراميب » واقسانه بين البلاد  
والعياد ثم ظهور « ذو » بن « طهاسب » واصلاحه ما افسد « فراسياب »  
وعمران البلاد الفارسية في عهده ومساوئة « كرشاسب » له في ذلك  
ثم ظهور « كبتاذ » بعده وهو اول ملوك « الكيانية » او « الكيكية » .  
ويمتد ذلك بذكر ما يناصر ذلك من حوادث بنى اسرائيل فيما بعد يروشع  
ابن تون الذي مكثهم من الاستيلاء على جزء من فلسطين فمعه خضع  
بنو اسرائيل لحكم القضاة بنى طهر شموي ( صمويل ) فاضطروه الى  
اختيار ملك فاختار لهم طالوت ( شاول ) وجاء معه داود وابنه سليمان .

ثم يذكر بعض ملوك « الكيانية » الفرس منهم كيقاوس وكيشور  
وفي عهدهما القسم بنو اسرائيل مملكتين ، ثم ذكر « نهراسب » وابنه  
« يشتاسب » من الفرس وغزو واليه يختصم للعرب وبنى اسرائيل  
وتخريبه بيت المقدس وقتله اليهود الى بابل .

ثم يذكر بعد يشتاسب تملك حفيده اردشير بهمن الذي كان قودش  
والله على بابل فرد المسمى من اليهود من بابل الى بلادهم في فلسطين  
ثم يذكر دارا الاكبر ودرا الاصف الذي هزمه الاسكندر وقضى على مملكته  
وقسم بلاده بين عدة ولاه ليبدأ كل اليه في نزاع بعضهم بعضا ومنذ ذلك  
ظهر من يسمون « ملوك الطوائف » او « الملوك الاشطافيين » وهم النبوة  
الفارسية الثالثة .

في عهد هؤلاء الملوك يذكر المؤلف ظهور سلطان الروم حتى ملكوا  
الشام ومصر وظهر ملوك العرب في اليمن والحيرة والانباء ولاية من قبل  
الفرس واخضع لسلطان بنى اسرائيل حتى ملكهم هيود تحت سلطان  
الروم وظهر المسيح عيسى وانتشار الرسل بالتبشير يديه وظهر الزباء  
وطهم وجديس واصحاب الكهف ويولس بن متى وشعشعون الجبار .

ثم يذكر ظهور الدولة الفارسية الرابعة والأخيرة ، الدولة الساسانية ،  
 بقرسام أردشير بن بابك الذي قضى على ملوك الطوائف ووحده المملكة  
 واستبوت متحدة يليها منهم ملك بعد آخر حتى فتحت في عهد عمر بن  
 الخطاب ، وقتل آخر ملوكها يزديجرد في عهد عثمان بن عفان . وتاريخ هذه  
 الدولة أوسع من تواريخ الدول الفارسية الثلاثة الماضية ويبدو المؤلف  
 حائلا كأنه لا يؤرخ إلا له حقا ويبدأ تاريخ اليهود في الاختفاء وتظهر تواريخ  
 أهم أخرى في صورة أبرز وأصعب الترك والروم والعرب . ومع تقدم الحوادث  
 يحل تاريخ العرب في الظهور محل التاريخ الفارسي اليهودي . والمؤلف يسلط  
 مؤلفاء الملوك الفرس وسيرهم وأحداث عصرهم في بلادهم وما جاورها  
 بالتفصيل ملكا فملكاً منذ « أردشير » حتى يأتي ذكر « بهرام جور » ، ثم ذكر  
 تربية المنذر بن النعمان ملك الحيرة له بوصية أبيه ومساعدة المنذر وابنه  
 النعمان لبهرام جور على استرداد ملك أبيه يزديجرد من قبضة كسرى الذي  
 انتهب فرصة وفاة يزديجرد وبعد ابنه وولي عهده عن بلاده واغتصب ملكه  
 وقد عرف بهرام للمنذر فضله فلهذا .

ثم يذكر في عهد يزديجرد بن بهرام جور وابنه فيروز فبين خلال  
 ذلك ولاتها من ملوك العرب على الحيرة واليمن واستعانة ملوك الفرس في  
 حروبهم بالعرب ضد الروم وأتباعهم من العرب أيضاً ، حتى إذا جاء عهد قباذ  
 ابن فيروز ذكر فتنة « مزدك » الشيوعية في عهده ومن دخل فيها من  
 العرب والفرس ثم قضاء أنوشروان بن قباذ على مزدك وطاقتة وقتلته  
 وأخبار اليمن في عهد قباذ وأنوشروان ثم ولادة النبي عليه السلام في  
 عهد أنوشروان .

ثم يذكر ملوك الفرس بعد أنوشروان واضطراب أحوال المملكة  
 الفارسية منذ عهد حفيد كسرى أبرويز حتى آخرهم يزديجرد القتل في  
 عهد عثمان بن عفان .

ثم يطيل في ذكر نسب النبي وسيرته في مكة منذ ولد حتى بعث  
 ثم تبشيره بدعوته حتى هجرته وبذلك ينتهي هذا القسم من تاريخه الذي  
 جعل فيه تاريخ الفرس أساساً لتاريخ البشرى .

• وقد كان لتحويل المؤلف من تاريخ الفرس آثاره في كتابه فقد افاض  
 في ذكر أخبار الفرس إلى حد جعل هذا القسم مصدراً من أكبر مصادر  
 تاريخهم لا يستغنى عنه مؤرخ ولو ملاحظاته ما عناه من الكتب والآثار .  
 وهو يعد حجة كبرى في هذا الموضوع حيث لقد اعتد عليه كل عارف  
 به من كتب في تاريخ الفرس . وقد ترجم المستشرق « لولدكه » إلى الألمانية  
 القسم الخاص بالدولة الساسانية كما عول عليه في تاريخ الفرس أكبر  
 لغاته وهو المستشرق « براون » في كتابه عن تلويح الأدب الفارسي .

## ( د ) تاريخ الاسلام منذ الهجرة حتى سنة ٣٠٢ هـ :

هذا القسم أطول أقسام الكتاب وهو يستغرق أكثر من ثمانمائة والفى صفحة وأساس توقيت هذا القسم هو التاريخ الاسلامى بالهجرة النبوية على وفق السنوات الهجرية فهو يذكر فى سنة ما وقع فيها من حوادث ، فإذا فرغ من أخبار سنة انتقل الى غيرها ويبدؤها بقوله مثلا : ثم حدثت سنة كذا ، وفيها وقع كذا وكذا وحين يشير الى حادثة يذكر روايات عدة فيها بأسانيد بعضها تطلق وقد تتداخل الروايات فى الحادثة الواحدة فى لسنة الواحدة اذا كان فى جزء منها أكثر من رواية فهو يذكر الرواية فى هذا الجزء ثم يذكر رواية أخرى او أكثر فيه أيضا فإذا استوفى روايات هذا الجزء ذكر روايات جزء آخر على هذا النحو ولو كانت بعض أسانيد الجزء الأول هى أسانيد الجزء التالى له ويبدأ روايات الأجزاء التالية بقوله مثلا : عاد الحديث الى رواية فلان ، فترى رواية الراوى الواحد فى أجزاء الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة مختلطة برواية غيره فى هذه الأجزاء مع أنها وقعت داخل سنة واحدة .

وإذا وصل المؤلف الى السنة المباشرة بعد فتح مكة ختم أحداث كل سنة بعدما حتى آخر الكتاب يذكر من حج بالناس فيها ( لغير الحج ) والولاء على الأمصار بالبذل والذل عقب الفتح ثم انتشارها .

والطبرى يهتم فى هذا القسم كما اهتم فى ذلك بروايات غيره للحوادث ولا يكتبها متسلسلا او ملخصا بقلعه الا أخبارا نادرة عن حوادث شاهدها فى آخر تاريخه الذى اوصله الى سنة ٣٠٢ أى قبل وفاته بشمالى سنوات .

وبينما يهتمى بالحوادث السياسية عند الحكم كثيرا تقل عنايته بدراسة مجتمعات الأمم التى يؤرخها وتوضيح نظمها الادارية والاقتصادية والزراعية وسائر أحوالها الاجتماعية ، لئى تكشف خصائصها وهو لا يبنى رأيه بالحكم على الأشخاص او الأعمال او يكشف عبر الحوادث التى يعرضها بل يكتفى بالقل الا نادرا كما انه نادر التزجيج لرواية على رواية فيما ينقل ولهذا الهج مرأىه ولغيره أيضا مرأىه وانما يفضل نهج سواء على حسب وجهة القارى ، وقارى تاريخ الطبرى يجد فيه مادة ضخمة صالحة للحكم على الأشخاص والأعمال وكشف المبر من الحوادث بنفسه ولا يجد تحيزا مذهبيا ولا عنصريا ولا حربيا ولا سياسيا .

وليست سنواته او أخبار سنواته متسلسلة ولا متقاربة فمن سنواته ما تبلغ صفحة كما فى سنة ٢٦٥ وهى السنة التى ول فيها القندر الخلافة وكما فى سنة ٣٠١ وسنة ٣٠٢ وهما ختام الكتاب ، وقد تبلغ نصف

صفحة أو ربعها كما في سنة ٢٩٧ وما تلاها حتى سنة ٣٠٠ وربما تزيد حتى تبلغ تسعين صفحة كما في سنة ١١ التي تستغرق الثلث الأخير من الجزء الثالث وهي سنة وفاة النبي عليه السلام وتولية الصديق وسوانح الحرب التي سُميت «حروب الردة» وبدا الفتوح في الشام والمراق على عهده ومثلها أخبار سنة ٣٦ فهي نحو تسعين صفحة .

وفي هذا القسم - ولاسيما سنوات القرن الأول - يكثر المؤلف من رواية الخطب والأشعار والرسائل والمناظرات والكتابات البليغة مما جعل كتابه جزءا مهما من تراثنا الأدبي كما هو جزء من تراثنا التاريخي وتأخذ هذه النصوص الأدبية في الضعف والقلة كلما اقتربنا مع الزمن من عصر المؤلف حتى تقلنا في مسوياته الأخيرة مما يدل على ضعف أساليب الحكام الذين يملئ المؤلف بأخبارهم وأساليب المؤلفين الذين ينقل عنهم روايات .

وقسم السنوات جميعا يرتبط أساسا بتاريخ الحركة الإسلامية منذ الهجرة حتى ختام الكتاب سنة ٣٠٢ هـ وماعدا أخبار هذه الحركة فهو تابع لها داخل في تاريخها بسبب منها . فهو يبدأ السنوات بسيرة النبي عليه السلام في المدينة عقب الهجرة والفاضة المجتمع الإسلامي الجديد فيها ومفازيه أثناء ذلك حتى وفاته ثم يذكر سير الخلفاء الراشدين والفتوح في عهدهم والخلافات في المجتمع الإسلامي ولا يقتفي في هذه الفتوح هذا العهد وما تلاه ينقل أخبارها عن استوطنوا هذه البلاد عقب الفتوح بل ينقل عن شيوخها وعن غيرهم من شيوخ البلاد الأخرى . كما لا ينقل في الخلافات روايات حزب بدون حزب بل ينقل من رواة الأحزاب جميعا في مساحة وإمارة إذا وفق بما عندهم من روايات . ثم يذكر أخبار الأمويين ثم أخبار العباسيين حتى صدر عهد المقتدر فلا يتعامل على الأمويين لأنهم أمراء العباسيين ولا يفاضل العباسيين أو يحاربهم ضد الأمويين أو العلويين لأنهم أصحاب البقرة في أيامه فهو لا يتصل بالقولة ولا يجب أن يتصل بها بل هو حريص على أن يستقل حديثه ودينه عن الحكومة والحكام وهو ليس خاصيا ولا شيعيا ولا متعصبا لعنصر على عنصر ولا لمذهب ولا ممن يرضون القس أو يستعرون الحلاف أو يقبلون الطعن في خصم وإن حرج بالحلاف والطعن ، إلا أنه يملأ بقولة الحق بالمسعى أمام قولة الباطل مهما تكن المواقب فلا سكوت على الباطل ولكن بلا لفت ولا تخرج . وتاريخه لم يكن محتاجا إلى جهاد كثير من هذا القبيل إلا أمام من كانوا الإسلام وأهلك في حرب عداوية مكشوفة وهذه المواقف في تاريخه قليلة .

ليس في كتب المؤرخين حتى اليوم ما يفسر هذه الكتاب في موضوعه من حيث الأمانة والسمة والإساطة بالأوجهات المختلفة للروايات

ودواتها فهو في موضوعه عمدة المؤرخين في قسميه القديم والاسلامي فهو مرجع قيم لا يستغنى عنه في موضوعه ولم يهمله فيه الا من قصر عنه .

ولقد اشرفنا في ختام كلامنا على القسم الخامس بما قبل الهجرة الى انه مرجع لا نظير له في تاريخ الفرس الاكسبي من اجد مصورهم العاصمة حتى أحدثها فلاغبي لمن يؤرخونه عنه ولقد عول عليه كل عارف به فبين كتبوا في تاريخهم من القدماء والمحدثين شرليين وغربيين وزاد في تقديره عند الغربيين نظروهم الى الفرس نظر الابناء الى الآباء في ارومتهم الآرية واعتداهم بهذه الأرومة في الصراع المتصرى وبخاصة في القرون الأخيرة التي كثر فيها البحث عن الأصول البشرية وتسلموا قيادة العالم وطعموا في تسخير صائر الأمم لمصالحهم القومية .

وعلى نحو قريب من ذلك اهتم به الفرس بعد الاسلام فما كانوا يستحيون معالم قوميتهم الثقافية وملها لغتهم وتاريخهم وآدابهم حتى عتوا بهذا الكتاب بعد تأليفه منتصف قرن فقام بترجمته الى اللغة الفارسية المديشة احد اعلامهم النابيين وهو محمد بن عبد الله البليسي الذي كان وزير نوح بن منصور من ملوك الدولة السامانية في المشرق وبعد ترجمته لهذا الكتاب سنة ٣٥٢ هـ أقدم كتاب تاريخي باللغة الفارسية الحديثة .

ويذكر الأستاذ جرجي زيدان مقدار اهتمام أسلافنا به فيقول : « تعالى القوم في اقتناء هذا الكتاب حتى كان منه في خزانة العزیز العاطسي صاحب مصر عشرون نسخة منها واحدة بخط المؤلف وكان في دار العلم بصر ١٣٠ نسخة منه ولم يكن يتأتى الا للملوك وأهل الثروة . ولما اظلم الشرق في الأجيال اليوسطي وخيم الجهل أحرقت فضاعت نسخة ، فلما أرادوا جلبه في لبنان لم يجدوا منه نسخة كاملة في مكان فاضطروا الى جمعها من عدة أماكن » .

وتزبد عليه أن المستشرقين جمعوه من عدة أماكن . طائفة من علماء هولندا سافروا في البلاد الاسلامية وغيرها سنوات حتى حصلوا له نسخة كاملة طبعتها في ثلاثة وعشرين جزءا بلغت ٧٥٠٠ صفحة وكانت منها الطبعة المصرية في أحد عشر جزءا بلغت ٣٣٠٠ صفحة . كما أن المستشرق « لولدك » ترجم الى اللغة الألمانية الجزء الخاص بتاريخ السامانيين وأن الكتاب كله ترجم من ترجمته الفارسية للبليسي الى الفرنسية بقلم الأستاذ لوتنبرج وترجم بعضه الى اللاتينية كما ترجم كله الى التركية وقد عول عليه الأستاذ براون في كتابه الكبير « تاريخ الأدب الفارسي » وهو يعد في تاريخ الفرس أكثر حجة من المستشرقين في العصر الحديث .

ولقد عول عليه أكثر من غيره كل من عرعه وكتب في موضوعه من

كبار مؤرخينا السابقين كما يظهر من اشاراتهم اليه ونقلهم عنه وتكثفي من اقوالهم بما ذكره المؤرخ الكبير « ابن الأثير » في كتابه « الكامل »  
 اد يقول في مقدمته متأخرا به : « ... ولكن اقول : اني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجمع في كتاب واحد ومن تأمله علم صحة ذلك فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنعه الامام ابو جعفر الطبري اذ هو الكتاب الممول عند الكافة عليه وللرجوع عند الاختلاف اليه فاخذت ما فيه من صحيح تراجمهم فلم اخل بترجمة واحدة منها - وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات حوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه فقصفت أتم الروايات فتقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه فجعل جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها - شيئا واحدا على ما تراء »

« فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كل شيء منها موضعه إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئا إلا ما فيه زيادة يبين أو اسم انسان أو ما لا يطمئن منهم في نقله وانما اعتصمت عليه من بين المؤرخين اد هو الامام المتقن حقا الجامع علما وصحة واعتقادا وصنفا » -

وكما هي مسابقة بالنقل عنه وباختصاصه على نحو ما فعل ابن الأثير بنوا بتكميله ، فوصله كثير منهم بين المسابقة والمقاربة - ومن هذه الصلوات كتاب « الصلة » الذي ألفه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني وقد نقل عنه ياقوت كما أشرنا قبل . وكتاب الصلة الذي ألفه غريب ابن سعد القرطبي فانه في سنة ٣٦٥ وقد أشرنا اليه من قبل ، وتلاه محمد بن عبد الملك الهذلي بكتابه « الصلة » فانه في سنة ٤٨٧ -

ولا نجد بعد كتابا ذا قيمة خلال تاريخنا القديم والحديث يعرض لتاريخ الاسلام وأحواله وصلاته بغيرانه في الفرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة - وهذا بعض موضوع الكتاب - إلا وجدناه يعول عليه كأوراق حسنة له وأوسعها ولا وجدنا مؤرخا قديما أو حديثا يعرض لتقديره إلا زكاه وعظمه كيفما كانت مآخذ عليه وفي بعض هذا يرحان واضمح على قدر الكتاب بين القدماء والمحدثين في أمم مختلفة وعلى أثره في مؤلفاتهم التاريخية والأدبية وهذا حسبه في عظمة القدر والأثر الذي يتجدد على اختلاف الأصناف والأعصار .



## تقدير الكتاب وآثره

لمنه قد استبان من موضوع الكتاب وعادته ومنهجه انه كتاب جليل  
(تقدير عظيم القيمة) .

ونستطيع أن نوجز مقومات هذا الحكم في عدة أمور : -

١ - هو أول كتاب في التاريخ العام أكمل به الطريق ما اقتضاه  
سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم أو طوائف الرجال كابن سعد  
واليعقوبي والدينوري والواقدي والبلاذري وابن اسحاق .

وقد صاغ أكثر ما دون سابقوه وبقي هو مسجلاً لما ضاع فخط  
قراءنا غيباً جديراً بأن يبقى على مر الزمان .

٢ - وهو الوحيد لمن جاءوا بعده ومصدر أصيل من مصادرهم  
كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون ومازال مصدرنا للباحثين  
إلى اليوم .

٣ - على أنه جمع كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية ودونها  
لمنفلها من الضياع ، وكان المؤرخون الذين جاءوا بعده يقولون على ذكره  
ولولاه لفقد الباحثون معارف كثيرة عن العرب وأحوالهم في جاهليتهم .

٤ - كذلك سجل كثيراً من الحقائق التاريخية عن المصو  
ر الإسلامية موثقة بالأسناد إلى أصحابها لولاه لمدت عليها عوامل الانحلال  
والنسيان فحرم التاريخ هذه الآراء ، لأنه دون روايات نقلها من كتب لم  
يبق إلا أقلها وروايات سمعها من أشخاص لو لم يمونها لتناوت في موثقات  
الزمان .

٥ - ذكر في تاريخ القرنين كثيراً من الحقائق لا نطعمها في غيره  
لأن يريده أن يفوس تاريخهم حتى لقد اعتمد عليه تولدكه في معرفة تاريخ  
الفرس والعرب أيام بني ساسان .

ولهذا ترجم إلى الفارسية في القرن الرابع الميلادي ، وترجم إلى  
التركية وغيرها بعد ذلك .

٦ - على انه قد تبين من البحث الفصل في تاريخ الرومان انه الطبري دقيق فيما ذكره عنهم لأنه نقل عن نصارى الشام وسمع منهم وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها اليه بأمانة .

٧ - وهو الى هذا كله حافل بالنصوص الأدبية من شعر وخطبة ورسائل ومحاورات ثبتت في مناسبات شتى .

فلا شراة في أن اعتد عليه المؤرخون من بعده فاستقوا منه كأي مسكويه ( المتوفى سنة ٤٢٦ ) وابن الأثير ( المتوفى سنة ٦٣٠ ) وابن الفداء ( المتوفى سنة ٧٣٢ ) وابن خلدون ( المتوفى سنة ٨٠٨ ) .

وبهذا ، استحق الكتاب حرس القمصاء على اقتنائه واستحق ثنائهم عليه . فقد كان بحرانة كتب العريز الفاطمي أكثر من عشرين نسخة أحداها بخط المؤلف . وقال القفطي : « انه كتاب الطبري في التاريخ أجل كتاب في بابه » .

رسائل إخوان الصفا  
إخوان الصفا  
٩٨٣ م



## أخوان الصفاء والجماعة المظوفة ١١

لم يكن يظن على موت الفارابي ثلاثون سنة حتى هب جماعة من صوفة علماء مصر وخاصة حكماء الذين أحاطوا بظريات الأقدمين من فلاسفة الإغريق والهند وفاروس وقتلوا بحثا ولمحيضا وحضوا براعيتها واعراضاتها ونجحوا في اكتناء خطاياها وأسرارها واستنبطوا منها آراء خاصة ، وأقل ما قل عليه عندهم هو النضوج الفائق في النظر والفكر وغزارة العلم ومعة الإطلاع ووفرة الثقافة في جميع جوانب المعارف البشرية التي وصل إليها العالم القديم إلى عصرهم . . . . . وفوق ذلك فقد صفت نفوسهم من شوائب المادة وعلت أرواحهم عن علائق المنفعة فوصلوا - كما يثبتوننا في رسائلهم - إلى اسمي أواج الاخلاص والوفاء .

ولما تصافت نفوسهم وتعلمت أرواحهم تأخوا على البر والتقوى ، وقر رأيهم على أن يؤثروا لهم هيئة علمية وأخلاقية تتماون على نشر الثقافة والمالبة من : الهيات ورياضيات وطبيعات وحليقات بأسلوب أدبي مبسوط لكي تفوق الخاصة ولا يصير فهمه على العامة . ولما كان أساس تكوينهم هو الاخلاص والقدالية فقد أطلقوا على أنفسهم اسم « أخوان الصفاء » وخلاف الوفاء .

وقد حددنا الأستاذ « حى بوير » في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية نقلا عن الأستاذ « جولز بوير » أن هذه الجماعة قد أطلقت اسمها من قصة « الجماعة المظوفة » في كتاب « كلبلة ودعنة » . . . . . لأن هذه الخرافة تفضلا عن أنها اشتملت على الكلمة نفسها « أخوان الصفاء » قد استوت من الفورية والتضحية ما اشترطته هذه الجماعة في الصداقة . . . . . فكما نرى الجماعة في القصة تطلب إلى الجرد أن يقطع شباك صديقاتها قبل شيكتها وتقيم فجاتهن على فجاتها ترى أخوان الصفاء يقولون في أحد المقامات التي كتبوها عن الصداقة ما نصه :

« فإذا أسعدك الله يا أخي بمر هذه صفة غايقل له نفسك ومالك فوق عرضه بمرضك والغرض له جنتك وأودعه سررك وشاوره في أمرك ودار برؤيته حينك واجعل أنسك إذا غاب عنك ذكره والفكر في أمره وأن لهفا حفة فافقرها له وإن زل نصرها عنه ولا توحشه بخلاف من حلهك

واذكر مآلقات احسانه عند اسائه بك ويامن من غاثلتك فان ذلك اسلم  
لوده واكثوم لاشائه .

الف اولئك العلماء حباقتهم بطريقة سرية لا يطلع عليها احد من  
الصامة ولا من الخاصة لانهم آمنوا بان قتلهم مقرون باضاح خطتهم او  
بإظهار اسدالهم اذ كان يكفي لستقتهم واحباط كل امالهم ان يجب بضمة  
شيوخ من رجال الدين فيزلبوا عليهم الصامة مطمئن انهم زنادقة او  
مملعون -

ولكن حل معنى هذا انهم كانوا يخفون منتجاتهم ويضنون بها على  
الجمهور كما ضنوا عليها باسمائهم ولمكة اجتماعاتهم ؟ كلا بل حرصوا  
بالعكس على ان يدعوا آرائهم وافكارهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .  
لان النهاية التي كانوا يرمون اليها من عملهم انما هي تنقيف الامة وتهذيبها  
بعد ان عجزت الشريعة - في نظرهم - عن اداء هذه المهمة لا اصاها  
في رأيهم من لطشات البدع والمستحدثات السفيلة التي حالت بينها وبين  
الكلام سبيلتها تمام الجبولة وهم في هذا يقولون فيما يروى لنا عنهم  
ابو حيان التوحيدي :

« ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالفسادات ولا سبيل  
الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاقتصادية والمصلحة  
الاجتهادية وزعموا انه منى انتقلت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة  
الشرقية بقله حصيل الكمال » ١

هذه هي فائتهم التي اعلنوا انهم القوا جميعتهم من اجلها وصرخوا  
بانهم لو آمنوا تصيب الخاصة وحواس الصامة لاظهروا اشخاصهم  
ومجمعاتهم للعيان ، لانهم ليس لديهم ما يريب ولايسبب لهم آفة غاية اخرى  
غير التي اعلنوها . ولكن الناس لم يطمئنا اليهم ولم يصدقوا ما قالوه  
بل وموهم باغراض شخصية كانوا ينتوون الوصول اليها من وراء حركاتهم  
هذه دعى قلب الدين والعرض . وقد ذلعت هذه التهمة في عصرهم بين  
الخاصة والصامة فارتاب فيهم اولئك وحلل عليهم هؤلاء .

والنا لسعد عناصر هذه الريبة في عنوان الصفح عند الوزير مصمم  
القبلة حين نسي اليه ان ابا حيان متصل بأحد اطراف هذه الجساعة هو  
« زيد بن رناعة » فقال مخاطبا ابا حيان :

« حدثني عن شيء مر اعم من هذا الى وانخطر على بالي : اني لا ازال  
اسمع من زيد بن رناعة قولا يرييني ومقحبا لا عهد لي به وكناية عما  
لا احقه واشار<sup>١</sup> ، ما لا يتوضح شيء منه يذكر الحروف ويذكر اللفظ

ويرزعم ان الباء لم تنقط من تحت واحدة الا لسبب والباء لم تنقط من فوق اثنين الا لعمدة والالف لم تهمل الا لفرس واتشاء هذا واشهد به في عرض هذا دعوى يتعاطى بها ويستلخ بذكرها . . . فما حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دخلته ؟ فقد بلغني يا أبا حيان أنك تمشاء وتجلس اليه وتكثر عنده ولك معه نوادر ممتعة ومن طالت عشرته لأتسأن صفتك حبرته وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافى منجبه . »

قال أبو حيان : « أها الوزير أنت الذي تعرفه قبل قلبها وحديثها لاختيار ولاستخدام . ومه منك الأمرة القديبة والسببة المروفة . . . »  
وقال الوزير : « دع هذا وصفه لي . »

قال أبو حيان : « هناك ذكاه غالب وذهن وقاد ومتسع في قول الفظم والنثر مع الكتابة الباصرة في الحساب والبلاغة وخط أيام الناس وسباع المقالات وتيسر في الآراء والديانات وتصرف في كل فن . . . » أما بالنسبة إليهم وأما المتوسط لهم وأما بالثنائي المقسم . »

قال الوزير : « فعليه هذا ما منعه ؟ »

قال أبو حيان : « لا ينبغي لي شيء ولا يعرف له حال حيث أنه تكلم في كل شيء وغلبته في كل باب ولاختلاف ما يبدو من بساطته ببيان . ومطوته بفساده وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا وصانق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان محمد بن مشعر البستي ( ويعرف بالقفسي ) وأبو الحسن علي بن هارون الرنجاني وأبو أحمد المهرجاني والموفى وغيرهم وصحبهم وخدمهم وكانت هذه الحساب قد تألفت بالعشرة وحصفت بالصداقة واجتمعت على القفس والطهارة والصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز بروضان الله . »

## مجالس الحكماء الخاصة 11

لأنت ترى من هذا الحديث ان الوزير مرتاب يوجس خيفة من هذه الجماعة وان أبا حيان وان كان قدم حام حول الايضاح - لم يكشفه اللثام عن تاسس هذه الفئة ولم يحط علما بأغراضها الحقيقية . ولذلك فقد ظلت هذه الأغراض موضع التكهن والخلط حتى عند الباحثين المحدثين في عصورنا الحاضرة واليك ما يقوله البارون « كارادى نو » حول تاسس هذه الجماعة :

« ان هذه الجماعة لم تكن جمعية فلسفية بسيطة وانما كانت الى جانب ذلك شيئا آخر وان كان من المصير ان يقال فا هو ذلك الشيء بالضبط انه يحوم حولها سر غريب وهو الذى يمنع من كشف غايتها وأعمالها ووسائلها ولكن الأمر المؤكد هو ان اخوان الصفاء كان لديهم أدوات أخرى للدعاية غير مؤلفاتهم ، بل ان هذه المؤلفات نفسها لم تقل كل شيء عنهم ولم توضح كيف كانوا ولا ماذا كانوا يفعلون ولكنهم كانوا يستغلون بالسياسة » .

وكذلك الدكتور طه حسين يرى هذا الراى اذ يقول ما نصه :

« كان هؤلاء النامى اذن يعملون من وراء ستار ويؤلفون جماعة سرية وكان قوام جماعتهم هذه - فيما يظهر - سياسيا وعقليا ... فهم يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الاسلامى يومئذ ، وهم يتوصلون الى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين أيضا وهم يسلكون فى ذلك مسلك جماعات صيقتهم فى العالم القديم اظهروا جماعة الفينايغوريين فى المستعمرات اليونانية الإيطالية ، فقد كانت هذه الجماعة مهيضة للنظام السياسى اليونانى المألوف وكانت تريد قلبه وتغييره وكانت تتوصل الى ذلك بوسائل أهمها : تغيير النظام العقلى وإنشاء فلسفة جديدة تكون الحياة العقلية والعملية للفرد والجماعة تكوينا جيدا ملائم لريتها وبين السياسة الجديدة ويمكن هذه الجماعة من السيطرة على الأمور العامة وقد ولقت هذه الجماعة الفينايغورية بعض التوفيق » .

« وحاول الفلاطون شيئا من ذلك فوفق من الجهة العقلية وتخييل



نظاما سياسيا بسطه في كتاب « الجمهورية » وكتاب « التولميس » وإقامه على الفلسفة الأفلاطونية كلها كما أقام الفيثاغوريون نظامهم على الفلسفة الفيثاغورية . . . ولكن الأفلاطون لم يوفق في الحياة العملية الى شيء وظلت سياسته خيالا ليس غير . وفلاسفة اليونان جميعا متفقون على ان النظام السياسي كالنظام ما كان لا قيمة له اذا لم يعتمد على نظام من نظم التربية يلائمه ويحيي الأفراد والجماعات لتأييده والدود عنه . . . فالتربية اهم ما يعنى به أفلاطون في الجمهورية وهي اهم ما يعنى به أرسططاليس في كتاب « السياسة » وكلاهما يبين أحسن تبيين الفصلة بين أنواع التربية والتعليم المختلفة وبين ما يوجد أو يتجبل من نظم الحكم والسياسة . . .

« فجماعتنا السرية هذه متأثرة من غير شك بما كان لدى العالم اليوناني من محاولات تشبه محاولتها السياسية متأثرة بمحاولة الفيثاغوريين متأثرة بمحاولة أفلاطون وقد كان حقلها من التوفيق كحقل الفيثاغوريين فقد وفق الاسماعيليون الى وجود سياسي ممكن لهم في بعض الأرض ونشر الرعب في العالم الاسلامي حيناً » .

ومما يكن من الأمر فان الذي لا ريب فيه ان هذه الجماعة قد وجدت وتكونت من عدد عظيم من خاصة رجال مصر وكبار عشائره وفصحائه وفطاحل مفكريه وفلاسفته وان أعضائها كانوا من أشد أهل زمانهم محافظة على مكارم الأخلاق وتمسكا بالفضائل العالية من اخلاص ووفاء وطهر وصديق ولقمان وغير ذلك وأنها كانت ترمي الى غاية معينة قد يكون ما صرح به جزءا منها وقد يكون غيرها سواء أكان هذا الغير حجبها الى السياسة أم الى الدين أم اليهما معا وان كنا نستطيع أن نجزم بأن هذه الغاية - ان وجدت - لم تكن شخصية البتة بل كانت للصالح العام .

بقى الآن في هذه النقطة أن نعلم أن « البارون كارادى نو » يخالفنا فيما نراه من ان هذه الجماعة قد اقتصرت على خاصة العلماة وأفذاذ المفكرين اذ يرى أنها قد حوت بين دفتيها الى جانب أسماء الخاصة والمتأخرين عددا كبيرا من أسماء الشهلة والعوام الذين أوتوا نصيبا من الثروة ليساهموا في الجمعية بأموالهم كما ساهم الأولون بأفكارهم وليس هذا فصحب بل قد انضم اليها من لا علم عنده ولا مال لحسام فيها بقدماته الطبية .

غير أنه قد فلت البارون أن هذه الجمعية لو حوت سجلاتها أسماء جهلة الأغنياء والسولة لانكشف أمرها وذاع مرعا في وقت قصير . . . لأن الأسماء في كل زمان لا يلتصقون على سر ولا يقوون على الاحتفاظ بسهم والما المقول المستساغ هو أن عضوية هذه الجماعة كانت مقصورة على

الحكام والفلاسفة أما الذي كان يشمل العامة فهو تعاليمهم الظاهرة التي كانوا ينشرونها في رسائلهم ويرسلونها الى المكتبات العامة لتذيع وتنشور وبالتالي لم يكونوا يفتنون بها على أحد حتى لو كان من خصومهم .

ولا ريب أن نصوصهم نفسها تزايدت فيما نلحظ اليه إذ هي صريحة في أنهم لم يكونوا يسمعون بحضور مجالسهم ولا بالمناقش معهم ولا بالإحاطة بأسرارهم إلا لخاصة العلماء وحلاسة الحكماء الذين لهم مقدرة على تدريس العلوم الإلهية والرياضية وأمثالها من مواد الفلسفة الصعبة المال واليك شيئا من هذه النصوص .

« اعلم أيها الأخ - أيديك الله وإيانا بروح منه - أنه ينبغي لأحوالنا - أيديهم الله كانوا من البلاد - أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه في أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم تذكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه أسرارهم ويمضي أن تكون مذكرتهم أكثرها في علم النفس الحسن والمعنوس والعقل والمقول والمنظر والبحث عن أسرار الكتب أو التنزيلات النبوية ومما في ما تضمنتها موضوعات الشريعة وينبغي أيضا أن يتذكروا العلوم والرياضيات الأربعة أعني العدد والهندسة والتنجيم والثالبع وأما أكثر عنايتهم وقصصهم فينبغي أن يكون البحث عن العلوم الإلهية التي هي الغرض الأقصى » .

وفوق ذلك فقد أيد صاحب « كشف الظنون » صحة هذا الرأي فقال : « أهم كلهم حكماء اجتسروا وصنفوا إحدى وخمسين رسالة » .

واحسب أن كلمة « كلهم » هنا لا تدع محالا لكشك في أنه لم يكن بين أولئك الأعضاء ذميل حاحل ولا غني غبي .

## رسائل اخوان الصفا وقيمتها

تتكون رسائل هذه الجماعة من اثنين وخمسين رسالة في أربعة أجزاء .

فأما الجزء الأول فيحتوي على أربع عشرة رسالة في الرياضات والمنطق .

وأما الجزء الثاني فيشتمل على سبع عشرة رسالة في العلوم الطبيعية والفنسية .

وأما الجزء الثالث فتكون من عشر رسائل نياما وراء الطبيعة .

وأما الجزء الرابع فيتألف من إحدى عشرة رسالة في التصوف وعلم النجوم والسحر .

وأخصر ما تمتاز به هذه الرسائل البساطة واليسر وسهولة الفخذ وعذوبة الأسلوب وتجنب الاصطلاحات الفنية التي هي إحدى العقبات الكثيرة التي تمرض البادئين في دراسة الفلسفة فتعزقهم عن الاستمرار فيها بل تغرهم منها أما هنا لأن القاري يستطيع أن يسير مع هذه الرسائل التي تنساب أمام عقله وقده اسيلب الماء في الجدول والحدان الا حين يلتقي بالرموز المقصودة التي لم تكتب له بل كتبت لطبقة أخرى قليلة العدد والتي قضت الضرورة في ذلك المعبر بأن تكون على هذه الصورة .

ومما لا ريب فيه أن هذه الرسائل كانت - ولا تزال - موضع عناية القدماء والمحدثين في مشارق الأرض ومغاربها ومن آيات ذلك أن المستشرق الألماني « فريدرخ ديتريخ » قد اتخذ من هذه الرسائل مرجعه الوحيد لكتابه الضخم الذي بلغت مجلداته تسالة ، والذي تناول فيه دراسة الحكمة عند العرب في القرن الرابع الهجري وأن دوائر المعارف الأدبية وكتب المستشرقين قد أسهبت في تحليل هذه الرسائل واستكناه دورها وحل ألماها ومحاولة تبين رموزها وتتبع ترتيباتها وتنظيماتها ، لأنهم جميعا قد اقتنعوا بأنها هي الرأاة الصادقة لنفوس الفكر الاسلامي بعد ان انتشرت حوله المعارف الأجنبية المترجمة وعمدت عملها وأمنت أكملها .

وقد سجل هذا التصوير الدكتور طه حسين في مقدمته لهذه الرسائل  
اذ قال :

« ورسائل اخوان الصفاء هذه تمثل الحياة العقلية في ذلك العصر  
كما تمثل الحياة السياسية أو أقوى من تشيّلها للحياة السياسية في  
مرآة تنعكس فيها الحياة العقلية مباشرة ونحن نرى فيها هذه الحياة  
واضحة حلية نرى ان العقل الاسلامي في القرن الرابع كان قد وعى  
ما نقل اليه من فلسفة اليونان وحكمه الهند وآداب الفرس والآداب  
العربية والاسلام وغيره من الديانات المساوية وغير السماوية وجمع ذلك  
كله ورتبه ولام بينه وحاول أن يكون عنه مزاجا واحدا مؤثقا هو خلاصة  
الثقافة التي يجيب على الرجل المستنير حقا أن يفكر بها ويأخذ منها المحظ  
المفوق .»

« ولستنا نقول شيئا جديدا حين نقول ان رسائل اخوان الصفاء  
هذه اشبه شيء به اثره معارف فلسفية علمية جمعت كل ما لم يكن له من  
تحصيله للرجل المثقف حقا في ذلك العصر ولكنها جمعت ذلك كله على شيء  
من النظام يمثل الفهرست الذي قدم بين يديها .»

« لرسائل اخوان الصفاء قيمة أخرى لم اشر اليها بعد وهي قيمتها  
الفنية الخالصة فهي من حيث انها اتجه الى جمهور الناس للتعليم والتثقيف  
قد عدل فيها عن السير الفلسفي الى السير الأدبي وعنى كتابها بالفاظها  
واساليبها عناية أدبية خاصة ففيها خيال كثير وفيها تشبيه متقن وفيها  
الفاظ متخيرة ومعان ميسرة وليس من الغلو أن يقال انها قاربت لعل الأعلى  
في تدليل اللغة العربية . وتيسيرها لقبول ألوان العلم على اختلافها .  
ولو أن لدينا من الذين يصون بالدرس الأدبي جماعة تتوقر على « رسائل  
اخوان الصفاء » درساً وتحليلاً ولقد اكان من الممتع أن نقم فيها من  
الشخصيات الفنية المتفاوتة بل لكان من الممكن أن نستكشف بعض هذه  
الشخصيات . ومن يدري لعل منها شخصيات معروفة كمنت في الأدب  
والفلسفة والعلم وعرفتم كتبها واشتركت في هذه الرسائل سرا لم يعرف  
اشتراكها الى الآن .»

« وجملة القول ان هذه الرسائل كنز لم يقدر منه لأنه لم يعرف  
بشيء . وهو اذا عرف فقد يجلو قطعة من حياة الأمة الاسلامية في عصر  
من أهم عصورها واجلها خطراً وعسى أن يكون في نشر هذه الرسائل  
وتيسير المحصول عليها ما يدنى من هذه النجاة ويقرّب من هذا النبل  
الأعلى .»

.. لقد شبه هؤلاء العلماء الاعلام الأخيار المفسّرين برجل كريم الطبع  
عظيم المخاض واسع البذل غزير الجود ولديه يستلّه هودق موقد شهب

الثمار شتى الأزهار فأراد أن يشارك في المنحة به الصفة التي تقدره من  
 حبى الإنسان قدعاهم بلا استثناء ولا تمايز إلى تفوق ثماره واستشراق  
 عرف زهوره وتشتت أمساعهم يشدو طيوره وانتاع أصابعهم يديع  
 مسافره وحتم على الالتداد بموطنه وظواهره وحسبهم على الترين بلأنة  
 وجواهره وهو لكى يجذبهم إليه قدم اليهم تادج مما يستعمل عليه وكذلك  
 هذه الرسائل هي أمثلة من معارفهم لا حصر لتفانيهم وهم في هذا يقولون :

« واعلم يا أخى - أياك الله وإيانا بروح صه - بأن مثل اصحاب  
 هذه الرسائل مع طالبى العلم ومؤثرى الحكمة ومن أحب خلاصه واختار  
 نفعه وحل حكيه جواد كريم له ستان خضر نضر بهج مولق معجب طيب  
 النبرات لدية الفواكه نطر الرياحين أرجه الأوراد فالحة الأزهار بهجة  
 للنظر مزجة المراضى ، مختلفة الأشكال والأصباغ والألوان والمذاق والشم ،  
 من بين وطب وبابس وحلو وحامض وفيها من سائر الطيور المطربة  
 الأصوات ، الملهية الألعاب المستحسنة النعريه تطرد تحت أشجار أبهار  
 جارية وحلال أبرهاها وحقرها حدائق منسابة تسرح على حافات الأنهار  
 خضر حوقة وأصداف مشرفة الألوان وجواهر متناسبة الأصباغ ونقطة  
 المناظر عجيبة الصور بديعة التاليف غريبة التنضيد مريحة كل نفس ونعمة  
 كل عين مسلاة كل هم مدعاة كل أس ٠٠٠ فأراد - لكرم نفسه وصنعه  
 صبحته - أن يدخلها كل مستحق ويتدد فيها وبها كل مقرب فتلقى في  
 الناس أن هللوا واشربوا وتلفذوا وتنموا واستروحوا بطبيعتها وتنسموا  
 بروائحها فلم يحبه أحد ولم يصدق خلق ولا عبثوا به ولا التفتوا إليه  
 استعظاما لقوله واستيعادا لوصفه واستكرا لكلامه واستغرابا لذكرو  
 غراى الحكيم من الرأى أن وقف على باب البستان وأخرج عما فيه تحفا  
 وطرفا ولطفا من كل ثمرة طيبة وقاكهة لدية وريحان ركنى وورد جنى  
 ونور أنيق وحوهره بهى وطير غرد وشراب علف فكل من مر به عرصها  
 عليه وشهاها إليه ، وذوقه منها وحياه بها وأخسه من مواضع الرياحين  
 وأسممه من بدائع التلحين حتى إذا فاق وشم وفرح به وطرب منه وارتاح  
 إليه اهتز وعلم أنه قد وقف على جميع ما فى البستان ومالت إليه نفسه  
 واستأنق إلى دخول البستان وتمناه وقلق إليه ولم يصبر عنه ، فقال له  
 عند ذلك : ادخل البستان وكل ما شئت وشم ما شئت واختر ما شئت  
 والظر كيف شئت وتلزه أين شئت وجيء من أين شئت وتلفذ وتنعم  
 وتطيب وتنسم »

فهكذا يلغى لمن حصلت عنده هذه الرغبات والمرغبات الأراضية

بوضعها في غير أهلها وبذلها في لم يرغب فيها ولا يظلمها بمعها عن  
مستحقها وصرقها عن مستوجبها »

### مذهب هذه الجماعة

لعل في نسبتنا الى اخوان الصفا مذهباً معيناً شيئاً من التجوز  
ماداموا هم أنفسهم يمثلون أنهم لا يفضلون مذهباً على مذهب ولا يقلمون  
عقيدة على عقيدة وإنما كل المذاهب عندهم سواسية لأنهم يرجعون كل  
المذاهب والمقائد الى الوحدة المطلقة التي صدر عنها كل شيء والتي لا ينبغي  
تفصيل أحد المصادريين عنها على الآخر واليك نص عبارتهم في هذا  
المكان :

« أعلم أيها الأخ البار الرحيم أيديك الله وإيانا بروح منه ، أنا نحن  
جماعة اخوان الصفا أصفىاء كرام كنا نبأنا في كهف أبينا آدم مكة من  
الزمان تتقلب بنا تصاريح الزمان ونوالب الحدائق حتى جاء وقت الميلاد  
بعد تفريقنا في البلاد في مملكة صاحب الماموس الأكبر وشاهدنا مدينتنا  
الروحانية المرتفعة في الهواء التي ذكرناها في الرسالة الثانية وهي التي  
أخرج منها أبونا آدم وزوجته وذريتهما لما خدعتهما عدوسا وهو إبليس  
وقال : « هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى » واغترا بقوله وحملهما  
الحرس والمجلة فبادروا وطلبا ما ليس لهما أن يسألوا قبل استحقاقه  
في أرائه تستطعت مركبتهما والحطت درجتها وانكشفت عورتها وأخرجتهما  
وذريتهما جميعا بمضهم لبعض عدو وقيل لهم اهبطوا منها ولكم في  
الأرض مستقر ومتاع الى حين فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون  
يوم البعث اذا انتبهتم من نوم العمالة واستيقظتم من رعدة الطفلة اذا نفع  
ليكم بالصور فتنتيق عنكم القصور وتخرجون من الاحداث صراخا « كأنهم  
الى نصيب يولضون »

فهل لك يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه أن تماد وتتركب معنا في  
سفينة الحجة التي بناها أبونا نوح عليه السلام فنسبح من طوبان الطبيعة  
قبل أن تأتي السوء بدخان مبین ونسلم من أعواج بحر الهوى ولا تكون  
من المفرقين ؟

أو هل لك يا أخي أن تنظر مصا حتى ترى ملكوت السموات التي  
وأها أبونا ابراهيم لما جن عليه الليل حتى تكون من الموقنين ؟

أو هل لك يا أخي أن تنضم للمعاد وتجيء الى الميقات عند الجانب  
الأيمن حيث قيل يا موسى فيفضي اليك الأمر فتكون من الشاهدين ؟

أو هل لك يا أخي أن تصنع ما عمل فيه القوم كي ينفع فيك الروح

فينعجب عنك اللوم حتى ترى الأسبوع من ميسة عرش الرب قرب مشواه  
كما يقرب الابن الأب أو ترى من حوله من الناظرين ؟

أو هل لك يا أخى أن تخرج من ظلمة امر من حتى ترى الزبدان  
قد اشرق منه النور لمى صبغة الفريجون ؟

أو هل لك يا أخى أن مدسل الى هيكل عاديمون حتى ترى الأفلاك  
التي يحكمها أفلاطون . وانما هي افلاك روحانية لا ما يشير اليه المنجمون  
وذلك ان علم الله تعالى محيط بما تحوى الحقل من المظولات والعقل محيط  
بما تحوى النفس من الصور والنفس محيط بما تحوى الطبيعة من الكائنات  
والطبيعة محيط بما تحوى الهيولى من المصنوعات فاذى هي افلاك محيطات  
بعضها لبعض ؟

أو هل لك الا ترقد من أول ليلة القدر حتى ترى المعراج لمى حين  
طلوع الفجر حيث أحمد المحدث فى مقامه فتسأل حاجتك القضية لا مملوعا  
ولا مفقودا وتكون من المقربين ؟ ١٠٠ . ولقد لقد أيها الأخ البار الرحيم  
وجميع احوالنا لهم هذه الاشارات والرموز وفتح قلبك وشرح صدرك  
وطهر نفسك ونور عقلك لتشاهد معنى البصيرة حقائق هذه الامرار  
فلا تنزع من موت الجسد اذا فارقت فيه حياة النفس فتكون من اولياء  
الله .

وهنا نرى اخوان الصفا يحاولون التوفيق بين الأديان ويبدلون  
الجهنم فى الآيات صمدوها من نبع واحد .

### نظريات المعرفة

جمل اخوان الصفاء درجات التفلسف ثلاثا .

**اولاها :** محبة الحكمة والشغف بالوصول الى الحقيقة والتفانى لمى  
البحث عنها .

**وثانيها :** تحقيق المعرفة على صورة عملية واقعية .

**وثالثها .** القول والسبل بقتضى العلم ومما قبة الحكمة . ومن  
يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

واذن فالخطوة الأولى فى درجات التفلسف - بمه المحبة القلبية  
المصادقة للحكمة - وهى تحصيل المعرفة وقد تبينوا لمى مراتب هذا  
التحصيل تلك الحكمة الفلسفية القديمة التى وجدها سقراط مكتوبة  
- فيما تروى الاسطورة - بأحرف من ذهب على عتبة ديلف معبد أبولون

إله الوحى والآلهام والتحرر عند الاغريق وهى : « اعرف نفسك بنفسك »  
 فقد قررت هذه الجماعة ان المتفلسف لا يستطيع ان يحطو بتفلسفه خطوة  
 واحدة قبل ان يعرف نفسه بنفسه معرفة عميقة قاطعة والا كان مثله كمثل  
 من يزعم انه يعالج المرضى وهو سقيم أو يدعى انه يساعده الفقراء وهو  
 صدق أو انه يحاول ان يرشد الناس فى الطرقات وهو لا يعرف طريق  
 بيته وهم فى هذا يقولون :

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم أيديك الله وإيماناً بروح منه انه لا يحسن  
 بنا ان ندعى معرفة حقائق هذه الأشياء ونحن لا نعرف أنفسنا لأن مثل  
 من يدعى معرفة حقائق الأشياء ولا يعرف نفسه كمثل من يطعم الناس  
 وهو جائع وكمن يكسو غيره وهو عريان وكمن يداوى الناس وهو عليل  
 وكمن يهتدى الناس الى الطريق وهو لا يعرف طريق بيته ففقه علم ان  
 الانسان فى مثل هذه الأشياء ينبغي له أن يبتدىء أولاً بنفسه ثم  
 بغيره ... »

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم أيديك الله وإيماناً بروح منه ان كل  
 واحد منا هو مركب ومزلف من جوهرين متباينين متضادين : أحدهما هو  
 هذا الجسد العليل المحسوس المؤلف من اللحم والدم والعظم والجلد  
 والعصب والعروق وما يتأكل ذلك ، وهذه كلها أجسام أرضية مينة مظلمة  
 فاسدة وأما الجوهر الآخر فهو هذا الروح اللطيف أصفى النفس فهو  
 جوهره سماوية روحانية توراتية علامة دراية صور الأشياء . »

« واعلم ان هذا الجسد لهذه النفس فى المثال بمنزلة دار تسكن  
 أو دابة تركب أو آلة تستعمل وما دامت هذه النفس مع الجسد مربوطة  
 به الى الوقت المعلوم فلا بد لنا من النظر فيما تصطبغ به هميشة الدنيا  
 وما تنال به النجاسة واللوذ فى الآخرة . »

وأما المعارف التى يجب على المفكر ان يفلسف فيها ليصل من وراءها  
 الى كشف أسرار الكون وحمايا الوجود فهى التوأميس السماوية والظواهر  
 الكونية والكتب الالهية والتماد العقلية التى أنتجها أعلام الفلسفة على  
 ألا يأخذوا من الكتب الالهية بظواهرها وألا يكتفوا بالاصناف التى وصفتها  
 السماء حول جواهرها ولآلتها قصدا لاختافها عن الفهم وسعرا لأسرارها  
 عن العامة الذين ليس فى تكوينهم ما يمكنهم من اكثاف نفائسها وضنا بها  
 عن دركات الابتدال واحتفاظا بقيمتها للصقوة المتارين الذين ركزت  
 السماء فى قطرهم القدرة على التفضل الى أعماقها واستكشاف بواطنها  
 وهم فى هذا يقولون :



« واعلم أيها الأخ أنا لا نمادى علما من العلوم ولا نمنصب على منصب من المناصب ولا نهجر كتابا من كتب الحكمة والفلسفة وما وضموه والقوه في قنول العلم وما استخرجوه بقولهم وتفحصهم من لطيف المعاني ... »  
 « وأما مستندنا ومعركنا وبنائنا فاعلم أيها كتيب الأنبياء صمدون الله عليهم أجمعين وما جأوا به من التنزيل وما ألفت اليهم الملائكة من الأسماء والألهام والوحي ... »

« واعلم أيها الأخ أيك الله وإيانا بروح منه أنا لنا كتيب مفروضا يشاهدنا الناس ولا يحسنون قراءتها وهي مسورة أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب وأمهات الأركان واختلاف جواهر المعادن وتكون أشكال النبات وعجائب هيكل الحيوانات ولنا كتيب آخر لا يشاركنا فيه غيرنا ولا يفهمه موانا وهو معرفة جواهر النفوس ودرجات مقاماتها واستيلاء بعضها على بعض وإنسان قواها وتأثيرات أعمالها في الأجسام من الأفلاك والكواكب والأركان والمعادن والنبات والحيوانات وطبقات الناس من الأنبياء والحكماء والملوك وأتباعهم والسوقة وأعوانهم فإن نستطع أيها الأخ البادر الرحيم إلى قراءة هذه الكتب أنت وبخواتك لتعلم ما فيها وتفهم معانيها وتعرف أسرارها فهاهم إلى حضور مجلس اخوانك لك فضله وأصدقائك لك كرام ... - نسع أقاويلهم وترى شمسائلهم وتعرف صبرتهم لملك تتخلق بأخلاقهم وتتهب بأدائهم فستبني نفسك من نور الغفلة وتستيقظ من رقعة الجهالة ويشرح صدرك ويصغر ذهرك وتفتح عين البصيرة من قلبك فتري ما قد أبصروه يصيرون قلوبهم وتساوهم ما قد عاينوه بصيفه جواهر نورهم وتنتظر إلى ما نظروا إليه بنور عقولهم وتفهم معاني هذه الكتب الأربعة كما فهموها وتؤيد بروح الحياة وتمشي عيش العلماء وتحيا حياة الشهداء وتوفي للصعود إلى ملكوت السماء وتنتظر إلى الملأ الأعلى الذي حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » -

غير أنه لما كانت هذه الجماعة قد أعلنت في أكثر من موضع من رسائلها أن لديها معارف خاصة ومعلومات مخبوءة ترضى بها على غير أهلها فلا تندها إلا للصورة المتأريين والعلمية المختارين ، أفادح حصونها صدها شياثات متباينة مؤداها أن لهذه الجماعة أهدافا سرية عظيمة ترمى إليها وتكشف بها وهي قلب نظام الحكم والاستيلاء على مقاليد الأمور طمعا في السبطان وحققا على الحكام الراهقين وأنها تخشى من إذاعة هذه المبادئ بطش الملوك والأمراء ورجم العامة والصحابة فلما اتصلت أطراف هذه الشياثات بجماعة اخوان الصفا وضموها الأمور في نصايها وأوضحوا الحكمة التي دلعتهم إلى الحسن معلومهم والاحتفاظ بمعارفهم فقالوا :

« أعلم أيها الأخ البدار الرحيم أنا لا نكنتم أسرارنا عن الناس خوفاً من  
 سطوة الملوك ذوي السلطنة الأرضية ولا خذراً من شعب جهور العوام  
 ولكن صيانة لخاوص الله عز وجل لنا كما أوصى المسيح فقال : « لا تقصوا  
 الحكمة عند غير أهلها فتلطموها ولا تصنعوها أهلها فتظلموهم » ..

وأعلم أيها الأخ أنا لا نحمد ملوك الأرضين ولا نتناقص في مراتب  
 أبناء الدنيا لكن نطلب الملك السماوي ومراتب الملائكة الذين هم أولو  
 أجنحة مثني وثلاث ورباع لأن جبروتنا جوهر سماوي وعلمنا عالم علوي  
 ونحس ما هذا أسرى غربة في أسر الطبيعة عرقى في بحر الهيمول بجناية  
 كانت من أبنائنا آدم الأول حين حدهه عدوه اللعين إذ قال : « هل أدلك على  
 شجرة الخلد وملك لا يبلى » ... « فدلحها يفرور فلما ذاقا الشجرة بدت  
 لهما سوادتهما » وقيل لهم : « اهبطوا بضكم لبعض عدو » يعني أتما  
 وحدكما « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » وقال : « فيها تحيون  
 وفيها تموتون ومنها تخرجون » ..

### الفلسفة وأقسامها

قسمت هذه الحياة الفلسفة إلى أربعة أنواع وهي : الرياضيات  
 والمنطقيات والطبيعات والالهييات وندم أن أول ما يجب أن يبدأ به من هذه  
 العلوم الفلسفية : الرياضيات وأول الرياضيات معرفة خواص العدد ، لأنه  
 أقرب العلوم منا ولا ثم الهندسة ثم التأليف ثم التنجيم ثم المنطقيات ثم  
 التطبيقات ثم الالهييات ..

ملك اخوان الصفا في رسائلهم التهج نفسه الذي أشاروا إليه في  
 تعريف الفلسفة وهو البناء بالقسم الرياضي لأنهم كانوا موقنين أنه المنفعة  
 الضرورية الأولى لمعرفة جميع علوم الحكمة والوسيلة المثل للتدليل على  
 صحة المذهب . وليس المطلق إلا فرعاً عنه رغم كونه قسماً إذ أن الهندسة  
 النظرية هي العامل الأول في تقويم العقل وجعله قادراً على الاستقانة من  
 المطلق وهذا هو السر في الحاقهم المنطق بالقسم الرياضي من رسائلهم .

وهاك ما يقولونه في فضل الرياضة وما يبررون به تقديمها إليها  
 على سائر علوم الفلسفة :

« وأعلم أيها الأخ البدار الرحيم بأنه لما كان من ملهيب اخواننا الكرام  
 أيدهم الله النظر في جميع علوم الموجودات التي في العالم من الجواهر  
 والأعراض واليسائط والموجودات والمفردات والمركبات والبحث عن مبادئها  
 وعن كيفية اجتماعها وأنواعها وخواصها ونظامها على ما هي عليه الآن وعن  
 كيفية حدوثها ومسببها عن علة واحدة ومبدأ واحد من مبدع واحد

جل جلاله ويستشهدون على بيانها بأمتلة عديدة وبراهين هندسية مثل ما كان يفعل الحكماء الفيثاغوريون ... احتجنا أن نقدم هذه الرسالة قبل رسائلنا كلها وبذكر فيها طرفاً من علم العدد وخواصه التي تسمى « الإركماتيقا » شبه المدخل والمكسرات لكيما يسهل الطريق على المتعلمين إلى طلب الحكمة التي تسمى الفلسفة وتقرّب تناولها للمبتدئين بالنظر إلى العلوم الرياضية » .

ليست صداقة القسم الرياضي عند اخوان الصفا واحدة من أمه أصل البراهين المتعلقة بحسب بل هي ناتجة من شيء آخر هو أهم من ذلك وهو تأثرهم بالفيثاغورية الحديثة التي امتزجت بالفلسفات الاسكندرية ثم اتجهت إلى غاية معنية وهي آليات الاسجرام الدقيق بين الأبعاد وسائر الموجودات من : علوية عقلية وسفلية مادية .

### الطبيعة :

تابع اخوان الصفا أرسطو في أكثر نظريات هذا القسم لأسهبوا في بسط مشاكل الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان والفراغ والسماء والعالم والكون والفساد والآثار العلوية ومعلما في الطبيعة وغير ذلك مما تفوق فيه حكيم استأجرا على سائر الفلاسفة القدماء . وطاروا حريصين على محاكاة أرسطو في جميع هذه النظريات بل مزجوها في عدة نواح يراه الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثتين . كان قروا مثلا أن النفس الكلية هي روح العالم المدير لجميع أمثاله وعناصره . وأن الأقسام ليست إلا أدوات تلك النفس التي تدبر بها . وأن جسم العالم لا يخرج عن كونه المادة التي يقص عليها التدبير من النفس الكلية . ولا ريب أن هذا رأى فيثاغوري الأفلاطوني وهم في هذا يقولون :

« وأعلم يا أخي أن الطبيعة إنما هي قوة النفس الكلية الفلكية وهي سارية في جميع الأجسام التي دون قلب القمر من لدن كره الأثير إلى مستوي مركز الأثير ... »

« وأعلم أن الأجسام التي دون قلب القمر نوعان / بسيطة ومركبة فالهسيطة أربعة أنواع وهي : النار والهواء والماء والأرض والمركبة لثلاثة أنواع : المعادن والنبات والحيوانات وهذه القوى أعنى الطبيعة سارية فيها كلها ومحركة ومسكنة ومدبرة لها وشمعة وبسطة لكل واحدة منها إلى أقصى مدى غاياتها بحسب ما يليق بوحدة واحدة منها كما شاء بآرائها وكما مينا في الرسائل الخمس وهي : رسالة الكون والفساد ورسالة الآثار العلوية ورسالة المعادن ورسالة النبات ورسالة الحيوان ... »

وواعلم ان النفس الكلية هي روح العالم كما بينا في الرسالة التي ذكرنا فيها ان العالم انسان كبير والطبيعة هي فعلها والاركان - وهي النار والهواء والماء والارض - هي الهيولى الموضوعة لها والاملاك والكواكب كالادوات لها والمعادن والنبات والحيوانات كلها مصنوعاتا ،

ما بعد الطبيعة •• الآله :

لم يرتب احد من اخوان الصفا في ان يكون لها واحدا حكما اتصف بكل كمال ونفزة عن كل نقص وانه هو مبحث وجود كل شيء وانه علة الملل الذي عنه بدأ واليه ينتهي كل وجود وانه هو وحده الواجب لذاته وبذاته وان كان من عنده معتق اليه وانه كما كان مصدر الوجود هو كذلك مصدر العلم والحق والخير والمود وانه ليس على الانسان الا ان يتجه اليه ليفوز من كل هذا بطل والمر وان سرته من جميع الموجودات هي منزلة الواحد من الاعداد اذ هو مشتملها جميعها وهو مع ذلك لا يتقسم ولا يتجزأ ، وهي كلها معتق اليه والنظر الى الاعداد والتفكر في الواحد يصلح عندهم لان يكون برحانا قاطعا على وجود الله وحدانيته وكمالته وهم نحن هذا يقولون :

واعلم يا اخي ايديك الله بروح منه بانيك اذا تأملت ما ذكرنا من تركيب العدد من الواحد الذي قبل الاثنين ومشوته منه وجدته من ادل الدلائل على وحدانية الباري جل ثناؤه وكيفية اختراعه الاشياء وابداعه لها وذلك ان الواحد الذي قبل الاثنين وان كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه كما بينا قبل فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ كذلك الله عز وجل وان كان هو الذي اخترع الاشياء من نور وحدانية ابدعها واشياها وبه خواصها وبقاؤها وتماها وكمالها فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وابداعه لها كما بينا في رسالة المبادئ العقلية فقد انبأناك بما ذكرنا في ان مدينة الساري جل ثناؤه من الموجودات كسنة الواحد من العدد وكما ان الواحد اصل العدد ومشوته واوله وآخره وكذلك الله عز وجل هو علة الاشياء وحالها واولها وآخرها وكما ان الواحد لا جزء له ولا مثل له في العدد فكذلك الله الـ جل ثناؤه لا مثل له في خلقه ولا شبهة وكما ان الواحد محيط بالعدد كله ويمده كذلك الله حل حلاله عالم الاشياء وحاوياتها ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا :

النفس ••

عرفوا النفس بأنها : جوهرة مساوية نورانية حية علامة فمالة بالطبع حساسية دواكة لا تموت ولا تقى بل تبقى مؤيدة اما ملتهدة واما مؤنثة ،

أما قوامها فهي عندهم كثيرة يقولون إنها لا يحصى عددها إلا الله وهم  
يذكرون منها الباصرة والسماعة والشماسة والذائقة واللامسة والمنحيلة  
والذاكرة والفكرة والحافظة والمالقة والكتابة وحلم جرا .

## الأخلاق ٢

تنقسم الأخلاق عند هذه الجماعة من حيث كونها أصيلة أو طارئة  
إلى قسمين - طبيعي ، ومكتسب فأما الطبيعي فهو مكون من آثار الجيلة  
البشرية المؤلفة من العناصر الأربعة : التراب والماء والهواء والبار  
وما يتوحد منها من الأحوال الخاصة لقوى الطبيعة كالحرارة والبرودة  
والرطوبة واليبوسة وهي ناشئة كذلك من مؤثرات البيئة الطبيعية والثربة  
التي وجد فيها الشخص والعوامل الحوية التي تعاقبت عليه . ويضيفون  
إلى ذلك تأثيرات الكواكب ومبازلها من أفلاكها ومحاورها ودوراتها  
وتنقلاتها .

أما المكتسبة فهي طارئة مستفادة من البيئة الاجتماعية التي تحيط  
بالشخص وتكليفه بنكيماتا المختلفة وتصوره على صورة المتباينة كالوالدين  
والعائدين والمربين والأساتذة والعلوم والمعارف والمقاليد وما إلى ذلك من  
وسائل التكوين التأثير .

وبعد أن ينتهوا من وصف تأثير العناصر والأحوال وترب البلاد  
ومناخاتها في الأخلاق الفطرية أو المركورة يأخذون في تصوير تأثير البيئة  
الاجتماعية والقائمة والاعتقادية في الأخلاق المكتسبة فيقولون :

« وأعلم بأن المعانيات الجارية بالمداومة فيها تقوى الأخلاق المشاكلة  
لها ، كما أن النظر في العلوم والمداولة على البحث عنها والدرس لها  
والذاكرة فيها يقوى الخلق بها والرسوخ فيها وهكذا المداومة على استعمال  
الصنائع والمهوب فيها يقوى الخلق والاستاذية فيها وهكذا جميع الأخلاق  
والسجاياء والخال في ذلك أن كثيرا من الصبيان إذا نشأوا مع الصبيان  
والفروسيان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم  
وهكذا أيضا كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء والمخاليث والمفويين  
وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم إن لم يكونوا في كل الخلق  
ففي بعض وعلى هذه القياس يجري حكم سائر الأخلاق والسجاياء التي  
تطبع عليها الصبيان منذ الصغر أما بأخلاق الآباء والأمهات أو الأخوة  
والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والاستاذين المخالطين لهم في  
تصانيفهم أووالهم » .

خصصت هذه الجماعة رسالة من الجزء الرابع من رسائلها ذكرت فيها شروط الصداقة التي يجب على كل فرد من اخوان الصفا أن يلاحظها في نقطة ودقة وحذر بحيث لا يختار الصديق الا بعد أن يدرس نفسه ونفسه وأن يتعرف مذهبه وعقيدته ويتحقق من أنه خير فاضل عفيف صادق وفي ثابت لا يريد الصداقة الا لذاتها ولا يرمى من وراء الطلالة الا الى صنف المحبة والاخلاص والتعاون على الخير فلذا ظفر بصديق من هذا النوع يجب ان تكون صلته به وثيقة لعري بتينة الأواصر حتى تفوق علاقة الشقيق بشقيقه والاب بابنه والزوج بزوجه ، لأن هذه الملائق الأسرية عندهم ناشئة من علل وأسباب وأما اخوان الصفا فلا علل بينهم اللهم الا الطهر والنقاء وهم في هذا يقولون :

« وينبغي لأخواننا ايدهم الله حيث كانوا في البلاد اذا أراد احدهم ان يتخذ صديقا مجتهدا أو أخا صمتا أن يعتبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفا المودة وحقيقة الاخوة أو لا ، لأن في الناس أقواما طبائعهم متعامرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة ففسدة ومذايعهم مختلفة جائرة فمنهم خير وشرير • وكفور وشكور • وذو أمانة وغدار • وحليم وسفيه • وسخي وبخيل • وشجاع وحيك • وحسنود وودود • وقاجر وعفيف • وجورج وصبور • وشرف وفسوق • وسلس وشرس • وفلف غليظ ولطيف رقيق • وعاقل وأحمق وعالم وجاهل • وعصب ومبغض • وموافق ومخالف وموافق ومخلص • وناصح وغاشي • ومتكبر ومتواضع • وعدو وصديق • ومؤنس ومؤذيق • وعارف ومغتر • ومقبل ومخير • وما شاكل هذه الأخلاق المحدودة والمحدودة بضادات بعضها لبعض ، فينبغي لك اذا أردت أن تتخذ صديقا أو أخا أن تنتقده كما تنتقد البواهم والدينابر والأرضين الطيبة الثرية للزرع والفرس وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشرار الماليك والأمثلة التي يقتربوها »

« واعلم ان الخطب في اتخاذ الاخوان أجل وأعظم خطرا من هذه كلها لأن اخوان الصديق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا سيما وهم أغر من الكبريت الأحمر واذا وجدت منهم واحدا فتمسك به فإنه قرّة العين ونسيم الدنيا وسملحة الآخرة ، لأن اخوان الصديق مصرة على دفع الأعداء وزيغ عن الاحلام وأركان يعتمد عليهم هذه الشدائد والبلوى وظهر مستند اليهم عند المكاره في السراء والضراء وكثر مذخور ليوم الحاجة وجراح خافض عند المهات وسلم للصعود الى المال ووسيلة الى القلوب عند طلب الشفاعات

وحسن حصي يلقب اليه يوم الروح والفرعك فان غبت حظوك وان  
تضعضت عضسوك وان راوا عدوا لك قمعه والوحدة منهم كالشجرة  
المباركة تدلت اغصانها اليك بشرها واطلنتك اوراقها بطيب رائحتها  
وسترنك بجويل فبتها : فان ذكرت امامك وان سميت ذكرك بامرك بالسر  
ويساتك اليه ويرغبك في الخير ويبارك اليه ويدلك عليه ويدل ماله  
ونفسه ذلك .

فلذا اسعدك الله يا اخي بس هذه صفته فابذل له نفسك ومالك  
وفي عرضه بعرضك واقرض له حناك واودعه سره وشاوره في امرك  
وداو يرويته عينك واجعل انسك اذا غاب عنك ذكره والتفكر في امره وان  
هنا حفوة فاغر له وان زل ذلة فصرها عنه ولا توحشه فيخاف من حقد له  
واذكر من مسائل احسانه عند اسائه لياأس بك ويأمن بحايلك فان ذلك  
اسلم لوجه وادوم لآخاته . . واعلم يا اخي ان من الناس من لا يصلح  
للمصادقة والاخوة والقاربة أصلا الة فالظر من تصحب وتعاشر ولا تفر  
بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها ولا بعلاوة المايل من قبل النظر في  
مرارة عاقبتها فاذا أردت اتخاذ أخ أو صديق فاختر أولا أحواله واحتسب  
أخلاقه وسيله عن نفسه واعتقاده وانظر في عاداته وسجيته وشماله  
وحركاته فانه لا يخفى على المتفرس بواطن الأمور اذا نظر الى ظواهرها . . .

• واعلم بان من الناس من يتشكل بشكل الصديق ويدلس عليك  
بشبه الراق ويظهر لك المحبة وخلوها في صدره وضميره فلا تفر  
أو تتيقن . . .

• واعلم ان اعمال الناس في ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم  
التي طعموا عليها وبحسب عاداتهم التي نشأوا عليها أو بحسب آرائهم  
التي اعتقدوها فاذا رأيت الرجل مصعبا مسلما أو تكذا لجوبا أو نظا غليظا  
أو مباحكا مارييا أو حسودا حقودا أو منافقا مرابيا أو بخيلا شحيحا  
أو حمانا مهينا أو مكارا غدارا أو متكبرا جبارا أو حريصا شرها أو كان  
محا للمدح والثناء أكثر مما يستحق أو كان مزريا لطرائفه أو كان مستحقرا  
لآرائه والناس دائما لهم ، أو متكلا على حوله وقوته فاعلم انه لا يصلح  
للمصادقة وصورة الاخوة لان هذه الأخلاق والآراء والعادات مفصلة لاعتقاده  
لآرائه . وذلك ان من يختار المطالبة بما لا يجب له لا تسمح نفسه ببذل  
ما يجب عليه وهكذا الحمود واللجوج والفضوب تمنع هذه الأخلاق عن  
الادمان للحق وهكذا اللجاج والتكبر يمنعانه عن قطع الجدال والخلاف  
وكذلك الكفاطة والمطلة يمتنان من العلوية والسهولة والفراسة والنصب  
يحبان على المكابرة . . .

« وبالجملة كل هذه الأخلاق مفسدة للمودة ومخالفة لصفوة الأخوة  
مستقلة للنفس وموحشة للأنس والراحة ومفجرة لآلئ الطباع ومنقصة  
للمعشى ومبغضة للحياة » أما الأصدقاء الحقيقيون فينبغي إذا ظفرت بواحد  
منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين  
نشأت معهم فانه خير لك من ولدك الذي من ظهرك وأخيك من صلب أيبك  
ومن زوجتك التي جعلت كل كميتك لها وجميع سميتك من أجلها فاعرف  
حقه كما تعرف حقوقهم بل ينبغي أن تؤلوه عليهم كلهم لان هؤلاء يهيرونك  
من أجل منفعة تحصل منك اليهم ويريدونك من أجل مضرة تدفعها فإذا  
استغنوا عنك ذهبوا ليك وذهبوا في غيرك وتخلواك أخرج ما تكون اليهم  
فأما هذا الأخ فليس يريدك من أجل شيء خارج عن ذاتك بل من أجل أنه  
يرى ويستفاد منك ايده وهو اياك نفس واحدة في جسدين متقابلين يسره  
ما يسرك وينمه ما يشمك يرد لك منه مثل الذي تريد له منك واعلم أن  
قلوب الأحياء صافية لان نفوسهم ظاهرة ولا تخفى عليهم طبقات الأمور  
لأنها تتراعى فيها كما تتراعى في أعين البصراء طوابع كليات الأمور  
فلا تظنوا لاشوائك الأصدياء ما ظهر لهم فان ذلك لا يخفى عليهم ولا منكهم  
عليهم منك » »



## خلاصة

وضع مما قدمناه في عرضنا لأخوان الصفاء ورسائلهم وآرائهم وأهدافهم أهم جماعة من صفوة المثقفين في القرن الرابع الهجري قد تكونت بعد أن تمت ترجمة الفلسفة الإغريقية والحكمة الهندية والعقائد الفارسية • وبالإجمال : بعد أن نقلت كل المبادئ الإنسانية المحترمة في ذلك العصر إلى اللغة العربية فساهمت في تكوين الفكر الإسلامي الذي كان القرآن والحديث قد أعدها للنظر والبحث أعداد ثويا ، بل دفعاه إليهما دفعا والذي شحذته الفتنة السياسية وما توتب عليها من خلاف في الأوراء ونزاع في المبادئ طالما خرجا عن حد الاعتدال • وعند ذلك اضطر أولئك المفسرون للأهواء القودية والأغراض الدنيوية إلى أن يؤولوا الآيات والأحاديث وأن يحاولوا ما لا تطيق لكي يجتذبا كل منهم إلى مفسكه ويلغوا بوقوعها في صفه ولو كان ذلك على حساب العقل والمنطق والأخلاق •

تضافرت هذه العوامل الأصلية في البيئة الإسلامية مع المصروفات الأجنبية المترجمة في انفتاح العقلية الإسلامية والارتقاء إلى عليا استازل في ذلك العهد فكان من الطبيعي أن تحدث تلك التطورات الفكرية الهائلة بل التورات الاجتماعية الرهيبة وكان جماعة اخوان الصفاء صبرة من صوره هذا الحدث العظيم •



# السأهنامه

الفردوسى  
م ١٠١٠

كتب فيوت الفكر ج ٥ - ١٩٣



طلالما مال الانسان الأول الى التخييل الا لم يعد في الواقع ما يشبع  
همه الى المخرفة وحسب كشف المجهول \* فاقوى اليه الخيال صورا فيها  
الكثير من المنالفة والمبالاة في « البطولة » المخارقة \*

ومن هنا ويدلح من ذلك الايحاء الفطري القديم نشأت « الاسطورة »  
\* وتتمنى الانسان الاول في خلق أبطالها الخرافيين الذين لا تقف امامهم  
حدود ولا حدود ، ولا تستطيع قوى الشر والطبيعة والجبر أن تنال منهم  
او تغل من عزائهم وتوقعهم عاجزين عن بلوغ غاية مهمما كانت صغريتها \*

والاسطورة برغم تفاليها ومجانستها للحقيقة تعتبر جزءا متمما لتاريخ  
الضمير الفكري ، كما انها تمثل صورة للمجتمع الساذج الذي صلب  
الاسطورة وتركها تعيش في زبوعه وأحس انها منه واله عليها \* وان  
بينه وبين أبطالها الخياليين أكثر من رابط \*

ولما كانت البيئة وما تحويه من مظاهر طبيعية وصناعية هي التي  
ترسم شخوص الاسطورة وتحركهم وتدفع بهم حيثما تريد مبشرين بمبادئ  
سيامية او معاتلين في سبيل تدعيم افراض لبيبة .. فان الاسطورة الفرعونية  
قد اتسمت بالطابع الديني واليوقراطية تميزت بطابع السمي وداء المعرفة  
واللذة ، مباحة وعبر مباحة اما الفارسية فلها دائما طابع الجراءة والبطولة  
والحرى وداء المقامرات والحروب \*

والاساطير الفارسية عديدة الا أن « الشاهنامة » هي أشهرها  
بلا حدال \* وهي وان تكن أقدم الاساطير الفارسية الا انها تسجل حوادث  
أقدم الحقب وتروي في تسلسل محسب قصة أسب الأبطال الى قلوب الناس  
هناك بما حوت من مغامرات وحوادث ليس لها في العالمين مثيل !!

« والشاهنامة » في مجموعها سلسلة من معاجات تدور حول لون  
من ألوان البطولة يكاد يكون واحدا ، هو التمهيد للحرب ثم الحرب ثم  
الانتصار ولو على جيوش حشدتها القردة وقادتها ، الجن والشياطين !!

وكما رحب الأقدمون بأبطال « الشاهنامة » وعاشوا معهم بالفكر  
خلال الاقطاب المتصاعدة فقد رحب بهم أيضا من جاء بعدهم وأسسوا هذه  
الشخصيات الفريدة التي صنعت تاريخا في البطولة والشجاعة والحرارة  
ما لا نجد له أصلا في التاريخ الاصيل \* \*

## الفردوسي وحكاية الشاهنامة

الفردوسي هو أكبر شعراء القرن الخامس الهجري وأحد الشعراء الفرس العظام نظم الشاهنامة فبلغ الأوج في نظمها ، وهي الملحمة الفارسية التي تصور القصص الأيراني القديم كما تعطى صورة تاريخية صادقة لكتبر من جوانب الحياة في العصر الساساني الذي سبق الفتح العربي لبلاد الفرس . ثم انه نظم « يوسف وزليخة » متجها في نظم القصة نحو الأدب الإسلامي الخالص .

عنى كتاب السمر وأدباء الفرس بالفردوسي وحاكوا حول حياته الكثير من القصص حتى ان استخلاص حقيقة حياة الرجل من هذه القصص المختلفة أصبح أمرا لا جدوى منه وانما على الباحث أن يقرأ كتابي الفردوسي المتساممة وقصة يوسف وزليخة للتعرف على حياة الشاعر الذي كرس حياته للنظم والتي حرص أشد الحرص على أن ينظم الكتاب الأيراني المعروف في الفهلوية باسم خدای نامه والذي يعد أعظم أثر أدبي باللغة الفارسية .

والفردوسي حين قام بهذا العمل الأدبي الكبير إما كان يعمل على إحياء القومية الأيرانية التي بعثها المأمون ( ١٩٨ / ٨١٣ ) حين أذن بقيام الدولة الطاهرية أول دولة فارسية داخل دولته فقد تبع ذلك قيام دويلات منها القوية والضييفة . الصفارية والسامانية والملوية والزيرية والمويهية وكلها فارسية . ثم جاءت دولتان تركيتان الفزوية والسلاجقية . واستتمتع قيام الدويلات الفارسية إحياء الروح الفارسي والحنين إلى إحياء اللغة الفهلوية في صورتها الإسلامية الحديثة لتكون لغة للعلم والأدب والديوان ، ومن هذا الاتجاه الفارسي كان عزم الفردوسي على أن يتفرغ لينظم الشاهنامة ولم يكن قيام الدويلات التركية ليقف معارضا لهذا التيار فكثير من وزراء السلاطين كانوا فرسا وكانت أمبتهم تشجيع الأدب الفارسي واستخدام اللغة الفارسية في أعمال الديوان .



اختلف الكتاب في اسم القرية التي ولد بها الفردوسي : ذهب البعض الى انها شاداب \* دولتشاه \* وذهب آخر الى انها دزان \* مقنعة بايسقر \* وذهب العروضي صاحب \* جهاد مقاله \* - وقد زاد طوس بعد وفاة الفردوسي بحوالي مائة سنة - الى انه ولد في قرية ناز من ناحية الطاران . ويتخذ الكتاب المحدثون برأى العروضي في هذا . واختلف الكتاب ايضا في اسم الفردوسي ، منصور او حسن او احمد \* اما كتيبة \* ابو القاسم \* ليتفقوا عليها وكذلك يتفقون على لقبه الشمرى \* الفردوسي \* وفي طوس يستأن يعرف باسم الفردوسي ولطه يسمى الى هذا البستان .

ويذهب العروضي الى ان الفردوسي كان من دعاةسن ( اسحاب الشياخ ) طوس \* ويؤيد هذا قوله في الشاهنامه .

ولم يذكر كتاب التذاكر تاريخ ميلاد الفردوسي ولكن يبين من بعض أثماره في الشاهنامه ما يرجع هذا التاريخ فهو يقول انه سرع من آخر فصل في كتابه في اليوم الخامس والعشرين من شهر اسفندرامر وكان قد مضى على الهجرة اربعمئة سنة وكان صرء في ذلك التاريخ قد انقرب من الشافين \* .

ومن هذا يتضح انه فرغ من الشاهنامه في ٢٥ فبراير عام ١٠١٠ ( ٤٠٠ هـ ) قاناً ذهبنا الى انه كان في السادسة والسبعين او السابعة والسبعين حينذاك فان مولده قد يكون بين سنى ٣٢٠ / ٩٣١ و ٣٢٣ / ٩٣٤ وفي الشاهنامه نصوص أخرى قد تغير هذا التاريخ قليلا ذلك ان الفردوسي يذكر السنوات بالتقريب لا بالتحديد وقد أخذ الايرانيون حين استقلوا بالعهد الاثني للفردوسي بهذا التاريخ الأخير .

واقيم العهد الاثني للفردوسي في يناير سنة ١٩٣٤ .

وعرف شاعرنا العربية معرفة جيدة وعرف الفهلوية معرفة جيدة كذلك ، وكانت درايته بتاريخ ايران دراية عميقة شاملة أما العربية فهي لغة الثقافة في ذلك العصر - ومهما يكن من ظهور السرعة الفارسية والاتحاد الى احياء اللغة الفارسية فان لغة القرآن لم يهمل امرها وقد كتب العلماء حينذاك باللغتين العربية والفارسية ومنهم من كان يكتب الكتاب نفسه باللغتين جميعا - كتب ابن سينا والفارابي والرازي وغيرهم باللغتين ومنها عرف ان الحضارة العربية الاسلامية تقوم على العربية الفارسية \* .

تتفق المقدمتان المذكورتان للشاهنامه على أن ( أبو منصور المعمرى ) ترجم الى الفارسية - عن الفهلوية - كتاب حقايقه الذي كتبه داتشهور وذلك بأمر من ( أبو منصور بن عبد الرزاق ) والى طوس في العهد الساماني حوالي سنة ٣٤٧ / ٩٥٧ . وقد ساعد المعمرى في ترجمته أرمية من القرص

هم : تاج الخراساني ، يزدان داد بن شاپور ، ماعويه بن خورشيد ، شادان بن برزئى - وهما يكنى من أمر رواية المقتضى فان عزام وماسيه يلاحظان ان الفردوسى ذكر شادان بن برزئى فى أول قصة كليله ودعة كانه الذى حدثه بهذه القصة . ويقول عزام ، نقلا عن بولده ، ان شاعوى الذى يذكره الفردوسى داويا فى مفتتح قصة وصح الشطرج قد يكون تشرىف ماعويه أحد الأربعة المترجمين ، وان صاح مرربان حواء الذى يروى الفردوسى عنه مسيرة هرمز بن أنوشروان يمكن أن يكون هو تاج أحد هؤلاء الأربعة . ولاحظ عزام ان الأربعة الذين ترجموا الكتاب وكانوا مجوسا . ولم يكن غير المجوس إذ ذاك يعنى بالفهلوية ويجب قراءتها ، ولما توافق على هذا الرأى فان اسلام الرجل لا يحول دون حبه لثقافة أمته . واسمه المترجمين الذين ذكرهم حيزة الاسفهاى والبيرونى والبلخى وغيرهم نقل على انهم كانوا مسلمين . ولكن قد يكون من هؤلاء المترجمين الذين قصدهم استاذنا عزام مجوس - اما ماسيه فبى أن هؤلاء الأربعة ايرانيون من الولايات الشرقية . فهم من حارة ويسيستات ونيسابور وطوس .

من هذا يتبين ان آثار الفرس وقصصهم كانت معروفة بالفارسيين العربى والعاسية وان الفردوسى كان لديه هذه التراجم ، أو بعضها وكان لديه النص الفهلوى أيضا .

### \*\*\*

عهد نوح بن منصور الساماني الى شاعر شاب نافع صيته فى الشعر الفارسى حينذاك - القرن الرابع الهجرى - اسمه الدقيقى ( أبو منصور محمد بن أحمد ) بأن ينظم الشاهنامة فبدأ بنظم قصة ككشاسب الذى ظهرت وماله رواجت فى عهد والذى خصته الأوسستا ( الأيشتاق ) بفصل تضمن بصح روايتت له بالايما بالدين الجديد ودخول هذا الملك فى الزواجية .

نظم الدقيقى الف بيت من هذه القصة وحال الموت دون مضيه فى نظم الكتاب ، يقول الفردوسى : ( ولكن سوء الخلق كان خلق شهابه - فكان يقطع أوقاته بالبطالة وصحة الأشرار حتى بمته الموت فتوحه بتأجه الأسود . لقد سلب الخلق المصم على الروح الجميل . وما نم يوما بلحاة . ثم انقلب به جهه فقتله أحد عبيده . - ويعبر الفردوسى عن ترحيب الفرس بالدقيقى فى نظم الشاهنامة . قال الدقيقى سأظم هذا الكتاب قفرح الناس به أى قرح .



وعزم الفردوسي على نظم الكتاب فان ما لقيه قصص الأبطال من  
ترحيب الفرس شجعه على المضي فيما خلق فيه سلفه الدقيقي \* وروغبت  
في الحصول على كتاب خطاي نامه كي اقبله الى لقني وكم من رجل سألت  
عن الكتاب دون جدوى \* وكنت أخشى من الزمان وقصر الأجل فأتزكه  
لفي ، ثم ما أمل من وزائه من مجد قد يلعب سبني ، وقد لا أجد العظيم  
الذي يبيسي بصله على قد ما بدلت من جهد ، فان الدنيا تمنع بالخلف  
والرمن غير موات لمن يتشبهون حسن الثواب \* ومضى زمان لم أفض فيه  
لاحد منكون صغرى فاني لم أجد من هو جدير بأن أحدهم يسرى \*  
ثم كلن الصديق الأمين الذي هو قطعة من نفسي \*

فكاشفته بالأمر لقال \* انها فكرة حسنة ولسوقه تسعد بها مآتيك  
بالكتاب الفهلوي ( البهلوي ) فامض قلما ولا تتوان ان لك موهبة النظم  
وانك على سبك قصص الأبطال قادر \* قص على الناس من جديد حوادث  
هذا الكتاب يفدرك اصحاب السلطان ومناول الجراء الذي تبني ، وجاه  
صنائه بالكتاب فاطمأن الفردوسي الى أن الطريق بدأ يتفتح لتحقيق  
وصالته :

كان الفردوسي قد بلغ حوالي الأربعين من العمر حين بدأ ينظم  
الشاهنامه وكان عليه أن يتفرغ للنظم والقراءة والاستماع الى قصص  
خيوط الموايدة أو غيرهم ممن يملكون قصص ايران في صندوقهم \* كان عليه  
اذن أن يترك صبيحته فلا يملحها بنفسه فان الفلاحة والأدب لا يتحتمان  
ويتاح له أمد ذكي من زرية الأبطال له دواية بالشعر وله ولع بأن يرى  
لمعاد أخته منظومة في سفر باللغة الحديثة هذا الأمير هو والي طوس  
« أبو منصور محمد » الذي يتمتع الفردوسي ويهيء له من أسباب الحياة  
ما يجعله في غنى عن سؤال غيره ، ورعاني رعاية حسنة ولم يكن شيء يكدر  
صلو حياتي حتى لقد رفقت من أرضنا الدنيا الى السروات الطل حصل  
ما غمرني به من المال فقد كان يرى الذهب والفضة لا يساويان أكثر  
ما يساوي الثراب \* \*

واخذ الشاعر في المضي في النظم واخذ الناس يتناقلون ما نظم من  
قصص وأصبح الفردوسي دائم الصبوت في كل مكان حتى انه هذا غدا  
اذ أصبح من الخالدين \*

واغتدبل الأمير « أبو منصور » حاميه وراعيه وكاد الثور الذي يهيء  
له حياته أن ينطق. لولا أن قبض الله له سي \* حسين « بن قتيبة والي  
خراج طوس الذي لم يكن يتلقى شعر الفردوسي دون أن يمت له بقطعة  
جزيل \* وهو الذي أعطاني الفداء والكساء وذهب لي الذهب والفضة  
تكنت أدفع ما على من الخراج دون حشقة وعشت في رغد وهناء \*

ولم تكن الحياة السياسية مستقرة لآل سامان وبدأت القبائل التركية تتطلع الى الحكم ، والقصة الأثرية التي تصورها الشاهنامة للحرب بين موزان وإيران بدأت جلية وقد افتترب الفردوسي من الفراغ من كتابه وعلام الادب بادية على الدولة السامانية التي احتجى في ظل حكمها ، وعلام الاقبال يفت واضحة للتورانيين الذين كانوا أمراء للجنود السامانيين قسماً ٢٥١ / ٩٦٢ يظهر الب تكيي التركي في عرنة وفي ٣٩٠ / ٩٩٩ يستولى الب على غوز وخراسان وتأخذ الدولة الايفخانية ما وراء النهر . وهذه الأحداث تؤثر أشه التأثير في حياة الشاعر الذي تحلى به الامراء الذين ساندوه واضطر أن يعتصم على غلات صبيته مرة أخرى ، والنظرة السوداء سيطرت على رؤيته للأشياء وجاء صفها على اباله سقوط الثلج الذي أنلف الررع واحال الحياة الى موت .

كانت هذه حالة الفردوسي وهو في الثامنة والخمسين من عمره وتحمل الاديب مشاق الحياة ساملا المسر على اليسر ولكنه حين قارب الخامسة والستين أوجبه ريب المتون فقد مات ولده في السابعة والثلاثين ويكي الشيخ ولده وزعه من بعده في امجد الذي كان يرتقب وأصبحت الدنيا لديه لا تساوى شيئاً لقد هذه الحزن وأحس بانه لاحق مستتبع . « لقد كانت نوبتي في الرحيل ولكن ولقي الشهاب ارتحل فخلت لي الحزن الذي أحالني جسداً ينح روح اني اسث حظاي عساي أن الحق به . ولي معه حين لقاء عذاب وقيق : لقد كانت النوبة نوبتي في الرحيل فلم ارتحل يا بني دون اذن مني ورضا وحرمتني راحة اليقاء لقد كسث لي العرج عند الشدة فما الذي حملك على تمسك طريفاً غير طريقي صاحبك الشيخ الكبير » القيت في الشهاب رفاقاً فأقرنهم على ومضيت وخلعتني وحدي » .

« انه حين بلغ السابعة والثلاثين لم تعجبه هذه الدنيا فقاردها فادومها وقد ترك لي الحزن والقهر وأغرق في الصبح عسى انه الآن في عالم المور وسينقاد لأبيه مكاناً يقر به به لقد انقضى زمن طويل ولم يمه أحد من رفاقه في الطريق لعله ينتظرنني ويود أن ألحق به » .

والشاهنامة التي كبرت ونمت وكادت تنم والتي كانت رسالة يميل لها حساب أصبحت شيئاً لا يستحق المهد الذي بذل فيها فقد قوبل عمه المجيد بالصد ونكران الجميل « بلغت الخامسة والستين وإن روعي قلق كتيب وأشهر أس كلباً مضوت أبيض في صبر الملوك يتوقف عن السير بحسب ويأفل كم من عظيم بلغ الأوج في تسميه ويعمله بفضل كتابي وكم من حاكم اشتهر بكلامي كلهم يستنسخ شعري بالمجاد وأما في مكان قصي أنظر وأرى الهم يحسبونني أجراً مرتزقاً في أسرهم » . لست التي منهم غير

« أحسنه » ولقد خارت قواي مع هذا الشئ الرخيص إنما حرائقهم البائرة  
نوصلة أعلام قلبي الكسير »<sup>١</sup>

### \*\*\*

بعض مخطوطات المشاهنة تذكر أن الفردوسي إنما في هذه  
الظروف الحربية سنة ٢٨٤ / ٩٩٤ واليه أدري مترجم المشاهنة للحربية  
( ١٢٢٣ / ٦٢٤ - ١٢٢٧ ) من هذا الرأي ويرى ماسيه أنه يمكن  
القول بأن الفردوسي أتم في هذا التاريخ كتابته الأولى للمشاهنة ثم أنه  
استكمل ما قاته في الكتابة الأولى وفرغ من هذا كله سنة ٤٠٠ هـ /  
١٠١٠ م .

وضاقت خراسان في وجه الشاعر ولم ير بدا من التفكير في  
الهجرة إلى العراق . وكان من الطبيعي أن يعسكر الفردوسي في الدولة  
البيهيية . فامراؤها قرس يحبون احباء التراث العباسي وهم شيعية وهري  
الفردوسي معهم . ثم أن دولتهم تمتد إلى الغرب والجوب من فارس وهي  
بعيدة عن خراسان . ومهما تكن من أمر الخصومات بين أمراء البويهيين  
فإنها أقل خطرا من فتن خراسان . وسار الفردوسي إلى مدينة الري ( من  
نواحي طهران ) ليتوجه منها إلى أصفهان ثم إلى إقليم الأهواز . كان أمير  
البويهيين حينذاك « بهاء الدولة أبو منصور قيروز » ( ٣٧٩ - ٤٠٣ )  
وكان من رجاله الموفق ( أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل الاسكافي )  
الذي حث الفردوسي على نظم « يوسف وزليخة » وذلك بين سنتي ٣٨٠ /  
٩٩٠ و ٣٨٦ / ٩٩٦ . واشترقت أعمال الشاعر من جديد فإنه قد يظهر  
برصا « ملك الاسلام » وحسبه أن يظهر بأحدى مراتب حاشية بهاء الدولة  
إذا ما تقبل شعره قبلولا حسنا .

هكذا يصف المؤرخون والشاعر نفسه أقامته في العراق وإلى من كتب  
يوسف وزليخة . وهناك رواية أخرى تقول أن الشاعر في أواخر حياته  
سار إلى بغداد حيث طلب إليه الخليفة أن يكفر عن نظم مجده إيران  
المزدية بنظم قصة مستمدة من القرآن . وعندما أن هذه الرواية وضعت  
ردا على نوحهم بعض الكتاب أن المشاهنة قامت على أساس من الشعبية  
ومحاولة رد الشاعر إلى الطريق المستقيم والحق أن المشاهنة عمل فني  
دائع قصد به احياء تراث انساني عظيم حرص العرب على اراحه باللفظ

العربية قبل أن يعرض الفرس على إخراجه فنرا أو نظما بالفارسية الحديثة . وأما الكتب العربية الحديثة بالكثير من الأخبار الواردة في الشاعنة . وأما النص العربي للشاعنة ، ترجمة السدوي ، كان أول رسالة للمكتوباء قدمت إلى الجامعة المصرية ( جامعة القاهرة ) . وانظر إلى الشاعنة على أنها وليدة عصبية مصرية يتعافى مع هذا الأثر الخالد من قيمة فنية لا مراء فيها وينبغي ماميه رواية توجيه الخليفة لفرديوس لينظم قصة من القرآن .

## الأسطورة !!

الشاهنامة مستون ألف بيت بالتقريب . والطبوع والمخطوطات تختلف في العدد . وادرا استثنيت الأبيات الألف التي يطوها الديقي وأدخلها الفردوسي في كتابه بأنها تكون شاعر واحد . ولا يبارى الشاهنامة في طواها كملحة الا بعض دلائم الهندية ولكن القساعة تمتال بأنها نظم شاعر واحد .

وهي فتناول قصص وتاريخ أربع أسرات : البشتادية (أهل المعد) والكيابة ( كي ، كاوى بمعنى الملك ) والأشكانية ثم الساسانية -

ولم تنس الشاهنامة الى الأسرة السافوية خلفاء الامكندو .

والقصص الذى يروى تاريخ الأمري الأولى والثانية يكاد يكون خرافيا كله ملوك الأسرة الأولى عشرة حكما ٢٤٤١ سنة وملوك الأسرة الثانية عشرة أيضا حكموا ٧٢٢ سنة .

وقصص الأمري موصولة ومتصلة بالاساطير الهندية الى عهد لهراسب الذى كان قد ترك الملك وقصر للعبادة ثم جاء الملك التركى ارجاسب وقتله .

بعد لهراسب يانى عهد كشتاسب الذى ظهر في أيامه دين زرادشت وبه تبدأ القصة التاريخية وتكون اقرب الى التاريخ ويمكن ادخال الدور الاكمنى ( الهخامنشى ) لى هذا العهد . كوروش الكبير ( الثانى ) هو كيكسرو والمجرب هو كيكاموس وبهم هو ائت خشتد ( اودشير الاول - ارتجزرسس ) وهكذا . والشاهنامة على خلاف التاريخ ، تنهى هذه الأسرة بحكم الاسكندر المقدونى وتجمعه ضمن الكيانيين ، فهو ليس اجنيا عن ايران حتى يمد غازيا لها انسا هو ابن داراب ، وداراب هو أخو الملك دارا الثالث الذى تزوج بنت فيليب ملك الاغريق فانجبت له الاسكندر الايمالى .

والأسرة الفالصة الأشمكاكية ( دولة البرت ) حكمت في الشاهنامة ٢٠٠ سنة ولا تذكر الشاهنامة أسماء حكامها جميعا وهي نعتهم أحاسب ولا تعنى بهم والتاريخ يذكر بعد الاسكندر الملوكيين ثم الاشمكاسين ( البرت أو ملوك الطوائف ) الذى ينهى عنهم ارنشهر مؤسس الأسرة الساسانية .

والساسانيون حكموا جميع الشاهنامة ٥٠١ سنة وملوكهم ٢٩ وفى التاريخ أنهم حكموا ٤٤٩ سنة وملوكهم ٣٦ ملكا وتاريخهم ثابت مما كتب عنهم سواء عند مؤرخى اليونان أو فى الكتب البهلوية ثم العربية وفى هذا القسم الأخير نعتبر الشاهنامة مصدرا تاريخيا للحضارة الإيرانية بوجه عام .

### \*\*\*

تصور الفترة الأولى من الشاهنامة التحول الحصارى لشعب ايران فالملك قد احتير على أساس القدرة على فنى المنازعات بين القبائل المتخصصة أو على الحكم فى الخلاف بين الأفراد . فهو القاضى الذى يرتقى الناس حكمه ولذا يجب أن يعرف بالعدل وهو قريب من الله وفيه من روحه ولما فاته يبدد وهو يقضى بالملك الى أمائه من بعده . وألديا سكنت بالانس والجن فكان على هذا الملك أن يحصى الشعب من الشر الذى يذميه الشياطين وأن يحارب هذه الشياطين التى تتمثل فى التتبن وغيره من الحيوانات الخفية المفسدة وفى هذه الفترة اكتشف الملوك وسائل الحياة من الملابس والنار والزراعة والكتابة وأكل لحم الحيوان كما قسموا المجتمع الى طبقات وأقاموا الصائر ونظفوا الجيش .

فالملك هو شمسك مثلا يجتاز الجبل ذات يوم مع بعض رجاله قيرى لعبانا ضحكا يتطايرون الشرور من عيبه وتظلم الدنيا من حر انعامه فباحذ حجرا ويلقيه عليه بكل قوته فإذا الثعبان يجرى لمحتبى . ولكن الحجر يقع على صخرة فتخرج شرارة من تكسرهما ويحمر موضع الشرور وبدأ ظهور النار وقد دعا الملك الناس الى التوجه بالشكر الى الله لانه هداهم الى النار وفى الليل أشعل نارا عظيمة التفت حولها مع صحبه وشرهوا الخمر ومسوا هذا الاحتفال منه ( المثلث ) .

والملك جمشيد الذى حكم ٧٠٠ سنة استخلم الحديد وأعد منه السيف والرمح ونسج منه الدروع وعمل الجواشم والتجاعيف وسائر أدوات الحرب فى زمانه وعرف الناس من الكتان والابرسم وعلم الناس كيف يفرز القزل وينسج . واستحدث الآبسية وشاد المدن واستخرج الذهب والفضة والياقوت والفيروز فرصع بها الملبأى والأساور والمصائب ثم استخرج الطيب والكافور والعنبر وأظهر علوم الطب وحواصى الأدوية

وصنع المراكب وحاسى بها الحمار وكان يسحر الحى فعزل تختا مرصعا بالجواهر ورتب له حيلة منهم فكان يجلس عليه وهم يرفعونه فى الهواء ويحملونه الى حبيسا اراد . ووصح عيه النوروز فقد كان حصل البن لتخته اول يوم فى السنة والشمس فى برج الحمل لعينه اليوم وصماه النوروز .

وقد طفى وله فى الحكم ٣٠٠ سنة ونسى ربه فساء رجال الدين عن ذلك ثم يابه لقولهم فكان اول غلته الضحاك وحمله على الهرب ٤٠٠ سنة ثم قده فى نهاية الامر نصفي بشتار .

والضحاك ( الزدهاى ) وهو بيرواسب ( صاحب عشرة آلاف فرس ) كان ابوه مرداس ملكا تقيا فى الصحراء التى يسكنها الفرسان ومائة السهام - العرب - وجاء ابلّيس الى الضحاك وذين له قتل ابيه ليرقى عرشه فاستجاب لابليس وقتل ابيه وكان يحب الاكل فترى ابلّيس فى رى طبياخ واخذ يهين له خير أنواع الطعام وكانت الأطعمة المروضة قليلة عندهم فامر ذلك فى نفس الضحاك وقرب الطبياخ منه حتى صار اقرب الناس اليه وذات يوم قال الضحاك للطبياخ : اقترح حاجة اقضها اليك فقال الطبياخ دعنى اقبلك بين كتفيك فاذن له ثم اختفى الطبياخ فلم يجد يراه الملك وخرج من كل واحدة من كتفيه حية سوداء وجاء الأطباء فقطعوا الحيتين فمادنا كفص الشجرة من جديد وتكاثر الالبيد ولم يجد طعم فى التلاع الحيتين واتخذ ابلّيس هيئة الطبيب ودخل على الملك فقال له هذا قلم كتب عليك والعلاج ان نطم الحيتين حتى لا يضح منها الملك وطعامها لا يكون الا من ادمغة البشر فاحد الملك يراى الطبيب وقتل ما لا يحسن من المخلوق لطعام الحيتين مادمتهم وكان كل ليلة يأمر بقتل رجلين .

وكان لحيشود مفضل تربت به امه الى الهند واحسنت تربيتها حتى اذا شب وعرف ما يحريه الضحاك من المظالم فى ايران اخذ يستعد لخبايس البلاد من شره والضحاك فى الوقت نفسه يسرف فى الدماء ويتبع اخبار هذا الولد - افريدون - الذى حدثه الملحمون عن امره ويجمع الضحاك العلماء والزهاد من حوله عسى ان يدفع عن نفسه ببولهم . وذات يوم يتود « جاوه » وهو حنّاد قتل احد ولديه وجاءت الثوبة فى اليوم التالى على الابن الثانى ورفق « حلو » قطعة الجلد التى يطفى بها قدميه عند نظير الجديّة المحماة وغادى من ورائه خلق كثير من افريدون الذى اتجه النجوم الى مخبئه ليأخذوه ويجلسوه على عرش ابيه ويؤد افريدون الثورة ويهزم الضحاك وفى اللحظة التى يريه ان يهوى تحرزه على رأسه كالصاعقة يثلى ملك امامه ويقول : « ان الله يأمر به اجل هذا الشيطان حتى يذهب طول الزمان » عند ولائه والله حبيسا فيرق جيل ديانود « وبهذا انتهى عهد الضحاك الذى دام ألف سنة .

وظل علم جاوه • درفص كاويان • على ايران منه ذلك الزمان •

وعيد افريدون يوم ارتقائه عرش ايران اول يوم من ماه مهر وعرف  
هذا العيد باسم المهرجان •

وكان له ثلاثة أبناء زوجهم من ثلاث اخوات هن بسات ملك اليس  
( سرو ) واستقر له ملك الدنيا فآثر الاعتزال لتعبه وقسم ملكه بين  
أولاده الثلاثة •

فأعطى • مسلم • بلاد الروم و • تور • الصين وبلاد الترك و • ايرج •  
ايران وجعله وليا للمهد • وبسلم كل منهم عرشه • ولكن سلم وتور حقدوا  
على اخيهما وعلقت في القصة التي أحراها أبوهما وقالوا انهما كانا أحق  
بولاية المهد من ايرج • وبمعا يرسلون الى افريدون مندوبين متوعدين •  
قلنا علم ايرج بهذا عرض على أبيه أن يذهب مسالما الى أخويه وأن يصل  
على اخيهما ما في قلبها من الحق عليه وذلك بأن يترك ملكه قسمة بينهما •  
وسار الى أخويه فأحسبوا استقباله • وكان يعاملها معاملة كلها ود وإساءة •  
وكلما جرى على لسان أحدهما قول جارح قابله بالكلمة الطيبة • والكبرياء  
حول الاخوة يشهدون عنو مسلم وتور وعدوه ايرج ومملامة مطلقة ورجاحة عقله  
وإثارة السلام وحسن الدماء • فكانوا يتحدثون عنه في اكبار وجلال  
ويتعاصفون فيما بينهم بأن رأى افريدون هو الصواب فهذا الشاب أجدر  
اخوته بولاية المهد • ويشعر الأخوان بما يتهامس به الناس ويدركان  
ما كسبه ايرج من تقديرهم • فينبذ تور على أخيه ويرعبه بكرسي من ذهب  
فيتوصل اليه ايرج ألا يقلت منه الزمام وأن يبدأ حتى لا يكون مقنعة بين  
التورانيين والاييرانيين • ويقسو قلب تور لمسئلة خنجره ويطمئن أخاه  
فيقتله ويحتز رأسه • ويرسل الأخوان رأس ايرج الى أبيه •

ويحزن افريدون حزنا شديدا ويبكيه بكاء مرا حتى يعقد بصره •  
ثم يعلم أن جارية بالقصر حامل من ولده ايرج • ولله الحارفة بسنا • قلنا  
تكرر يزوجها من ابن أسيه فتلد منه منوهر الذي يسمد حبه به ويجد فيه  
عوضا عن ابنه ايرج ويرد الله اليه بصره •

ويعد منوهر حيشا وعده قازن ( صاحب الأسرة التي ينتسب اليها  
شهريار الذي قدم الفردوسي التماسا اليه بعد أن ينسى من محمود  
الغزوي ) • وسار الجيش الى توران فهزم حيش تور ثم انقض عليه  
منوهر واحتز رأسه • ثم سار الى حيث مسلم • وكان قازن قد قطع عليه  
سبيل الفرار فلتله أيضا •



ويصود منو جهر منتصرا الى جله الاكبر أفريديون الذى يقر به عينا ، فبوي الوقت قد ان لأن يبوئ عرش ايران وليجعله حليفته ، ثم انه يصعد برعايته الى سام ، المظل الايراني ، ويشمر بدور احله . بعد ان حكم ٥٠٠ سنة . وموت أفريديون يبدأ عهد الاطال من الشاهنامه ، وتطفي انصارهم على اخبار الملوك . ولا تشبه الايستاق ( الاوستا ) الى الابطال بينما تذكر الملوك الخرافيين .

وهؤلاء الأبطال هم سام وابنه زال ثم رستم بن زال وأخيرا صهراب ابن رستم .

### \*\*\*

ولد لسام ولد طالما انتظره . وتطير حين رأى شعره ابيض فاخذته الى جبل وتركه فيه . وجاءت السيمرغ ( النقاء ) فرأت الطفل فاشعلت عليه وحملته الى عشها ونشأتها مع أفراسها . وكبر الولد ورائه القوافل وهي تسير بجانب الجبل وتحتل الناس على الاسى الذى يعيش في شعبة الجبل بين أفراس النقاء . وسمح سام بقصة ابنه ورأى في منامه رسولا يخبره بقصته ، وسار الى الجبل بنفسه بعنا عن ولده ورائه السيمرغ فابلقت الولد ، وكانت تسميه تامشاد . وصحته بأن يقبل ان تحمله الى أبيه . ومزعت ريشة من جناحها وطلبت اليه أن يحتفظ بها حتى اذا ما حزبه أسس أحرق الريشة فتخضر السيمرغ وتطفي حاجته . وعظم شأن زال وتبناه حيوهر وايل بلا عظيمي في حكم الهند والسند حين ناب عن أبيه سام الذى وجهه الملك للحرب في مازندران .

وأحب زال روضة بنت ملك كابل ، وهي من تسيل الضحاك ، وتزوجها بعد مشاورات طويلة وتردد . فقد كان الملك يحشى مصاهرة بيت الضحاك . ولكن زال ينجح في اقناعه بعد أن يجتاز امتحانا عظمه الموافدة له ومالؤه عن اثنتي عشرة أسجبة ، اجاب عليها .

وحملت روضة فلما حامها المتاعش تعسرت وأوشكت على الهلاك زال واقف ترعد فرائسه ويبيكى . وفجأة يذكر ريشة السيمرغ التي معه فيخرجها من حبله ويحركها فتخضر السيمرغ ومعها الخير والأمان . تأمر زال بسان ياتي بمدينة حادة ويعطيها الى أس حلاق ليشرق بها خاضرة روضة ثم يستخرج الولد ثم وصفت له الدواء الذى وضع على الجرح قبل ان يضيظ . وأمرت بأن يسقى الوالدة من الشراب ما يقللها الوعى حتى تتم هذه العملية ( القيصرية ) ونظرت السيمرغ في حنان الى زال ونزعته ريشة من جناحها تركتها له ثم خلقت وجاء الأمي وقام بالأمر واستخرج

ولما لم ير له حثيل حبالا وقوة كانه ابن عشر سنين وابشت روده مفشيا عليها يوما وليلة فلما افاقته ورات ولدها بجانبها حنقت فيه وحست عليه وقالت « برستم - آى بحت » لسمى الولد « رستم » .

وجئ للطفل الرضيع برضعات فلما تم قطامه كان ياكل اكثر من نصف خمسة رجال وفى شبابه المبكر كان يصرع القيل النادر بضربة واحدة .

وامتحنه زال ليرى مدى دماثة بجانب ما أوتى من قوة فكلفه قطع قطعة حصية ، فحنق رستم وزحاله فى ردى الحجار وحما السلاح فى اكيسة الملح ودخل القلعة فجعل عاليها سافلها قاطعان الوالد الى قدرة ولده وكتب بذلك الى جده سام .

ومات الملك منوچهر وكان قد أوصى بالملك لولده « نوزد » وأوصاه بأن يتبع النبی الجديد اذا ظهر بناسية المقرب وحدره من جنود بشك ملك الترك وابنه افرامسياب وتصح به بأن يستظل بحاية الأبطال سام وأولاده ولم يكن نوزد جديرا بالملك ، كان لاهيا عاجزا ويرسل بشك جنوده وعمل رأسهم ابه افرامسياب ويموت سام فى رالمستان فذهب افرامسياب الى ايران منتهزا فرصة تصيب زال لحضود المراء فى ابه ويؤسر الملك نوزد ثم يقتل به أن يغلب زال جنود الترك ويقتل أعبايهم ويلجأ اولاد نوزد الى زال وينهب هذا الملك زوبن طهماسب وهو أحد أحماد افريدون . ويلجأ القبط بالبلاد ويحجز جغسا توران وايران عن متابعة الحرب ويهدد الصلح بين الطرفين وتذهب الغمة وتحضر الأرض وتكثر الخيرات ولكن زو يموت ويعود افرامسياب ليحتل ايران ويموت الملك الجديد كرشاسب وتذهب طلائع الترك على ايران ويلجأ الأشراف الى زال فبعده الى امته رستم بالأمر ويطلب اليهم تنصيب ملك على ايران حتى لا يبقى الملك بغير رجل من آل افريدون فاشاد المرد بكيقباد وصار رستم ليخبره بهذا وليكون فى دولته بطل الأبطال .

وبعد عهد الكيانين مع البطل رستم وحول رستم روايات كثيرة منها المخاطر التي احتازها وهو يخلص كيكائوس من « سيد ديو » - الطغرى الأبيض - وقتله ملك مازندران الذي كان يستعين بالشمسياتين وتذكر ألفنص دور « الرخش » فرس رستم .

ولكن القصة التي اشتهرت هي قصة صلة رستم بسيدة من توران ومولده امته شهراي ثم الحرب بين الأب وابنه دون أن يعرف أحدهما الآخر ، قال الفردوسي : خرج رستم ذات يوم للصيد عند حدود توران .

وبعد الصيد تام وتركه الرخشي ، يرمي لحداء جماعة من أهل مدينة سنجان  
وسرقوا الرخشي ، فسار رستم الى هذه المدينة وقابل ملكها وطلب منه  
أن يحضر الرخشي بالحصن وهذا الملك من دويجه واستضافه في قصره  
وفي الليل جاهدته ابنة الملك فسقط عليها برؤسها فلما أذنت الشمس  
بالطلوع أعطاهم خروقة كانت مشدودة على عضده وقال لها : ان رزقت  
أنثى فاربطيها في قرونها وان رزقت ابناً فشدديها على عصفه ثم ان ملك  
سنجان دخل غرفته وبصره بالعمود على فرسه فسر رستم وركب الرخشي  
وانطلق الى ايران ووصفت ابنة الملك ولدا سمته سهراب كان يتشب به  
يوم غيره في سنة فلما كبر سأل أمه عن أبيه وبجده فقد وجد قصصه أطول  
أقارنه فدا وأوصعهم صدرا وأشدعهم بأسا فقالت له أنت ابن رستم من  
شجرة داله ابن سام بن نوح وما استعملوك الا لان ذلك البيت اصلك فقال  
سهراب : لاجل جيشا عظيما من الترك ولا تخلمن كيكائوس عن عرشه  
واقبل تاج ايران الى رستم وأعطف الى بلاد توران وأفرعها من يد الفراسياب  
حاكمن مع أبي ملكي هذه الدنيا وبلغ أفراسياب أن سهراب جمع جيشا  
حوله وأنه يصعدى لاكتسلب المجد . . . . . وبنت أفراسياب برجلين من  
تقائه ليسيرا مع سهراب في مسيرته لايران ويبدلا أقصى المكر حتى لا يعرف  
أباه وسمم عند الملاقاة وكان أمه ان يستل أحدهما الآخر . وفي الطريق  
التقى رستم بفائدة قلعة واقام بها في المبادرة وكتب رجلا فيها الى الملك  
كيكائوس ينبئ به هذا الفارس التركي الذي لم يرحله والذي يشبه سام  
ابن تريمبان في عزائه وقبه الكاتب الملك ايران الى ضرورة الاستعداد للملاقاة  
جيش هذا الفارس فلما بلغ الكتاب الملك تشاور مع رجاله واتفقوا على  
استنهاب رستم في زابلستان ليحضر بنفسه ويبلغ هذا التركي الشجاع  
واستخضع الشعاع وسائل الاثارة في طمسيني رستم وسهراب وكثيرا  
من الظروف التي كانت تحول دون معرفة احدهما الآخر والغشاء بين  
البطلين تم على مراحل ويقترب أمل الفارس من أن البطلين صرحسان  
ما يسهما من صلة الرحم لم يقبض هذا الأمل وتنتهي المعركة بان يقتل  
رستم ولده سهراب ويراه وهو يحضر ويستمع اليه يقول : ان كنت  
أنت رستم فانما قتلتني وأنت أعصى القلب فكيف تعرفت اليك وتصلت  
لك فما تحرك عرفت ولا لان قلبك لعل الآن معاقده حوشى . . . . . فان أمي حين  
ودعنتي خدمت على عضدي حرزة وقالت هذه هي أيبك . . . فلما رأى رستم  
الحرزة قلده من الحزن الصواب فلما قاب الى دحمه أسرع في ارسال رسول  
يطلب من الملك كيكائوس دواء لا يناف نزيه ولده . . . . . وأبى الملك النذل أن  
يسعف الولد والوالد جميعا ، غلبه طبعه السيئ . . . . . وعاد الرسول ليخبر  
رستم بسحق الملك الفراء عن ولده فيسرع بنفسه للملك وفي الطريق يلاحقه  
الخبر بأن سهراب مات . . .

وينتقل القرومى بعد قصة سهراب ويستتم الى قصة جديدة  
لسياوخس بن كيكائوس \*

تزوج كيكائوس من سوديه بنت ملك هياوران ( حمير ) كما الحب  
ولدا من فتاة تركية يتصل نسبها بالفريديون وسى الولد سياوخس وعهد  
بقريته الى رستم وتكرر القصة التى كانت بين امرأة بوتيفار وسيدنا  
يوسف ( امرأة العزيز وسيدنا يوسف فى القرآن ) فتراود سوديه ابن  
زوجها سياوخس عن نفسه فلا يجاوب وتضرب الملك كيكائوس بخيابة ولده  
له فيأمر الملك بأن يجرى الابتهاال على ولده ويأمر بالشمعال النار ويسرق  
سياوخس بعرضه هذه النار فتكون بردا وسلافا عليه ويخرج منها حاء  
ويأمر الملك بقتل سوديه ولكن سياوخس مقدرا حب ابنة لها وما سيكون  
من لقمته عليه بعد قتلها يناشده أباه أن يفلو عنها فيضو \*

ويعود الفراسياب فيحشد الجيوش لغزو ايران ويتقدم ويشهر  
سياوخس الفرصة لينجو بنفسه من حياثل كيد سوديه فيعرض على أبيه  
أن يخرج للدمع العدو مع رستم ويخرج البطلان ويضطرب أفراسياب  
ويرسل رجلا من قبله يطلب الصلح ويتشاور بطلا ايران وقردان القبول  
لقد صحت اليهما أفراسياب مائة نفس من الأمراء الكبار تأكيداً لصدق حيله  
وايثاره السلم وبعد التشاور أوفد سياوخس رستم لشرح الأمر لكيكائوس  
ويغضب هذا ويهين رستم : « أحسب ان سياوخس شاب غر لم تصبه  
المكاره ولم تصبه النوائب أئت البطل المحنك والعظيم والمرجب  
ومى يتعلم منه الملوكة ؟ سبأمره أن يهجم غير متلث على أفراسياب لى  
مضيه ويضع فيهم السيف ويوسمهم القتل والأسر . أما الأمراء الذين  
أوفدكم أفراسياب فيحضررون عندى لاسقيهم كأس النون » \*

وتسلك رستم بأهذاب السلم وآداب الحرب وقال لكيكائوس :  
« ليس يحسن فى الاحدوة أن ينتشر عن سياوخس انه أختر النمة وغدا  
بالرعاين » ويهتم الملك رستم بأنه يغيب بهذا اشارة للنمة وركونا لمرافهة  
رويته رستم ويخرج غاضبا ويلهب الى رابلستان \*

أما سياوخس فيلقى رسول أبيه الذى يقص عليه ماجرى مع رستم  
ويصل اليه أمر الملك بأن يحل « طوس » محل رستم ثم يبين له الرسول  
حدى حقد أبيه عليه والمصير الذى ينتظره اذا هو عاد يدون قتال أفراسياب  
فوجم سياوخس لما أحزنه من تنكر أبيه عليه وما ينشئ من عاقبة ذلك  
ويأمر أن يسلم الرعاين الى أبيه وكان على سياوخس أن يتحارب أهل  
أمرين كلاهما مر . فهو لا يريد أن يلعب الى ايران حيث أبوه الملك النزقى

الشرير الضعيف الذي وقع في حوى امرأة لعوب وهو مجبر على ان يختار اللجوء الى افراسياب فيتحلف من العدو صديقه ويشير رجال افراسياب بوجوب استقبال سياوخش على الرحب والسعة ويقبل ملك الترك هذا الرأي بعد تردد شديد فقد كان المنجسون يفتشون هذا اللقاء الوديع والتناصحون يرون ان ملك ايران صائر الى سياوخش والخبر ان يكرمه الترك وهو في محنة ويتلقى سياوخش الود الخالص من افراسياب الذي يزوجه ابنته فرنكيس وهب له ولاية في دولته \* هناك يعيش سياوخش ويحكم ويشيد مدينة كنگد فتكون كالجنة في الارض وكان نجم سياوخش الى النجس اصيل فانه يشهد كراسبوز اثنى الملك فيوقع هذا به وبهي ابيه ويصبح صفي السوء بين الصديقين \* انه قد تغير عما كان عليه وقد تكررت الرسائل اليه من ابيه كيكائوس في السر وكذلك فاتيته الرسائل من اطراف الروم والصين وهو لا يشرب الا على اسم كيكائوس \* ويقرر افراسياب انه مسلم لمن سألته وحرب لمن حاربه ويقتل سياوخش اما فرتكين فتعزى لقتل زوجها ويحاول ايوا اسقاط الجنين الذي فيه بطنها ولكن امرا تركيا ينقلها وهو بكينة كراسبوز من العاهل ويسمى المولود كينسرو كما اراد آبه \*

اما كيكائوس فيندرك انه تسبب في قتل ولده فيجلس للزراء ويجه رستم كالامد الغاضب فيسبغ الملك نصيفا ولوما ويسرع الى بلاطه فيسجل الى حيث تقيم زوجة سوزيه فيجذبها من شعرها ويخرجها ويقضا بسيفه مصفي ثم يأخذ جيشه ويسير الى بلاد الترك ويحتل رستم توران ويأسر ابن افراسياب اما هذا فيهرب الى الصين ويصحب معه كينسرو بن سياوخش وينجح جيو ابن آبي رستم في احتطاف كينسرو وكان كينسرو يستقر هنا المخلص الذي حلفه آبه به وكان نبوة لآبيه قبل مقتله \*

ويحضر كينسرو الى ايران ويلتقي جده كيكائوس الذي قام ونزل له عن تحفه واعتنقه وقبل وجهه وحضر جميع الاصبهدية والامراء وسلكوا عليه بالسلطنة عدا \* طوس \* \* صاحب الكوس والنحاس الذهبى وحافظ اللدوش الحاريتي \* فكان يتعصب لهم كينسرو \* فرى برز \* ويقول : \* كيف يجوز ان يكون الحاقق وارث التاج والتخت مع وجود الابن ونسب لارض ملكا من نسل افراسياب \* ويختلف الامراء ويلجأون الى كيكائوس ليقيم برأيه فيشير بان من يفتح منهما قلعة بهمن يكون صاحب الحق في التاج وينجح كينسرو في فتح قلعة الشياطين ويرصد الى ايران فييايله الامراء جميعا ملكا عليهم \*

وكينسرو هو كوروش في ( الآثار الساقية ) للبروني وهو ثالث الكيانيين والثالث عشر من ملوك الساهنامة وهو بقية من المقدسيين في

الدين الآرى القديم • وهو آجر الملوك الدين تشترك فيهم أساطير الاستاق والقيما وقصة ولادة كيخسرو فى توران وتربيته بين الرعاة وما كان من اشفاق حبه اقراسياب من زوال ملكه على يده وقتل الجبد بيد حاقله فى النهاية تشبه كل القصة ما يرويه هيروdot عن ولادة كوروش وما كان بوسه وبين حله لامة اسنياحسن ملك صديا وتلقى الحرب سجالا مع التورانيين ايام كيخسرو ويلعب دور البطل الاعظم فيها وتجري وقائع • كاموس الكشاني ورستم مع الكواند الجنى وحرب الاثنى عشر رجا وغيرها \*

وقنتهى حياة كيخسرو فى غموض فهو يعتزل فى آخر ايامه ويحطو الى ربه ويطلب اليه ان يأخذه الى حواره وكان قد نصره الله ومكده من نعمائه واتاح له النار لاهيه ويلفه ملك المشرق والمغرب يخشى ان يملك العجب معاه فيصير مثل الضحاك وحسيد وافراسياب ولهراسب الذين كفروا بالله وجعلوا انفسهم آلهة من دونه ويجتمع عظماء ايران الذين هالهم تصوف الملك وعزلته وانصرافه عن الملك بعد ان استقر له الامر وحيات الفتى ، وكما كانوا يلحاون الى زال ورستم فى الحروب والمنازك استعانوا بهما لاقناع الملك بان يعود الى الحكم ويترك مناحاة ربه ويستبد زال فى حديثه مع كيخسرو ويصير هذا ولا يخاضع زال فى الجواب فليس هذا حسا عند الله وهو لا يأمن موجبة رستم ان هو تناول على ابيه الشيخ المنيب يقول له : « انى سلمت التاج والفتحت والامر والنهى ووقفت بين يدي ربي فى هذه الاسابيع الخمسة انصرع اليه وامسأله ان يخلص روحى من هذه الارض المكفرة حتى استنجاى دعوتى وحقق املى ولقد رايت فى المنام كان حلكا نزل على وحشى فى اذنى : « انك قد اعطيت ما سالت فتجهز الى جوار الله الكريم ولا تبق فى هذه الدنيا الكفرة ولفرق الاموال على المحتاجين والفقراء والمساكين » فاعتذر زال بها بذر مه وادرك الحاضرون ان كيخسرو ليس يستجوب انما هو من الواصلين \*

وكما انتهت حياة • يستعثرا • واخوته والدين كانوا فى وداعهم تنتهى حياة كيخسرو وعراقية : تقول « الهاياواتا » ان يستعثرا واخوته يسبرون بعد ان اعتزل الملك ويودعهم الرجال والنساء ثم يرجع المودعون ويستمر السائحون فى رحلتهم حتى يلفوا مناهة يهلكون فى رحالها ما عدا يستعثرا الذى يسير قلما لا يصبأ بشئ ومن وزائه كلبه حتى يدخل البسماء حيا ( ورنر ) وتقول « الشاهنامه » ان كيخسرو صعد الى جبل وفى اثره العظماء والنساء والرجال زهاء مائة الف نفس يكون ويهجون حتى طس صياحهم السهل والجبل ثم ان الملك التفت اليهم ولبهم الى انه يجتاز طريقا صعبا لا ماء فيه ولا عشب فانصرف عنه زال ورستم وجردز ونبيه الباقون ولما طلعت الشمس ركب الملك وغاب عن أعينهم فهاوما على

وجوعهم يطلونه ويبيكون ٠٠ ثم تليست السماء واشتد الهواء وطسورة  
تلجأ وهلكوا تحته أجمعين ٠

وكان كبحسرو قد بايع لهراسب ليطلقه ولم يكن زال وزمتم من  
هذا الاختيار وأبى بعد مهراسب كشتاسب وفي عهد ظهر زرادشت  
ماعتني ديانتته واشتهر أبسه اسفنديار ( أمه كاتيرن بنت ملك الروم )  
بالطولة ٠

واسفنديار هو بطل قصة المنازل السبعة ( مكتفول اسفنديار ) وقد  
وصفت هذه القصة معانكة لقصة رسم المروحة بهذا الاسم فكما اجتاز  
رستم في مازندوان سبع عقبات - وحشي رسم والأسد - الطلق يضعف  
رستم - رستم يقتل التين - قتل رسم امرأة ساحرة - رستم يأس  
أولاد - حرب رستم أوزك الجنى - قتل رسم الجنى الأبيض -  
يجتاز الهراسياب سبعة خطوب ٠

واسفنديار هو بطل دين زرادشت أيضا تعاون في نشره بالسيف  
وعازر الوزير حاماسب في أحياله واسفنديار هو الذي خلص والده  
كشتاسب أكثر من مرة وهو الذي قتل ملك الترك أرباسب ٠

ويلقى اسفنديار من أبيه مثل ما لقي ميروخس فان كشتاسب حريص  
على ملك حرمه النساء المشقة على ولده البطل فهو يستع إلى كرم الذي  
سمى الوه بالوقية وصور له أن ابنه يتأمر عليه وقر في نفس كشتاسب  
أن يتخلص من اسفنديار ٠

وكان رستم في زابلستان ملكا لم يبايع ملك الملوك فأمر هذا ابنه  
اسفنديار أن يذهب إلى زابلستان ويأمر برستم أسيرا في القيد ويحيا  
يحاول الابن أن ينشأ أياه عن طلبه فأكرأ رستم وحزبه والقاذة البراء  
وصمم كشتاسب وأمره مطاع وعصيانه حرام في دين زرادشت ٠

ويبدل رستم الكثير من ألوه نحو الشاب البطل ويبل أن يصحبه  
إلى كشتاسب ولكن دون قيدا وتكفي الأقدار دورها ويحسب اسفنديار أن  
رستم يخلعه ويغلبه القتال بين الطرفين ومن حولهما وأجلاسهم ووقد  
بقتال هينيك نرحل ويقتل ولده من أبلع اسفنديار ليقعد جدا صوابه  
ويطير رستم وأبلا من سهام تصيبه ويصطدم إلى أن يمتصع بجبل  
ويطلب استئناف القتال في الصباح ويجد الهراسياب أن الليل أقبيل  
بطلامة فلا يلاحق خفيه ويلجأ زان الشيخ الكبير الذي لم يخلق خساء  
للسلام إلى السقاء كيمر جبراً من زينتها التي سلماتها له عند مولده  
رستم فتحضر القفاة وتزفر في الحسنة وتنبؤ بهما لم تمنع من القادولة

فى جراحاته وتخرج منها نصالا أربعة ثم تسعها بجناحها فتلتهم وصعدت  
مثل ذلك بالرخشي واستخرجت منه ستة نصال ثم قالت لرستم : « لآى معنى  
تعرضت لقتال اسفنديار ؟ » وقالته لا يرى الخير بعده . . . وتصور حدثه  
ويلقى العناء بقية عمره وينوق العذاب بعد موته ؟ فان رفضت بهذه  
الحالة فاركب وابصر الحبيب ، فركب رستم وسار الى ساحل البحر فاستفت  
المنقاء على شجرة من الطرفاء فقالت له : « اقطع من هذه الشجرة  
قطيبا مستقيما . . . وركب عليه تصلا عتيقا واجعل له قذفا ثم اذا جاء  
اسفنديار يطلب قتالك فتضرع اليه واياك بين يديه فملكك تصرفه عن قتالك  
يحلو لكسارك فاذا لم يفعل فوتر قوسك وسدد نحو عينه هذا السهم فانه  
يصيب عينه ويكون فى ذلك حينه » ولرستمته الى الطريق ثم ودعت  
« زال » وطارت .

ونزل السلطان الى الميدان فلما تقاربا قال اسفنديار : « ايها السجزي  
كذلك قد نسيت صنيعي بك بالأمس وكان طمى أبك تكون اليوم محبولا  
الى الرمس انك لم تبرا الا برقية أببك وسحره وسامه عليك اليوم مسيل  
حيثه ومكرو فاجعل يدك كالفريال بصادرات النبال . . . فقال رستم :  
« انى ما جئت اليوم للقتال وانما جئت لاطرح اليك عساك تمنح الى السلام  
وتطلى من قلبك بار الحق . ولكن القدر يدع افراسياب الى الشر ويهوب  
رستم عليه السهم فيصيب عينه فينقلب عن ظهر فرسه ثم يثامسك  
وينتزع السهم ويجرى اليه ولده بهمن . ويحضر اسفنديار ورستم قائم  
فى مكانه يلتفت اليه البطل وهو فى نزعه الأخير ويقول له : « لم يقتلنى  
غير أبى كشتاسب حيث أكرهنى على قتالك والآن فهذا ولدى بهمن تسلمه  
منى واسلمه معك الى رابليستان وربه تربية الوالد لولده » ويضع رستم  
يده فى يد اسفنديار على ان يرمى ولده ويسمى له حتى يكون ملكا ويبرق  
اسفنديار .

اما رستم فيقتله أخ له من أبيه اسمه شفاذ . هيا له حفرة غرذ  
فى قاعها نصولا مكددة تم غطاما ودعا رستم الى الصيد فوق برخشه فى  
الحفرة فزقته الحراب ولكنه يخرج مضطرا بالجراح القاضية من الحفرة  
ويطلب الى أخيه أن يطيه قوسه وشابطين ليلود بها السباع عن نفسه  
حتى يموت ولده شفاذ لأخيه قوسه ووترها فتناولها رستم وخاف شفاذ  
فتترس بمشجرة دلده كانت هناك مجوفة قد آنت عليها البستون فرمى رستم  
الشجرة بلشابته فتفالت فيها وحطمت الى شفاذ فخاطته مع الشجرة  
وأصمته ويسوت رستم وتنتهى حياة اعظم أبطال الشاهنامه .



وسعى المشاهنة بعد ذلك ختم تاريخ الاكينيي، وتعمل القرو  
الغريزي ايرانيا صرنا لالاسكنندو منهم وليس اجنبياً تم تتحدث عن  
الاكينيي تم المامانيي، فمصور مصورهم الزاهية تم عصر التحلل الذي  
سليم نريسة سهلة المنال للمتح العربي -



نزهة المشتاق في اختراق الآفاق  
الإدريسي  
١١٥٤ م



عندما نجا اددريس بن عبد الله بن الحسن الثاني بن الحسن بن علي بن  
أبي طالب من مجزرة « فتح » الرحبية لم يكن أحد يحسب أنه سيكون  
لنجاته مثل هذا الشأن الذي صار لها .

ولكن اددريس استطاع ان يجعل لنجاته شأنًا تاريخيا كبيرا امتدح  
آثاره عدة قرون وعاد على العرب والمسلمين بالخير الكثير .



مضى اليوم زهاء ثمانية قرون على وفاة الجبرالي للمسلم العظيم  
الشريف الادريس الذي يحتل بحق صفة الجغرافيين المسلمين والذي أنفق  
شبابه في شبه الجزيرة الاسبانية طالبا دوسا وباحثا متجولا ثم خسر  
جراحاتها ووصفها في موسوعته الجغرافية العظيمة بأقيم فصولها .

وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن اددريس يحيى بن علي  
ابن محمود بن ميمون الصوفي سليل أسرة بنى حدود الملوكة البربرية  
التي حكمت جنوبي الأندلس وتفر سبعة في أوائل القرن الخامس الهجري  
وسمى بالشريف لأنه يتصل بسبته إلى أسرة الادارسة الحشوية التي  
ينتسب إليها بنو حمود والتي حكمت المغرب منذ أواخر القرن الثاني  
الهجري ، وهذه ترجع نسبته إلى آل البيت ومن ثم فإن نسبته تورد  
منذ جده الأعلى ميمون علي النحر التالي : ميمون بن أحمد بن علي بن  
عبيد الله بن عمر بن اددريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن  
أبي طالب ، وادن ، فهو ولقا لهذه النسبة كذلك سليل آل البيت .

ولد الادريس في مدينة سبتة ، ميناء المغرب الأقصى على البحر الأبيض  
المتوسط في سنة 263 هـ ( 1099 م أو 1100 ) ويعود أصل عائلته  
إلى اددريس الأول مؤسس الأسرة والذي هرب من المشرق وأسس إمارة  
مستقلة في منطقة الريف عام 172 هـ / 789 م واستمرت من أواخر  
القرن التاسع حتى القرن العاشر الميلادي وتوسعت خلال هذه الفترة حتى  
كانت تشمل المغرب كله . وقد اشتهر اددريس الأول بصفته وليا من  
الأولياء الصالحين لاسيما بعد وفاته عام 177 هـ / 793 م ولا يزال تسميه  
المشهور بـ ( مولاي اددريس ) يتمتع بصيت كبير لدى أبناء المغرب ويقع  
بجوار فاس التي أسسها أبوه اددريس الثاني والذي حكم من عام

١٧٧ هـ / ٧٩٢ م الى ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م وقد تلاثت دولتهم عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م أما اجداد اديس الماشرون فقد كانوا امراء ثاويين في مالقة .  
 وهناك أيضا عجزوا عن الاحتفاظ طويلا بسلطانهم فاضطروا للعودة الى  
 سبتة في القرن الحادي عشر .

١٠ وقد كانت حفنة سبتة المغربية - وهي التي لعبت دورا عظيما في  
 تاريخ المغرب والاندلس التي تعتبر اليوم أيضا اسبانية تتبع ولاية فاس  
 الاندلسية ونحتلها اسبانيا منذ قرون - كانت مسقط رأس لجسرة كبيرة  
 من علماء المغرب والاندلس وتشتهر بالأخص بولد رجزي من ابنائها يشغل  
 كل منهما مكانة بارزة في تاريخ العلوم العربية وقد عاش كلاهما في نفس  
 العصر تقريبا أي في النصف الأول من القرن السادس الهجري هما  
 الشريف الادريس اعظم الجغرافيين المسلمين والقاضي عياض بن موسى  
 الحنطلي اعظم حفاظ المغرب بلا حواء .

١١ ولما تعرف الكثير عن الحياة الادريسية وحيلته الأولى بيدنا نعرف  
 من اشعاره وروى في مؤلفه انه دوس في معاهد الاندلس واسبانيا في  
 قرطبة وقد كانه الاندلس يومئذ تحت حكم المرابطين سادة المغرب وسرع  
 كذلك انه قام برحلات عديدة في شبه الجزيرة الاسبانية ووصل في تجواله  
 غربا حتى نهر اشبونة أو لشبونة عاصمة البرتغال الحديثة وقد كانت  
 يومئذ في ولاية الغرب الاندلسية ثم زار شمالي اسبانيا وتجول في  
 جليقية ، بل هناك في كتاباته ما يدل على انه زار شواطئ فرنسا  
 ثم على خليج بسكوية ، ووصل في رحلاته البحرية حتى شواطئ  
 انجلترا الجنوبية ولما أنه تجواله في شبه الجزيرة الاسبانية وما اليها  
 غير البحر الى المغرب وتجول في شماله وجنوبه وهناك ما يدل على انه  
 عاش حينما في مدينة مراكش وحينما آخر في شمالي المغرب بمدينة  
 تستطية . وكذلك رحل الادريسي الى المشرق وتجول في آسيا الصغرى  
 وزار القارة المنسوبة الى أهل الكهف حشما بعد ذلك ومن المحقق انه  
 قصد الرحلة العديدة كان لها اكبر اثر في تكوين معلوماته الجغرافية  
 التي اظهرها اثرها فيما بعد في ابواب كثيرة من معجمه الجغرافي .

١٢ ولما يلعب الدور في تطور حياة الأديس ذلك أننا نراه يقد  
 ذلك في جزيرة صقلية ليتل في بلادها ويظهر في حياة علمية باهرة .  
 ونحن نعرف ان جزيرة صقلية التيها المسلمون تلامها في سنة  
 ٢١٤ و ٢٦٤ هـ ( ٨٢٨ و ٨٧٨ م ) ولعبت في ظلمة خفية ايامه ثم  
 يملأها وتجارها وصباغها حتى اذا ادرك الهمم تلك الدولة الاسبانية  
 الضعفة توالى عليها حملات الفرنج حتى غزاها النورمان ( ١٠٦٠ ) برعامة روبر  
 جويسكار والفرق دوبر في سنة ٤٦٤ هـ ( ١٧٠٢ م ) وتم اقتناصها في

سنة ٨٦-١٠ م وكان الدوق روجر أول حكامها من النورمان ، ففسد سكان الجزيرة من المسلمين واليونان بتسامحه وسمح للمسيحيين بالاستحفاظ بسياجهم وقضايتهم وأطلق لهم حرية التجارة ، ولا توفي الدوق روجر في سنة ١١٠١ م خلف ولده الطفل روجر حدثا وبدأ حكمه للجزيرة حينما بلغ الثامنة عشرة في سنة ١١١٢ م وكان الدوق دوجر الثاني لو رجار كما تسميه الرواية الاسلامية من أعظم ملوك عصره وفي ظله غدت صقلية دولة عظيمة وكان مثل أبيه من ذوي الأفق الواسع ومن يقدرون تفوق المسلمين الحضارى ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ومن ثم فقد استطاعت الجالية الاسلامية أن تعيش في ظله حتى حين منتهى سائر شعائرها ونشاطها الاجتماعى والثقافى ، وفى ظل هذا التسامح العمود دعا الدوق روجر للعمل فى بلاطه رجلا من العلماء المسلمين ومن الصقليين المحليين ومن أفريقية والمغرب وكان فى مقدمة هؤلاء الشريفة الإدريسي .

وكان وفود الإدريسي على الجزيرة فيما يرجع بين سبعتين ١١٣٠ و ١١٤٠ .

وكان العلامة المسلم يومئذ ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافى لمستقبل فى بلاط صقلية بترحاب والحق عليه الدوق رجار عطفه ووداعته وعهد اليه بالمهمة العلمية العظيمة التى حققها الإدريسي بكتابة صحفه الجغرافى الخالد .

ولما تمت دراسة المصادر القديمة أمر الدوق بعد ذلك أن يصيحا يحددنا الإدريسي ، أن يرغب له من اللطيفة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها مائة درهم وأثنى عشر درهما ، وأن نقش فيها صور الأقاليم السبعة بأقطارها وبملاحتها وخلجانها وبحلوانها وأنهارها وعامرها وغارها ، والأقاليم السبعة هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى النصور الوسطى وقه سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين فقدم المال المهرة تحت إشراف الإدريسي وتوجيهه ، يتسام تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه ، ونقش فوق الكرة اللضية : خريطة الشهيرة للعالم المعروف يومئذ وقد اشتهرت هذه الخريطة الإدريسية يومئذ وغلت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوربيين فى النصور الوسطى ولاسيما العلامة البندقي ماينو سياتو ( ١٢٦٠ - ١٣٣٨ م ) الذى استشهد بها فى معظم خرائطه . ويقال أن الخريطة المنشودة لم تمتزق من الفصحة التى نقشت عليها سوى الثلث والربو وصحب الجغرافى المسلم بقية الكمية اللضية وأعطاه فوق ذلك مبلغا كبيرا من المال وحسنة سفينة من نفيس المتاع .

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافي عام يرسم مطابقا للكرة القلبية وتستعرض فيه الأقاليم السبعة المطورة عليها وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين وأماكنها وصورها وبيئتها ومساكنها ومزروعاتها وعملها وخزائنها وأجناس نباتها وما بها من الصناعات والتجارات وما يذكر عنها من العجائب وحيث هي من الأقاليم السبعة . مع ذكر أحوال أهلها وصيانتهم ومذاهبهم وأربابهم ولغاتهم . وهكذا يلخص لنا الإدريسي في مقدمته محتويات الموسوعة الجغرافية الكبرى التي عهد إليه الملك رجار بوصفها . وقد اعتمد الإدريسي في وضع هذه الموسوعة فضلا عن مادته ومعلوماته الشخصية التي جمعها من طوافه في شبه الجزيرة الأسيانية وشواطئ فرنسا وغربي البحر المتوسط وجزائره والمغرب وأسيا الصغرى وما استفاد من بحوث الجغرافيين القدماء ولا سيما بطليموس ومن أسلافه الجغرافيين المسلمين النظام مثل اليعقوبي وابن خردادبة والمسعودي وابن حوقل - اعتمد فضلا عن ذلك كله على تقارير الرسل والمبعوثين الذين كلفهم الملك رجار بأشارته وتوجيهه إلى مختلف البلدان الأوربية<sup>١</sup> ومنها فرنسا وإيطاليا وألمانيا وبلاد اسكندناوه وجرانر بحر الادرياتيك وجزر الأطلنطي وهي التي يتناولها الإدريسي جسيما ولأول مرة في الجغرافية العربية وجغرافية العصور الوسطى - بكثير من الدقة والبراعة في التحديد والوصف . واستغرقت بحوث الإدريسي في وضع المؤلف كله خمسة عشر عاما وانتهى من وضعه حسبما يحدثنا الإدريسي في مقدمته في الشعر الأول من شهر يناير ١١٥٤ م الموافق لشهر شوال سنة ٥٤٨ هـ وذلك فيقول وفاة الملك النورمانى بأشهر قلائل وسمى المؤلف « نزهة المشتاق في إنتراق الآفاق » وهو اسم يقول لنا الإدريسي : « انه من وحى الملك رجار وأشارته » . ولما كان المؤلف كله قد وضع بأشارة الملك رجار ووعايته وأهدى إليه في مقدمته فقد سمي كذلك « كتاب رجار » أو « الكتاب الرجاري » تنويها من مؤلفه بفضل هذا الأمير العالم المستنير .

وقد كتب الإدريسي غير موسوعته الجغرافية كتابا آخر عنوانه « روض الأنس » - ونزهة النفس ، أو « كتاب المسالك والممالك » كتبه للملك ولیم الأول ( غليوم ) ولد الدوق رجار وهو الذي خلف إسماء في الملك . بيد انه لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد بأحدى مكتبات استانبول .

وكان الإدريسي - فوق براعته في علوم الجغرافية - عالما متنازلا بالإنسان له آفاق واسعة في معرفة الأرض التي وطنتها قنصاه في رحلاته لذلك فقد كان وصفه للنباتات المختلفة لا يختلف كثيرا عن الوصف العلمي الحديث .



وله من الكتب : النبات ، وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاب الجامع لصفات اشجار النبات في أربعة أجزاء ويوجد منه نسخة في خزانة الفاتيح باستانبول بشركيا (رقم ٢٦١٠) ، وكتاب الصيدلة .

ولناخذ بعض الأمثلة على وصف الشريف الادريسي لجبل الساقاط التي ذكرها في كتبه ، ففي مدينة شرشال شمال ايران وصف هذا النبات حيث قال : ( سرجبل كبير الجرم ذو أعناق كاعتناق القرع الصغار وهو من طرائف غريب في ذاته ) وكان لا يترك أية شاردة أو واردة عن أية نبتة أو عشب أو شجرة الا ذكر نوعه وصفاته العامة وخواصه الاقتصادية أو الطبية .

وتمتاز كتابات الادريسي في العقاقير والنباتات الطبية بحاولاته مطابقة الاسم العربي للمواضع على مقابله في اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية والبربرية ويتألف كتاب الادريسي ، الجامع لصفات اشجار النبات ، من جزئين وقد رتب مواد على حروف المعجم ويبحث الجزء الأول في ٢٦٠ نباتا وعقاراتها والثاني في ٣٠٠ نبات وعقاراتها . وقد أشار الادريسي الى انه قد استعان في تأليفه بما قرأه في مسبته من مؤلفات والى ان رحلاته الكثيرة قد أعانته على اعتماد مراجعته .

وكان الادريسي - فوق هذا كله - أدبيا متكنا وشاعرا محسنا ومن نظمه قوله :

ليت شعري أين قبري	ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تفتك	سناق في بحر وجع
وخبرت السامي والأرضي	لقد خير وخير
لم أجد نارا ولا دارا	كان لي حبس محسوس
فكأنني لم أسر إلا	بيت أو بطن

وتوفي الادريسي في سنة ٥٦٠ هـ ( ١١٦٦ م ) وهو في السابعة والستين من عمره ولما تعرف أين توفي وأين دفن وعلم عن الظلي انه استقر في البلاط النورماني في يلمر حتى توفي ودفن بالجزيرة .

يرى بعض الباحثين ان أرجحية الادريسي على مسائل الجغرافيا العرب بما كتبه عن أوروبا لا تمود لرحلاته وأسفاره في تلك الأمصار



يقدّر أنما محمود لما حصل عليه من الرواد الذين بحث بهم ورجعوا إلى أقاصى  
أطراف أوردوا مثل اسكتلندا فيا لاستطلاع أوصافها وتفتيق مواضعها  
ولما قيده الإدريسي من أحداث الرحالة والتجار والحجاج في السفن التي  
كادت ترسو بموانئ صقلية إلى جانب ما استطاع الحصول عليه من بيانات  
عن البلاد النصرانية بفضل رعاية الملك رجسار المسيحي وما جسدته من  
خلاصة معلومات من سبقه كبطليموس وألمموعدى ولهذا نجد من جاء من  
بعده من الجغرافيين المسلمين يقل عنه ما كتبه في هذا الموضوع .

وقد قسم الإدريسي العالم المعروف من جهة الطول لجعل كل إقليم  
مقسما عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق كما هي الحال في  
درجات الطول المعروفة في إيماننا هذه ثم أنه جعل لكل قسم من هذه  
الأقسام السبعين خريطة خاصة ، عدا الخريطة العالمية الجامعة وهذه  
العرائط السبعون محفوظة في نسخ كتاب الإدريسي ومنها استخرج  
( ميلر ) خريطته الشهيرة عام ١٩٣١ والتي اعتمد عليها المجمع العلمي  
العراقي وأخرج خريطة جديده بطول مترين وعرض متر واحد في  
سنة ١٩٥١ .

هذا كما صنع الملك النورماندى كرى جوية وخريطة كروية للأرض  
من الفضة وقد طبع كتابه مع خريطه السبعين في روما سنة ١٥٩٢  
وترجم إلى اللاتينية في ١٦١٩ من قبل عالمين من الموانة من الغرب وهما  
جبرائيل اليهودى ويوحنا الصبرونى وطبع النص أيضا في ليون ومديره  
ويسون .

ويجيز كتابه أحسن مؤلف تلتقى فيه الجغرافيا القديمة بالجغرافيا  
الحديثة ومعلومات الإدريسي عن مهر البحر قوى نوموكتو وعن السودان  
وشكايح النيل دقيقة لدرجة تدعو إلى الإعجاب لذلك لم يكن غريبا أن يطلق  
على الإدريسي اسم « استرابون العرب » ( ١١ ) وأن يقول عنه البارون  
دومسلان في للمجلة الآسيوية الفرنسية في عدد نيسان من عام ١٨٤١ :  
« أن كتاب الإدريسي لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له وأن  
ثمة بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى  
في الأمور المتصلة بها » .

ولكى يقوم الإدريسي بعمله الضخم الرائع هذا خير قيام كان عليه  
أن يستفيد من ملاحظاته الشخصية ومن ملاحظات معاصريه ومن أبحاث

سابقه أيضا كمؤلفات الخطوبى وابن حوقل والمقننى ومن غير المتكوك  
فيه على كل حال هو أن أوصاف المناطق الغربية من العالم المعروف في  
عصره تبدو أحسن من كل ما عداها ومن أحسنها دراسة فهي المناطق التي  
يحيط بها الأندلس فيها معلومات وثائقية من الطراز الأول نجد من العبد  
المحدث عنها في كتبه الجغرافيين الآخرين باستثناء البكري .

## الادريسي يتحدث عن كروية الأرض !!

يعتبر كتاب نزهة المشتاق اعظم مؤلف جغرافي في العصور الوسطى وبالرغم من أنه يجرى في وصف البلدان على نظرية « الأقاليم السبعة » المتبعة في سائر البحوث الجغرافية السابقة فإنه يمتاز ببرعته العلمية . ويكفي أن تعلم أن الادريسي يبدأ كتابه بالتحدث عن « كروية الأرض » . ويمتاز من وجهة أخرى بخرائطه المدينة التي بلغت سبعين خريطة لكن اقليم من الأقاليم السبعة « عشر خرائط بعدد أقسامه » وأبدع أقسام « نزهة المشتاق » هي الفصول التي تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الإسبانية والمغرب وبحر الادرياتيک وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط وحى البلاد التي تحول فيها الادريسي ودروسها عن كتب في هذه الفصول يكشف الادريسي عن رسوم معلوماته ودقة مشاهداته . وهذا إلى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوروبا الشمالية مثل ألمانيا وبادو أمكنة داوة ، فضلا عن ذلك فإن الادريسي يبدي دقة واضحة في تعريف المصطلحات والأعلام الجغرافية الأوروبية مما يجعلنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية وربما الإيطالية التي كانت يومئذ لغة البلاط النورمانى والقشتالية التي وقف عليها خلال تجواله في شبه الجزيرة الإسبانية .

ويخبرنا الادريسي نفسه في مقدمة كتابه بنور الملك النورماندى في اخراج مصنفه لجزر الوجود فيقول بعد حاشية يبدع فيها رابعه وولى ثمنه :

« فمن بعض معارفه السنية وزمانه الملوية انه لما اتسمت أعمال مملكته وتراينت همم أهل دولته واطاعة البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وصطفائه أحب أن يعرف كيفيات بلاده ويقطعها يقينا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفي أى اقليم هو وما يحصنها من البحار والخلجان الكافية بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون وأثبتها في الدقائق الملقون والمؤلفون وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحوى عليه ويرجع اليه من يطلب ما في الكتاب المؤلفة في هذا الفن من علم ذلك كله كمثل كتاب المجانب للسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجهاني وكتاب أبى القاسم عبيد الله

ابن خردادبة وكتاب ابن عمر الصغرى وكتاب أبي القاسم محمد الحوقلى  
 البغدادي وكتاب جاثان بن خاقان الكيمائي وكتاب موسى بن قاسم التردى  
 وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى وكتاب أسحق بن الحسن المنجم  
 وكتاب قدامة البصرى وكتاب هليليوس الاقلونى ارسبيوس الانطاكى  
 فلم يجد ذلك متروجا مفصلا بل وجدته فيها مفصلا فاحضر لديه المارونى  
 بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم أكثر مما فى  
 الكتب المذكورة فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاد فاحضر  
 المارونى بها المتجولين فيكها فسألهم عنها بواسطة جمعا وافرادا فما اتفق  
 فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبتة وأبقاه وما اختلفوا فيه العاد وأرجاه  
 وأقام فى ذلك نحو من خمس عشرة سنة لا يحل نفسه فى كل وقت من  
 النظر فى هذا الثنى والكشف عنه والبحث عن حقيقته الى ان يتم له فيه  
 ما يريد ثم أراد ان يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم  
 فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعرضها فاحضر اليه لوح الترسيم وأقبل  
 يحنبرها بمقاييس من حديد شيئا فشيئا مع نظره فى الكتب المضممة ذكرها  
 وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمس النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة  
 فيها فأمر عند ذلك ان يفرغ له من الفضة الخالصة حائرة مطبوعة عظيمة  
 انجم ضخمة الجسم فى وزن اربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها  
 حائة درهم وأتوا عشر درهما فلما كملت أمر الفضة ان يقتنوا فيها صور  
 الأقاليم المسماة ببلادها وأقطارها وسبقها ووربعها وخليجاتها وبحارها  
 ومجاري مياهها ومواقع أنهارها وعلمها وما بين كل بلد منها وبين غيرها  
 من الطرق والمطروقة والأميال المحددة والمسافات المشهورة والمراسى  
 المعروفة على نفس ما يخرج اليهم مثلا فى لوح الترسيم ولا يقدروا منه  
 شيئا ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه وان يؤلفوا خطبا  
 لما فى أشكالها غير انه يزيد عليها بوصف أطوال البلاد والأرضى غير  
 خطها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها  
 وموانئها ومزروعاتها وغلانها وأجناس نباتها وخواصها والاستعمالات التى  
 تستعمل بها الصناعات التى تتفق بها والتجارات التى تجلب اليها وتحمل  
 منها المجائب التى تذكر عنها وتنسب اليها رحيت هى من الأقاليم السبعة  
 مع ذكر أسواق أهلها وعيشتهم وخلقهم ومذهبهم وزيارتهم وملايسهم  
 ولغاتهم وإن يسمى هذا الكتاب « بمنزلة المشتاق فى اختراق الأفاق » وكان  
 ذلك فى العشر الأول من يناير ( كانون الثانى ) أو يناير ١١٥٤ م الموافق  
 لشهر شوال الكائن فى سنة ثمان وأربعين وخمسائة فامتثل فيه الأمر  
 ولتقسيم الرسم » ٢

ثم يأخذ بتعريف طريقته التى اتبعها :

« مستعرض لكل بلد على حدة مع اهتماما بتعريف وضعه الحال

جواردها ومصادره والبحار والأنهار والمستنقعات والبحيرات التي تقع  
فيه والجبال التي تشهد فيه مع إشارة إلى استنباطها .<sup>١</sup> وستتكمّل كذلك  
عن النباتات والأشجار والحيوان ومواضع المعادن وستتسّير إلى متابع  
أنهارها ومجاريها ومبانيها وذلك استناداً إلى المعلومات والروايات المتوفرة .

### نظرة عامة على إسبانيا ووصف مدينة الريّة

يذكرنا الإدريسي من حيث النظر إلى مختلف نقاط تفصيل عرضه ،  
بالاصطناعى وباين حواصل والبكرى فكما هو الحال لدى هؤلاء نجد أن كل  
فصل يبدأ بنظرة اجمالية على القطر الموصوف ثم ينتقل إلى الطرق التي  
تؤدي إلى أية مدينة وتيسية إلى أخرى ويسجل الإدريسي كلا من مميزات  
هذه المسالك مع تخصيصها بالاسهاب عند الكلام عن المدن الكبرى التي  
يصفها ويتفرد هذا الأسلوب طبعا إلى طراز رتيب بشكل ملحوظ لاسيما  
ولأن أسلوب هذا الجغرافى لا يحتوي على التلويح الذى نجده فى أساليب  
المقدمي .<sup>٢</sup>

## الجزء الأول من الاقليم الرابع

مبلوؤه من المغرب الأقصى حتى البحر المظلم ومنه يخرج خليج البحر  
الشامي مارا الى الشرق وفي هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة  
باليونانية اسبانيا وسيت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها على شكل مثلث  
وتضيق من ناحية الشرق حتى تكون بين البحر الشامي والبحر المظلم  
المحيط بجزيرة الأندلس خمسة أيام رؤسها العرضي وهو من سبعة عشر  
يوما وهذا الرأس هو في أقصى المغرب في نهايته انتهاء المصور من الأرض  
محصور في البحر المظلم لا يعلم أحد ما خلف هذا البحر ولا وقف بشر  
منه على خير صحيح لصعوبة عبوره وظلام أبوابه وتعاظم أمواجه وكثرة  
أمواجه وتسلط دوابه وحبيبات رياحه وبه جزائر كثيرة ومنها حمودة وليس  
أحد من الرياثيين يركبه عرضا ولا طليبا والسما يمر منه بطول الساحل  
لا يفارقه - وأمواج هذا البحر تنفلق منفلكة كالجبيل لا يتكسر ماؤها  
والأفلاك تكسر موجا لما قدر أحد سلوكه .

( الزقاق ) ( ١٢ ) والبحر الشامي ليسا يحكي كان بركة ضحارة مثل  
ما هو عليه الآن بحر طبرستان لا يتصل بشيء من البحار ( المظلم ) وكان  
أهل المغرب من الأمم السالفة يشيرون على أهل الأندلس فيضرون بهم كل  
الاضرار وأهل الأندلس أيضا يكابدونهم ويحاربونهم جيد الطائفة الى أن كان  
زمان الاسكندر ووصل الى الأندلس وأعلموه بما هم عليه من التناكر مع  
أهل المغرب فأحضر الفيلة والمهندسين وقصد أرض الزقاق وكان أرضا  
جافة قلح المهندسين يوزن الأرض ووزن سطوح منه البحرين فملأوا ذلك  
فوجدوا البحر الكبير يصب علوه على البحر الشامي بشيء يسير فربما  
البلاد التي على الساحل من بحر الشام ونقلها من أخفض الى أرفع ثم أمر  
أن تبحر الأبرش التي بينا طنجة وبلاد الأندلس فطرت حتى وصل الطور  
للجبال التي تحيط أسفل الأرض وهي عليا رصيفا بالمحيط والجميع  
انراغا - وكان طول البنية ثلاثة عشر ميلا وهو الذي كان بين البحرين من  
المسافة والبد - وبني رصيفا آخر يقابله ما يلي أرض طنجة وكان بين  
الرصيفين مسافة ستة أميال فقط فلما اكمل الرصيفان حفر الله من جهة  
البحر الأعظم لمر ماؤه بسيلك وقوته بين الرصيفين ودخل البحر الشامي  
فلما مر ماؤه وحلكت من كثرة على الشطين مما وغرق أهلها وطفا الله على  
الرصيفين نحو إحدى عشرة قامة -

وطول هذا المجرى المسمى بالزقاق ثلاثة عشرة ميلا وعلى طرفه صا إلى  
الشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء وعلى طرفه من ناحية المغرب  
المدينة المسماة بجزيرة طريف ويقابل جزيرة طريف في الضفة الثانية من  
البحر مرسى القصر المنسوب لختودة ويقابل الجزيرة الخضراء في تلك  
الجهة مدينة سبتة - وهذا البحر في كل يوم وليلة يجزر مرتين ويستل  
مرتين فعلا دائما ذلك تقدير العزيز الحكيم - ولما ما على ضفة البحر  
الكبير من المدن الواقعة في هذا البحر المرسوم فهي طنجة وسبتة وتكود  
وبادس والمزمة ومليلة ووهران وصيقلية -

(وصف الأندلس) لنترجع الآن إلى ذكر الأندلس ووصف بلادها  
وذكر طرفاتها ومواضع جهاتها ومقتضى حالاتها وسبب أوديتها ومواقعها  
في البحر والمشهور من جبالها وعجائب بقعها ولأني من ذلك بما يجب  
يعون الله فنقول : أما الأندلس مجتوبها يحيط به البحر الشامي وغربها  
يحيط به البحر المظلم وتسميها محيط به صحر الأندلس في الروم والأندلس  
طولها من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمى بيهكل  
الزهره ألف ومائة ميل وعرضها من كنيسة شت ياقوب التي على آف بحر  
الأندلس إلى مدينة المرية على بحر الشام ست مائة ميل - وجزيرة الأندلس  
معسومة من وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات وهي جنوب  
هذا الجبل مدينة طليطلة وما خلف الجبل المسمى بالشارات من جهة  
الجنوب يسمى اشبانيا وما خلف الجبل من جهة الشمال يقال له قشتالة  
والأندلس المسمى اشبانيا إقليم علة ووماتيق جبل في كل إقليم منها  
علة من لريد أدركت على ذكرها مدينة مدينة يحول الله تعالى -

(وصف المرية) ومن أراد من مرسية إلى المرية سار من مرسية إلى  
مدينة لوزقة وهي مدينة عشواء حصينة على ظهر جبل لها اسم لوزاق  
ويزن في أصل المدينة وعلى الرضف وفيه السوق والملاحة (١٣) ولوق  
المطر - وبها ثلاث قرية صغرى ومكادى القرية تسمى إلى كثير من الأقطار -  
ومن لوزقة إلى قرينة أريونو جبال ثم من لوزقة إلى أباد الزكية إلى خنفي  
جيرة المرسلة وهو مستن طبع على حافة مقل على البحر ومن هذه الخنفي إلى  
حقبة صغر وهي عتبة صمد الركن لا يجر أحد على حواجزها راكبا أو مشيا  
يأمنها الركنان ترخالة ومن القبة إلى الرانطة مراكلة وأيض هناك حصن  
ولا حامية وأما قلعة قبة قوم يخرج من الطريق ومن هذه الرانطة إلى قرينة  
مرحلة طليطلة -

ومدينة المرية كانت في أيام المظلمة في مدينة الإسلام وكان بها  
كل الصناعات بكل حرية - وذلك أنه كان بها من طرق البحر ومنازل  
طراف يعمل بها العسل والديباغ والسلاطون والإصطلام والبحر والري



والستود: المكلفة بالتياب المعينة والخمر والعتائم والملاحى ومصنوف انواع  
الحرير .

وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحداد  
الى سائر الصناعات مالا يعد ولا يحصى ، وكان بها من فودكه ولديها الفخمة  
الكثير الرخيص .

( وهذا الوادى المنسوب الى بجانة بيته وبها المرية اربعة اميال  
وموله جنات وبساتين وارحاء وتجميع نسيها وفواكهها تلعب الى المرية ) .  
وكانت للمرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كلها .  
ولو يكن بالاندلس كلها ايسر من أهلها مالا ولا أنجر منهم في الصناعات  
وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً ، والمرية في ذاتها جبالاً وبينهما خندق  
معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة والجبل الشامى  
حتهما فيه وبضها ويسمى جبل لاهم والسور يحيط بالمدينة بالريفى ولها  
أبواب عدة ولها من الحائض القريب دهر كبير عامر يسمى دهرى الحوض  
وله سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات والمدينة في ذاتها  
كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون اليها كثيرون وكان أهلها ميسرين ولم يكن  
في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقداً ولا أوسع منهم أموالاً وعدد متاعها  
الذى أحدها عبد الديوان في التعنيم ( ١٥ ) ألف مئدة الا ثلاثي مئدة وكان  
بها من الطرز أعداد كثيرة قدمنا ذكرها . وموضع المرية من كل جهة  
استلوات به صخور مكسدة وأحجار صلبة مضرمة لا تراب بها كأنها  
غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر . والمرية في هذا الوقت  
الذى ألفنا كتابنا هذا صارت ملكاً بأيدي الروم قد غيروا محاسنها وسبوا  
أهلها وخربوا ديارها وحدموا مشيد بنيانها ولم يبقوا على شيء منها . ومن  
المرية لمن أراد مائة طريقاً طريق في البر وهو تحليق وهو سبيمة إيام  
والطريق الآخر في البحر وهو مائة وثمانون ميلاً .



وقد بقي هذا الكتاب الممتعة والمصلح لعامة أودونها لأكثر من ثلاثة  
أقرون . . . . . ( مئود ) ٢ . وهذا الكتاب نشر بخطه مع  
معدى وسنخى خريطة . . . . . وقد ترجمت وطبعنا أقسام من هذا الكتاب على  
أيدي بعض المستشرقين وطبع ( دوزى ) القسم المختص بالمريّة والمؤلفان  
هم صر والاندلس سنة ١٨٦٤ فيرلين : وطبع ( دوزى طر ) وصف الشام  
وفلسطين في ليبسيك سنة ١٨٦٨ وطبع ( امارى ) وغيره القسم المختص  
بإيطاليا سنة ١٨٨٥ في روما وطبع ( كولندى ) الأصل الجسمى مع الترجمة  
الإسبانية بالإسبانية التى تتطابق بوجاهة الأندلس في مئود سنة ١٨٩٩ :

جورجي ( مينيكوف ) : ١٠٠٠ ان الدراسات العربية في حاجة ماسة الى نشر كتاب الادريسي الذي يعد اعظم مصنفات المصور الوسطي في الجغرافيا مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط مهمة له يعتمد في ذلك على المخطوطات المعروفة لنا الآن في مكتبات باريس وكنسبرج واستانبول .

ولقد قضى الادريسي شطرا من حياته في اعتاد اول خريطة عالمية صحيحة ١٠٠٠ مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة لذلك العهد والتي لا تختلف اختلافا كبيرا عما هو ثابت من ذلك لعمدنا هذا ١٠٠٠

ويستاز الادريسي بديقته في حساب الأطوال والعروض للبلاد المختلفة وهو لم يكتف بما اتفق عليه العلماء في عهده أو اليهود التي سبقته بل كان يلجأ الى أساليب جديدة ليتحقق من صحة ذلك فقد أحضر ما سماه ( لوح الترسيم ) وهو ولاشك تمثيل جغرافي للكرة الأرضية أو بصورة أدق مشروع خريطة العالم التي وضعها فيما بعد فيستعين عليه مواعيل البلدان واحدا فواحدا بواسطة يركاز من حديد مقارنا ما عنده من معلومات بما قرره المؤلفون في هذا العلم محققا دقابة النهاية المواقع المذكورة ومرجعا بالاستناد الى النظر الصحيح بين الأقوال المتضاربة في بعض المسائل حتى يلف على حقيقتها وكان هذا بلا ريب هو الإصلاح العظيم الذي أدخله الادريسي على خريطة العالم فجعلها تقرب من وضعها العلمي الصحيح الذي هي عليه اليوم ١٠٠٠

ولقد كتب العلامة الأثاني ( ميلر ) عن الادريسي مطولا واتى على ذكر خريطته ودقته اعجابا وتقديره للادريسي أن يجمع أطراف الخريطة الادريسية وأن يدرس كتاب نزعة المشتاق دراسة علمية فأخرج هذه الخريطة لأول مرة في طبعة ملونة غاية في الاتقان سنة ١٩٣١ -

ولقد رجحنا الى ما كتبه الأستاذ عبد الله كنون ١٠٠٠ عن الشريف الادريسي وما ورد في كتاب تراث الاسلام ودائرة المعارف الاسلامية وما نشره من مقالات متفرقة في المقتطف والرسالة فتجمل أن الخريطة الادريسية انما تمثل القسم المصور من الكرة الأرضية وهو النصف الشمال ويمثل العالم القديم أو مجموع القارات الثلاث التي هي آسيا وإفريقيا وأوربا ١٠٠٠ وان كان هذا الاسم - القارة - لم يكن معروفا في ذلك الوقت ١٠٠٠

وكان تقسيم العالم عينيا على نظرية الأقاليم وهي صيغة وقد أوردتها الادريسي بهذا المعنى ولكنه حينها قسمها بحسب درجات العرض لجعل الأقاليم الأول بين ١٠ ٠ ودرجة ( ٢٣ ) شمال خط الاستواء والأقاليم الخمسة بعده ١٠ كل واحد منها ست درجات ١٠ والأقاليم السابعة عن

٥٤ - ٦٣ . وما بعد هذه الدرجة الأخيرة منطقة غير مسكونة لتكونها كثيرة البرودة وضوءة بالتلويح .

ولقد اضاف الادريسي الى القسم الشمالي من الكرة الأرضية جزءا صغيرا من القسم الجنوبي حتى (١٦) عرضا جنوب خط الاستواء .  
٥٥ . وهذا الجزء هو الذي تقع فيه منابع النيل وقد بينها ببراعة علمية فسبق بها علماء الجغرافيا والكتشفين الذين أتوا بعده ٥٥ .

لقد قدر علماء الجغرافيا والباحثون في أوروبا وأمريكا عبقرية الادريسي في رسم خريطته فقد حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديد بها ٥٥٥ . وأنه أفلح في هذه المحاولة الى حد بعيد ٥٥ .

ولقد أعجب المستشرقون والباحثون بخريطة الادريسي وكتابته المنيم فقال ( دي فور ) : ٥٥٥ . ان الادريسي استعمل ملاحظات الشخصية وزيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه وأعمال المؤلفين قبله ٥٥ . ولا شك ان ما كتبه عن البلاد العربية كان أحسن ما كتب عنها لأنه أعطاهما بحثا عن الطبقة الأولى .

وقال البارون دي سلاو : ٥٥٥ . ان كتاب الادريسي لا يمكن أن يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له وهناك بعض أجزاء من الممورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافي في الأمور المتصلة بها ٥٥ .

وجله في دائرة المعارف الفراسية ٥٥ ان كتاب الادريسي هو أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب وإن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى ٥٥ .



# معجم البلدان

يا قوت الحموي

١٤٠٠ هـ



معجم البلدان من الكتب التي يتردد اسمها على السنة المحاضرة  
وتجرى بحثها على الأوراق أقلام المؤلفين .

وقد يحسب بعض من لم يطلعوا عليه انه كتاب فيه بعض الخلاف  
وانه فهرس لاسماء يمدان وتحديد لمواقعها ولكن الواقع خلاف ما نذهب  
اليه الظنون . ذلك ان معجم البلدان دائرة معارف حافلة بالطريف  
المفيد . فغلب الى جانب تقويم البلدان تاريخ وتراجم ولغة وشرح  
لصطلحات وأدب مستع من شعر ونثر وذكر لأحوال المجتمعات في عاداتها  
وتقاليدها مما ينفع الباحثين ويساعد الدارسين .

وللقاس في ذكر ديارهم شغف . ولأماكن لهوهم تسوى ولا ربح  
طفولتهم ومغاني صباهم حنين . وله يروى بمراتب ومرابع وطن وقرى  
وأخبار وجدول فيعجبهم بعض ما رواوا أو يترك فيهم أثر لا يدسى . وقد  
يجتمعون في تلك البقاع أو يفترون فتيفس مشاعرهم بالمنظوم والمنثور  
ويتلقفه عشاق الأدب ثم يروونه في مجالس مسرهم أو لم يسألهم طلبة  
للبيان فإذا ذكرت ملايسات القطعة الأدبية وعرضت أماكنها ضلخ ذلك  
من الإحساس بتأثيرها في القارئ والمستمعين .

وتشعر العرب من قديم لهم ولح بذكر الأماكن ، لا تغلو من ذلك  
قصائدهم ومقطوعاتهم كما أن الفتوحات الإسلامية خلقت أسماء الأقاليم  
وللناطق والبقاع وللعلماء رحلات وجولات في طلب المرید من العلم والكتب  
من المعرفة واكتساب الخبرة وقد قالوا وصدقوا : «ماراً كمن صبح» - هذا  
لأن للفرد حدوداً تشمل قرى ومدناً وودياناً ومسجداً ومزارعاً فإذا  
وجدت في ذلك كتباً مؤلفة بعناية ومرتبطة بدقة ، جامعة ما قيل في الحكمة  
وما حدث فيه لا تشعير بمثل ولا فخر بل تقبل على القرائن في حرص  
ورغبة طالباً المزيد وتخرج من كل حدا بزيادة في الثقبالة وتوسيع في  
المعارف .

ويزيد إعجابك بالمؤلف حين ينسب الأقوال الى أصحابها والمعلومات  
التي كتبها الشغلة عنها وتشعر بالارتياح إذا كان قد طاف بجنته الأماكن  
التي يتحدث عنها وإن يفس عليك بعض عجائبها التي وقعت عليها عينه  
أو سمعها أذناه .

كل هذا الذي يحجب ويعجب تجده في معجم البلدان ليأقوت الحموى .

## صاحب المعجم

ونعترف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به في أول نشأته غلام رومي صغير مجهول الاسم يقع في الأسر خلال الحروب المتصلة التي كانت تشهده بين المسلمين والروم في آسيا الصغرى ويدخل في ولاء تاجر حموي في بغداد يدعى عسكر بن أبي نصر بن ابراهيم الحموي فيسببه ياقوتا وينسبه اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومي الحموي . ويحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموي البغدادي لياقوته بأحد الكتاب لينتفع به فيما بعد في ضبط تجارته فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأولده في عدة رحلات تجارية زادت في خبرته ووسعت آفاقه ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها الخليج العربي حيث زار البصرة وبعض موانئ الخليج وجزره وبخاصة جزيرة قيس التي كانت مركز النشاط التجاري بين الخليج والهند في القرن السادس الهجري ، القرن الثاني عشر الميلادي وكان خلال رحلاته التي اتسعت فيما بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر يجتصع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب حتى اذا بلغ العشرين من عمره انبسط من مولاه الجبوة ولحق بينهما ، فاشغل ياقوت بفتح الكتب ليتكسب منها . وحصل بالمطالعة فوائد زادت في ثقافته العلمية وحبيت اليه الاشتغال في العلم ومكنته منه . وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ويصبح شريكا لمولاه في التجارة بالمصارفة وقد أعطاه الأخير مالا خسر ج به للتجارة في جزيرة قيس فلما عاد من رحلته الى بغداد عام ٦٠٦ هـ وجد مولاه عسكر بن أبي نصر قد توفي . فأعطى أولاده وزوجته من المال ما لمرضاهم به وبقيت لديه بقية جعلها رأس ماله واستمر يعمل في التجارة بها فيها تجارة الكتب فكان يطوف البلاد ويتردد على الوراقين ويوزع الكتب ويظهره على العلماء وكبار القوم والذين يرغبون في هذه الصناعة ، فحصلت مكنته واشتهر أمره فسمى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذي كان يطلق على الرقيق لكن الناس لم يلقوا اسمه الجديد وطلوا يدعوه باسمه الأول ياقوت .

وفي أثناء تحوال ياقوت في مدن خراسان أدركته جيوش التتار في مدينة مرو التي أسبها كثيرا وتلى أن يقضى بقية نيناته فيها فغادها



مكرها إلى دريل ومنها إلى الموصل به أن قسى الكثير من المتعجب والأحوال  
وعتيق ذات اليد - وفي الموصل اسمايف ياقوت عمله في نسخ الكتب  
وقد نسخ منها الكثير إذ يحدثنا ابن السمار المبارك بن أبي بكر بن حمدان  
الموصلى ( ت ٦٥٢ هـ / ١٢٥٦ م ) الذي التقى ياقوت في الموصل أن  
ياقوت « كتب بيده في مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد » وإذا علمنا أن هذه  
الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة ( ٥٩٦ هـ - ٦٠٣ هـ ) أمكننا القول  
أنه نسخ بعد هذا التاريخ مئات أخرى من الكتب وحمل حجة شاقة لم تكن  
تدر على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد تركا ياقوت من ذلك وهو في  
الموصل حيث قال أنه كان « يمارس حرفته ويشتت » - ويذهب نفسه في  
تصنيف أغراض في لسان الله أغراض من صنفه يكتبها وأوراق  
يستخرجها ، ذهب فيها طويل واستمعه بها قليل ثم الرحيل « » وهيئات  
مع حرفة الأدب بلوغ وطرا أو ادراك أدب « وكتب ياقوت وهو في الموصل  
رسالة مؤثرة إلى جمال الدين علي القفطي وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين  
صاحب حلب شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفاة عليه والاقامة  
في كنفه « فلم يعجب القفطي رجاء فاستقدمه إلى حلب حيث استمر  
ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجمع إلى أهل العلم والأدب وأكمل  
خلال تلك الفترة مسودة جميع البلدان التي أهداه إلى الوزير القفطي  
اعترافا بفضلته عليه ولم يلبث ياقوت أن توفي في حلب وهو في الخمسين  
من عمره ( ٥٧٤ - ٦٢٦ هـ ) ( ١١٧٨ - ١٢٢٩ م ) .

## معجم البلدان

يقع معجم البلدان في خمسة مجلدات في الطبعة المتداولة - وقد بدأ ياقوت في جمع مادته منذ شبابه واستمر في ذلك حتى قبيل وفاته حيث يأخذ في تسوية أوراقه خشية بفتة الموت قبل تبليج خبره على يد تلميذه وكان يود لو يمتد به العمر فيصاغف حجه ورفض يشده احتصار الكتاب والاستجابة الى طلبات شكره باحتصاره . ويذكر ياقوت هنا بـرم شيخ المؤرخين الطبري على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة الا ان مدة طلائه قصرت عن ذلك فاختمه في ثلاثة آلاف ورقة وضع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبري المختصر الا ان ياقوت يمسك برأيه في عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الالف منه . ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة أبواب وهو بمثابة ملخص أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار وغيرها من المعالم البارزة في العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الإسلامي . ويشير ابتداء الى الأهمية الكبيرة للمقدمة التي كتبها ياقوت لهذا المعجم لاحتوائها على نقاط رئيسية توجها فيها إلى :

أولاً : دواعي تأليف معجم البلدان وأسبابه وتتلخص فيما جاء في القرآن الكريم من حث للبشر على السير في الأرض والتفكر في عاقبة من عمروها قتلهم وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارها وفتحها ووصف جغرافيتها والإعلام بأماكن الزيارة والمعج والنفوزات والمواقع التي يرد ذكرها في كتب السيرة والتاريخ والأدب .

ثانياً : مصادر المعجم ، وتضم مرصدا موجزا فيما لحركة التأليف الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين بالإضافة الى الفوائد التي حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ومن أنواء الرواة وتفاريق الكتب وما شاهده في أسفاره وحصله في تطوافه وهو كما يقول أخيراً ذلك .

ثالثاً : منهج تأليف المعجم من حيث حرصه على توخي الدقة في الوصف وضبط الأسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك والاشارة الى

ذلك قولاً وكتابةً منعاً للبهس والتحريف والتعصيف ، إضافة الى ميله الى التشرح والتفصيل ونعوره من الاجتزاء والاحتصار وتبنيه القارى الى ما يرد في الكتاب احياناً من أساطير تبرا من صحتها وأوردها على علاقتها حتى يقف الناس على ما قيل فيها ويكونوا على بينة منها وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشعوب من أساطيرهم والباشرين في علم المينولوجيا .

**وأخيراً :** تشمل المقامة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه في عدد من قضايا العلم والأدب والجهود الفنية التي بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليفيد به الناس وله يظفر منهم يائلاً ، والثناء ليدال ذكرنا زكياً من المؤمنين ويحشر في زعرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو .

ولما البيان الأول والثاني فتتصدر قرائنهما في الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفلكية بها في حين الفرد ياتون الباب الثالث لشرح معاني المصطلحات الفنية الواردة في المعجم كالبريد والفرسخ والميل والاقليم والكورة والمخلاف والرساق والطمسج والسكة بمعنى الطريق والمصر والقطيعة وغيرها سالكا في ذلك أحدث الطرق في التأليف والتعصيف - ونخصص الباب الرابع لأقوال الفقهاء في أحكام أراضي القرى والغنيمة وأدار الباب الخامس على جعل من أخبار البلدان .

وقد حرص ياقوت في أثناء عمله وجمع معجم البلدان أن يراعى أصولاً عملية دقيقة تثير الإعجاب وهي :

**أولاً :** الاعتماد على مصادر موثوق بها وهي كثيرة جداً من بينها : فتوح البلدان للبلاندي وكتاب الفتوح لأبي حديفة أسحاق بن بشر القرشي وكتاب فتوح الشام لأبي حديفة بن معاذ بن جبل وكتاب خطط مصر للقضاعي وكتاب أبنية الاسماء ( الأبنية ) لأبي القطاع وكتاب ما اختلفت من أسماء البقاع لمصر بن عبد الرحمن السكندري وكتاب اشتقاق المدينتين أو أسباب البلدان لأبي الكلبى وكتاب جزيرة الصرب للحسن الهمداني وكتاب جبال تهامة لأبي الأشعث الكندي وكتاب في مياه العرب للمقدجاني بالإضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التي ألفها ابن حرداذية وابن واضح والجهياني وأبي الفقيصة والسخري والاصطخري وابن حوقل والبشاري والمقدسي والمهلبى وابن أبي عوف البخاري وغيرهم - ويلاحظ ان حائنا من هذه المؤلفات قد فقد أو ضاع ولم يصل إلينا بعد ما يجعل لاقتسامات ياقوت عنها أهمية تراثية كبيرة ناهيك عما يدل من سعة المصادر التي رجع إليها ياقوت في تأليف معجمه فكان لا يفتك منه شئاً وحتى وفاته يطالع في أمهات الكتب ويعتك على

الإفادة منها والالتجاس عليها وقد أكد ذلك معاصره ابن الشعار في ترجمته لياقوت فقال في ذلك : « فما يعلم أنه صد كان عمره سبع سنين إلى أن توفي ما خلت يده من كتاب يستفيد منه أو يطالعه أو يكتب منه شيئا أو يسخره وكان ياقوت أمينا في الإشارة إلى اقتسامه على هذه المصادر » .

**ثانيا : الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التي اكتسبها من تجارته وأسفاره التي اعتمدت من النبل إلى جيجور .** وقد أشار ياقوت إلى ذلك أكثر من مرة كلما دعت المناسبة إلى ذلك فمراه يسهب في الحديث عن خوارزم وحراسان وطبرستان ويقول عن الأحبة : « رأيت أطرافها وعمايت جبالها » . ولا بد من احتمالك الفصل فيه تطويل بالقائمة الباردة فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة » .

**ثالثا : امتلاكه سبل البحث العلمي الدقيق من ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء وتحفظ** فكان ياقوت لا يثبت القول المقول في مظلم الأموال إلا إذا اطمانت إليه نفسه وقد اتبع ذلك في كثير من الأخبار كما هو الحال في حديثه عن سبب تسمية قرش بهذا الاسم فيبعد أن يبعد الروايات المختلفة في هذا الشأن يقول : « والذي نركز إليه نفسي أنه لما أن يكون من التجمع أو تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له قرش بن الحارث بن يخلد بن البشر بن كنانة » فإذا لم يجد ياقوت ما تطمئن إليه فنه من صحيح الأخبار ظل يبحث ويستقصي حتى يصل إلى ضالته فبهذا يطبئ . وقد سفت مثل ذلك منه عندما كان يحقق مواضع الحمديّة حيث تبين له بعد البحث والتقصي في المصادر وجود محلة يالري كانت تسمى أيضا الحمديّة نسبة إلى منبتها الخليفة العباسي محمد المهدي وقال بعد أن برّح إلى هذه المعلومّة : « فلما وقفت على هذا خرجتني » وواجه مثل هذا الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمجمعه . بل قام ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها بعض من سبقه في هذا الميدان مثل ابن الكلبي والبلاذري وأبو حنيفة الديوري والمسعودي وابن بطّان وغيرهم وتوصل في نفس الوقت إلى معلومات مفيدة عن طبرستان وبنى المضيق والبرامكة وآل الصفار ودارات العرب وعدد الطغرات من أيامهم في أثناء حديثه عن مواقعها .

**أما الاستقراء والاستنتاج** فقد توارثا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن وذلكة متقد فتراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج .

**وأما الاجتهاد** فكان ياقوت يلجأ إليه إذا لم يستفد الدليل القاطن أو النص المتصح كما فعل في معارلته صرفة اشتقاق اسم « هنة » إذ يقول : « لم ألق على أحد يقول في اشتقاقه وأما القول فيه ما يسنح لي فأنه وافق

المصواب فهو بتوفيق الله والا فالمجتهد مصيب فلهذا يكون من لنا وهو  
القدر وكانهم أجروه مجرى ما يعقل .<sup>١</sup>

بل لقد نفقت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب  
من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الأسماء التي يتخللها شك فيها  
او يحجز هو نفسه عن تحقيقها واحار للباحث ان يضبط ما يحتاج الى ذلك  
على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين . وأشار ياقوت الى مثل ذلك أكثر  
من مرة في معجم البلدان وبخاصة عند ذكره التفسيرات الادارية البيزنطية  
اد قال : « وفي أخبار الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها قليلا  
الناظر في كتابي هذا ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها بحثا  
فقد أدركت له في اصلاحه ما حووا » .

وايضا : التمهط عند ذكر الأساطير التي نقلها من مصادره وقد  
اعرض عن ذكر الكثير منها حرف التهمة ولكونها تخالف بالالف من المادة  
وقد استبعد ياقوت وقسوعيا وتبرا من عهدها ولقد معظمها مؤكدة  
« ان الملة الاسلامية تبجل عن مثل هذه الخرافات » وكان المبرر عنده  
لايرادها حتى يعرف القارئ ما قيل في ذلك حقا كان لو يأنل .<sup>٢</sup>

المعلقة تطلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت لهذا المنهج العلمي في تأليف معجمه الى الحصول  
على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم  
الاسلامي وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للأقطار التي زارها  
وتردد عليها كعصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربي وبلاد  
المشرق الاسلامي وأمثال تلك المعلومات تضيق عن العصر نذكر منها على  
سبيل المثال وصفه المحقق لسبب جزيرة العرب وبحر الروم ( المتوسط )  
وبحر الهند ( المحيط الهندي والخليج العربي وبحر الخزر وتسمه لمحي  
كل من دجلة والبل وهاجرة قصر الليل صيفا في بلاد البصرة التي ذكرها  
المسعودي بقوله : « والليل في بلادهم في غاية القصر في الصيف حتى ان  
أحدهم لا يخرج من طبقه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمنا الى تأثير ارتفاع  
البحر على الشمس وذلك حين ودي ان « بالتب تبجل يقال له جبل السم  
اذا مر به أحد تضيق نفسه فملهم من يموت ومنهم من يتقل لسانه » وغير  
ذلك من المواد التي تزخر بالمعلومات والوقائع .

ويكفي ياقوت فضلا انه استطاع بحبرته وألمته وثقافته الموسوعية  
ان يعطي من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة  
عالم الاسلام في عصره وان يصف بطريق غير مباشر جانبا من أحوال ذلك

العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا امر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه لما له من أهمية هي التعرف على حضارة العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي المدمر لأقاليم للشرق الاسلاميه التي لم تكن تسير في طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين ، حتى ذهبوا القروى المغولى الذى كان ياقوت أحد الضحايا الذين شردوا واودوا بسببه .

### الملامح السياسية فى معجم البلدان :

تتمثل أولى الملامح التي تواجه من يقرأ معجم البلدان قراءة مثالية فى الانحسار الواقعي الذي يحسه بوجهة العالم الاسلامي الكبير وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التي كانت قائمة فيه والاضطراب الداخلي والخارجية التي تهددته فترة من الزمن وهنا يعتبر ياقوت المعدي شاحدا عيانا واعيا لآثار المرحلة الأخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة التي استهدفت قلب العالم الاسلامي وبخاصة مصر وبلاد الشام وهذا الوصف السياسي الذي قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تحتل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

**أولا :** لأن المعلومات التي ذكرها ياقوت فى معجم البلدان يعتبر جديا منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم مستنير شاحدا للأحداث السياسية والفعل بها وسجل ملاحظاته عنها من ذلك مثلا ان ياقوت يحسن حوزوم شاه محمد بن تكش بن اوسلان ( ت ٦١٧ هـ - ١٢٢٠ م ) المستزلية المباشرة فى اضحاف قوة المسلمين فى مقاطعات ما وراء النهر وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المتاخمة للتتار فى الشرق وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون فى ظل مملكة الخطا بمراكزهم وقوتهم النسبية التي تحفظ حدودهم مع التتار وقد أدى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكري وسياسي وسكاني لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة ، مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الأولى عن ديار المسلمين فى تلك المناطق التي وقعت فريسة سهلة بأيدي التتار الذين ما لبثوا ان احتلوا وأهلكوا الحرث والنسل فى ربوعها فكانت أولى المناطق الاسلامية التي حجب عليها انحصار التتار المدمر وقد أشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجملة وبصورة نافذة -

ويصف التركة التي حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا وثى فيه حالهم بقوله : « وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصالح متين وتساك وعادة والإسلام فيهم مخفى المجنى حلو المتى - يفظون حدوده ويلتزمون شروطه ولم تظهر فيهم بقعة استحقوا بها العذاب والجلد ولكن الله يفعل ما يشاء » -

**ثانياً :** رسم ياقوت أمثال هذه العبارة المؤثرة بروحه الإسلامية الصادقة كلما ذكر مكاناً وقعت فيه أحداث مأساة وبذلك ربط ربطاً متنازلاً بين المكان والاسنان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلف معجم البلدان يدخل أيضاً في نطاق اشارات ياقوت الماثلة في أثناء تعريفه ببلدان الأندلس وما سقط منها في أيدي الأسيان وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين ، كما أورد قحاصيل أومى عن الفزوات التي كان الروم يعمسونها على الثغور الإسلامية في شمال بلاد الشام وسقوط طرسوس وحلب في أيديهم وانتقد ياقوت موقف الأمراء المسلمين المتخاذل في ذلك الوقت وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول « وسيف الدولة - الحميداني - حتى يوزق بميفارقين ، والملوك كل واحد متعمول بمحاربة جاره من المسلمين وعطلوا هذا الفرض ( الجهاد ) ونعوذ بالله من الحبيبة والخذلان ونسأله الكفاية من عبده » .

**ثالثاً :** وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالح أي البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود ومن الدولة العباسية وما بدله خلفاء تلك الدولة من جهود لتعزيز تلك الجهود وهو أمر يتماشى مع السياسة الدفاعية التي تتبعها دولة بني العباس وعدم أخذها بسياسة الفتح الأيوبي التي كانت ترى في الفتح ( الهجوم ) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويردنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالح والمصون الدفاعية المنتشرة من خراسان إلى الديلم .

وفي هذا الميدان أي نظام الدفاع عن الدولة الإسلامية يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة أخرى عن المراقب والمناظر والمنارات التي كانت منتشرة على طول الخطوط الأمامية للحدود من جهة وبين هذه الخطوط ومركز المدينة من جهة أخرى كما كان الحال في باب الأبواب وقزوين . حيث يذكر أن المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر إقامة الحاج ابن يوسف الثقفي وإلى بني أمية على العراق والشرق في أواخر القرن الأول الهجري « فإذا نحن أهل قزوين دخلت المناظر إن كان تهاوا وإنه كان ليلاً أشعلوا نيراناً فتجرد الخيل إليهم » فكانت تلك المناظر والمنارات بمثابة وسائل اندفاع مبكر وسريع للمسلمين من الأخطار التي قد تصيبهم .

**رابعة :** أشاد ياقوت في أثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره عصباً في عمرانها وازدهارها كما ندد بالظلم لكونه يؤذن بخراب البلاد وجلاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادي في مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح

التأثر لها اذ كان في منطقة غرستان كما يقول : « عمل حقيقي وبقية من عدل المصريين وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون وكان فيها مياه كثيرة وبساتين وأود وريش يصل الى البلدان وعلى ذلك يقول عن اسفيجباب والطاقت ورو وسواه التي كانت من اعبر بلاد الله وأزهرها وأوسمها خصبا وشجرا ومياها ورياضا مزدهرة » كما كانت المياه الجارية في بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها وكان ياقوت في هذا الموضع شاهد عيان لأنه رأى بضع سنين ينتقل في ريوغها .

وفي المقابل يصف ياقوت الخراب الذي حل في بعض البلاد الاسلامية الأخرى نتيجة لتكالب الصال والولاة على جمع المال من الرعية وعدم انفاقه على شئون الولاية ، إضافة الى غياب السلطان العادل وكثرة الحروب والجيوش التي كانت تعيث في تلك البلاد مصادا .

### الملاحق الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من يسمها اقطاعات الأرضين العديدة التي منحت لبعض الأشخاص من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو دولة بني أمية أو دولة بني العباس ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الأشخاص الذين منحوها في مواضع متعددة من المعجم فبالنسبة للاقطاعات في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نجد في معجم البلدان في تنابا للمواد : حبرون ، الفستراء ، طيبة ، عقيق ، القصيم ، المورة ، فح ، قالس القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينس . ووجد الاقطاعات التي منحت في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة في حكم عثمان بن عفان في المواد التالية في المعجم : حنينا ، ساطي ، عثمان ، شط ، عرصه ، شاسنج نهر الاساورة ، نهر أم حبيب ، نهر أم عبد الله ، كما تصرف على بعض الاقطاعات التي منحت في الدولة الأموية في المواد : سلوقية ، عرب ، نهر الحلاء ، مدينة مرخاب ، نهر بن عير ، واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين في المواد : بغداد واون ، سوق المشي ، مويقة ، خاكد ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة أم جعفر ، مرعش ، نهر أبي الخصيب .

ويوضح ياقوت للفهوم الاسلامي لهذه القطائع التي كانت تتم في السواقي والأراضي البور التي لا مالك لها ويقول في ذلك ان « القطائع من السلطان إنما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ولا عبادة بوجب ملكا لأحد ، وهذه ناحية اقتصادية مهمة ، لأن الخلفاء والولاة كانوا يوجه عام لا يتصرفون بممتلكات الغير وإذا أرادوا امتلاك أرض مملوكة



لأجل النفقة العامة كبنه مسجد أو مدينة عبدوا إلى شراء الأراضي من أصحابها كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في واسط والمهدي في الحسنية بالري والمنصور في سامراء وهذه على كل حال قلعة إسلامية منها الرسول صلى الله عليه وسلم لأول مرة عندما ابتاع أراضى مسجده في المدينة ورفض امتلاك الأرض دون التعويض على أصحابها وهذا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصدرا مهما ووليسيا فهو دراسة تطور الاقطاعات في الدولة الإسلامية .

وفي أثناء حديث ياقوت عن البلدان والأرضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد أحيانا بعض المطومات القيمة عن الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية فيها ، إضافة إلى ذكر بعض الصناعات مما يدخل في التاريخ الاقتصادي للدولة الإسلامية . فقد كان في مدينة شيراز مثلا شجرة تفاح نصفها حلو ونصفها الآخر حامض كما كان في بلدة شسترة بالأندلس تفاح محيط الواحدة منه ثلاثة أشجار واشتهرت ناهرت بالصقرجل وتبرز يانشس وغرة ورجح بالبحير ولسطين ونوس بالزيتون وفي مصر كمال آخر يشير ياقوت إلى أهمية مياه النيل وقياس مستوى ارتفاعها للزراعة ويورد كسفا باسمه مائة وستة وثلاثين نوعا من الطيور كانت توجد في منطقة بحيرة تيسس بالإضافة إلى ثمانية نوعا من الأسماك فيها .

### الأملاح الاجتماعية :

وتصادفنا في معجم البلدان عدة أملاح اجتماعية مهمة منها .

أولا : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب على اعتبار أن هذه المنطقة كانت في معظم الحقب التاريخية منطقة طرد يشرى إلى المناطق الأكثر خصبا وتعود هذه الظاهرة إلى ما قبل الإسلام .

وفي هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمة عن حرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الإسلام ويعدد مواطن عدد يارد منها فقد ذكر تفرق قضاة والارد ومواطني بني سعد وبني أسد وطبري وكلاب وتقلب وبكر وريصة وعضر واستشهد بأبيات شعر للأخضر بن شهاب التميمي تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهي لكيز وبكر وتميم وغسان وبهراء وإياد وتقلب .

وعندما جاء الإسلام وتكونت حياة دولته في المدينة اتخذت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية أبعادا أوسع فقد أتى ذلك داخل الجزيرة نفسها إلى حدود تركيز سكاني في منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ، وتدفق الأعراب على المدينة للاستفادة من الماء ولم تلت أعداد من القبائل العربية أن خرجت ضمن جيوش الفتوح خارج الجزيرة العربية

حيث فتحت الاقطار واقامت في الأمصار والتغور وفي بيوت المدن المفتوحة كما حدث في حراسان . وقد اسهم عرب الفتوح في نشر الاسلام والعربية في البلاد المفتوحة .

وفي أخبار السجدة الاستيعابية التي أرسلها الخليفة العباسي الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تقدم ياجوج وماجوج ذكر ياقوت أن البشة اجتازت حصونا فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية هم مسمون بقرهون القران ولهم مساجد وكتائب الا انهم كانوا متطعين عن العالم الاسلامي ولا يقرؤون شيئا من أخباره .

ثانيا : وكان العرب لدى انتقالهم الى الأمصار والأقاليم يسمون بعض مدنهم بأسماء المدن والمواطن التي قلعوا منها تذكراهم بمواطنهم الأولى ونهضي من شوقهم وحسينهم اليها وهي طاهرة انسابية مالوفة ومعروفة فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا الاسم قرب عين التمر في العراق وشبهت الأندلس ملوكا سموا عدة مدن منها باسماء مدن الشام مثل حصن وتكر .

ولثالثا : ويقال ياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية مهمة عن مساحتها وسكانها فالبصرة كانت تضم في عهد ريداد بن أبيه ثمانين ألف مقاتل من العرب وعيالهم مائة وعشرون ألفا أي أنه عند سكانها حوالي منتصف القرن الأول الهجري مائتا ألف نسمة وأضيف الى هؤلاء في زمن عبيد الله بن زياد الفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخارى وفرغى لهم العطشاء وبني لهم سكة في البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم فقد تطورت البصرة زمن خالد بن عبد الله القسري في أوائل القرن الثاني للهجرة فأصبح طولها فرسخين إلا أنقا .

ولم يغفل ياقوت وهو يذكر عرضا أخبار العرب المهاجرة الى الأمصار أخبار التشوب والغلقات الأخرى التي كانت تعيش داخل الدول الإسلامية أو تلك التي تقيم على تحومها كالنبط والأساورة والسفارية والاكراذ والديلم والجراجمة والترك والصقالبة والخزر والروس والبغفار والتزنج وأهل الصين فأورد وصفا لجانب من عاداتهم وتقاليدهم واعتمد على هذه الأخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة التي وضعتها أوائل القرن الرابع الهجري ورسالة أبي ذؤلف في ذكر ما شاهده وراء الترك والصين والهند .

## الملامح الثقافية :

وسجل ياقوت في معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملامح ثقافية فلا الدولة الإسلامية وقد استوقفت هذه الملامح ، لأنه كان أديبا شارك في ثقافة عصره من طريق سجع الكتب والمتاجرة بها الى جانب جهوده المشكورة في التأليف فضلا عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية جاء قبيل اجتياح المغول للشرق الاسلامي وتدعيمهم لمعظم المراكز الثقافية فيه ويمكن تلخيص هذه الملامح تحت المؤسسات التالية .

**أول : المساجد :** وكانت المساجد الإسلامية مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية مهمة منتشرة في جميع أنحاء الدولة كما كان يلحق بسورها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة .

**ثانيا : المكتبات :** اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة

في معظم المدن الإسلامية وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وأقام بها فائدة مباشرة ففي مدينة ساوة بين الرى وصيدان كانت توجد دار كتب كبيرة وصعها ياقوت نابها . لم يكن في الدنيا أعظم منها بلضي أن التتر احرقوها . وذلك عام ١٦٧ هـ / ١٢٢٠ م وفي مدينة مرو الساهجان وحدها بخراسان كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدبير المغول لها ويقول ياقوت في هذا الشأن انه أقام بسرو ثلاثة أعوام وأنه « لولا ماغرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخربها لما فارقتها الى المات » لما في أهلها من الرقة ولعم الجاسية وحسن الحضرة وكثرة كتب الأموال المتقنة بها فاني فارقتها ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقت لم أر في الدنيا مثله كثرة وحودة . منها خزانة في الجامع احتاصها يقال لها العزيرة وقفها رجل يقال له عزيز أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر . وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقابلها والأخرى يقال لها الكسالية لا أدرى الى من تنسب وخزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤ هـ وكان حنفي المذهب . وخزانة نظام الملك الحصن بن اسحاق في مدرسته وخزانة للسعمانيين وخزانة أخرى في المدرسة الصيفية وخزانة لحد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها وخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خالكاه هناك . وكانت سهلة التداول لا يشارف منزل منها ماكتسا سجله وأكثر بنهر دهن يكون قيمتها مائتي دينار فكانت أرفع فيها واقتبس من فوائدها وأنسابي حباها كل بلد والهسابي عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعه فهو من تلك الخزائن .

**ثالثاً : العلماء :** وهؤلاء كانت تزخر بهم المدن والأقاليم الإسلامية وقد اشتمل مجمل البلدان على أسماء فئات من العلماء التابعين الذين ذكرهم ياقوت بعد تعريفه باسم البلد أو القطر الذي يقتنون إليه ويلاحظ من عاصروه أو سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه الموجزة أهمية خاصة وكان بعض هؤلاء العلماء يتقلون في البلاد الإسلامية استكمالاً لعلمهم من جهة ولتنشر عليهم بين الناس من جهة أخرى وهي هذا الصدد ذكر ياقوت أسماء العديد من علماء المغرب والأندلس الذين ارتحلوا إلى المشرق للاستفادة من العلم وكان الطب شديداً على العلماء التابعين يسمى الكتنون اليهم ويقتنون سمعهم -

### للملح الأثرية :

وخلال وصف ياقوت للبلدان ذكر عدة مجموعات أثرية مهمة سواء بالنسبة للمساجد والآثار الإسلامية أو الآثار القديمة التي خلفتها الدول والشعوب في العالم الإسلامي التي تعاقبت عليه الحضارات وحضارات أمثلة كثيرة على هذه الآثار نجدها في وصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة في مكة المكرمة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة والمسجد الأقصى والصخرة المشرفة في القدس والجامع الأموي في دمشق وجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون في القسطنطينية إضافة إلى تحديد المساجد التي أقامها الرسول الكريم بين المغرب ونيويورك وذكر معلومات أخرى تتعلق بتصميم المدن الإسلامية وطريقة بنائها ووصف مواقعها وأسوارها وقصورها وحطوطها كما هو الحال بالنسبة للمصرى وواسط وبغداد وسامراء والقسطنطينية والقروان -

وقد لاحظ ياقوت استعراب الناس من ضخمات هذه الآثار فكانوا ينسبون إليها إلى السليمان بن داود والجن كما هو الحال بالنسبة لمدينة زنود وتغر وقصر عمسان وقد علق ياقوت على ذلك بقوله :  
 « لكن الناس إذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بآتيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن » كما لاحظ أن الناس كانوا يرمادون الأماكن الأثرية للمساعدة والتبرع وكان بعضهم يكتب العبارات والآيات الشعرية على جدرانها للموعظة والاعتبار -

## دراسات وأئدة لمعجم البلدان

كان صلى الله عليه عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٢٩/١٢٢٨م) أول من اختصر هذا المعجم في كتاب أسماه « مرصع الأطلال على أسماء الأمكنة والبقاع » وبعد ذلك بحوالى قرنين قدم حلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ) باختصاره ثانية في كتاب عرف باسم « مختصر معجم البلدان » ويستفاد من دليل تاريخ الأديب العربي لبروكهان أن هناك نسخة من المختصر الأخير في مكتبة أصلية بحيدر آباد .

إلا أن أول دراسة على مادة معجم البلدان قلم بها ياقوت الحموي نفسه وضبطها كتابه المطبوع « المشترك وضما والمفروق صقما » إذ يقول في مادة تلك الدراسة : « هذه طريقة طريقة وملحة مريحة تشرئب إليها النفوس .. » انتقلتنا من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان وانتزعتها من رياض حدائق الكثيرة الاثنيان فيما اتفق من أسماء البقاع لفظ وحطاً ووافق شكلاً ونطقاً والمفروق مكاناً ومضماً واحتذف صقماً ومحتلاً .. لينض على الحاصل كقله ويتيسر على القائل نقله » .

وفي القرن التاسع عشر تبه عدد من المستشرقين إلى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين إلى ذلك بالحاجة إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الاقطار الإسلامية وتورد فيما يلي جانباً من العرض القيم للدراسات الاستشرافية للمعجم والذي ضمنه ودعج جريدة مقفلة ترجمته لافصول التمهيدية لمعجم البلدان لياقوت فقد قام عدد من كبار المستشرقين في النصف الثاني من القرن الماضي بدراسات علمية تتجلى بمصوغات مميّزة في المعجم ففي عام ١٨٢٣ نشر المستر الروسي فريش (C. M. J. Frisch) في بطرسيبورج أول دراسة استشرافية من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقديره عربية مختلفة أخرى عن الروس الأقدمين والقصوب المجاورة لهم »

(Die Fontan's und anderer Aender Berichte über die Russen älterer Zeit und ihr Aussehen.)

فكان فريش بهذه الدراسة يقول من كثر معلومات عن الروس والمسلمين والبنجار الفاطميين ضلّله نهر الفولغا وعن القصوب المجاورة له مستمداً في الدرجة الأولى عن رسالة ابن فضلان المثبتة في معجم البلدان لياقوت وقد

نشرها متنا مع ترجمة لاتينية ، مضيغا اليها ما عثر عليه من كتب العرب  
عن قبائل روسيا القديمة كما يعتبر قرين أيضا أول من كتب عن ياقوت  
وعرف به وقد احتفظ بحته بقيته الى أوائل القرن العشرين .

وكانت دراسة لري فاقصة لأبحاث ودراسات مماثلة فقد نشر  
المستشرق الألماني كورد دي شولتسبر (Kurd de Scholze) الرسالة الأولى  
لأبي دلف متنا وترجمة لاتينية وهي رسالته لندكتوراه ( برلين ١٨٤٥ )  
وذلك بعنوان : « أبو دلف سمر بن مهلهل ورسائله عن رحلته  
الآسيوية »

« Abu Dolef Misaris ben mohalhol de Samarra asiatique commentarius »  
وكان بحثه دراسة لمتطوعات من رسالة أبي دلف موجودة في معجم  
البلدان .

وبعد ذلك نشر المستشرق الإيطالي المصروف ميشيل اماتري في  
ليزرج ١٨٥٧ كتابه المشهور « المكتبة العربية الصقلية » وهو عن تاريخ  
جزيرة صقلية وقد ضمنه عدة نصوص عربية بدءا بالمسعودي وانتهاء  
بالحاجي خليفة واشتمل الباب الحادي عشر من الكتاب على المتطوعات التي  
أوردها ياقوت في معجم البلدان من جزيرة صقلية ومدنها وقراها .

وفي عام ١٨٦١ ظهرت في باريس دراسة للمستشرق الفرنسي  
باربييه دي ميسار (C. Barbier Meynard) بعنوان « معجم جغرافي  
في تاريخ في أدب فارس والاقطار المجاورة لها مستخرج من معجم  
البلدان لياقوت »

« Dictionnaire Geographique Historique et litteraire de la Perse et  
des contrées Adjacentes Extrait de mojdern El Bouldan de  
Yaqout ».

أما النصوص التي أوردها ياقوت في معجم البلدان عن العرب قبل  
الاسلام فكانت موضع دراسة قام بها المستشرق الألماني لودولف كريمل  
بمتوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » .

وقد نشرت هذه الدراسة في ليزرج عام ١٨٦٣ والمعروف أن هذه  
النصوص اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبى كما أن المستشرق  
الألماني يوليوس فلهوزن ضمن كتابه القيم « بقايا الوثنية العربية »  
Über die Religion der Vorislamischen Araber جميع المتطوعات التي  
أوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور وأتبع ترجمتها بالتحليل والتفصيل  
ورجع الى مصادر كثيرة أخرى مكنه من جمع ما في جزيرة حول الموضوع  
التي يدور عليه كتابه .

وكانت أراضي الحراف في جزيرة العرب موضوع دراسة أخرى قام بها المستشرق الألماني أوتولوث (Ottoloth) معتمداً على ما ذكره ياقوت عن تلك الحرات في معجمه وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨ بعنوان « حراف بلاد المغرب عند ياقوت » Die vulkan regionen-Harra's Von Arabien nach Jakut, ZDMG 1868.

أما الإشارات المتنوعة التي أوردها ياقوت عرساً عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبرج Hartwig Derenbourg بعنوان « الصليبيون في معجم ياقوت » ونشرت في كتاب التذكري للتبوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٨٩٥ .

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق الفرنسي دامت Bruest Damascene بحثاً بعنوان « اسهام المصادر العربية في التعريف بأفريقيا السوداء » ويؤكد هذا البحث الذي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود ان يكون اعتقاده الأساسي قائماً على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت وآثار البلاد وأشجار العباد للقزويني .

وحلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ - ١٨٧٢ تمكن المستشرق الألماني مستنقيد من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات حصص المجلد الأخير منها للفهارس وقسمت الملاحظات والفهارس التي وضعها أساساً لدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلداني ومصادره كما كتب في أثناء عكوف على نشر المعجم مقالين عن أسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان وتناولت المقالة الأولى « تجوال ياقوت كما صوره في معجم البلدان » ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ .

في حين كانت المقالة الثانية بعنوان « ياقوت رحالة كما هو أدبه وعالم » وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ .

وفي أواخر القرن الماضي ( ١٨٩٨ ) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير (R. Justus Heer) دراسة عن مصادر ياقوت تحت عنوان « المصدر التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » .

وقد وصف وديع جويئة هذا الكتاب بأنه ما يزال أفضل وأشمل دراسة وصحت عن معجم البلدان ومصادره .

وقدم استشرق الروسي كراتشكوفسكي (Krachkovski) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » إذ المعروف ان هذا المعجم يضم حوالى

خمساً ألفاً ديت من الشعر بيتها عدد من الأبيات لياقوت نفسه والذين  
من هذه الأسماء جاءت شواهد تؤيد النص وتكمله كما أن القصائد التي  
قيمت في الفتح والحنين إلى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق  
على جانب كبير من الأهمية في ضوء ندرة الوثائق التي ترجع إلى القرون  
المهجرة الأولى ويمكن للباحث أن يجسّدوا في هذا الشعر مادة خصبة  
ومفيدة وبخاصة في القرن الأول الهجري . وكان كراتشكوفسكي من  
أوائل الذين تنبهوا إلى هذه الحقيقة . كما وضع هذا المستشرق الكبير  
دراسة أخرى حول الرسالة الثانية لأبي دلف في معجم البلدان وشهرزور  
في معجم ياقوت .

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستفلد لمعجم البلدان فإن  
هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكي ما تزال من أصم المراجع لجميع  
المتفحصين بالدراسات العربية وقد أعيد نشر هذه الطبعة بالأولست في  
طهران عام ١٩٦٥ . لما طبعة القاهرة التي جاءت في عشرة أجزاء وأشرف  
عليها محمد أمين الخاتجي الكتيبي ( ١٩٠٦ ) فلم تات بجديد وإن كانت  
أحياناً تقدم قراءات قيمها على معجم ياقوت البلدان وسماه « منجم السرايا  
في المستشرق على معجم البلدان » وقد لاحظ كراتشكوفسكي أن هذه  
الاستدراكات قد تسمى أحياناً نقاطاً عالجاها ياقوت فيورد الناشر المعلومات  
المتأخرة عن ذلك ولكنه في أغلب الأحيان يقتصر كلامه على بلاد ومدن العالم  
الحديث في أوروبا وأمريكا وأستراليا وهذه الإضافة وإن لم تمثل قيمة  
ما من وجهة النظر العلمية ، إلا أنها برهان طريف على استمرار الأساطير  
التقدمية للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأساطير العربية المتخلفة إلى  
بداية القرن العشرين .

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل  
كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد علي وإسحاق الشاشيني  
وعباس المزاري وعبد الوهاب عزام وعلي أدهم وعبد الله محلس وأبو الفتح  
النواصي وعبد المعين الملوحي . وليس من شك في أن كثرة الدراسات التي  
أوردت لياقوت ومصنفاته تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب علما الرجل  
ومكانته العلمية في التراث العربي الإسلامي الذي يمثل فيه معجم البلدان  
مكانة بارزة .

والحق أن ياقوت الحموي نفسه كان يدرك أهمية العمل العلمي  
الضخم الذي قام به فوصف كتابه المصنوع بأنه « أوجد في باب مؤرخ على  
جميع إضرابه وأثرابه لا يقوم مثله إلا من أيسر بالتوفيق وركب في طلب  
قوائمه » كل طريق ففاد وإنجه وطرح بنفسه فأبعد وتفرغ له في عصر  
القميية وحرارته ، وساعده الفكر باعتداده وكفايته ، وظهرت منه إمارات



الحرص وحركته ، وياقوت وهو يضرب هنا ال المعاملة الكبيرة التي عاينها - وهو يجمع مادة كتابه القيم حبا في العلم والمعرفة وانتفاع الناس بها كان كل لطفه وصنفاه أمنية في أن لا ينسب هذا الجهد الى سواه ودعا توجه الى الله عز وجل ، ان لا يحرمه ثواب التصب فيه وان يكون جائزه على ما اوضح اليه دكايب خاطره ولسهر في تحصيله بدنه وناظره دعه المستفيدين وذكر دكي من المؤمنين بأن يحشر في دمرة الصالحين ، رحم الله ياقوت الحموي رحمة واسعة وجزاء على عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء .

الدين أشادوا بياقوت الحموي وآثاره العلمية والأدبية كثيرون منهم والمصارعون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون وهؤلاء وأولئك يطلب على بعضهم الاحتصار والتبسيط في معرض تقويمهم لتلك الآثار في حين يتسم تقويم البعض الآخر بالافاضة والتخصيص فابن خلكان وهو من المصارعين يصف ياقوت بأنه : كانت له حمة عاتية في تحصيل المعارف ... وان الناس كانوا عقيب موته يشنون عليه ويلكرون فضله وأدبه ، والنسبي وهو من اللاحقين ينعتة : بالأديب الاختصاري صاحب التصنيف الأدبية في التاريخ والأنساب والملك وغير ذلك ، وهو عند ابن تترى يردى المتأخر عنه : صاحب التصنيف والخط .

وكان المستشرقون السابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بثروات ياقوت ونهوها الى أهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ويأبى في مقدمة هؤلاء المستشرق الروسي فريس (Fris) الذي كان أول من كتب عنهم عن شخص ياقوت وعرف به وتبعه زميله سبنكوفسكي (Spenkowski) الذي وصعه : بأنه كاتب مدقق مجتهد لدين له بحفظ آثار قيمة .. وقد أبدى الكثير من القيرة والحساس في دراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لمصره ، وجاء بعده قستفلك (Wustenfeld) الألماني فوصف معجم البلدان بأنه : أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار ، وقفى عليه الأسباني بوس بويجس (Boissier) فذكر انه أوسع وأهم . بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للصور الوسطى وأشهر كراتشكوفسكي (Krachkowski) الى أن : أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة .. فهو جماع للمجرفا في صورها الفلكية والوصفية والخفية وللرحلات أيضا كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية الى جانب الدين والحضارة والانولوجيا والأدب التسمي والأدب الفتى في القرون الستة الأولى للهجرة ، وأشاد به المستشرق الهولندي كرامرز (Kramers) وبخاصة بالسمة للإشارات التجارية التي وردت فيه واعتبره جليلا في هذا الميدان كما أكد أن علم التاريخ عديم ليعم البلدان أكثر من علم الجغرافيا ونوه به المستشرق

الفرنسي كارا دو هو (Carta de vover) حين قال : « ان معجم البلدان من المؤلفات التي يحق للاسلام ان يفخر بها كل الفخر » .

وأولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما مائلا بمعجم البلدان فاعتبره هيبس أحمد كتابا ذا « أهمية فائقة إذ تصور العالم الاسلامي في الفترة السابقة على الخراب الذي أصاب ثقافته وتراثه بأهدى المقول ويعتبر الجهد الذي قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة وهدانا الى كتب متممة لم تعد يتيسر الحصول عليها كما استعمل المسجع النفسي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث » وعنده جرجي زيدان « حزانة علم ولذات وتاريخ وجغرافية » وهو عند د<sup>ر</sup> حسين مؤنس « معجم جغرافي خاله رديوان الجغرافية العربية الأكبر وكنزها الذي يمثل صرحا من صروح العبقرية البشرية في كل العصور » وعند عمر كمال « اكمل مصنف للمعلومات الجغرافية والوصفية والعلمية والمؤوية وأخبار المرحلين والتي جعلها السلف » .

حياة الحيوان الكبرى  
الدميري  
١٤٠٠ م



لقد كانت الأمة العربية من أوائل الأمم التي ضربت بسهمها في مختلف ألوان المعرفة البشرية فكانت كتابات ابنائها في العلم والأدب والدين والفن من أروع الكتابات التي سجلها التاريخ ، وكانت لهم في مختلف أسواق العلوم كالرياضيات والملك والطب والكيمياء والنبات قزاقان بها مكتبات الشرق والغرب ، والواقع أن التراث العلمي العربي سواء أكان في صورة مطبوعات أم مخطوطات يحتاج إلى كثير من الدراسة والتعليق إحقاقا للحق ودخسا لافتراءات المرفضين الذي ينكرون على العرب دورهم الكبير في تقدم الحضارة الانسانية .

ونحن إذ نقدم كتاب « حياة الحيوان الكبير » هنا نلخص في وضوح وجلاء أنه الكتاب العرب لم يتركوا بابا من أبواب المعرفة دون أن يتركوه في قوة وهزم ، فقد كتب هذا المؤلف الضخم الذي يقع في جزئين يحتويان على ٦٩٦ صفحة منذ سنة قرون مضت من الزمان وهو تاريخ لم يكن فيه لملم الحيوان وجود ، وقد طبع لأول مرة عام ١٢٧٤ هجرية في مطبعة بولاق بالقاهرة كما ترجم إلى عدد من اللغات الأوروبية .

\*\*\*

دميرى - يفتح الدال وكسر الميم - على وزن صيغة كما تحس صاحب القاموس في مادة ( دمر ) ملدة من أعمال السمودية والسمودية الآن هي بعض بلاد محافظة الدقهلية بمصر نسبة إلى مسعود .

وحقيقة اشتهر منها علماء ذكر بعض منهم في تاج المروس .  
وذكر السخاوى بعضهم في كتابه « الضوء اللامع » .

لكن أشهر من نبح وكانت له آثار وذكر حيد حو محمد بن حوسى ابن عيسى بن علي وكسبه أبو البقاء ، ولقبه الكمال ، أصله من حميرة أما ولادته فكانت بالقاهرة وهو صاحب كتابها هذا كتاب « حياة الحيوان الكبير » .

يقول السخاوى في الضوء اللامع عنه : « الديميرى الأصل القاهري » ويطول أيضا : « كان اسمه كمالا بغير إضافة - أي لا يقال له « كمال الدين » - وكان يكتبه كذلك بخطه في كتبه ثم تسمى محسدا وصار يكتشف الأول » .

ولد في أوائل سنة ٧٤٢ هجرية تقريبا بالقاهرة ونشأ بها .

وتكسب في أول مرة بصناعة هي الخطاطة ثم أقبل على العلم فنفقه بمنهج الإمام الشافعي وجعل يأخذ ذلك من كبار العلماء في عهده مثل أحمد بن القتيبي السبكي والبيهقي الأسنوي ، كما أخذ الأدب وعلوم العربية من كبار رجالها ولم يقتصر في ذلك على من كان بالقاهرة بل درس

إلى مكة المكرمة وتلقى من علمائها وروى الحديث من كتب الحديث المشهورة  
سماعاً على الأئمة وكان يلزمها في تفسير القرآن .

ثم تصدق للتدريس والاقراء ، فانتفع به الناس وشرع في التأليف  
والشرح في الفقه والحديث وكانت له في ذلك مؤلفات لكن أهم ما اشتهر  
به هو كتابه « حياة الحيوان » فإذا قلت : قال النعماني المعروف القسري  
إلى كتابه حياة الحيوان وإذا قلت قرأت في كتاب « حياة الحيوان » كذا ،  
جرى ذهنك إلى صاحبه النعماني .

وفي القاهرة درس بأماكن ، منها الأزهر ، كانت له فيه حلقة يوم  
السبت ومنها القبة البيبرسية ، كان يدرس فيها الحديث ، يقول السخاوي  
في « الضوء اللامع » : « وكنت أحضر محته فيها وكان يوم الجمعة غالباً  
يذكر الناس ( أي معظم ) بـمدرسة البقري داخل باب النصر وبعد عصر  
الجمعة يدرس بجوامع الظاهر في الحسينية » .

وفي مكة ألام سنتين متفرقة وكان أول فترته لها في موسم سنة  
٧٦٢ هـ وفي مكة تزوج فاطمة بنت يحيى بن عبد الصنهاجي وولدت له  
أم حبيبة وأم سلمة وعبد الرحمن .

ولقد صحبه القرطبي المؤرخ المشهور ويقول عنه : « صحبته حينئذ  
وحضرت مجلس وعظه لأعجابه به وأنشدني والمداني وكنت آخيه ويحبني  
في الله لسنته وحسن هديه وجميل طريقته ومدارسته على العبادة » .

ويقول عنه الحافظ بن حجر : « مهر في الفقه والأدب والحديث  
ومشارك في الفنون ودرس للمحدثين بقبة بيبرس وفي عدة أماكن ، وعط  
وأفاد وخطب فأجاد وكان ذا حظ في المباداة للآلة وصانها ومجاورة  
بالحرين » . سمعت من فوائده ومن نظمه واجتمعت به مراراً وكنت أحبه  
سنة » .

وكان يتردد بين القاهرة ومكة في أهوام مختلفة وآخر فتره له إلى  
مكة كان سنة ٧٩٩ هـ ثم تركها في آخر سنة ثمانمائة أو في أول سنة  
٨٠١ هـ وعاد إلى القاهرة واستقر بقية عمره حتى توفي رحمه الله في الثالث  
من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانمائة ( ٨٠٨ ) ودفن بمقابر الصويفية  
ذلك أنه كان في التقوى بالغ المنتهي من عبادة وتلاوة وصيام وقيام ومحاربة  
بمكة والمدينة وله ألكار يواظب عليها وعنده خشوع وخشعة وبكاء عند  
ذكر الله .

وكثيرون أولئك الذين يقرءون كتباً لا تحصى ، فنزكو لديهم المصالحات  
وتتشعب أمامهم المصارف ثم يكتفى أغلبهم بما قرءوا والقليلون منهم

يتحذرون لهم طريقا يسلكونه ومنهاجا يتبعونه ليصلوا الى معين فيأمن حيث  
تتفجر منهم ينابيع من الروافد التي أمدتهم ونزهو عنهم زحرات وتزكو  
نيرات مما تفرسه الكارهم ونلقصت به عقولهم .

وكتب السابقيين فيها أشتات من معلومات ، وتخليط من تقاليد  
يوردونها لأدنى ملايسة ويستطيع من يزعم نفسه ببلهج أن يضم كل نظير  
الى نظيره وكل موضوع الى شبيهه فيخرج من جولته خلال رحابها ومقاهاتها  
بما يكون متحد المعالم ومرجعا لمن يسمو موضوعا واضح القصات .

والصميري كما قلنا فقيه من كبار الفقهاء ومن رجال الحديث الواسعي  
الرواية ومن علماء تفسير القرآن ومن الزهاد الأتقياء ومن المتكبرين الإطلاع  
في كتب الأصناف والعاريف .

## طريقة تصنيف الكتاب

كانت معالجة المسمى للمواد التي يحوى عليها الكتاب فريدة في نوعها ، وكانت تسير في معظم الحالات على ونيرة واحدة منظمة وخصوصا في تلك المواد التي كتب عنها بالتفصيل فاذا استعرضنا واحدة من هذه المواد السبوحية المطولة نوجدنا انها تبدأ عادة بالتعريف باسم الحيوان وكيفية اشتقاق هذا الاسم ثم استعراض للمفرد والجمع في مختلف صوره وكذلك المذكر والمؤنث والمتراذلات ان وجدت ويأتى بعد ذلك وصف الحيوان من حيث الشكل واللون والحجم وكذلك المسيرات الواضحة التي ينفرد بها عن بقية الأنواع ثم يتطرق بعد ذلك الى ذكر العادات والمعامات والطباع وخصوصا ما يتعلق منها بالعداء أو السلوك أو التكاثر وكذلك الأماكن الى يعض فيها أو يتردد عليها والأوقات التي يخرج فيها من محاضته في ظلام الليل أو في صبح النهار ولا يهونه ذكر السلالات المختلفة ان وجدت .

ويأتى بعد ذلك بحث طريف عن شرعية قتل هذا الحيوان ( ان كان من الحيوانات المؤذية ) أو تحريم هذا القتل وكذلك تحليل تناوله كعادة غلانية أو تحريم هذا التناول وكل ذلك معتم بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو أقوال الأئمة والفقهاء . وتحتوى المادة عادة على كثير من الأشعار التي تتعلق بهذا الحيوان أو القصص التي تروى عنه أو الأمثال التي قيلت فيه .

وتختتم المادة عادة بذكر الفوائد الطبية التي تتعلق بالحيوان نفسه أو ببعض الأجزاء فيه ، فقد كان القدمون جميعا يعتقدون في مثل هذه الوصفات التي تستمد من مختلف أنواع النبات والحيوان وتحتوى الكتب الطبية القديمة - الأوروبية منها أو العربية - على مئات من هذه الوصفات التي كانت تستخدم في علاج معظم الأمراض وكتبنا ما كانت المادة تنتهى بعد ذلك بتفسير الأحلام التي يشاهد الإنسان خلالها بعض هذه الحيوانات حيث يختلف التفسير نسبا للطريقة التي يشاهد بها في المنام !!

ويحتوى الكتاب على عدة مئات من مختلف أنواع الحيوانات التي رتب ترتيبا أبجديا مما يسر على القارئ طريق البحث والاطلاع .



ولم يزعم مؤلفنا المصري - حتى صنف كتابه - انه كان عالما في العلوم الطبيعية وانما ذكر - لى تواضع العلماء - انه لما جسد الحقائق المروفة عن الحيوان فى عصره ووصفها امام القارىء فى اطار مرتب على حروف المعجم اذ يقول لى مقتعة الكتاب : « لم يسألنى احد تصنيفه ، ولا كلفت القريحة تأليفه ، وانما دعانى الى ذلك انه وقع فى بعض الدروس التى لا متحاً فيها لعطر يده عروس ، ذلك مالك الحزين والذئب المنحوس فحصل ما يشبه فى ذلك حرب اليسوس وخرج الصحيح بالسقيم ولم يفرق بين نسر وظليم ... الى ان قال ' واستخرت الله تعالى الكريم المنان فى وضع كتاب فى هذا الشأن وسينته حياة الحيوان ' الخ »

ويوضح من علمه الملمعة ان الباحث له على وضع هذا الكتاب هو رغبته فى تصحيح معلومات خاطئة عن الحيوان شاعت فى اذهان الناس ووسخت حتى بين اخص طبقات أهل العلم فى زمانه ، فوضع هذا الكتاب ، مستملا على المعلومات الصحيحة ، والآراء الصائبة المروفة الى عصره .

وقد سار المصري فى تنسيق كتابه على نهج حاص فرتب الحيوانات حسب الحروف الهجائية ليسهل على القارىء الوقوع عليها وخاصة منها الأسماء الغريبة الفاضة . وكتب كل حيوان فى مادة خاصة تشتمل على كل ما عرف من الحقائق عن هذا الحيوان وعلى صورته المتعددة فيما يتصل بالعلوم الاسلامية . ولما كان الكتاب قد جسد أغلبه من مصادر متعددة فقد تعددت - تبعاً لذلك - الاستشهادات والمراجع المؤيدة وقلما تتلو صفحة من دليل او برهان يتنطق بكثرة ما اطلع عليه المؤلف من المراجع المختلفة وما استخلصه منها .

ومما زاد مواد مطولة مسهبة وأخرى مقتضبة موجزة حسب الموضوع وما قد يعتويه من حشو وافاضة فقد تستطيل المادة الى جلة صفحات عن الحيوانات المشهورة كالأسد والابل والخيول والليل والدواب او تقصر المادة الى بضعة سطور او يضح كلمات عن الحيوانات النادرة او غير المألوفة مثل مادة ( البهنة ) ومادة ( القرعوش ) فيقول عن الأولى ( البقرة الوحشية ) وعن الثانية ( القيارد القليظ ) فقط .

وتبدأ كل مادة بتعريف اسم الحيوان وشرح الاسم من الناحية اللغوية وتعداد الأسماء التى يكسب بها الحيوان ممتدا على أشهر فقهاء اللغة مثل ابن سبيد والبوهري والجناح يتلو ذلك وصف الحيوان وذكر طابعه وتعداد أنواعه وأصنافه كما قال مثلا عن الأسد ممتدا على أرسطو الذى استشهد بكتسابه المسمى « النعوت » فى وصف الحيوانات فى جلة مواضع . ثم يروى المصري الأحاديث النبوية التى ورد فيها اسم الحيوان

سواء في ذلك ما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحيوان ، وقد اعتمد النعمري في رواية الأحاديث النبوية الشريفة على آلهة الحديث الستة وهم البخاري ومسلم وأبو داود والسنائي والترمذي وابن ماجة . كما اعتمد أحيانا على غيرهم مثل البيهقي والسهيلي وابن الجوزي والحصن البصري ومع ان شيخنا النعمري كان من علماء الحديث كغيره من علماء الحديث المبرزين ، الا انه الوحيد من بينهم الذي استطاع أن يحصل من الأحاديث النبوية التي استشهد بها مادة علمية لكثايف ومعظم الأحاديث التي أوردها مصنفة الى ابن عباس وأبي هريرة والسيدة عائشة وجابر بن عبد الله وابن عمر ومالك بن أنس .

ثم ينتقل - في المراء المخلولة - الى ما يتصل بالحيوان من التحريم أو الإباحة ليس فقط من ناحية الأكل بل وكذلك في كل ما له علاقة بالحياة العادية للمسلمين مثل الصيد أو الذبحة أو الزكاة أو الطهر أو النجاسة معتمدا في ذلك على المذاهب والأحكام المختلفة لآلهة المذاهب الأربعة . أبي حنيفة التيمي ومالك بن أنس وابن حنبل والشافعي بالإضافة الى غيرهم من الآلهة . ومع ذلك كان النعمري - من حينه لآخر - يجتهد رأيه الخاص ويذكر عليه . ومع انه كان شافعي المذهب الا انه - في بعض الأحيان - ينجح الى الأخذ بالأراء الصوفية بما يديه من إعجاب وإكبار بأمثال الجنيد والحزالي وعبد القادر الجيلاني والمغربي وغيرهم .

### البذور الثمينة في العلاج الطبي !!

ثم ينتقل - في المادة - الى ذكر الأمثال التي تتصل بالحيوان ومن المعروف أن معظم الأمثال العربية مشتقة من الحيوان بل ويندر وجود حيوان يعرفه العرب لم يضربوا عنه مثلا أو أكثر ، لذلك كان كتاب حياة الحيوان هو خير مدال واليسعه لايضاح حقائق الأمثال وتصويرها تصويرا صحيحا . ولا شك في أن النعمري قد صادف كثيرا من العلماء وبذل جهدا كبيرا ليس في شرح معظم هذه الأمثال وبيند المواطن التي تطرب فيها فحسب ، بل وكذلك في تنبج آثار الوقائع التي نشأت منها الأمثال . وقد اعتمد النعمري في ذلك على كتاب الميداني الذي جمع فيه الأمثال العربية .

وكتاب حياة الحيوان للنعمري يعد - من الناحية التاريخية - أول محاولة في التصنيف العربية ظهرت في صورة منسقة جمعت شتات العلوم الخاصة بالحيوان سواء من قتل عنهم أو مما انطبع في أذهان العرب من حياتهم في البادية ، وفي مناحي الصحراء ، وحملوها معهم حيثما امتدت بهم فترحاتهم الى الافاق البعيدة والقطار التجارية ، ففي الجاهلية قبل

الإسلام - كان العرب متعزلين في أحضان الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر حينئذ ، وكانوا في حياتهم الحيوية يرون - على النوام - قشي أنواع الحيوان والنبات واكتسبوا - من طول مشاهدتها ومراقبتها - معرفة بطبيعتها وصفاتها والطبعت في أذهانهم ومخيلتهم ماهيتها وخواصها .

ثم يخطر المؤلف بعد الأمثال إلى ذكر الخواص الطبية وغير الطبية لأجزاء الحيوان المختلفة وعصاراته وفضلاته . ومع أن الضرر لم يكن له الملم سابق بهذا النوع من الدراسة إلا أنه أظهر فيه من المقدرة ما يشهد له بالتفوق فقد استوعب آراء الآخرين وما أثبتوه من مشاهداتهم وركزها - جميعا - في إيجاز بأربع مئة على آراء ابن سينا وابن عتيق (١٦) وابن رشد وأرسطو وحني بن اسحق والجاحظ والقزويني .

والناس في جميع أنحاء العالم - منذ أقدم العصور - كانوا يستعملون في الخواص الطبية والفسيولوجية لأجزاء جسم الحيوان وفضلاته وهي خواص ثابتة لديهم فالتدبير عن تجارب عملية أو عن حلس وتخصي . فعلم المادة الطبية عند الإغريق القدماء يعالج مواد كثيرة من أصل عضوي حيواني . والعرب - عندما ترجموا المؤلفات الطبية من لغات الأمم الأجنبية التي تجاوزهم لم يقتصرُوا على ترجمة آرائهم فحسب بل ترجموا كذلك معتقداتهم في فوائد هذه العقاقير والمواد الأخرى التي وردت في تلك المؤلفات وكذلك اليهود والعيسنيون الذين مارسوا صناعة الطب - لقرون عديدة - قبل ظهور الإسلام قد استخلصوا المواد الحيوانية في علاج الأمراض وكان اعتقادهم كبيرا في خواصها . ومهما يكن الرأي في الحالات التي جمعها المؤلف في كتابه والتي تستعمل فيها أجزاء الحيوان المختلفة وعصاراته فإنه لما كان يقرر المستندات المتداولة بين موافقيه وبين سائر أمم الشرق والغرب التي استقى منها الحرج علومهم المختلفة .

وقد يرى البعض أن أمثال هذه المعتقدات في فائدة استخدام أعضاء الحيوانات وعصاراتها في علاج الأمراض تصم العصور القديمة بالمصادفة والجهل ، إلا أن نتائج السحو الحديثة عرفة قيمة المواد العضوية الحيوانية التي تستخلص من النسد الحيوانية وغيرها لا تدع مجالا للشك في صحة ما ذهب إليه الرواد الأول في ميدان العلاج وكان هؤلاء الرواد يستخلصون نفس المنتجات الحيوانية على حالتها الطبيعية . وقد اتجه الطب الحديث إلى الأمل بهذه النتائج وأصبحت من أسباب تقدم العلاج وعلى ذلك تعد المبطولات القديمة - على الأقل - بنورا في حقل العلاج الطبي .

ثم إن المؤلف ينهي - عادة - كلامه عن كل حيوان يصفه بذكر التصدير في المنام . والحرب لم يكتوتوا الوحيدين الذين يعتون بهذا الفرع

من العلم بل كانت كل شعوب بلدان الشرق يسنون به عناية فائقة ، ومع  
أن علم النفس الحديث لا يعترف بما ذهب اليه الاقدمون في تفسير الرؤيا  
ولكن هل كتشف علم النفس من كل أسرار النفس ؟

ومن أروع ما مضته الكتاب ما ورد فيه من القصص فيما يتصل  
بالحيوان فقد تكلم مثلا عن : هـ حمزة سليمان ، و هـ حوت موسى ،  
و هـ فرس فرعون ، التي طارد عليها بني اسرائيل وعز هـ البراق ، وعن  
هـ العقلاء ، وغيرها وقد سرد القصص سردا كاملا مسهبيا في كثير من المواضع  
بحيث تبدو كل قصة بذاتها عملا قريبا وانما هـ ومن ناحية أخرى فإن  
تضمن كل حادثة أمثال تلك القصص فضلا عن الفهر الرصين والأمثال  
وبغيرها مما يضفي على المادة لونا من الترويح على المطلع ويجعل الموضوع  
شائقا غير جميل .

وكما بدأ المؤلف كتابه بتقديم حشد فيها بعض صنوف الحيوان التي  
ورد ذكرها في حلقه الفرس وكانت باعتبار على تصنيف الكتاب كذلك أورد  
قبل أن يحتتم الكتاب قصيدة لكمال الدين علي بن محمد بن الماروك صاحب  
اللقامة البحرية المروى في شهر المحرم من سنة ٦٩٢ هجرية وهي قصيدة  
مطولة يمجو فيها دثر سكناه وضمناها أسماء حيوانات كثيرة وفيها النكتة  
اللذنة والتشبيه البارح .

وقد قال الصديقي في آخر كتابه : هـ الله قرخ من مسودته في شهر  
رجب الفرد من سنة ٧٧٣ هـ ، ومن علم السحرة المبيضة في شعبان من  
سنة ٨٠٠ هـ .

### \*\*\*

ونوجد من كتاب حيلة الحيوان للصديقي نسختان كبيرى وصغرى  
والنسخة الكبرى هي التي اهتم بها العالم العربي واعتمده عليها ونواتر  
طبعها . نسخة مرات .

فقد طبعت أولا بالمطبعة الاميرية ببولاق بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ  
( ١٨٥٨ م ) - وعليها مقدمة بقلم مراجعها محمد المعوى تم اعيد طبعها  
سنة ١٢٨٤ هـ ( ١٨٦٧ م ) وقد راجعها وصححها محمد الصباغ . ولتكوين  
فكرة واضحة عن حجم الكتاب وسهته تذكر أن هذه الطبعة الثانية صدرت  
في جزئين يضم الجزء الأول ٤٦٠ صفحة والجزء الثاني ٤٨٥ صفحة من  
القطع الكبير عدا مقدمة المصحح ويضم الكتاب ١٠٦٦ مادة تتصل بالتاريخ  
الطبيعى للحيوان ولكن عدد الحيوانات المثلة في هذه المواد أقل لأن  
الحيوان الذي يحصل اكثر من اسم يكرر ذكره عند ايراد كل اسم من

اسمائه حسب ترتيبه الهجائي . وبالإضافة الى علم المواد فان هناك ٦٩ فصلا عن تاريخ الحفظ وهي فصول تمد خارجة عن علم الحيوان . ويقرر « ويستغلد » (١٧) أن الكتاب يحتوى - فى مجموعه - على وصف (٧٣١ حيوانا ولكنه نظرا لأن اسما واحدا قد يطلق على عدة حيوانات أو أن اسما قد تطلق على حيوان واحد فان الصعوبة تبدو كبيرة لاحصاء عدد الحيوانات الموصوفة احصاء حقيقيا .

ثم طبعت هذه النسخة الكبيرة بالمطبعة الجيوية فى سنة ١٣٠٥ هـ ( ١٨٨٧ م ) وقد ذكر المؤرخ هواوت فى سنة ١٩٠٣ م أن هذه النسخة الكبرى طبعت بالقاهرة ست مرات ولا شك فى أنها قد طبعت بعد سنة ١٩٠٣ م أكثر من مرة .

وورد فى معجم سر كيس ( طبعة ١٩٢٨ م ) « أن كتاب حياة الحيوان للدهيرى طبع فى بلاد فارس سنة ١٢٨٥ هـ مع صور ورسوم جميع الحيوانات الواردة فيه وكذلك صور بعض الأدميين ممن ذكروا فى الكتاب وترجم كتاب حياة الحيوان أكثره لا كله الى اللغة الانجليزية بقلم جاكار وطبع فى لندن وبومبي سنة ١٩٠٦ م و ١٩٠٨ م » .

## اهتمام العلماء بالكتاب

ونظرا لضخامة حجم هذا الكتاب فقد عملت له مختصرات أحدها عنوانه « حاوي الحسنات من حياة الحيوان » وجاء في قائمة باريس للمخطوطات العربية أن هذه المسخة المرحزة من تأليف النعماني . وقده أراد المؤلف أن يعيد نشر هذا الكتاب بجمعية موجزة فحذف من الأصل ما جاء في مادة الأوز عن الحفلة الراشدين وغيرهم وهناك مختصر آخر عنوانه « عين الحياة » من عمل محمد أبو بكر عمر بن أبو بكر بن محمد المخزومي القمامي المالكي وانتهى من عملها في بهلوله ( بالجزيرة ) بالبحر بالهند في ١٤ شعبان سنة ٨٢٢ هـ ( ١٤٢٣ م ) أي بعد ١٥ سنة من وفاة المؤلف وقد أثبت واضع هذا المختصر في مقدمته أنه كان يأخذ تلاميذ النعماني وقده نسخ أصول الكتاب من فم مؤلفه وقال الله مع الاحتفاظ بالتبويب الأصلي للرواد بالماورين الواردة تحت كل مادة فإنه قد حذف من الأصل كل البحوث الفلسفية والدينية والافعال الشعرية والتقصص الأدبية بحيث أصبح المختصر على صورة موجزة في تناول الجميع . ويقول وستفلف أنه يوجد مختصر لكتاب حياة الحيوان كما توجد منه مخطوطات في برلين وباريس ولكن وستفلف لم يذكر اسم كل منهما أو اسم واضعه ولذلك لا يمكن الحكم بأنه أحد النسختين السالفتين ، أو أن ذلك مختصر يختلف كلية عنهما .

وعناك مختصرات أخرى أحدها من عمل عمر بن يونس بن عمر الحنفي وأخرى من عمل الشيخ تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ وثالث من عمل القاري المتوفى سنة ١٠١٦ هـ وقد سمي مختصره « بهجة الانسان في مهجة الحيوان » في مكة المكرمة سنة ١٠٠٣ هـ ومختصر آخر وضعه الشيخ عبد الرحيم بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وقد قسمه الى جزئين أطلق على الجزء الأول اسم « ديوان الحيوان » وعلى الجزء الثاني اسم « ذيل الحيوان » وهو ملحق للجزء الأول .

وفصلا عن هذه النسخ المختصرة فقد صدر ملحق لكتاب الحيوان كتبه القاضي جمال الدين محمد بن علي بن محمد المكي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وأطلق عليه اسم « طيب الحياة » .

ويتضح من تمدد هذه المختصرات التي صدرت بعد وفاة المفيرى  
 بقليل مقدار ما كان عليه اهتمام علماء العرب بكتاب حياة الحيوان والصل  
 الدائب على نشر خلاصات لما ورد فيه على نطاق واسع وهذا كله سببه  
 بما يقوم به - قى وقنا الحاضر - علماء الغرب سعيا في احياء تراثهم  
 العلمى وتحميم نشره فاذا كان الكتاب ضخما الحجم اصغروا عنه مختصرات  
 واذا كان الكتاب صغير الحجم تناولوه بالزيادة والاضافة كما هو الحال  
 مع كتاب العلامة الأمامى د بریم د الذى سماه د حياة الحيوان د مؤتمنا  
 بهسيعفنا المفيرى .

## اعظم مؤلف في علم الحيوان

ومما لا نزاع فيه أن كتاب حياة الحيوان للدميري قد عرف في أوروبا منذ زمن طويل لطلاب اللغة العربية في الجامعات الأوربية وغيرهم واشتهر في الأوساط العلمية هناك بأنه كتاب عظيم قيم . ولا نزاع كذلك في أن هذا الكتاب قد لعب دورا مهما في الثقافة العربية فكتيرا ما اقتبس منه العلامة « لين » في معجمه العربي المشهور . كما أن العلامة بوكارت قد استعان به في مؤلفه المسمى « حيروزيكون » كما أخذ عنه العلامة هازل بعض ما ورد عن مادة الحراد نقلا عن مشطوط في كورنهاغن وقد أورد العلامة « سافستردى ساسي » مقتطفات مطولة عن كتاب حياة الحيوان للدميري في كتابه « لانس دويين » وعلاوة على ذلك فقد تضمنت مؤلفات كثير من علماء أوروبا مقتسمات من كتاب الدميري أمثال كرامر وهرمل وتكسن وبريم الألماني وسواهم .

ويقول جاكارد : « لقد جاء كتاب حياة الحيوان للدميري فيما قياضا من الحكمة الإسلامية والعربية زائرا بقواعد الفقه والتشريع والأحاديث النبوية والفنون الأدبية والأمثال تدفقت كلها من مناهل متصلة ومصادر مختلفة وتجمعت كلها في صعيد واحد ينهل منها القاري من المسلمين في العالم العربي قياضا لا ينضب مما يورث الألباب به في شتونه الدينية والدنيوية » . ثم يقول جاكارد : « وفي الحق أن الكتاب مضمون بانحرافات قد يستسيبها القاري العربي ولكنها تعد في نظر القاري الأوروبي مما لا ينتظر والانحراف الأكبر - الذي يؤخذ على المؤلف - هو ما ورد تحت مادة الأوز والذي يقص فيه الحديث المأثور عن علي بن أبي طالب ( كرم الله وجهه ) فإن المؤلف لم يقتصر على وصف مختاله فحسب ولكنه انشاق منه إلى ذكر تاريخ عام موجز لتاريخ جميع الحلقاء مما استغرق ٦٠ من مجموع صفحات الكتاب » .

ثم يقول جاكارد : « إن العلمية التي يتصف بها أسلوب المؤلف قد يشوبها - في بعض الأحيان - إيجاز مفرط وخاصة عند توضيح القواعد الدينية والأحكام الشرعية وعند تلخيص الأحاديث النبوية ولو أنه يسهب أحيانا أسهابا مستغنيا في بعض المواضع » .



ثم يقول جاكاز : « ان الذميرى فى استشهاده - فى بعض المواد - بيت أو بيتين من الشعر يتصل بالحيوان يعود فيسوق آياتا أخرى للشاعر لا تنصل بالحيوان لا لمرضى الا للدلالة على نبوغ الشاعر وقدرته أو يسوق آياتا لشاعر آخر تؤيده ما قاله الشاعر الأول ولو أن المسمى الوارد فى هذا الشعر بعيد عن الحيوان ولا يست الىه بصفة ما » :

ويقول لوسين ليكليرك : « ان الذميرى هو اعظم عالم - فى علم الحيوان - اوجبه العرب ويكفى انه كتب أكثر مما كتب عن الحيوان فى العالم الاسلامى . وقد كتبه بأسلوب رجل أدب أكثر منه بأسلوب رجل عالم فى التاريخ الطبيعى . والذميرى متفوق على القزوينى فى سعة الاطلاع وفى كثرة المعلومات التى لوردها ولسكنه من ناحية أخرى يختلف عن القزوينى فى طريقة سرد الموضوع أو المادة فكتاب حيلة الحيوان مرتبه على حسب الحروف الهجائية ولذلك خلا من عرض الحيوانات فى مجاميع من الرب والنصائل » .

ويستطرد ليكليرك فيقول : « ان الذميرى كثيرا ما يخرج عن الموضوع الاصلى - لأقل سبب - متسائلا الى ذكر أمور لا تمت الى الموضوع بصفة . ونحن نتحدث عن مادة البراق يورد دابة حراية وكذلك كلامه تحت مواد السنابس والمقاربت والجن وأمال ذلك مما لا يجوز تصديقه الا على الصدق مثل قوله فى مادته الضبع والارنب من ان كلا من هذين الحيوانين يكون ذكرا فى عام وأنثى فى العام الذى يليه ومثل قوله فى مادة الذئب ان مدة الحمل فى أنثى الغيل سبع سنوات . » ويتنمى ليكليرك بقوله : « انه اذا أسقط من الحساب ما ورد فى كتاب الذميرى من الخرافات والقصص وتراجم الأشخاص فان الكتاب يعد مجموعة فريدة قيمة من المقائق المتصلة بتاريخ الحيوان » .

ويقول العلامة السويلى ادريك نوردن سكبولد فى كتابه « تاريخ البيولوجيا » : « لقد وصل اليها كتاب ضخم يسمى « كتاب حياة الحيوان » من وضع محمد الذميرى كتبه فى أواخر القرن الرابع عشر على يدى وصف فيه عددا كبيرا من أنواع الحيوان قدره البعض يتحو تمصاته نوع وكشف جانباً منها عن خبرة ومعاملة شخصية ووصف الجوانب الآخر من تصورات خيالية » .

ويقول العلامة حاجي خليفة : « ان كتاب حياة الحيوان للذميرى كتاب لا يساوى » .

لما لم يصطلح بتلك جاكاز فلا بد من القول بأن كثيرا من المؤلفين العرب في تلك المصنوع درجوا على أن تشمل مؤلفاتهم ألوانا كثيرة وفنونا متعددة من العلوم والآداب لئلا يظنهم الواسع باختلاف فروع الثقافة والمعرفة من علم وأدب وفقه وفلسفة وطب إلى غير ذلك . ولم يكن هناك - حيث - تخصص بالمعنى المفهوم في عصرنا الحاضر لذلك كان من المؤلفين أن ينتقل إلى كتاب فجاء من فن إلى فن دون أن يعد ذلك الحرفا بل فيه تشويق ومغنة وخاصة إذا كان الكتاب يعالج مواضيع علمية بحتة وذلك دفعا للسلافة وهناك هدف أصم وهو استعراج القاري إلى امتصاص كل ما يمكن استيعابه من الكتاب وفي هذا ثقافة عامة محدودة فتشبعنا النعمى حين يتكلم - مثلا - عن الأسد أو الضبع يترج المادة بألوان شتى شائقة تفري القاري، بتدوينة - فالكتاب ولو أنه مهيئ للجوانب إلا أنه درج فيه على أسلوب الموسوعات المستفيضة . ومع أن النعمى قد أسرف في ذلك ونحاور فيه حدود المؤلف إلا أن الإسرافات ولو أنها تشق على الباحث الذي يسعى إلى الوقوف على بيان خاص إلا إنها - في حد ذاتها - لا تخلو من فائدة وتشهد - في الوقت نفسه - على ما للمؤلف من سعة الإدراك وقوة الذاكرة وسعة البحث الذي أدى به إلى هذا السيل القياض من مختلف الآراء التي كثيرا ما انتقل بها بعيدا عن الموضوع الأصلي . فائدة الأولى التي ساق فيها تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين وغيرهم إنما ساقها ليعزى بها الرأي الذي ذهب إليه المؤرخون من أن كل سادس قائم بأمر الأمة مخلوع فيقول النعمى في مادة الأولى تحت عنوان « قائمة اجنبية » : « ولا كان الحديث شجون وإغادة العلم تحقق للطالبين ما يرجون وتجسد لهم ما ينسى الخليل أيام الجون . أحببت أن أذكر ههنا قائمة غريبة ذكرها المؤرخون وهو أن كل سادس قائم بأمر مخلوع وهائلا أذكر ما ذكره وأزيد عليه قدوا يسيرا من ميرة كل واحد منهم وأيامه وسبب موته ومدة خلافته وعبره لتكتمل بذلك القائمة » .

ويتضح من هذا القول أن النعمى لم يقرب من بآله أن ذلك خارج عن موضوع الكتاب . وقرر أنه إنما ساقه لا يتطو في ذكره من الفائدة . فضلا عما فيها أورد من الزيادة والافساسة ما يشهد له بطول الباع في البحث بعد رسالة وإنية - على نسق الرسائل المصرية - في موضوع بذاته كمال ما تمنح له درجة علمية في علوم التاريخ .

أما ما جاء في تلك جاكاز عن الإيجاز فإن اللغة العربية من محاسنها أنها لغة إيجاز ومنطق وأنه قد يتطو من المعنى في جملة قليلة الكلمات

ما لا يتوفر في لغة أخرى إلا في جمل مطولة كثيرة الكلمات فإذا كان  
 الدميري قد أوجز في بعض المواضع التي اقتبس فيها من غيره من المؤلفين  
 العرب الذين تميزت لغتهم بالإيجاز فإنه قد يبدو لغير المتسلح في اللغة  
 العربية أن هذا الإيجاز المزجج مما يريك القارئ العادي . ولكن الدميري  
 قد كتب لأفادة الذين يطرح فيهم الحصول على ثقافة عامة في مختلف  
 العلوم التي تناولت - من بعض نواحيها - التعاليم الإسلامية فيكون من  
 غير المستساغ أن يستفيض في شرح معلومات معروفة لهم على أنه من  
 جهة أخرى قد أقاض طويلا في المواضع التي تستحق الشرح والتفسير  
 مثال ذلك ما ورد في مادة الأبل في حديث وهب : « تأبل آدم على ابنه  
 المقتول كذا وكذا علما لم يصب سوء » أي امتنع عن غشبانها أعراما  
 وتوحش عنها ، فالقارئ من المسلمين في غير حاجة إلى شرح قصة آدم عليه  
 السلام وابنيه هابيل وقايل - كذلك ما ورد في مقالة الكتاب ألا يقول :  
 « صار الشيخ الأفيق كفتات النحيين » يصف علماء طائفة النوسم بالعبرة  
 والتردد وذات المحبين مثل يعرفه العرب ، ويضرب في حالات الحيرة  
 والارتباك والنسي هو البقرة أو الرق . وقد تلى هذا المثل عن قصة امرأة  
 كانت تحمل زنتي على كتفها ياحمها غسل وبالأخر سجن وصادفها وهي  
 في الطريق رجل يريد بها سوءا وأودت الدفاع عن نفسها فأفمكل عليها  
 أي الزنتي تلقى به على الأرض لتسكن من دفع هذا المعوان .

وكما قال في مادة الخيل عن الأمثال : « كالأشقر إذا تقدم لحر إذا  
 تأخر عقر » هو مثل مشهور لدى العرب يضرب لمن وقع بين خطرين ولم  
 يكن الدميري في حاجة إلى إيراد أصل المثل ونشأته لأنه مثل يصل  
 بمترة الصبي المعروف والأشقر هو فرس لقط بن زرواء الذي كان يقاصم  
 عنتره ولكنه يرهب جانيه وتعين فرصة شقاق بين عنتره ولبيته عيسى  
 فسولت للقيط نفسه أن يهاجم القبيلة في غيبة عنتره حتى إذا عزمها  
 نالت الهزيمة من سمعة عنتره فارس القبيلة لهاجم القبيلة ولكن عنتره  
 سارع إلى لجدها فوقم لقيط بين شقي الرحى ، القبيلة من أمهاته وعنتره  
 من خلفه ولم يسمعه الأشقر بالفرار وأطبق عليه عنتره وأخذته أسيرا .

وفضلا عن الإيجاز فقد أقاض في مواضع تجب فيها الإطناف لعدم  
 مراحمها فلي مادة « عقاء » يقول : هي من الألفاظ الدالة على غير معنى  
 ثم يستطرد إلى ما قاله غيره فيفيض طويلا في الحديث عن هذه الأسطورة  
 لم يود فيقول إن العتقاء طائر في طول البلشون ولكنه أعظم حسما عنه  
 كذلك في مادة الثراب يقل عن أرسطاطاليس وأسهب طويلا وأقاض في  
 وصف الرعاة والزواني وطبائعهم ومواقعهم فتكلم عن أهداف والرابع والأكل  
 وغراب الزرع والأروق والثراب الأعصم وكلها أسماء يستغنى عنها علم

التصنيف الحديث للطيور في قصيلة الغربان و الفرق بين الغربان وهو طائر  
لهارى من الصفوريات وبين غراب الليل الذى لا يظهر الا ليلا كالجرم  
والمع فى اكثر من موضع الى اقوال ارسطاطاليس والقزوينى والجاحظ  
وغيرهم علاوة على الأحاديث النبوية وأسانيدها وأقوال الفسراء وسواهم .

ولا مرء فى ان مؤلفنا الدميرى يرجع اليه الفضل فى انه أول من  
تناول الحيوان من زوايا متعددة سواء من الناحية اللغوية أو العلمية أو  
الأدبية أو الدينية كل ذلك فى مؤلف واحد هو موسوعة شاملة قريفة فى  
نوعها وقد عني الدميرى كثيرا - فيما يتصل بعلوم الأحياء - بالجغرافيا  
الحيوانية من حيث موطن الحيوان وتوزيعه الجغرافى - فقال مثلا عن  
الحيوان المعروف باسم « الشيخ اليهودى أو انسان الماء » انه حيوان يوجد  
ببحر الشام وقال عن السمكة الطيار وهو المعروف باسم الطخاطف انه  
سمكة يسبح سبعة لها جناحان على ظهرها اسودان تخرج من الماء وتطير  
فى الهواء ثم تعود الى البحر ، وقال عن التمساح : « وهذا الحيوان  
لا يكون الا فى نيل مصر خاصة ، وزعم قوم انه فى بحر السنه أيضا »  
الى غير ذلك مما قد يستطيع المطلع ان يتبين منه موطن الحيوان سواء من  
الوصف أو من التواتر والأمثال .

كما عني الدميرى بالكلام عن بيئة الحيوان وطباعه وغذائه وذكر  
الحيوانات التى تنشط فى الليل والتى تنشط فى النهار وتأثير ذلك على  
أبصارها وكذلك الحيوانات التى تعيش فى الصحارى أو فى الأراضي  
المنزوعة أو الصخرية أو فى الجبال أو التى تعيش فى الماء فتكلم من  
الغشاش ووصفه بأنه « حيوان ليلى ضعيف البصر يتغذى بالهوام » وقال  
عن القمل : « حيوان ثوكى يتغذى بالحيات والحشرات » وقال عن البوم :  
« انها طائر ليلى يصيد الفار » ووصف النعامة بأنها جبل الصحراء وان  
لها ساقين طويلتين وخفا يساعدها على العدو السريع وتتغذى بالحشائش  
وذكر الدميرى البسات القستوى فقال عن الوب : « فاذا جاء الشتاء دخل  
وجاره الذى اتخذه فى الشيران ولا يخرج حتى يطيب الهواء » .

يضاف الى ما تقدم ان كتاب حياة الحيوان قد اشتمل على كثير من  
المقائق العلمية ففضمن ظاهرة التكافل كما ورد فى مادة الضب من  
تعايشه مع العررب فى حجر واحد ، وكذلك تضمن الكتاب ارجاع الحيوانات  
الى أصولها مثل ما ورد فى مادة التمساح من تحريم أكله فقد حلل التحريم  
بأن التمساح أصله حيوان برى وانه ليس كسمكة القرش الذى يجد  
حيوانا يحرها بحثا فكتانه يغير حلسا الى طور بائد من أطوار حياة  
التمساح .

ومع ان مواد الكتاب مرتبة على حسب الحروف الهجائية . الا انه تعريف كل حيوان يحصله في موضعه الصحيح من الشجرة الحيوانية فهناك الثدييات والطيور والزواحف والأسماك الى غيرها من الحيوانات اللائقية - كما ان قسم من هذه الأقسام مقسم بدوره الى الأقسام الصحيحة في تصنيف الحيوان الحديث فهناك اللواحم وآكلات الحشرات وآكلات الحشرات وعقدا من الأقسام الأخرى ولهذا عن ذلك فقد زود هذا الكتاب المكتبة العربية لعلم الحيوان بشرة من الأسماء السليمة سواء في ذلك الحيوان البالغ أو صغاره وأسماء الذكر والأنثى .

كما أفاض في تسمية الأكواع مثل ما ورد تحت مواد الأسد والابل والخيول والحية وغيرها وقد تضمن الكتاب بعض الأسماء العربية التي ربح بها العلم الحديث مثل كلمة الجملكي التي تطلق على نوع من الأسماك الثلاثكية يتطفل على الأسماك ومثل كلمة الأرنب البحري عن ضرب من الحيوانات الرخوة يزحف على الأعشاب البحرية التي يخفى بها ويحمى بأن قرنيه الأماميين - ويعرفان باللماسين - كحيوان يشبهان آذن الأرنب ومن هنا اشتق اسم الحيوان . ومثل كلمة تفلق على طائر من طير الماء وانطما عنه أحمد فارسي والدكتور بوسنت في تعريف هذا الطائر .

وقد استعان بكتاب حياة الحيوان للدميري بعض علماء الأجناس البشرية في أوروبا أمثال هومل في تحديد مواطن الجنس الساسي في الشرق حسب توزيع الحيوان الجغرافي .

واذا كان كتاب حياة الحيوان للدميري لم يدرس الى اليوم دراسة وافية في العالم العربي من النواحي العلمية كما درس مثلا كتاب ابن الهيثم في العلوم الطبيعية حيث استخلصت منه النظريات الحديثة في الضوء فان كتاب الدميري خليف بالبحث والتحليل مع استبعاد التصورات والافتراءات التي لا تتصل بالحيوان والتي حله معظمها نقلا عن غيره فيصير الكتاب - بمرء إضافة ما جد ويجه من علم ومعرفة - في نوع جدير وفي صور متعددة كبيرة وصغيرة وبذلك يساهم هذا الكتاب بنسبة أولى في نشر الوعي الثقافي الحديث في العالم العربي فضلا عما ينطوي عليه هذا العمل من تقدير ووفاء لعالم مصري صميم ولد في القاهرة ومازال ضريحه قائما بها .

## تملّج من الوصف

كتب النعماني في وصف النمل ما يلي :

النمل معروف ، الواحدة نملة والجمع نمل . وأولى نملة ذات نمل وطعام منقول إذا أصابه النمل . والنملة بالضممة التسمية وسميت النملة نملة لتسلها وهو كثرة حركتها وقلة لقواتها ، والنمل عظيم الحيلة في طلب الرزق فإذا وجه شيئاً أنكر الباقيين لباقوا إليه ويقال إنما يفعل ذلك رؤساؤها . ومن طبعه أنه يحتكر قوته من زمن الصيف لزمن الشتاء . وله في الاحتكار من الحيل ما أنه إذا احتكر ما يخاف انقباضه قسمه نصفين . وإذا خاف العفن على السب أخرجه إلى ظاهر الأرض ونثره . وأكثر ما يفعل ذلك ليلاً في ضوء القمر . والنمل شديد الشم . ومن أسباب هلاكه نبات اجتثته فإذا صار النمل كذلك أنصبت الحشرات لأنها تصيدها في حال طيراتها وهو يحفر قريته بفوائمه وهي ست فلذا حفرها جعل فيها تصاريح لئلا يجري إليها ماء المطر . وربما اتخذ قرية فوق قرية سبب ذلك وأما يفعل ذلك خوفاً على ما يدخره من البلبل . وليس في الحيوان ما يحصل ضعف يده مراراً غيره ولا يكون عموه أكثر من سنة ومن عجاليه اتخاذ القرية تحت الأرض ولها منازل ودعاليذ وغرق وطبقات معلقة يسلوها حيويًا وذخائر لشتائه ومنه ما يسمى « النمل الفارسي » وهو من النمل يمتزلة الزناوير من النمل . ومنه أيضاً ما يسمى « بنمل الأمد » لأن حلقه يشبه وجه الأمداء ومؤخره يشبه النمل .

وكان ما كتبه عن الخنافس ما يأتي :

الخنافس واحدة والخنافس التي تطير في الليل . وهو غريب الشكل والوصف والخنافس سفر العين وضيق البصر . قال البطليموس : الخنافس له أربعة أسماء خنافس وخنافس وخطاف ووطوط . وقال قوم الخنافس الصغير والوطوط الكبير وهو لا يبصر في ضوء القمر ولا في ضوء النهار ، ولما كان لا يبصر نهائياً الشمس الوقت الذي لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء . وهو قرب غروب الشمس ، لأنه وقت هيجان البعوض فإن البعوض يخرج ذلك الوقت يطلب قوته وهو حماء الحيوان . والخنافس يخرج طالباً للطعم ، فيقع طالب رزق على طالب رزق فسبعان الحكيم . والخنافس ليس هو من الطير في شيء فإنه ذو أذنين وأسنان ونخسيتين ومنقار ويحشى ويظهر ويبيك كما تبكي ذوات الأربع ويرضع ولده ولا يهني له . وهو شديد الطيران سريع القلب يقتات البعوض والذباب وبعض المراكه وهو مع ذلك موصوف بطول العسر فيقال أنه أطول عمراً من النسر ومن حمار الوحش وتلد أنثاه ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة وليس في الحيوان ما يحصل ولده غيره والقرود والالسان . وحملته تحت جناحه وربما قبض عليه بديه . وذلك من جنوه واشغاله عليه وربما أوضعت الأنثى ولدها وهي طائرة .

حركات الكرات السماوية  
كوبيرنيكوس  
١٥٤١ م





لا يستثنى الإنسان منذ فجر التاريخ عن استخدام العناصر الفلكية في كثير من مرافق حياته . وحتى الآن نجد لدى أفراد الشعوب البدائية معلومات فلكية متأثرة بسيطة إلا أنها أساسية بالنسبة لحياتهم وتعليمهم في معاشهم وأحوال دنياهم ، لهم غالباً لا يخرجون للنقص أو لصدد الأمساك ولا يزعمون ولا يتأهبون لنتهب أو السلب إلا تبعاً لتوهم ظواهر معينة يشاهدونها أو يرصدونها فيما علام من مساء أو في جر الأرض .

ويبدو أن معرفة الإنسان ببعض حالات السماء وتطلمه إليها نشأت منذ القدم وتدرجت هذه المعرفة في وسوس وأوهام إلى عمليات وصفه عقلية وساعد قيام حكومات قوية في الصين ومصر وبابل على تطور هذا الفن في تلك البلاد ، ونهضت شعوبها القديمة بالفلك وأمكن توفير سلسلة طويلة من الأرصاء بنيت عليها في النهاية أسس ذلك العلم وشيدت دعامته ... إلا أنه في الواقع لم يحدث تقسم نظري سليم في هذا الصدد حتى عهد الإغريق الذين بنوا بأجراد التجارب وأعمال الفكر والمنطق لتحقيق ما ظهر من نظريات ...



ولقد نهضت دراسات الفلك في الأندلس بعد أن نقلها إليها العرب وظهرت آثار هذه النهضة في قرطبة وطليطلة وتسلمه الجداول الطليطية التي صنفها « أرزاشيل » عام ١٠٨٠ اسمها من هذه المدينة الأخيرة .

وهناك أيضاً جداول « ألفونسين » التي نشرت عام ١٢٥٢ م بعد إعدادها تحت إشراف ألفونسو العشر . وبعد العلماء ظهور هذه الجداول بمثابة إعلان لمولد العلم الحديث في أوروبا وهي تكاد تنطبق مع زيج أو أوصصاد « سفيرا موندى » التي تتخذ مرجعاً للفلك الكروي ، والتي صنفها يوركشيمان وجون هوليوود . وقد أعيد طبع هذا الكتاب ٥٩ مرة في ذلك العهد الذي انتشرت فيه المطابع وعرف باسم « ساكروبياسكو » .

وظهرت في القرون الخمس عشر محولات ناجمة في ألمانيا لجمع شتات ملهوب « بطليموس » وأدخل « جورج برياخ » ( ١٢٢٣ - ١٤٦١ م ) إلى أوروبا وسيلة تعيين الزمن بالمزاول التي كان يستخدمها ابن يونس . كما قام بالقاء المحاضرات في فيينا ابتداء من عام ١٤٥٠ ومات عن ثمان

وثلاثين سنة وهو في طريقه الى روما للفحص نسخة من « المجسطي » وقد اتمرت تلاميذه واهمهم نتائجها في أعمال « جيومونثانسي » و « برنهارد فالتر » في نورمبرج ( ١٤٣٠ - ١٥٠٤ م ) الذي شيده مرصدا جعل فيه ساعات تدور بواسطة اقالع معلقة كما توصل الى تحسينات كثيرة في عمليات الرصد .

اهتمت نهضة علمية في ايطاليا في تلك الآونة وتبين ان قطعية نظريات « بطليموس » لا تقبل في عدم صلاحيتها عما جاء به « اوسطو » وتقدم بعض المفكرين الأحرار أمثال « دومينيكو مادياتوفارا » ( ١٤٥٢ - ١٥٠٤ م ) بانتقاد منهج بطليموس وتطلعت الأبصار الى أعمال « نيقولا كوبرنيك » مدة تلمذته في بولونيا من عام ١٤٩٦ الى عام ١٥٠٥ - وأداع « كوبرنيك » نظريته الخاصة باعتبار الشمس مركزا للمجموعة الشمسية في سلسلة من البشرات ما بين عام ١٥٥٦ وعام ١٥١٣ وفي عام ١٥٤٣ اكمل نظريته وبراهينها في رسالة قيمة هي خير دليل على الجهد التي بذلت في سبيل بناء علم الفلك على أساس جديد وقامت دعائها على منها على سليم هو مبدأ الحركة النسبية وقد اوضحت نظريته حله ان بصوغات النجوم الثابتة في الكواكب والأبراج لا تدور من حولنا طوال اليوم ولكن الذي يدور هو الأرض وبالطريقة نفسها تعلم ان الشمس لا تدور حولنا بل الأرض هي التي تدور حول الشمس وكذلك تدور سائر الكواكب حول الشمس .

وبهذه النظرية أمكن تفسير عدة ظواهر فلكية كانت تقف حجر عثرة في سبيل المفسرين من علماء الفلك ومن أمثلة ذلك ظاهرة تراجع الكواكب الظاهري . التي فسرت في حل محصلة حركة الأرض وحركة أي كوكب آخر .

#### « تاريخ كوبرنيك » ١

ولد نيكولا كوبرنيك عام ١٤٧٣ م في بلدة « ثورن » ببولندا وكان أصغر ولدين وبنتين لتاجر ناجح من أسرة كبيرة بالمدينة وكانت ثورن مركزا تجاريا ذا رخاء يتوسط بين طريق الشرق حيث السلع والخامات الآسيوية وطريق الغرب حيث السلع الأوروبية الناضجة . لم يكن والده تاجرا محسب وانما كان قاضيا واحداً أعيان المدينة ومات الوالد وهو في العاشرة فقرر ان يحول الأطفال خالهم القس لوكاس واكرتود الذي أصبح مطرانا بعد ذلك . وقرر الخال ان يتلقى ابن أخته العلوم الكنسية .

لنخل نيقولا جامعة كاراكاف عام ١٤٩١ م وكانت عاصمة ليولاندا في ذلك الزمان ولها شهرة كبرى في أوروبا شرابها وتقامتها وصناعة التعدين وجذبت جامعة كاراكاف طلابا من بلاد شتى مثل ألمانيا وهنغاريا وسويسرا والسويد . أما لغة التعليم فيها فكانت اللاتينية وجميع الكتب الدراسية مكتوبة بهذه اللغة لذلك كان لزاما على جميع الطلاب اتقان هذه اللغة .

تعلم كوبرنيق بهذه الجامعة الفلسفة والفلك والهندسة والجغرافيا على يد الأستاذ ألبرت بروذوفسكي الذي كان قد صنف تصنيفا لكتاب إرياق في فلكيات بطليموس وعلى يديه أيضا تلقى الرياضيات والفلكيات الانسانية التي تخصص فيها أستاذه هذا . وكانت لدراسة الفلك أهمية كبرى في ذلك الوقت إذ أخذت التجارة عبر المحيطات تنمو بسرعة وبدا حجم المركب يتزايد ومشاكل البحار تتراكم . وعندما كان كوبرنيق في التاسعة من عمره كان كولومبس الذي درس العلوم الفلكية قد عبر المحيط مكتشفا أمريكا وصحة الاسطرلاب العربي يستعمل به في الأرصاد والجنائز الفلكية العربية واحدة له عند السير في اليوم .

ترك نيقولا كاراكاف عام ١٤٩٤ م قبل ان يتم علومه وقبل ان يحصل على أية شهادة منها وطابت نفسه الى استكمال دراسته في إيطاليا بعد ان التحق حاليه بوليفيا يتلقى راتبها دون عمل ومكث في إيطاليا حتى عام ١٥٠٦ م متقللا بين جامعتها يقطف من العلوم ما شاء . وأول جامعة التحق بها كانت جامعة بولونا حيث تابع دراسة القوانين الدينية لكي تؤهله للوظائف الادارية الكنسية غير انه كان كلفا بالرياضيات والفلك فقدم على صاحبة استاذ الفلك فيها وهو دومينيكو مازيا دي بولونا .

ودعم ان نيقولا قد تم تعيينه فسياسيا لكاتدرائية فراويرج عام ١٤٩٧ بفضل نفوذ خاله فانه سرعان ما حصل على مقعد تفرغ ليمتكمّل فيها دراساته ودار روما عام ١٥٠٠ م في اليوبيل السنوي محاضرا في العلوم الرياضية . وفي العام التالي عاد الى ارميلاند ببولاندا صاعيا الى امتداد تفرغه حتى ينهض بدراسة الطب في جامعة بادوا وكانت دراسة الطب في تلك الايام متشابكة مع علم أحكام النجوم لماعضاء الجسم الانساني تجزى بحري غامضة الى دائرة البروج وأمزجة الانسان كانت تتركب من أربعة « خلط » ، لذلك يلفى أو صفراوى أو حموى أو سوداوى فيها لزيادة أحد العناصر . وكانت الموضوعات التي تسمىها الآن الفلك والفيزياء والطب والكيمياء وعلم جوا في الحقيقة علما واحدا مترابطا ، أما علم اللاهوت فكان مكانه وراء الكرة السماوية الأخيرة .

لذلك نرى كوبرنيق يرضى حائصة بادوا موطن الطب والتشريع حينئذ . وفي عام ١٥٠٣ م تقم برسالة الدكتوراه في الفوائد الكنسية

في جامعة فرايز رغم انه لم يترك دراسة الطب في بادوا من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٥ م لانه كان جيم النشاط .

تم عاد الى بولندا في العام التالي بعد ان استلقى من علوم الاغارقة في شتى المجالات فاصبح طبيبيا ومعلما في المحاكم ولم يستقل بواجبات الكنيسة الا بعد مضي حبت سنوات من مصادرته ايطاليا .

واستمر كوبرنيق في قصر الاسقفية بهيلزبرج طبيبا لخاله الاسقف واكرنرود وانه أصبح شيخا هرمًا - وتوفي خاله بعد سنة - فوطد الزم على العمل اسقفا في تلك الكاتدرائية الشهيرة براثنا والتي تقع في فراونبورج على ساحل البلطيق . غير انه لم يقم قط بالمراسيم الدينية بل اكتفى بالمهام الضرورية التي تتعلق بوظيفته فمن الوجهة الرسمية كان يعمل مندوبا عن الكاتدرائية للفصل بين المنازعات .

ورغم مشاغله المتعددة في الكيام بواجبات وظيفته فانه ظل يتابع الانتاج الفعنى - وأول مؤلف نشره كان عام ١٥٠٩ نشره باللاتينية وموضوعه ترجمة لمكاتبات وعية لمشاهير الرجال كان قد صاغها مؤرخ بيزنطى في القرن السابع اسمه ثيوفيلانكت سيموكاتا وكتب صفيق له مقدمة لهذا الكتاب كتبها شعرا يمدح كوبرنيق كعالم فلكى له بحوث جديدة عن مسار القمر وحركاته المتغيرة وعن قبة السماء الزرقاء بما فيها من كواكب .

يعتدنا كوبرنيق انه منذ عام ١٥٠٦ م بعد عودته من ايطاليا بدأ يخطط في تنمية نظامه الفلكى الذى تصوره للكون بناء على ذلك النظام الذى كان حلما مرارده أثناء دراساته الموضوعية في جامعات ايطاليا ثم اخذ يستكملها في أحد أبراج السور الدفاعى المحيط بكنائرية فراونبورج . هذا البرج لا يزال قائما ويعرف ببرج كوبرنيق انه كان مرصده كما كان علم الفلك شرعته .

وما أن وانى عام ١٥١٢ م حتى أصبح كوبرنيق شهيرا كعالم فلكى . فدعى الى المجمع الكنسى لتقديم مشورته في اصلاح التقويم قاعنظر متحذيا . نظرا لأن الارصاد الفلكية الجديدة لمركات الشمس والقمر لم تتم جدولتها ابتداء بغير بالفرض المطبوب فهي حالالت قحة تتفنى من التهج القديم .

لقد كان التقويم اليوليوسى يخطئ في ثلاثة ايام كل اربعمائة عام والخطأ يتراكم على مر السنين مما دعا البابا جريجورى الثالث عشر بناء على مشهورة الفلكى اليسوعى كلانيوس الى اصلاح هذا العيب فيه فعمل التقويم ليقرّب الفترة بين عيد الفصح والاعتدال الرئيسى حيث ان تاريخ

عيد الفصح كان يقترب شيئا فشيئا من الصيف فحطفت سدوت كبيرة  
 مميعة واستبطلت كل سنوات القرون الا اذا كان دقيها يقبل القصة على  
 ٤٠٠ ، وفي عام ١٥٨٢ م بعد وفاة كوبرنيك بصفت قرن تقريبا اعتمد  
 التغيير في النول الكاثوليكية وجعل اليوم التالي ليوم ٤ أكتوبر يوم  
 ١٥ أكتوبر .

### \*\*\*

لم يذكر كوبرنيك المراجع العلمية التي اعتمد عليها في كتابه  
 و حركات الكرات السماوية ، ولكننا سذكرها هنا اعتمادا على انها كانت  
 المراجع الأساسية التي بيئت عليها الدراسات بجامعة بولونا فاستقي منها  
 بحوثه وهي الآتي :

أولا : كتاب الهيئة للبطلوجي الذي كان يعرفه السلاطين  
 باسم (Alpetragius) .

ثانيا : تحرير المجسطي للخوجة نصير الدين الطوسي الذي ترجم  
 من العربية الى اللاتينية .

ثالثا : كتاب أصول الفلك لابن كثير الفهرغاني المعروف عند اللاتين  
 باسم (Alfraganus) .

رابعا : مجادلات نيقولاس الاورزمي العالم البارسى في القرن الرابع  
 عشر الذي ناقش فيها من الوجهة الميتافيزيقية دورات السماوات وناقى  
 بانها ما هي الا وهم وسراب وأن جميع انواع الحركة اما هي نسبية  
 فالسحب تظهر لما متحركة والأرض ساكنة .

خامسا : كتاب « الجبل الطلي » الذي ظهر في القرن الخامس  
 عشر للكاردينال نيقولاس الكوزى وفيه ينادى بأن الكرة الخارجية لتكون  
 التي تستمد حركتها من الله ، اعتبرت حدا فاصلا لتكون والفضاء فكيف  
 اذا وقفنا تحتها واطلقنا سهما نحوها فما الذي يحدث هل يرتد السهم  
 ثانيا أم ينطلق نهائيا بغير رجعة ؟ ان الكون غير متناه لا مركز ولا محيط  
 له ثم يستطرد في البرهان على ان الأرض لها حركة دورانية وليست لها  
 حركة انتقالية وان الحركة بمصانها الفيزيقي نسبية ولا يمكن اختيار  
 نقطة ما في الكون لاعتبارها مركزا له . ثم افترض بأنه يوجد في مستوى  
 خط الاستواء قطبان تدور حولهما الأرض مرة كل أربع وعشرين ساعة  
 اما الكرة السماوية للنجوم التوابت ففي زمن أقل تفسيراً لمبادأة

الاعتدالين . بينما الشمس تقع في دائرة تبعد ٢٣° من أحد القطبين وتدور في زمن أقل من زمن الأرض وعلى ذلك تظهر الشمس في دورتها السنوية في السماء وكأنها تتحرك من مدار السرطان لمدار الجدي ثم العودة ثانية .

كل هذه الآراء قد ولدت تنافسا في الهجوم على نظام بطليموس فأثارت شكوكا في الستين التي سبقت كوبرنيك والشك يورث القلق . والقلق للفكر العلمي ينبوع مما حفز كوبرنيك الى القيام بمدة من الأرصاد الشاقة بمراصد بروج تولاها بنفسه ليدعم بها نظريته الجديدة عن الكون . ورغم حداثة هذه الأرصاد فإنه ظل مسلحا عن نشرها بل ان أول رسالة ظهرت له عام ١٥٢٤ م وهي التي حاول فيها تقويض الأسس التي قام عليها التفسير القديم عن سائدة الاعتدالين لم تتناول أي تلميح عن نظريته الجديدة . وفي ذلك الوقت أخذت بحوث كوبرنيك طريقها الى الشهرة بفضل عالم فلكي هو سلبو كالا جنيني الذي دار كاراتاكاو عام ١٥١٥ م ووضع كتابا عام ١٥٢٤ محاربا فيه شرح الحركات السماوية للكواكب على أساس الحركة الدورانية للأرض .

لقد أصبح الطريق سهلا بعد ذلك أمام كوبرنيك ليخطو خطوة أكثر جرأة . فتقدم عام ١٥٣٠ بكتاب آخر هو « تفسيرات » كدراسة أولية لنظريته الجديدة التي تنادي بمركزية الشمس للكون وليست الأرض لسرعة ما جذبت انتباه المفكرين .

وفي ربيع عام ١٥٢٩ م قدم جورج جوشيم ديكوس ، عالم ألماني في الخامسة والعشرين من عمره لزيارة كوبرنيك وكان ريتكوس العبقري باحثااته في العلوم الرياضية بالنسبة لصره قد عين أستاذا لهذه المادة في جامعة وتلينج . ولما يتحاور الثمانية والعشرين ، استقبله كوبرنيك وقد أصبح شيخا هزلا وأمسى ريتكوس أكثر من ستين معه لدراسة نظرياته الجديدة فأمر بها وحث كوبرنيك على نشرها منلما فعل الكاردينال شوتيرج حين وجهه في نشرها على الملأ . وكان لريتكوس الفضل في ارمال مخطوط البحث الى ألمانيا ليطلع تحت اسم « حركات الكرات السماوية » ونلاحظ أنه ذكر الكرات السماوية لا الاجرام السماوية ، لأنه كان ولم يزل متأثرا بالنسب الاغريقي . لقد ظل كوبرنيك قرابة ثلاثين عاما يصل بغير انقطاع ساعيا الى ابتكار نظام جديد للكون ومدونا أفكاره بالرصاص على قصاصات الورق وهوامش الكتب بل على حلوان منزله حتى اكمل نظاما لم يشر لمصنف كل ما فصره نظام بطليموس القلوي ، وإنما فصر في ذلك بدقة جميع حركات الكواكب والنجوم ومع أربع وثلاثين كرة فقط .

ان كتابه هذا يصارع الى حد كبير كتاب « البرنسيبيا » لاسحق نيوتن باعتباره نتاجا للعبودية الخلاقة . رأى كوبرنيك المسئلة المطبوعة وهو في غيبوبة المرض اذ سبق له ان اصيب في نهاية عام ١٥٤٢ م بالمسكنة ثم الفالج وتوفي في ٢٤ مايو عام ١٥٤٣ م ودفن في كاتدرائية فراونبيرج .

كثيرا ما قيل ان كوبرنيك خشي من نشر مقوله الكبير وهو على قيد الحياة خوفا من حركة الاضطهاد الديني التي تبيست من أجلها الأفكار العلمية الجديدة . بيد ان الواقع لا يؤيد هذا الرأي فالحقيقة انه نشر مسوداته موجزة في كتابه « التفسيرات » ، قبل وفاته بسنوات كثيرة وسمح لتلميذه ريتكوس ان يطبع تقريراً أولياً عن النظام في عام ١٥٤٠ م قبل وفاته بثلاثة أعوام وفضلا عن ذلك كان بحثه معروفا عند البابا والأخريين من عليا القوم في المجالس الكنسية بل كان يدعو الى اصحاب شديد .

ووالجدير بالذكر ان الذي أخر كوبرنيك في النشر هو خوفه من سخرية الجماهير عامة ففي ذلك الوقت كانت القول جميعها قد استراحت الى نظام بطليموس في الفلك ولينزقا أرسطو التي تنادي بأن الأرض مركز العالم فإذا قدت حجرا في الهواء عاد ثانية الى الأرض ، بل اذا قذفت حجرا من فوق أحد الكواكب الأخرى كالمرخ مثلا فإنه قطعاً يسقط على الأرض فهي المركز والشمس والقمر والكواكب المتحركة بل النجوم الثابتة كل في فلك حول الأرض يصبحون وقد خلقها الله جميعا لمنفعتنا وان لها أهمية خاصة عند الخالق .

ان أي تغيير جذري لتلك المقيسة باستبدال الشمس بالأرض باعتبارها مركزا للكون سوف يصبح لا محالة موضوعا يشهد به الحق . وكان كوبرنيك شديد الحساسية والتخرج من مخاطرة كهذه ، لذلك نراه يروح بالكثرة لأولئك الذين استطاعوا تقديرها لها واستيعابا لادراكها .

والآن يكفيننا هذا القدر من صورة العصر الذي احاط بكوبرنيك ولننضم مسرعين الى التعرف على كتابه الذي أثار كل هذا القلق .

### حركات الكواكب السجلية

لم يهدف كوبرنيك الى تفويض نظم بطليموس تقريبا تاما ، لأنه جعل الأرض مركزا للكون ولكنه كان غير مقتنع بتلك الأساليب التي يبررها المصطفى في براهينه الهندسية لتفسير حركات الكواكب والنجوم فأراد الوصول الى نفس أكثر منهولة فأفسر تغييرا في الوجهة الرياضية فالتفوق كرى ، والفكرة أعظم الاشكال كمالات فهي لا تحتوي على وصلات او تفصيلات

هي أكبر المجوم المخلقة وأن اكمل أنواع الحركة ما كانت دائرية فليس لها بدء وليس لها نهاية لذلك اختارها الله نظاما للكون ولا داعي إذن لتعقيد تلك الحركات بإضافة أفلاك تمور . نبي يفترض أن الكوكب يتحرك على محيط فلك تمور مركزه على محيط فلك تمور ثان ومركز هذا الأخير يتحرك على الفلك الدائر وأن الأرض بعيدة عن مركز الأفلاك الدائرة لو أن مراكز الأفلاك الأكبر بعيدة عن الأفلاك الدائرة . كل هذه التعقيدات التي نشأت باعتبار الأرض مركزا ساكنا للكون كانت البؤرة الأساسية التي أراد كوبرنيك أن يبتدئ منها ليحقق نظاما أكثر كمالا وأقرب منطقا ليشتمل مع الحقيقة بأن الله قد خلق الكون متكامل لا تعقيد فيه .

لذلك فإنه وضع نصب عينيه أن يعيد ترتيب الكواكب والكواكب السماوية لتحقيق ذلك النظام فارتأى وضع الشمس مركزا للكون بدلا من الأرض قائلا : « في هذا المذهب الكبير متدا الذي يستطيع أن يضع تلك العملة المفسدة في مكان آخر سوى المركز حيث تقف كل الأشياء في وقت واحد فهذه الشمس هي نور العالم بل هي روحه بل هي التي تتحكم فيه وهي جالسة على عرشها القمسي ترشد أسرة الكواكب إلى طريقها » .

إن التعقيدات التي نشأت عن نظام بطليموس جعلت الكواكب لا تتحرك بسرعات ثابتة حول مركز معدل المسير ، لا حول مركز التدوير فتم تناقض لا يقبل المنطق والمقل فاضطر إلى اللجوء إلى توزيع هندسي آخر بحيث يتحرك فيه كل العناصر بسرعات منتظمة حول مركزها كما تقتضي قاعدة الحركات المطلقة . فالشمس والقمر والكواكب تشكل نظاما متكاملًا يتحرك كل واحدة منها بحركات دائرية منتظمة وبأسلوب متوافق .

إذن فقد أصبح لزاما أن يتفكر علم الفلك من حظيرة الاسكندرية حيث بطليموس وهيبارخوس إلى حظيرة أثينا حيث هيرقليطس واكفانتوس وشيعة فيثاغورس ومنهم فيثولاوس لكي يستبدل بالنار المركزية الشمس تدور حولها الكواكب .

أثبت أثينا هي مهد الفلاسفة القائلين بأن الله هو المهندس الأكبر وليس الفيزيائيون هم القائمين بأن الأعداد الأولية هي أصل الأشياء وأن تقسيم الأوتار الطنانة إلى أقسام عجيبة بسيطة تنشأ عنه أنغام توافقية فذلك حركات الكواكب السماوية وهي البسيطة في عnderها وتنشأ عنها فضات سماوية لا يستطيع سماعها إلا من أوتي استعدادا خاصا .



واليس أرسطو هو القائل بأن النقطة الدائرية هي التي يمكن أن تنتج حركة واحدة لا متناهية متصلة وأزلية والجسم فيها هو بلا انقطاع حائل نحو الوسط الذي هو نفسه لا متحرك وخارج عن المحيط الذي ليس هو جزءا منه وأن الحركة الدائرية تنحصر من ذاتها لنحو ان ذاتها وأن المحرك الأول هو واحد وأنه أزلي في وحدته وفي فعله .

واليسك لمزيقا أرسطو هي القائلة أيضا ان للمادة كلها ذات حياة وأن طاليس نسب إلى النفس قوة حركة وقال بوجود نفس حتى للحجر الفسفاطيس لأنه يحرك الحديد فالكواكب السماوية بحسب كوبرنيك لها ارادة فهي تتحرك تبعاً لذلك . وقد طبق شوبنهاور الفيلسوف الألماني في القرن العشرين فكرته عن الارادة هذه على كل شيء في منجبه .

لذلك ركز كوبرنيك نظريته في الشمس التالية :

- ١ - لا توجد مراكز لجميع الكواكب والنجوم السماوية .
- ٢ - مركز الأرض هو قطبا ليس مركز الكون بل هو مركز الثقل لها فقط .
- ٣ - جميع الكواكب تدور حول الشمس باعتبارها النقطة المتوسطة وعلى ذلك فهي مركز الكون .
- ٤ - بعد الأرض عن الشمس بشبر ضئيلا بالنسبة لارتفاع كرة النجوم الثوابت ( هذا الافتراض مقتبس من فرض اريستارخوس لتفسير عدم الاضاءة الظاهرية للنجوم ) .
- ٥ - كل حركة ظاهريّة للنجوم هي نتيجة لحركة الأرض وليست هناك حركة لكرة النجوم الثوابت والأرض وما عليها لها حركة دورانية حول محورها كل يوم بينما تظل النجوم ثابتة .
- ٦ - ما يظهر لنا من حركة الشمس السنوية إنما هو نتيجة لحركة الانتقالية للأرض وكرتها حول الشمس غير المتحركة ومثلها في ذلك مثل الكواكب الأخرى وللأرض حركة أخرى تروحية ( مثل حركة النقطة التي يلعب بها الأطفال فانها تترنح عند دورانها ) وذلك تفسيرا لظاهرة مبادرة الاعتدالية .
- ٧ - ان حركات الاستقامة والرجوع للكواكب المتحركة ليست دالة لحركتها بل لحركة الأرض التي هي كقنبلة وحدها لتفسر جميع الاختلافات في حركات الكواكب والنجوم السماوية .

٨ - تدور الأرض في دائرة مركزها ليس الشمس ولكن نقطة أخرى مختلفة عن المركز . أما مركز تلك الأرض فيدور حول نقطة هي نفسها حول الشمس .

وكتاب كوبرنيق يتألف من ستة أجزاء يبدأ في البرهنة على أن الكون كروي والأرض كروية أيضا ثم اثباته أن حركة الكرات السماوية منتظمة . ثم يتساءل : هل للأرض حركة دائرية ؟ ولماذا كان الفكر القديم يعتبر الأرض ثابتة ؟ ثم يستطرد في تركيب الكرات السماوية الدائرية ثم شرح الحركة الثلاثية للأرض ثم ينتقل إلى مواضيع أخرى هندسية عن الخطوط المستقيمة في الدائرة وجداول الأوتار ثم يذكر النظريات الهندسية الخاصة بأضلاع وذوايا المثلثات المستوية والمثلثات الكروية .

وبسببونة هذه الجزء مع المقالة الأولى للجسطي نجد نفس الترتيب ونفس جدول القس وأوتارها و جدول القس وجيوبها فمثلا نجد جدول هذه المقالة بالترتيب التالي : في أن السماء كروية وحركتها مستديرة - في أن الأرض كروية في الحس بالتقياس إلى الكل - في أن الأرض في وسط السماء كالمركز في الكرة - في أن الأرض كالنقطة عند ذلك البروج - في أن الأرض لها حركة انتقال - في أن أصناف الحركات الأولى الثمان - في العلوم الجزئية - في مقادير الأوتار .

بالمقارنة بين المنهجين يتضح لنا أن كوبرنيق أراد أنه يتخذ من نقط الجسطي منهجا ثم يزيده عليه العرفان المتراكم من بحوث الفلكيين العرب في حساب المثلثات الكروية التي كانت تنقص للجسطي . أما جداول القس وأوتارها وجيوبها فلا نجد أنها لبجوت البهروني كما ذكرها في مؤلفه الكبير القانون المسعودي بحصل نصف قطر الدائرة الواحدة .

ولم يبق بقية الفصول التالية نجد نفس المواضيع ولكن بتغيير موضع الشمس مكان الأرض أما في جداول أول حركات أوساط القمر وجداول الاختلافات الجزئية وجداول اختلاطات مناظر البدرين في دائرة الارتفاع وجداول الاجتماعات والاستقبالات فتكاد تكون نقلا . ذلك لأن كوبرنيق لا يقلد بل يقوم بكل هذه الأرصاء التي أخذت من اللحن البشري ألاما من السنين قبله فهو اكتفى بذكرها بعد ادخالها في إطار نظمه الجديد .

ولمّا يخص بالحركة التمهيرية للكواكب فيمكننا هنا أن نقارن بين باني الفهرانييم الذي ذكره في الفصول الخماس عشر من بخطوطه . جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية . وبين الفصير . كوبرنيق نفسه .

يقول ابن كثير الفرجاني . ٥ فيما يعرض للكواكب الخمسة المتحركة  
 هي الرجوع في مسيرها في فلك البروج فلنصف هنا ما يعرض من  
 الكواكب الخمسة المتحركة من الرجوع في مسيرها في فلك البروج . فنقول  
 أولا أنا قد بينا أن الكوكب إذا كان في الجهة العليا من فلك التدوير فإن  
 حركته تكون إلى المشرق وفي جهة الحركة التي لمركز فلك التدوير ف يرى  
 الكوكب سريع المسير لاحتتماع الحركتين في جهة واحدة وإذا كان في الجهة  
 السفلى من فلك التدوير فإن حركته فيه إلى المغرب إلى خلاف جهة الحركة  
 الأخرى .

ونقول هنا أيضا أن الكوكب إذا كان في جنبي فلك التدوير من  
 المشرق والمغرب وعلى موضع تلبسه الخطان اللذان يخرجان من الأرض  
 إلى جنبي فلك التدوير لم تر لحركته قدما بين فلك البروج فيكون ما يرى  
 من مسيره في فلك البروج هو ما يسير من مركز فلك التدوير فقط .

فإذا سار الكوكب من موضع الخط المماس لفلك التدوير مما يلي  
 المشرق كانه عند ذلك ابتداء الحركة التي ترى للكوكب في فلك التدوير  
 إلى المغرب فباطء فينقص ذلك من مسير مركز فلك التدوير الذي يرى إلى  
 المشرق وكلما اتحد الكوكب في فلك التدوير . ودنا من البعد الأقرب  
 كان أكبر ما يرى من حركته فيه إلى المغرب إلى أن يساوى مدار ما يرى  
 من حركته في فلك التدوير بحركة مركز فلك التدوير .

فإذا تساوت الحركتان من جهتين مختلفتين لم ير للكوكب في فلك  
 البروج تقدم ولا تأخر ويرى كانه مقيم ثم ترتد حركته التي ترى فلك  
 التدوير إلى المغرب وترتد على الحركة الأخرى التي إلى المشرق فعند ذلك  
 يرى الكوكب راجعا في فلك البروج نحو المغرب ويكون أكثر ما يرى من  
 حركة الرجوع إذا صار الكوكب في القرب فلك التدوير .

فإذا جاوز البعد الأقرب صاعدا من جهة المشرق لصار إلى قبل ذلك  
 البعد الذي ابتدأ منه الرجوع من جهة المشرق تساوت هناك الحركات  
 أيضا فغير مقيما في موضعه من فلك البروج إلى أن يجوز ذلك الموضع  
 فغير مستقيم السير إلى المشرق فهذا حسب ما يرى من رجوع الكواكب  
 الخمسة ولذلك سميت المتحركة . ٥

ولكى نقرب هذا التعليل للأذهان دعنا نفترض تلك النواة . وهي  
 النواة التي تتكون من أقراص وطبقات وحيوانات دوارة حول المركز وتكثر  
 في الملاهي ونحو في مركزها وهناك طفل يجلس فوق أحد الأقراص هذه  
 فعندما تدور النواة يدور الطفل حولها وهو راكب فوقه ولنفترض أن مع

هذه الطفل لعبة صغيرة دوارة يسسها بيده ولنفترض أحد الافراس المشاهدة عليها ، فعندما تدور اللعبة وتصور الصورة الكبيرة الأصلية يظهر لنا غرس اللعبة التي يسسها الطفل وكأنه يدور حول مركز يحد في تلك حولنا ، هذا هو غلك التصوير أو الأكر كما يسسب الطومى أما اللعبة الكبيرة فمسطها الذى مجلس طيه الطفل هو فلك التدوير الأول وعندها يدور فلك التدوير ثان الفرس الذى اخترناه يتحرك فى اتجاهات دورانية تارة مخالفة للتدوير الأول وطورا فى نفس الاتجاه ويبدو هذا الفرس على الخلفية الخارجية وكان حركته فى استقامة وفى دوجوع ، وعلى ذلك سميت بالمتحركة .

ولكى نعطيل كوبرنيق ، هو يضع الشمس فى مركز اللعبة الأصلية ومن فوق الأرض متحرك بسرعة دورانية حول الشمس وبأخرى حول أنفسنا أما الفرس الذى يجلس عليه ليدور أيضا فى اللعبة الأصلية بسرعة مقابلة لسرعتنا فنعلم يدور ويلتقى بالفرس ثم يتخلف وراءه ما يظهر الفرس وكأنه يتردد إلى الخلف وعندها تدور حول أنفسنا يلحقنا ثم يصبح اتجاه حركتنا متغيرا لاتجاه حركته فيبدو وكأنه يسبقنا ، ثم تتكرر العملية فتبدو حركة الفرس فى الخلفية وكأنها تلهقية وهذا ما يحدث لكوكب مثل كوكب المريخ مع كوكب الأرض .

ونلاحظ بعد ذلك بقية أجزاء كتاب حركات الكرات السماوية تشمل مواضع عميقة يستلزم الإلمام بها امتحانها لمصطلحات علم الفلك .

## الشيء الكوبرنيقية :

لقد كانت نظريات كوبرنيق نهاية لعصر فكري مترمت وتوتئة ضرورية لعصر آخر هو عصر العلم الذى تفرق فيه اليوم ناعما ، ولم يكن كوبرنيق نفسه هو ينشئ العلم الحديث أية حال فأراؤه حلت من الفكر الإلهي الذى يخرج بفتة بسط جديد على غرار ما نجده عند نيوتن وبلاط وأينشتين وكينكوليه . كانت نظريته هى نظرة العصور الوسطى التى تشكبت بأفكار أرسطو وفيناغورس وكل ما فعله هو تمكيه للفلسفة العلمية الجديدة من الظهور . لم يتهاذر لمقول الناس معنى الحركة فيما بين عهد بطليموس وكوبرنيق وكان من الواضح أن الجسم يتحرك لو أنه ينز مكانه بالنسبة للأرض وهو ساكن فيما عدا ذلك أما بعد كوبرنيق فقد استند مفهوم آخر لمعنى الحركة أى تغير المكان بالنسبة للشمس مما مكن جاليليو عند بداية القرن السابع عشر من اذاعة رأيه فى الحركة المحلية التى أصبحت ركيزة علم الميكانيكا فيما بعد .

أما نيوتن فقد استفاد من البرية التي جادت بها هذه الفكرة فعمداً كان يبحث حركة الكواكب باعتبار الشمس ساكنة مثل كوبرنيك . ولكنه عندما كان يبحث سقوط النخاعة على الأرض اعتبر الأرض ساكنة كما زعم معارضو كوبرنيك واستطاع عندئذ أن يبين أن نفس القانون العام للجاذبية يسرى على الكواكب والنخاعة كما استطاع أن يبين على مبدأ جاليليو القوانين العامة للحركة التي يرتكز عليها كل ما جاء بعد ذلك من علم .

آمن كوبرنيك بأن الكواكب تدور لأن لها إرادة والتفاحة عندما تسقط فإن لها إرادة بحيث هي التي تساعدها على السقوط ، وكان معاصروه يعتقدون أن للتراب والماء والهواء والنار طبائع هي في أساسها من طبيعة الإنسان . كانوا يميزونها على أنها أجزاء من الطبيعة البشرية وإن أزمة النفس تنأثر إلى حد كبير بحركات الأجرام السماوية وجاءت نظريات كوبرنيك نقضت كل شيء ظهر لديها : أن الأرض مجرد كوكب ضئيل لجم ضئيل في حشد لا نهائي من النجوم وأن الإنسان ليس مركز الخلق فانهزت فكرة التنجيم من أساسها . كان التنجيم علماً يعتمد به فاسح حديث حرافة وبات مكان الإنسان كله في النظام الكوني مرعراً وتموت المعتقد في نسق جديد واختفت الإرادة وحلت محلها الجاذبية التي تسود النظام الكوني بأكمله والجاذبية بدورها تخضع لقوانين ثابتة أولية تسيجها الطبيعة .

لقد كان كتاب حركات الكرات السماوية لكوبرنيك أغريقياً في تصوره . فهو يؤمن بأنه الحركة الماثورية الكاملة للحركات للكواكب ثم ظهر بعد ذلك أن تلك الحركات بيفسية . أن كل ثورة من الثورات لا تأتي بنتاً بل لابد من وجود بنود صالحة لها ولا بد من زمن حتى يمتد ويصحب بينها . استورد كوبرنيك تلك الديور من اللاغزلة وهي العوب ثم زرعها في أرض أودية فأصبحت لأنها كانت على حافة التطور والثورة .

لقد كان نظام الجيوسنتريك الأخرى موضوعاً ، خفاء الفلكيون العرب واستحدثوا أنظمة جديدة وأصبحت تلك الأنظمة كمنس ما هو موضوع ثم جاء كوبرنيك فربط بينها في تعايش سلس مستحدثاً النظام الهليوسنتريك الذي أمسى ( مركب موضوع ) . واستقر نظامه من نما حركته لأنه كان محفوظاً 34 - وجد من يخلطه من شوائب الفكر أمثال فيثاغورس وكبلر وديكارت ونيوتن ولا بلاس وأصبح نظام كوبرنيك موضوعاً طلت شهرته الآفاق أثناء محاضرات جوردانو وجاليليو بعد وفاته بأكثر من .

أن أهم تصور فيزيقي عمله في كتاب كوبرنيك ، هو في إزاحة نظريته المطلق المطلق - الذي لا يمتدرك - هذا المترك هو الذي يترك مرة

الجسيم الثابت وهي بدورها تحرك الكرات البلورية الأخرى لزلزل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد ، قال كوبرنيق ان الكواكب تتحرك لأن لها ارادة دائية . ذلك التحول في التفكير كان رائدا لكبلر حين قال ان حركة الكواكب تحكم فيها الشمس . وعلى ذلك أصبحت الحركة تابعة من داخل الكون حيث الشمس متمركزة وليست من خارج الكون حيث المحرك الذي لا يتحرك .

هذا هو التطور الثوري الذي حدث في العلوم الرياضية . اما ما حدث في التطور الثوري للطابع الاقتصادي فلقد كان الفكر الاوروبي في المصور الوسطي يتبع في علم الصنعة ما ورثه من الفكر الاسلامي الذي كان ينسب الذهب للشمس والفضة للسر والحديد للمريخ . الخ ثم جاء كوبرنيق وحل الشمس مركزا للعالم فتغيرت المفاهيم في القرن السابع عشر . حيث أصبح الذهب هو مقياس الثروة بعد ان كانت الأرض او السلع المستهلكة هي المقياس وانقلبت المفاهيم البحرية الى منابع الذهب في يمد وأمريكا وأفريقيا والهند واستولى الأسبان على الذهب والفضة بأمریکا ، وألبرتال على ذهب أفريقيا .

كان الذهب والفضة وسائل عديدة استثنائية لتبادل التجارة فامسى الذهب هو القوة الديناميكية المسيطرة على اقتصادات دول أوروبا المناهضة لحل العتترا ، وهولندا . قبل كوبرنيق كان النقد الذهبي او الفضي مقدارا ، أما بعده فقد أصبح النقد دالة ، وأخذ الاقطاع وهو ملكية الأرض يذبل ويبدأ أمام سيطرة الذهب الذي هو وليد التجارة الواسعة فيما وراء البحار ونشأت طبقة ثرية من التجار هي نبالة الذهب والمال ، ناهضة تفوق نبالة الاقطاع أي الأرض حتى ان جامعة جريشام بالعترا تبرع ثاجر ثري بانفائها والصرف عليها وصبت باسمه تجيدا له ثم أخذت المصالح التجارية لتتشمع واصبح للتجار النفوذ الأكبر في أحزاب وبرلمانات إنجلترا ولأول مرة انشئت وزارة التجارة وأصبحت موضوعات حرية التجارة أو حمايتها من الموضوعات الصاخبة في القرن السابع عشر وما يليه ، وتكونت الجيوش والاماطيل لحماية التجارة فيما وراء البحار .

كانت الأرض وهي مركز الكون سابقا هي أساس الثروة فكانت نبالة الاقطاع ثم حلت الشمس مكانها متمركزة في الكون والشمس هي الخيمياء هي الذهب فكانت نبالة المال والنقد .

لقد كانت ثورة كوبرنيق العلمية ثورة علمية فالحركة البيوروتانية (١٨) في إنجلترا والحركة البروتستانتية المنشهدة في أوروبا كانتا من المظاهر الجديدة لهذا التغيير من الوجهة الدينية وكانت ثورة

كروميول وحروب لويس الرابع عشر من علامات هذا التغيير من التواحد السياسية - أنها ثورة عامة حتى في الفنون ، فمن التراجيديا كان الصراع الذي يقوم بين البطل وبين الطبيعة صراعاً بالخصي الحقيقي وإنما يتنصع البطل للطبيعة الخارجية فليس ثمة صراع من الطبيعة الخارجية أي المحرك الذي لا يتحرك . أما بعد ثورة كوبرنيك فنجده الصراع مستمر والنضال سجالاً بين البطل أي بين الطبيعة الإنسانية المستمدة من الأرض في نظام كوبرنيك وبين الطبيعة الخارجية أي الشمس في النظام نفسه . فلم تعاملت لا وجود لهما في تلك المآسى إلا باعتبارهما في نزاع مستمر ومتساو مع القدر .

لقد سجل حينه شاعر الجerman هذه الثورة في رواية فاوست ، أيها المشعبد أيتها النشوة أيتها الرسالة السامية قبلنا ، قبلي أما لم يكن العالم موجوداً لقد انتزعت الشمس من وسط الهاوية وأن القمر ليسجى في مداره تبعاً للفراوى من الهلالي حين رأى قد أصبح حديلاً تحت أفق القمر والأرض علاها وثنى من الخضرة والأعوار وموكت النجوم النهمية قد بزغ في السماء القدسية في الليلة الأولى بفضل يدي وإن لم أكن أنا فمن الآن الذي حطم حدود القرائن البائسة التي أبهظت كاهل الأرض ؟ ، ؟ .





حركة القلب  
وليم هارفي  
١٦٤٨م



لتر يعطى الأحداث الكبرى وقتها تستمرعى الانتباه ومثال ذلك اكتشاف الدورة الدموية ٠٠ قفى عام ١٦٢٨ وفى معرض الكتاب السنوى فى مدينة فرانكفورت على نهر المين فى ألمانيا نشر كتاب صغير فى عالم التشريح قلب الكثير من الأفكار القديمة من جسم الانسان راسا على عقبه ووضع أسس علم الطب الحديث ٠٠٠ وكان عنوان الكتاب « بحث تشريحى فى حركة القلب والدم » مؤلفه الانجليزى وليم هارفى طبيب الملك وليستاذ التشريح فى كلية الطب بملدن ٠٠ وقد وضع المؤلف كتابه باللغة اللاتينية وشرح فى صفحاته الاثنتين والسبعين لأول مرة طريقة توزيع الدم على الجسم بواسطة القلب ٠٠ ولكن قراء الكتاب كانوا قلة ٠٠ وموت سنوات طويلة قبل ان يتبين الناس انهم مدينون بالكثير لوليم هارفى

### \*\*\*

وله وليم هارفى فى ابريل من عام ١٥٧٨ فى مدينة فولكستون من أعمال مقاطعة « كنت » لابوين مؤسرس وكان هو اكبر اخوته وكان أبوه توماس هارفى صفة فولكستون وقد علم ابنائه السبعة تعلما واليا لرغبته فى ان يتالوا نصيبا من النجاح فى حياتهم اكثر مما قاله هو وقد أصبح محط تجارا الزياء فى مدينة لندن كما غلب أحفهم عضوا فى البرلمان . وبعد بضع سنوات قضاهما وليم فى الرحلة الأولى من التسليم فى كنتربرى التحق بكلية كايوس بجامعة كمبردج حيث حصل على دويجه العلمية عام ١٥٩٧ وكان اعلية طلاب الكلية يدرسون الطب ، وحلى ان هارفى الشيب كان قد اختار لنفسه مهنة المستقبل .

وكانت إيطاليا فى تلك الأيام موطننا لأتمة العلماء فى العالم يلد اليها الشباب من ربوع أوروبا ويحششون فى قاعات المحاضرات بجامعتها وقد وصل وليم هارفى الى مدينة بادوا فى عام ١٥٩٩ حيث كانت توجد مدرسة من أعظم مدارس العالم شهرة فى الطب ويمكننا ان نرى هناك حتى الآن قاعة المحاضرات التى تضاء بالشموع حيث كان هارفى القلب يطفى المساعات الكثيرة مضافا الى استاذة فابريكيوس الاكوابدنتى Fabricius of Aquapendente اعظم علماء التشريح فى زمانه وكان فابريكيوس يعرف عن الجسم الانسانى ما لم يعرف احد غيره فى ذلك

الوقت وله يدین هارفي الى حد كبير بما وصل اليه من علم ولكنه لم يلتزم  
 ان يز استاذة وتلقى عليه فيما بعد ، ولا بد ان زملاء هارفي في الدراسة  
 كانوا يكونون له الحب لانهم اختاروه مثلاً للطلاب الانجليز في مجلس  
 الجامعة ثم حصل على ديدية الدكتوراه عام ١٦٠١ وعاد الى انجلترا  
 استقر هارفي بعد ذلك في لندن حيث تزوج وبدأ يزاول عمسه  
 بوصفه طبيباً ولم يبق في وقت طويل حتى انتخب زميلاً في الكلية الملكية  
 للطب .

لم يبق في عام ١٦٠٩ طبيباً في مستشفى القديس باونيسبر وهو  
 وظيفة كانت لا تمنح الا للأطباء المتأهلين اذ كان الملك هو الذي يقوم  
 بتعيينهم . وتبين من الوصية التي كانت تنلى على مصانع الطبيب الحديث  
 الاختيار ما كان ينتظره المجتمع من الأطباء في ذلك الزمن تقول الوصية :  
 « ايها الطبيب لقد وقع عليك الاختيار لتكون طبيباً للفقر في هذا  
 المستشفى وحزرت القبول لتؤدي الواجب التالي » عليك ان تأتي الى  
 المستشفى مرة كل اسبوع على الأقل طول السنة وعليك اكثر من ذلك  
 ان تطلب الى الموظف المقيم في المستشفى او رئيسة الممرضات او البواب  
 كلما دعت الحالة ان يستدعوا للظهور أمامك اكثر عند ممكن من الفقراء  
 المتأولين بهذا المستشفى والذين هم في حاجة الى نصيح الطبيب وبشورته  
 صنع يدعوك فحيك أنك لن تقرر لهم شيئاً على سبيل المعاملة أو بقصد  
 الربح كمالى أو الكسب ولكنك ستقرر ما تراه من انصاف الخبير والشفا  
 لهم معصوماً بهذا ذلك العالي هذا ما يجب ان تتعهد به وتكون مستولاً  
 عنه أيام الله .»

كان هارفي يتلقى اربعمائة جنازة في العام نظير القائه جنازتين  
 كل اسبوع في الطريق والجراحة طوال السنة على الحياة ولعل ذلك  
 يعد اليوم مبلغاً زهيداً الا انه كان يعتبر مبلغاً كبيراً في عصره ولذلك  
 فانه حين عي محاضراً في كلية الأطباء الملكية بهذا المرتب السنوي ضمن ذلك  
 دخلاً يأتيه سهلاً طوال الفترة الباقية من حياته . ومازالت المذكرات التي  
 تحصل من محاضراته باقية يمكن مشاهدتها في المتحف البريطاني وهذه  
 المحاضرات خلطت عجيب من اللغتين اللاتينية والانجليزية وهي توضح ان  
 هارفي كان اول من اكتشف توزيع الدم بواسطة القلب وقد كان يسجل  
 السريرين الأولين من اسمه وحسا « و - د - » على هامش مذكراته ليبين  
 ان هذا الاستكشاف انما يرجع اليه الفضل فيه دون غيره . على انه  
 وليس انه يذبح اكتشافه في العالم عدة سنوات وأخيراً اخذ يترجم في اذهنه  
 على سبيل الحيلة والعذر على الضمير له بصفحة تجاوزه .

وفي أثناء ذلك كان هارلي يزاد شهرة يوما بعد يوم فكان طبيباً  
لرجال السياسة والنبلاء ومن بينهم الوزير اللورد صير فرنسيس ياكوب  
حامل أختام الملك ، كما كان هارلي كثير التردد على القصر حتى عيّن في  
عام ١٦١٨ طبيباً خاصاً للملك جيمس الأول ومنذ ذلك الحين عندما أقرى  
الاطباء واعظمهم شهرة في إنجلترا « فكان يستطى شهرة جواده ليزود  
مرغاه ويسير خلفه تابع له على قميه كما جرت العادة بذلك يومذاك » .

## هارفى ٠٠ واعتزازه بالحقيقة !!

ومع ذلك فلم يكن هارفى يهتم قط عن ثروة او مجد ولم يحاول ان يحصل هـه جمع المال ولا كان يهتم به اذا حصل عليه ، ودليل ذلك انه ترك شئونه لأخيه يصرفها بدلا منه سنوات طويلة وقيل ان اخاه كان احرص على مصالح هارفى من هارفى نفسه ، ومع انه كان شخصية محببة فى بلاط المتين من الملوك سنوات طويلة ، فانه لم يسع لقلب ولم يسع الى الحصول على ذلك القلب بل لم يكن يحفل كثيرا بحياة البلاط المرحه كما كان قليل الاهتمام بشئونه السيامية ، اذ ان أقصى سعادته تركزت فى دواصة التشريح التى دلب على مواصلتها العام تلو العام ولم تنته مسافله الزمن عن الخفى فيها .

وأخيرا وفى عام ١٦٦٨ اعلى هارفى اكتشافه للعالم بمده سنوات طويلة من الدواصة المتصلة التى لا تعرف السام والتجارب الدقيقة ودعم اكتشافه بسجوده كبيره من الأدلة المبنيه على أساس علمى دقيق ولم يقتنع بإجراء التجارب على القلب والور الذى يقوم به فى الجسم بل انه بين وطيفه القلب فيما يقرب من أربعين نوعا من الحيوانات منها الديدان والحشرات والسماك القسدى - وكان فى صبره ودأبه لا يعرف الكلل ولم يجرؤ عدو له على اتهامه بتجاهل الحقائق - وقد أدرك هارفى ان مساطين الأطباء والجراحين فى عصره سيهزمون به فلم يحدث كتابه فى أول الأمر أى اهتمام - ثم ما لبث ان تعرض للمهوم من كل الجهات وقال الكثيرون انه يحتوى على مغالطات ووقف فى وجهه كل الأطباء وأعرض عنه مرضاه وأصبح نصيبه فى النجاح ضئيلا ولكن عندما أدرك الناس صحة تعاليم هارفى كان ذلك ايلاما ببداية عصر جديد فى عالم الطب -

وكان المعروف قبل عصر هارفى ان القلب عبارة عن عضلة حوله تنقسم الى أربعة تجاويف يسمى اثنان منها بالأذنين ويسمى الآخران البطينين ففى أعلى الاذنين الأيسر والاذنين الأيمن ومن أسفل البطين الأيسر والبطين الأيمن وكان المعروف كذلك ان هناك نوعين من الأوعية الدموية وهى الشرايين والأوردة ويعرف الشريان الرئيسى فى الجسم بالأورطة وهو يتصل بالبطين الأيسر ويتصل الوريد الرئيسى بالأذنين الأيمن ، كما يتصل

البطين الأيمن بالترتين عن طريق الشريان المعروف باسم الشريان الرئوي .  
وأما الوريد الرئوي فيوصل الرتين بالأذين الأيسر . ولقد كان الكثير من  
هذه المعلومات معروفا لجميع الأطباء والجراحين قبل أن يولد حارفي بزمان  
طويل وكان من المعروف كذلك أن الشرايين والأوردة تنتشر في كل أجزاء  
الجسم وتنبه في انتشارها جنود الشجرة . . .

كل هذه الحقائق كانت مألوفة لدى رجال الطب في نهاية القرن  
السادس عشر ، إلا أن أحدا لم يستطع أن يشرح العمل الذي يقوم به القلب  
والأوعية الدموية شرحا مقنعا . فقال البعض أن القلب يفرغ سائلا يسرى  
في كل أجزاء الجسم ويسونه . روح الحياة . . . وقال البعض الآخر  
أن الصلبة ترتبط ببعض الشيء . بالنفس واعتقد آخرون أن عمل القلب  
ليس له علاقة بالدم الذي رصوا أنه ينساب في اللحم ليفلئ الجسم كله  
غير أن الكثير من أولئك الذين اعتنقوا هذه الآراء قد انتحروا في ذلك نحو  
تعاليم وآراء الفلاسفة الذين عاشوا قبلهم بنات السنين فهي ليست اذن  
من بنات أفكارهم . وقد يذل آخرون جهما عظيما في التفكير دون أن يسيروا  
كثيرا بالحقائق الواضحة وكان لابد أن يأخذ حارفي على عاتقه أن يتأمل  
ويشاهد بنفسه ما يحدث عندما يدق القلب وأخيرا وصل إلى الحقيقة  
بالملاحظة المأثبة والتجارب الطويلة وكتب يقول : « اني اقر بالا اتعلم  
التشريح أو اعلمه من الكتب أو من كلام الفلاسفة ولكن بواسطة التشريح  
ذاته ومن صنع الطبيعة » .

ولقد كان فابريكوس معمم حارفي في ايطاليا أول من اكتشف صمامات  
الأوردة وحى عبادة عن قطع صغيرة من النسيج الغشائي توجه على مباداته  
في الأوردة . وقد لاحظ فابريكوس أن هذه الصمامات تنبج دائما نحو  
القلب ولكن حارفي هو الذي لاحظ أن عمل هذه الصمامات هو دفع الدم  
في اتجاه القلب وليس خارجا عنه كما لاحظ انه كلما دق القلب اتسعت  
الشرايين وتبست وصمحت بتدفق الدم خارجة عن القلب وليس في اتجاهه  
وتبين له أن القلب يصب الدم في الأورطة ويسرى منه إلى جميع الشرايين  
في الجسم .

ولقد واجهت حارفي مسألة مهمة فالتبض عند الانسداد يحرق بمعدل  
٧٢ مرة في الدقيقة وكل بطين يحل أوقيتين من الدم وبذلك فإنه في كل  
دقيقة يصب البطين الأيسر ١٤٤ أوقية من الدم في الأورطة وهكذا نرى  
مسهولة أن ٨٦٤٠ أوقية من الدم تتدفق في الأورطة في مدة ساعة من  
الزمن وحى كمية تعادل وزن ثلاثة أفراد ثقيلي الوزن ومثل هذه الكمية  
تفسسها يتدفق في الشريان الرئوي عن طريق البطين الأيمن ولنا أن

نفسه : « من أين تأتي هذه الكمية الكبيرة من الدم ؟ وإلى أين  
تذهب ؟ »

والواقع أنه ليس في الاحتمال الإجابة على هذا السؤال إلا بجواب  
واحد فقد رأى هارفي من قبل إنه الدم ينفق دائما في اتجاه واحد خارجا  
من القلب عن طريق الشرايين ومتجها إليه عن طريق الأوردة وأنه يتناسب  
باستمرار هذه توقف وكتب يقول : « لقد يئسنا أفكر في احتمال عدم  
وجود دورة حيوية إذ أنني أرى أن البطين الأيسر يدفع الدم في الشرايين  
ويرسله للجسم بكميات كبيرة وبفلس الطريقة يدفع البطين الأيمن الدم  
في الشريان الرئوي ومنهما إلى الأوردة » . وبذلك شبه عمل القلب بضغطه  
فله الجسم كله جسم الحياة .

ويستمر في حديثه فيقول : « إن القلب ينفذ نتيجة لذلك بداية  
الحياة لأنه محمل القلب وبضائه يتحرك الدم نفا محملا لتنفيذ الجسم  
كما ينفذ من أن يفسد ويحفظ وهو على الحقيقة حرك الحياة وحدها  
كل حركة » -

إلا أن فكرة توزيع الدم كانت من البعد وعدم السماح بها من قبل ،  
بعيت حتى هارفي أن يعارضه جميع الناس ولكنه وقد أيمت له ملاحظاته  
صواب وأي لم يحفل بها يحتمل أن يقول الناس عنه وكتب يقول : « قلبي  
الأمر وإلى أهز بالحقيقة وأجلها » .

ولما تم تكن الميصر القوية معروفة في ذلك الوقت فقد بقي أمام  
هارفي موضوع واحد يصعبه المشوئى : فلم يمرض طريقة مرور الدم من  
الشرايين إلى الأوردة منه عرجة على القلب ومن المروى الآن أن قروح  
الشرايين الحقيقية وتسمى بالشعيرات صغيرة جدا ويتخذ رؤيها بالصبي  
المجردة وهي تقوم محمل الدم النقي من الشرايين إلى جميع أعضاء الجسم  
والتي هي مزيل لهم بالحاسة إلى الأوردة ومنها إلى القلب ويمر الدم الفاسد  
من الأوردة إلى البطين الأيمن إلى البطين الأيسر ومنه إلى الشرايين  
الرئوي وفي الرئوي يمر في الشعيرات المنتشرة خلال الرئة وهنا يقوم  
الأكسجين بتنقيته في القصبة الهوائية الذي يأتي إليها بواسطة التنفس  
وذلك يصبح الدم خلال القروح الرئوي إلى الأذين الأيسر في القلب ويستمر  
في تدفق مستمر في نظام دوزي كما سبق أن شرحه هارفي .



وبعضنا نحن نعلم أن اكتشافه للعالم صغيره ظهر من مرضاه وربما  
كان ذلك من اعتقاد منهم بأن الرجل فقد صوابه . وفي ذلك الوقت كان



بكتسب حلف بلاط الملك المسيحي الحظ شبارل الأول وتظهر آية ذلك  
 (الخطب في سجلات مستشفى القديس مارتنيو في أوائل عام ١٦٣٠  
 صمرت النشرة التالية : « أعلن اليوم الدكتور هارفي طبيب هذا المستشفى  
 أن صاحب الجلالة الملك المعظم قد أصدر إليه أمره بمرافقة صمو الأبر  
 جوق لوكس الجديد في أسفاره فيما وراء البحار ، ولذلك فهو يرغب في  
 أن يسمح البلاط لادموند سميت الدكتور في الطبعة أن ينوب عنه أثناء  
 تقيمه في القيام بصله طبيبا لهذا المستشفى » .

وقد ترك هارفي انجلترا بعد ذلك بشهور قليلة مع رفيقه السامي  
 وكليسا المتباهي التالي معا في باريس .

وما كاد هارفي يعود الى انجلترا حتى عينه الملك طبيبا دائما له ولم  
 يلبث أن أصبح معه ذلك يستويات قليلة طبيب الملك الأول وكان على  
 النوام حكيا متحمسا حاز إعجاب شبارل الأول بدرة كبيرة وكان له  
 أصدقاء بين رجال البرلمان ، كما حظي بتقدير كل أولئك الذين اتصلوا به  
 وصحبتهم وكان له أصدقه ومعجبون في كل من المفسرين اللذين انطى  
 اليهما الراح المير في ذلك العصر الشمس ومع انه ظل على ولائه للملك  
 شبارل فانه مع ذلك لم يعاد أحدا ويبدو أن الملك بدوره قد أحب طبيبه  
 ووثق به إذ رأى فيه رجلا يتمتع بذكاء حاد فاحترم أمره . وحتى ذهب  
 الملك ليتوج في هولبورن في قصر ادنبرة اصطحب معه هارفي وكانت  
 بعض الواجبات التي يقوم بها طبيب الملك غريبة ، فله أمره الملك أن يقوم  
 يقص بعض الساء اللواتي قضى نادائتهن بتهمة السحر ( وكان السحر  
 عقبة واسعة الانتشار في ذلك الوقت ) وقد وجد هارفي أن النسوة  
 أهدأتهن صحيحة فصدر العفو عنهن .

وعندما نشبت الحرب الأهلية في عام ١٦٤٢ صاحب هارفي الملك  
 حينما حل ولانجل . وفي أثناء هذه الغيبة قام جنود البرلمان بتفتيش  
 منزله وحرقوا الكثير من أوراقه وقد كتب بعد ذلك قول : « بينما كنت  
 في خدمة الملك سطت بعض الأيبي الأئمة على منزلي وسلبت كل أثاله  
 وإن أعظم ما يحر في نفسي ما صلبه أعدائي من متخفي من ثمرات كل  
 سنوات كثيرة » . وفي معركة « اجعل » في نفس السنة معه الى هارفي  
 برعاية ابني الملك الصغيرين وبما كانت تستمر ناز الحركة كان يجلس  
 تحت سياج من النباتات ومعه ابنا الملك وقد أخذ يقرأ كتابا .

وأحسن هارفي بأعباء السنين وما عاناه من داء في مفاصله وتعلم  
 عليه أن يواصل أداء رسالته الطبية بسبب الحرب وفي علم ١٦٤٦ اعتزل  
 الخدمة وعاد الى حياته الخاصة ولم يعد يراه أحد في البلاط إلا أنه استمر

في القاء محاضراته ومواصلة أبحاثه في علم التشريح في كلية الأطباء ومع  
أنه انتخب مديرًا للكلية ، فقد رخص المنصب متعللاً بكبر سنه وضعفه ومع  
ذلك فإنه لم يتوقف عن دراسة وتشريح الإنسان والحيوان حتى أواخر  
إيامه ٠٠ وما الكثير من معلوماتنا في العصر الحاضر إلا لمرّة السنين  
الطويلة التي قضّاها في الدراسة والتجربة - وفي يونيو عام ١٦٢٧ مات  
حارفي بعد أن بلغ الثمانين من عمره ودفن في ميمستيد بمقاطعة اسكس  
حيث لا يزال قبره قائماً -

## الرسالة

تألف رسالة هارفي من مقدمة طويلة وهي سمعة عشر فصلا موزعة  
تقريباً بدوجا متطابقاً .

لما للمقدمة فحسنتاولها بشيء من التفصيل لدلالاتها على حالة هارفي  
الفكرية عندما شرع في دراسته وعلى طريقتة في البند والتحليل . بدأ  
هارفي بسرد أقوال من سبقه من العلماء وعقائد العامة وما جرى عليه  
التقليد ليثبت منها ما يطابق الحقيقة وليصحح الخطأ وهذا عن طريق  
المقارنة بنتائج التشريح والتجارب المتكررة والملاحظات المحسبوطة إذ أن  
المشريح والأطباء والفلاسفة كانوا مجسسين في سمعتهم لرأى هالينوس وهو  
أن حركة النفس والفاية منه لا تختلفان عنهما فبدأ ينسج النفس . اللهم  
ففي أن الأول يتناول الروح الحيواني والثاني يتناول الروح الحيوي . ومن  
هنا أكلوا . كما أكد ذلك أيضاً هيروديهوس لابريسيوس ذي أكوأبندنتي  
في الكتاب الذي نشره عن النفس قبل ظهور المؤلف الذي نحن بصدده  
أنه بدأ أن ينسج القلب والفرايين لا يكفيان لتهدية القلب ولتهدية فان  
الرتين شكلتا للملاحظة بالقلب فيبدو من تلك الأقوال أن كل ما ذكر من  
الانقباض والانسساط إنما قليل بالاشارة إلى الرتين ولكن بدأ أن تكون  
القلب وحركاته تختلف عن تكون الرنة وحركاتها . وبمبدأ أن حركة  
الفرايين تختلف عن حركة الصدر فإن هارفي رجح أن لهذه الحركات  
أعراضاً وأفعالا مختلفة .

ثم يضي إلى حياة البرهان على أن الأوعية لا تحوي إلا دما مستقيماً  
إلى تجارب هالينوس وإلى تجاربه الخاصة ويشرح وجود الروح في الدم  
بأن فصلهما محال كما أن الفصل بين الماء وحرارته محال .

ثم يضي في اعتراضاته فيذكر أنه يمكن الاستنتاج أن البيض  
والنفس غرضهما واحد وهذا من أن الظاهرتين تسرعان وتقربان موبيا  
تحت تأثير العوامل المختلفة . وهذا ما قاله هالينوس . إذ أنه يمكن ملاحظة  
تباين بينهما في حالات يذكرها . كما يناجم الفكرة القائلة بأن وطقة  
البطن الأيمن هي التغذية بينما أن وظيفة البطن الأيسر هي صناعة الروح

الحيوى والحياة - باتيا حخته على تشابه البطنين من حيث تجهيزها بالالياف وبما يشبه التمدادات وبالصمامات . الخ . ومن حيث وجود دم اسود متجلط فى الأذيين عندما تشرح الجنة ومن حيث تشابه عملها وحركاتها وبصمها . ويتساءل لماذا عمل الصمامات ، وهى متشابهة التركيب ، قاذرة بالمم وطورا بالروح . ولماذا يتساوى الشريان الرئوى بالوريد الرئوى فى الحجم ان لم تكن وظيفة كل منهما متماثلة ويعد سؤال ربالدو كولير . « ولم تسرى فى الشريان الرئوى تلك الكمية الضخمة من الدم التى تسارى مجروح ما يمر فى الوريدين الحرقفيين ؟ » ويضى فى استلته : « اذا كان البطن الأيسر يستمد خاماته ( دم وهواء ) لصنع الروح من الرئة ومن جيوب القلب اليمنى واذا كان يرسل الدم المتشحون بالروح الى الأورطا تم يسحب من الأورطا عينها الأبخرة الدخانية ليضعها الى الرئة عن طريق الوريد الرئوى . واذا كان الروح يستمد من الرئة ليوصل الى الأورطا فكيف يحصل من الروح والأبخرة وكيف يسود كل منهما ويصدر عن الطريق نفسه دون حدوث أى اختلاط بينهما ؟ » تم . يسأل أيضا « اذا كانت الصمامة المترال تسمح بمرور الأبخرة الى الرئة فكيف تلف فى صيبل الهواء ؟ »

ويتمهى قائلا : « يا الهى ! كيف تعوق الصمامة المترال ارتداد الهواء ولا تعوق ارتداد الدم ؟ كيف يستمدون وظيفة واحدة الى الشريان الرئوى ذى الغلاف الشريانى ( أى القوى ) بينما يولون الأوردة الرئوية المرنة والرخوة ثلاث أو أربع وظائف ؟ اهم اذ يقولون ان الأبخرة تسرى فى الوريد الرئوى من القلب الى الرئة وان الهواء يسرى فيه من الرئة الى القلب أقول ان الطبيعة لم تعتد تخصيص مجرى واحد لحركات عكسية واذا كانت الأبخرة تنسلل الى الوريد كما تنسلل الى الشعب فلم لا تنطلق من الوريد الرئوى اذا فتح ؟ »

وأخر صمد شنه حادف على الأكسجين فى هذه المقدمة يوجه الى عقيدة اعتنقها العالم قرونا وأخلها عن جالينوس وان كان ثار عليها ابن النفيس قلته بأربعة فروود وهى الايمان بوجود مسام بين البطنين .

ويمكن تقسيم حججه الى ستة نقاط :

أولا : تؤكد عدم وجود أية مسام فى الحاجز بل أن قوام الحاجز أنسك وأسم منه فى أى جزء فى الجسم عدا العظام والأوتار .

ثانيا : يفرض حدا وجود هذه المسام ليسال كيف يفلد شئ من بطن الى الآخر اذا انهما يتقبضان وينبسطان معا .

ثالثا : يقال لماذا لا يقال ان الأيمن هو الذى يستند الروح من الأيسر بدلا من العكس ؟

وابها : يستجيب مرور الدم من مسام لا ترى بينما حصصت الهواء سجار واسعة .

خلاصا : ما فائدة الشرايين الاكليلية التى تغذى الحاجر اذا كان الدم يمر فيه .

صاحبا : اذا كانت الطبيعة اضطرت فى الجنين - وأنسجته وخوة الى تمرير الدم من اليمين الى اليسار عن طريق الفتحة البصائية فكيف سهل عليها فى البالغين تمريره دون مجهود غير الحليز الذى يرداد صلافة مع السن ؟

ويختم هارفى دفعه مستنتجا ، مما يشوب اقوال الأقدمين من قصور وتضارب وغموض ضرورة إعادة النظر فى القضية بإجمعا .

### \*\*\*

مررد هارفى فى الفصل الأول بعد مقدمته الدوافع التى حفزته الى الكتابة وهى حيرته التى شجبهها بحيرة أرسطو اراء مد وجزد لهر بوريرس والنقص فى مؤلف هيروسوس دى أكوابندنت الذى عرض لكل اجزاء الجسم عند القلب ثم تناول فى الفصول الأربعة التالية مشاهداته فى حركة القلب ( فصل ٢ ) ، وحركة الشرايين ( ٣ ) وحركة القلب والأورين ( ٤ ) وعمل القلب ووظائفه ( ٥ ) كما تشاهد فى الحيوانات الحية ذاكرا أنه أجرى هذه المشاهدات على ذوات النبض البطيء كالضفادع والثمانين والأسماك والقواقع وأبى حليمو والمخار وفي الحيوانات الثابتة الحرارة قبيل وفاتها عندما تنطو حركة قلوبها . ولا حظ أن القلب - فى وقت ضربة النبض - يرتفع ويشرب الصدر ويتنفس وتصلب كعضلات الجسد عند الحركة ويحصد لونه ويندفع منه الدم بشدة اذا وخن وهذا على نقض الراى المألوف بأن النبض يحدث عند امتلاء القلب وأن حركة القلب الجهرية هى الانبساط وكذلك على نقض قول فيزاليوس أن الياف القلب موصوغة عل شكل حزم متوازية من الصلصاف حتى تنقبض تقترب قمتها من قاعدتها فتصبح جوانبها كالأقواس وتوسع تجويفها ويدخل فيه الدم .

أما الثمرايين فإنه لاحظ أن امتلائها يقارن انقباض القلب وأنها فى هذا الحين فى حالة الانسحاب وأن هذا صحيح أيضا فى حالة الشريان الرئوى

والبطنين الأيمن كما أن البض يفقد عند توقف البطنين ويضعف اذا ضعف انقباضه وان الدم يدفع بقوة من الشرايين اذا وخزت وقت انقباض القلب وانقباض الشرايين ، فاستنتج من هذه المشاهدات أن انقباض القلب يناصر انقباض الشرايين وان الشرايين تمتلئ كالقرب يدفع الدم الذي يأتيها من القلب وأنها لا تمتد من ذاتها كالمتعاع وان كل شرايين الجسم تتباعد تحت تأثير محرك واحد هو انقباض البطنين كما تستمع اصابع القفاز معا اذا فطح فيه وهذا ذكر حالة مريض بورم شرياني في الرقبة كان نبضه في الناحية المصابة اصعب منه في الناحية الأخرى لأن جزءا من الدم تحول الى الورم . أما عن الأذنين فبدأ طول ان ، يوحان ، ، وريولان ، وهذا من أوسع الناس علما وأكثر المشرحين مهارة قد وصفا أربع حركات للقلب تمتاز في المكان والزمان . اثنتين للأذنين واثنتين للبطنين وهو مع احترامه لهما يقول انهما أربعة في المكان ولكنهما اثنتان في الزمان لأن الأذنين متوقفتان والبطنين متوقفتان وان حركة الأذنين تسبق حركة البطنين وانه قبيل الرفاة يتوقف البطنين بينما يستمر الأذيان في الحركة فإذا وضع أصبع على البطنين يمكن حس انقباض الأذنين وإذا استوصلت قمة البطنين اندفع منها بعض الدم كلما انقبض الأذيان ، الأمر الذي يدل على دخول الدم الى البطنين مدفوعا بانقباض الأذنين ليس مجتهدا بانقباض البطنين . ثم أضاف ملاحظات مهمة منها أن قطعا من القلب تستمر في الانقباض مدة فصلها مدة من الزمن وشبه هذا بعضلات بعض الأسماك كما أشار الى بعض الملاحظات الأخرى عن ظهور حركة القلب في الأجنة .

ثم عرض نظرية دورة الدم مفصلة في ثلاثة فصول ( السادس والسابع والثامن ) وهذا ليس بسب حيرة من سبقه وهو العلاقة الوثيقة بين القلب والرئتين وتشعب الشريان الرئوي والوريد الرئوي في الرقبة وضياعاها فيها ، وهو أمر حير العلماء في تفهم الوسيلة التي يوزع بها البطنين الأيمن الدم والتي يستعملها بها البطنين الأيسر فقدمهم الى فرض وجود مسام بين البطنين . وهذه القضية أفرد لها الفصل السادس حيث بدأ بملاحظات في التشرح المقارن قائلا ان الدم في الحيوانات ذوات البطنين الأواحد - كالأسماك - يمر من الأوردة الى الشرايين عن طريق هذا البطنين المشترك وبما أن عدد هذا النوع من الحيوان - من أسماك ورواحف - فوق بكثير عدد الحيوانات الأخرى فيحسب قبول مبدأ عام هو وجود طريق مفتوح لنقل الدم من الأوردة الى الشرايين عن طريق تجاويف القلب على انه قانون عام .

ويتلوه من الرهان المستعمل من النمو القلبي الى النمو الذاتي ويقول ان علاقة الأوعية المرتبطة بالقلب تختلف في أجنة الحيوانات ذوات الرقبة عنها في البالغين .

وفي الفصل السابع يقول : انه ليس هناك ما يمنع تسيل الدم من البطني الايسر الى الأوردة الرئوية عن طريق الرئة وشبه هذا يسود الرق في الجلد وادوار البول من الكلى بعد شرب كمية من الماء من ان نسيج الكبد والكلى اللذين لير منهما السوائل أكثر بكثير من نسيج الرئة بالإضافة الى ان نبض النطين الايسر يدفع الدم بقوة في الرئة فيوسعها ويحييها ومما بها وأن حركة الرئة في أثناء التنفس تفتح وتغلق المسام والأوعية كما يحدث في الأسفلنج .

وفي الفصل الثامن يقول : انه استنتج بالتأمل في حجم الأوعية ومن كمية الدم التي تنقل فيها . ومن قصر الوقت الذي يستغرقه النقل . ومن استحالة ورود كل الدم من الأوعية دون ان تفرغ الأوردة أو تنفجر الشرايين اللهم الا اذا وجد الدم سبيلا يسلكه ليعود من الشرايين الى الأوردة . استنتج من كل هذا وجود حركة دورية للدم ، تحقق منها قسا بعد بالبرهان ، كما تحقق من ان البطني الايسر يدفع الدم في الشرايين فيوزعه على اجزاء الجسم كما يوزعه البطني الايمن في الرئة ، ثم يمر الدم في الأوردة والوريد الأخرى ويعود الى النطين الايسر . وبهذه الطريقة تغذي الأنسجة بدم دافئ لطيف كامل مشبع بالغذاء . وبالعكس فان هذا الدم في الأنسجة صمغ باردا متجشطا نافذ المفعول فيعود الى القلب ليستعيد الكمال .

وفي الفصل التاسع يتناول حارفي المسألة بالحساب ، واستعمال الحساب عند العرض للمبادئ الجوية هي بدعة ابتدعها ، فيقدم ثلاثة براهين وهي :

أولا : ان الدم يقل دون انقطاع من الوريد الأخرى الى الشرايين بكمية لا يمكن ان تتوفر من الأوعية .

ثانيا : ان الدم يدفع في مجرى مستمر وعساو غير منقطع في كل عضو من اعضاء الجسم بكمية تفوق بكثير حاجتها الفعالة ، كما انها تفوق ما توفره كمية السوائل بأعضائها .

ثالثا : ان الأوردة تعيد هذا الدم بالطريقة نفسها - ثم يفتحص حارفي أن سعة تجويف القاب عند امتلائه بأربعين من الدم وان ربع أو حتى ثمن هذه الكمية يخرج منه مع كل نبضة ، فان القلب بعد نصف ساعة يكون قد ضرب أكثر من ألف ضربة وأحيانا أربعة آلاف ، وتكون بهذا كمية الدم المطرودة نحو ألف مرة نصف أوعية أي كمية تفوق ما يحويه الجسم

بأجمعه - ثم يفرض حدلا أن هذا لا يحدث إلا مرة واحدة يوميا فإنه مازال واضحا أن كمية الدم التي تمر في القلب تفوق كل ما يدخل الجسم من طعام أو كل ما تحويه الأوردة وهذا يفسر إمكان تفريغ جسم الحيوانات مما تحويه من دم في وقت قصير فتفتح شريان ، كما يفسر الظاهرة التي دعت الأقدمين إلى الاعتقاد بأن الشرايين لا تحوي إلا روحا هي الله الحياة ، إذ أن الشرايين مازغة بعد الموت بينما الأوردة منتفخة ، هذا إلى أن الدم لا يمكنه المرور من الأوردة إلى الشرايين بعد أن تنقطع حركة الرئة ، ولكن بما أن القلب يستمر في النبض بعد وقوف الرئة فإن البطين الأيسر يستمر في تفريغ الدم في الشرايين دون أن يصل إليه شيء منه ، وهذا هو السبب أيضا في توقف الأنفزة في حالة الغشاء عنسلما تضعف حركة القلب ، وفيما يجدها القصابون من صعوبة في جمع الدم إذا لم يسرعوا في فتح رقبة الثور بعد صرعه على رأسه قبل أن يتوقف قلبه .

أما الفصول الباشر والخامس عشر والثاني عشر فإن ماوفى يصف فيها تجربة ربط الوريد الأجوف في الثمان ، وهي العملية التي يتبعها فراخ الكهزة الموجود بين موضع الربط وبين القلب ، وذوال اللون الأحمر من القلب ، وانكماش حجمه لقلة الدم الموجود فيه ، وكل هذا يعود إلى أصله إذا ما فك الرباط . أما إذا ربط الشريان فإن الجزء الموجود بين القلب وموضع الربط يتقلص حتى يكاد يتفجر ويزيد لونه احمرارا ، وفي هذا دليل على أن أسباب الموت على نوعين : الوفاة بالنقص والوفاة بالاختناق أو الامتلاء .

وفي الفصل الثالث عشر يفسر اتجاه مرور الدم من الأطراف إلى القلب في الأوردة على أنه نتيجة لوجود صمامات في الأوردة .

وفي الفصل الرابع عشر صرد نظريته في الدورة الدموية .

ولم يفت هارفي - وهو كما رأينا قد تنسج بالنزعة التجريبية - أن يدعم بالحجج المألوفة في ذلك الزمن وقد ساق تلك الحجج في الأبواب الثلاثة التي ختم بها ليبرهن بها على أن الدورة ضرورية .

أولا : القلب منبع الحرارة والحياة فمحب أن يموت الدم إليه بعد تبرئهم في الأطراف ليستعيد حرارته .

ثانيا : أن القلب هو المخزن المركزي الوحيد الذي يورع الدم على كل عضو بالنسبة الواجبة وهي نسبة يحدها حجم الشريان الذي يتلقى المضر .

ثالثا : أن تدوير الدم وحركته يحتاجان إلى محرك هو القلب .



وفي الفصل السادس عشر يستنتج الدورة لاصتها لبعض الملاحظات:  
كالتى تتعلق بالجروح المسمومة وبعض التآخين والحيوانات المبروعة  
والصدوى بالزهرى .. الخ حيث يصاب الجسم بأكمله بينما يمشو محل  
الصدوى سليما الأمر الذى يدل على سير العلوى عن طريق الدم الى القلب  
الذى يشرها فى الجسم أو كالتى تتعلق بتأثير العقاقير على الجسم عند  
استعمالها من الخارج بسبب امتصاصها فى الأوردة كما تمتص الأمصا  
من الأمصا .

أما الباب السابع عشر وهو الأخير فهو باب فى التفرع المقارن  
يبدأ فيه فيقول ان الحيوانات البدائية كالديدان ليس لها قلب لسوء  
حجمها وصغر حجمها وتساويها فى القوام لأنها لا تحتاج الى محرك بل انها  
تتصن وتطرد بحركة من جسمها بأكمله كان الجسم يستصل على نحو  
قلب .

أما فى عهد هذه الحيوانات فان القلب يزد فيها حجبا وتقبعا ويريد  
عند تحريكها كلما زاد حجم الحيوان وكية دمه حتى ان اكملها يحتاج الى  
بطن ثان والى دثتين وكلما وجدت وثتان . وجد بطن ايسر وهذا لا يوجد ان  
ثم يوجد ايضا بطن ايسر ثم أوما الى ان البطن ايسر أصك وأضخم  
وأقوى من الأيسر وأن الشبكات والعصائب اللحية فيه أصمك فى  
البالغين وفى الذكور وفى ذوى الأجسام القوية العضلات منها فى غيرهم  
وهذا لأن محدودته فى توزيع الدم للجسم كله أكبر من محدود البطن  
الأيسر .

وبعد هنا تأمل فى الصفات التى لا تسبح بسوء الدم الا فى اتجاه  
واحد ثم فى الاذين وبخاصة فى الاذين الأيسر الذى سماء المحرك الأول  
للقلب ( وهو فى هذا أصاب أن مركز حركة القلب موجود فى البطن  
الأيسر ) وفى هذا الجزء من تأملاته أظهر معرفة مستفيضة بعد فهم من  
الحيوانات ثم قال ان حجم الاذين بالنسبة الى البطن أكبر فى الجنين  
عنه فى البالغين كما ان الاذين ينشأ قبل البطن لأن الجنين الصغير لا يحتاج  
الى بطين وأن الطبيعة لا تخلق عضوا الا اذا كانت حصة له وطيلة .

وانتهى مؤكدا مع لمسطور ان القلب ملك الجسم فانه يتكون فيه  
قبل غيره . ويملك أقوى سلطة . وهو الأصل والمنبع لكل قوة .



وقد نتج عن نشر هذا المؤلف خلاف بين معاصديه وأعدائه من علماء وفلاسفة وكتاب تردد صدى أكثر من نصف قرن فقد أخذ بنظرياته في إنجلترا « هايبور » و « لوور » و « في الماسرك أترها » بيلوجستيسن و « في هولاندا » سيلفيوس و « في ألمانيا » كورنيج ، ولكن موافقة هؤلاء العلماء المتأخرين لم تمنح التقليديين من حسن حملة تمهم على الانتفاذ الشافه والصحیح الخاطئة .

وأول من حاجه في إنجلترا « بومروز » سنة ١٦٣٠ الذي اتهم بالاعتقاس والنقل وفي إيطاليا قال « جيوفاني دلاوردى » عن نظريته انها فضيحة وجل يحاول عدم عقابه تنصب بالكمال ونظريات تدعو الى الاعتجاب ، وقال عنها « باتان » في فرنسا انها خاطئة وضارة ومخالفة للحق - ومن الطريف أن الأدباء انقلبوا له في المعركة فسخر « بولور » و « مولير » من أعدائه أيضا سخريه وعلق « باسكال » قائلا : « اننا اذا ما اعتدنا الاستعانة بالبراهين الخاطئة عجزنا عن قبول البراهين الصالحة عند الكشف عنها » .

ولمضرب مثلا للنضال العنيف الذي هو الدوائر العلمية في ذلك الوقت بما حدث في باريس قائد ربولان الذي ذاع صيته في عهد لويس الثالث عشر وتقلده منصب عميد أطباء باريس وطبيب الملكة الوالدة الأولى استمر يلقي على تلاميذه نظريات أفرط وجالينوس غير مكترث بنظريات هارفي أو من سبقه فيها أمثال « سرفتوس » أو « كولومبو » أو « فيزالييسو » ولكن لويس الرابع عشر تبني النظرية الجديدة بتأثير « دافني » فأمر « ديونيس » جراح ذلك الأول بتدريس الحقائق التشريحية الجديدة بالاستعانة بالتشريح عل رغم مقاومة حديدية من دعاة احتكار تعليم التشريح . وأصدر الملك أمرا عن طريق البرلمان سجل سنة ١٦٧٣ بإجراء العمليات التشريحية والجراحية في الحديقة الملكية بأبواب مفتوحة وبدون طلب أي أجر لمصلحتها كما أمر بتفضيل من يقومون بهذه الدروس عند توزيع الجثث وقد نشر سنة ١٦٩٠ ديونيس مؤلفا أسماه « تشريح الإنسان طبقا للنسوة الدموية » وهدم التسمية تدل على مدى النفوذ الذي اكتسبته النظرية الجديدة . .

البخيل  
موليير  
١٦٦٨م



من المؤكد أن القرون السابع عشر هو العصر الذي حصل فيه الغرب على تراثه المسرحي الحقيقي ، فقد اقتنحه شكسبير واستخذه مولير وما يدعو الى الصبح ان ثمة معلومات تدعو الى التقريب بين هذين الصلاحي من عاقلة المسرح ، كما انه فضلا عن اوجه الشبه بينهما فان الأسطورة والخرافة تشيران بالنسبة لهما تساؤلات متشابهة ، ومن جهة أخرى فببسا يشكك بعض الباحثين في حقيقة شخصية شكسبير نجد آخرين يدعون ان « مولير » لم يكن سوى اسم مستعار يغطي وراء مجموعة من المؤلفين لم تكن هوياتهم لتكتسب شهرة عن طريق المسرح ؛ وزيادة في السخرية أو التنبؤ التاريخي كان لابد ان تكون هاتاه البقريتان قد نبعتا من أكثر الطبقات تواضعا في عصرهما فالأول ابن جزار والثاني ابن بائع سمكة !

### ★★★

وعندك تواريخ ليس من حق البشرية ان تجعلها هي تلك التي تشير الى أهم الأحداث التي تخللت حياة العياصرة ، ذلك لأن الانتاج الانساني الفذ لا يصحب ان يعنى ظروف الحياة التي يبع منها والتي يمكن ان تكون الأخيرة بالعبر والعروس ، وحياة مولير تضم بعض هذه التواريخ : انها تقع في نصف قرن من الزمان ، وإذا كان التاريخ قد سجل بدايتها ( ١٦٢٢ ) فلأنه أجبر على تسجيل نهايتها ( ١٦٧٣ ) ، فما أهمية تاريخ ميلاد انسان لم يترك إلّا بـشعر بفداحة الرزء حين يموت ؟ وبين عام ١٦٢٢ الذي أدرك فيها بعد انه كان ابلذا يقسرب مولد الكوميديا الحقيقية في فرنسا وعام ١٦٧٣ الذي انحصر فيها بعد كذلك انه كان قدبرا يموت هذه الكوميديا . أقول ان بين هذين التاريخين تقع عدة تواريخ أخرى بالغة الأهمية في حياة الأدب والفن - هي تلك التي انحصر فيها مولير الأدب والمسرح العالمين سبب أو ثمان من أدور رواياته .

وحياة مولير لاتزال موضوعا لكثير من الآراء المتناقضة وربما كان من المواصل التي لاتمتح على معرفة الكثير عنها بالدقة خلر انتاجه من التفاسيل التي تتعلق بها - كل ما نعرفه عن طفولته وصباه هو ان جاني باتيسد بوكلان ولد في باريس وان أباه كان يجمع بين الاتجار في السجاد ووظيفة خادم للملك وأنه درس على يد اليسوعيين في كلية كليرمونت ثم درس الحقوق في أورليان كما تلتب في دراسة الفلاسفة على

جاسدي الذي حبه في الشاهر اللاتيني لوكريس وانه اشتغل بالمشاهدة فترة قصيرة لم يتراجع خلالها سوى مرة واحدة وانه الدفع نحو المسرح ببيل طيبي قوي لم يستطع مقاومته ويقال انه فقد أمه وهو في الحادية عشرة من عمره وإن أباه كان فظا بغيلا وإن جده، لأمه لويس كريستيه هو الذي غرس فيه حب المسرح إذ كان يصطحبه دائما إلى المسارح التي ينشأها وفي كل مرة كان جان بوكلان يشهد فيها إحدى الروايات كان يعود بعدها إلى بيته ممتع اللون ويفرق في تفكير عميق يزيده سخطا على مهنته . ويقال كذلك انه حين قرر التفرغ للمسرح لقي معارضة شديدة من والده الذي لجأ إلى شتى الوسائل لثنيه عن عمله : فذل له الوعود ثم عمد إلى الوعيد ثم عهد ببيعة انتراخ فكرة المسرح من ذهنه إلى استناد قديم له يدعى جورج بينيل والطريف - وهذا يقال أيضا - أن الفتى لم يكتف بالرسوخ أمام مساهي معلمه القديم وأسا وفق في اقتناعه بالحصل منه !

وفي يونيو ١٦٤٣ اتفق « جان باتيست » مع ثلاثة أفراد من أسرة بيجار ( حوريف ومادلين وجنوفييف ) وعمد آخر من الرفاق ( سبعة ) وأستاذة القديم بينيل ( الذي سمي نفسه لاكوتير ) على انفسد فرقة مسرحية أطلقوا عليها اسم « المسرح العظيم القخم » وهذا سمي جان باتيست نفسه « مولير » وطلب الفرقة تستأجر المسرح تلو المسرح وتصلب بالاختفاق تلو الاختفاق إلى أن أبهظتها الديون واستبدال بقاؤها في باريس . كان مولير مديرها القفل بالرغم من حداثة سنه ويقال انه معجن مرتين بسبب الديون التي كانت تثقل كاهلها وجمعت الفرقة أتمتها ولادت بالريف في أواخر عام ١٦٤٥ ولم ترجع إلى باريس إلا بعد ثلاثة عشر عاما عرفت خلالها حياة التحول .. وأصبح بمولير أمير كوتشي زميله القديم في المدرسة فأراد أن يمينه مسكونا له ، لكنه رفض بدافع من حبه لمهنته وتعلقه بفرقة وحرسه على انستقلاله .. في إحدى جولات الفرقة في روان حصل مولير على إذن من دوق أورليانف شقيق الملك - بأن يمثل في باريس أمام الملك . وفي ٢٤ أكتوبر ١٦٥٨ قدمت الفرقة في قصر اللوفر أمامة لكوني وعلمة حزلية من تأليف مولير هي الدكتور المحب . وأعجب لويس الرابع عشر بالفرقة فسمح لها بأن تستقر في باريس وبأن تسمى نفسها « فرقة شقيق الملك » وأن تقدم حفلاتها في صرح البرودوي الصغير بالتناوب مع فرقة الايطاليين . وحين أزيل مبني هذا المسرح في عام ١٦٦٠ تغير اسم الفرقة بأذن من الملك قصار ( الفرقة الملكية ) وانتقلت إلى « صالة » ملحقة باللوفر كانت مخصصة لحفلات القصر كما كانت تعار في بعض الأحيان لهذه الفرقة أو تلك من الفرق الباريسية .. وظل مولير يمثل فيها إلى أن توفي

فأحدث فرقة مع فرقة ماريه ثم حدث توحيد جديد يأمر بادماج فرقة  
بورجونى لئلا ميلاد فرقة الكوميديا فرانسيز أو « المسرح الفرنسى »  
( ١٦٨٠ - بعد وفاة مولير بسبع سنين ) .

فى عام ١٧٤٠ ستلت ابنة الممثل الكوميدي بواسون من أوصاف  
مولير وكانت فى شيخوختها واعتمدت فى ردها على ما وعته ذاك تھا  
قالت : « ليس بالضخم ولا بالحييف » أقرب الى الطول منه الى التعر  
« يمشى بحلى ثابتة » « أساوره جادة » « أمه وفه كبيران »  
« شعته غليظتان لونه حمرى » « حجباه كفيفان » « نعت ، محامل »  
« كريم » « ولتتوقف قليلا عند هذه الصفات الأربعة فلقد أكدتها عملا  
شهادة المعاصرين » « ان لحسن حظ الانسانية ان تقترب المبقرية من  
معظم الأحيان بالسوء الخلقى » كان مولير معتل الصحة نعتا فى حياته  
الزوجية ينوء بشئها بأواع الهموم ولكنه كان كبير القلب وكفى  
يقول عنه زميله فى التمثيل لأحرائج انه كان يتميز بجميع الصفات التى  
تجعل منه رجلا شريفا حقا » « ويكتب مثل آخر اسمه بريكور بعد وفاة  
مولير مسرحية من وحي حياته » ظل مولير « يقول : « لقد كان  
( مولير ) فى حياته الخاصة كما كان فى مغزى مسرحياته : شريفا صادقا  
الحكم اسانا صريحا كريما » « ولعل من أبرز صفاته كذلك صداقته  
النادرة » « وقادريج الألب يسجل أواشح المود الخالص الأكيد التى ربطت  
بينه وبين كثيرين من كبار معاصريه أمثال بوالو وراسين وشابل ولافونتين  
وكورنى بل يسجل كذلك انه لم يمزق صداقته لراسين حين تكرر له  
مع انه كان قد أحاطه برعايته فى مستهل حياته الأدبية ( انتزع راسين  
من فرقة مولير واحدة من أكبر ممثلاتها فى الأنسبة دى نوك كما استره  
عنها تراجميته « الاسكندر » ومعه يمثيها الى فرقة أخرى منافسة من  
فرقة بورجونى »

وكان مولير كريما فعلا وإلى حد السخاء وتدل على ذلك شواهد  
عديدة تسجل أنه أمان فى حياته أناسا كثيرين بل ان هذا السخاء  
اتخذ شكلا أسطوريا يحكى انه صادق ذات مرة فى الطريق رجلا همورا  
فخلص فى يده قطعة نقود » ولم يكده يدبر ظهره حتى نظر الرجل اليها  
فوحسبها من الذهب » « فأسرع الى مولير وقال له : « لعلك لم تتصدق  
اعطائى هذه القطعة الذهبية ولدا فانى أرحها اليك » ولكن مولير رد عليه  
قالا : « حتى ياصدقى هذه قطعة أخرى » وصاح قائلا : « أبى مستعس  
الفضيلة ؟ » « وحين قهقه المذمور لأبيه فى شيخوخته لم يتردد فى ان  
يمد اليه يد المساعدة ! لقد تناسى أن أباه هذا كان قد ضن عليه بجزء من  
ماله الوفير يوم كان المسكين يتخبط فى مستهل حياته العملية ويوم تركه  
يدخل السجن الذى زج به الدائنون اليه »

وزواج مولير من أخطر الأحداث التي أثرت في حياته . كان في  
الرابع من عمره حين تزوج من فتاة تصغره بثلاثة وعشرين عاما كان قد  
عرفها وهي في مهنها عند الفتاة وهي أرملة بيجار شقيقة زميلته في  
الفرقة مادلين ولم يكن فاروق السن هو المظهر الوحيد لعدم توافق الزوجين  
فقد كانت أرملة - وهنا العصر الهدام في حياتهما - تافهة الى حد  
الحق عابثة الى حد التهتك وكانت حياة مولير معها سلسلة من الخلافات  
السيئة ومصدرا لتجهيزات جائرة . . وكثير القيل والقال وتواررت  
الإشاعات الى حد ان ممثلا بفرقة بودجوني ( المنافسة لفرقة مولير ) يست  
الى الملك برسالة اتهم فيها مولير بأنه متزوج من ابنته التي أنجبها من  
تخليقه السابقة مادلين بيجار . . على ان الشيء الذي يعتينا هو ان روحه  
مولير لم تكن جديرة به وان بعدها عن مستوى عبقريته وعشها الفني .  
قد سما حياته واصباها بقعاسة دالة .

وقل مولير ينوء بحياته الخصبة والمريرة معا : يدير أكبر فرقة  
مسرحية في باريس ويؤلف لها المسرحية قلل الأخرى في سرعة غائلة  
( ثلاث مسرحيات في النصف الأول من عام ١٦٦٨ ) ويقوم بتمثيل الدور  
الأول في كل منها . . وكل ذلك في جو خائق من الفلق والضييق يضاهف  
تسميه التهاب رئوي وسعال حاد منقطع . . وقل وفاته بشهرين اشفق  
عليه صديقه بوالو فحاول اقناعه بالكف عن التمثيل وبالاكتفاء بالكاتب  
ولكن مولير رفض ان يتخلى عن فرقته وان يتوقف عن تأدية رسالته  
كاملة . . وقبل ذلك اليوم المفلوم في حياة الأدب والمسرح ١٧ فبراير  
١٦٧٣ . . كانت « الفرقة الملكية » تمثل مسرحية « مريض (نوم) » للمرة  
الرابعة اشتمت الملة على مولير وهو يقوم بدوره بشكل لحظ الجمهور  
ولكنه بذل من الجهد الجهد ما ممكنه من مواصلة دوره حتى نهايته وهذا  
لقل الى بيته ولم يكنه يأوى الى مصجبه حتى أخذ سسماله يتضاعف في  
عنف أدى الى انهيار أحد شرايين دغته ففقد النطق وتدفق الدم من فمه .  
ثم قضي تحبه في نفس الليلة وظل رجال الدين حائقين عليه حتى بعد  
وفاته اذ بقيت مسرحيته « طرطوف » ماثلة في محبلاهم : تباطأ القس  
التي استنقى في البحر ولم يصل الا بعد الحاح طوبل وحين كان مولير  
قد فاروق الحياة ورفضت كنيسة « سانت أوستاتش » أن يدفن كالمسيحيين  
وتخرج الموقف واضطرت زوجته الى الالتجاء الى الملك ملتمسة منه التدخل  
لدى كبير أساقفة باريس ونجحت مساعي لويس الرابع عشر بعض النجاح  
اذ أذلت الكنيسة بالدفن على ان يتم ليلا بدون مسلاة على الجنان  
ولا احتفال ديني ! . . سخريه من سخريات القدر ! ولكن أفلح منها  
ان يحتوى يوم الصغرى - كيوم كل الناس - على أربع وعشرين ساعة  
وان تنتهى حياة عبقرى كمولير وهو في الحادى والخمسين من عمره !



## الإنسانية من خصائص عبقرية مولير

من الغريب أن مولير وهو مبتكر الفن الكوميدي الحقيقي في فرنسا كان يميل إلى التراجيديا وربما كان مرد ذلك إلى تعاطفه في الحياة إلا أن مأساته « دون جارسيا دوناكار » أصبحت بفعل ذريع كان بمثابة انذار حتى مولير على المدلول عن التراجيديا والحق أنه خلق للفن الملهوي : حدث حين عاد بفرقة إلى باريس اثر رحلته الطويلة في الريف أن مثل مسرحيته الشهيرة « المتحذلقات المحضكات » وإذا برجل متعق لا احتمال نفسه من الإعجاب فيطلق هذه الصيحة التي دوت في أذنيه المسرح : « تشجع تشجع يا مولير هاهي الكوميديا الحقيقية » .. لقد كانت تلك المسرحية تبشر بثورة في أجل الذوق السليم .. هذا المبعري الذي صور عادات عصر اكتشاف في الوقت نفسه خبايا النفس البشرية ؛ أدبه ابن عالمي يفكر ما هو قرسي يقول صانت سيف : « ان أهم خصائص عبقرته هي الاسماوية الأبدية المرتبطة ارتباطا وثيقا بتصوير عادات عصره وان ملابس شخصياته تغطي تحتها الإنسان في كل الظروف » .

ومولير يختلف اختلافا جليا عن كل من سبقه من كتاب المسرح . يختلف عن كتاب الإغريق والرومان وعن كتاب العصور الوسطى والقرن السادس عشر وعن الكتائب الذين سبقوه مباشرة يختلف مثلاً عن أرسطوفان لأن أرسطوفان صور شعب أثينا أكثر من تصويره الإنسان العالمي يشجعاً لادرة وحياء يلعب الأمر الذي يصح مسرحياته قيساً تاريخية نحل منها ما يشبه الوثائق عن عهد صاحب من عهود الديمقراطية الاثينية .. أما مولير فقد تصدى للمعرب والرفائل التي تصيب البشرية في جميع الملامد وجميع الأزمان .. ويختلف عن بلوت لأن كوميديا بلوت - هي الأخرى - صباه اجتماعي ينصب على إطار محلي هو المجتمع الروماني في عصره صحيح ان لهذه الكوميديا طابعاً مبتكراً هو ثابها لمعبد من ساداتهم ( عرا بلوت إلى المعبد الدكاه والشرف وإلى السادة الحق وأحياناً الخسة ) إلا ان إنتاج مولير ينحل في إطار أوسع يضم القصر والمدينة والتقرية فضلاً عن وهو طويل يحتوي على العديد من أفات البشرية .

لعم يقال ان ميخائيل ندرسي القلب الإنساني واستطاع ان يصور الحياة البشرية إلا ان أباطرة بينظرة حرقوا أهم النتاجه استجابة لتوجيه

رجال الدين - اذن فمن العيث ان نبحث عن أوجه شبه بينه وبين مولير  
أو ان يزعم أحد ان مولير قد اقتدى به .. ويختلف عن تيرانس لأن  
كوميديا تيرانس ينقصها الابتكار والجساسة وتشبه الخرافات اليونانية  
أكثر من تصويرها للمجتمع الروماني في عهد وتصلح للقراءة أكثر من  
صلاحيتها للتشثيل . ان مولير يتفوق على هؤلاء جميعا لأن لديه أبرز  
خصائص فنونهم جميعا ويزيد - أنه هو يتبرع بزرعة هزلية كثيرة  
( ارسنوفان ) وهجساسة ومرح شبيهين بهجساسة وملامح ( بلوت ) وبرقة  
تذكر برقة ( تيرانس ) ولكنه يمزجهم جميعا بما خلق من نماذج بشرية  
تصور طبيعة الانسان في أبرز ملامحها ..

ويختلف مولير كذلك عن كتاب المسرح في المصور الوسطى لأن  
المسرح في تلك الحقبة كان دينيا في جوهره .. ويختلف عن كتاب القرن  
السادس عشر لأن كوميديا هؤلاء الكتاب ، صحيحا لم تكن مصطبغة  
بصبغة دينية ولكنها كانت في دور التكوين بحيث يستحيل عقد أية  
مقارنة بينها وبين من مولير الأسيل .. ويختلف عن أسلافه المباشرين  
من مقلدى المسرح الأسباني أمثال حاردي وبويليل وسكوديري وسكاردون  
لأن أساليبهم كان ينبع من الخيال أكثر من اعتماده على الملاحظة ويخلو من  
تحليل للشخصيات ويترعر بالمواقف الغريبة المعقدة التي يشتم على  
الانسان ان يلعب عقله ان أراد تصديقها ، ثم انه يختلف عن كورني صاحب  
جلهة والكفاب .. وبالرغم من ان مولير يعترف بأن هذه المسرحية هي  
التي دلته على الطريق الحقيقي الذي كان عليه ان يسلكه ، فثمان بين  
كوميديا مولير وكوميديا كورني فهذه الأخيرة تصور عادات بشرية  
يختلف باختلاف الناس وتضم مواقف غريبة ملفرة وشخصيات لا تتكلم  
باسم خالقها وإنما كثيرا ما تتكلم المؤلف باسمها ..

وقد كتب مولير قرابة ثلاثين مسرحية أجودها - ١٦٤٤ - البضيل .  
١٦٦٨ - ( المنعذقات المضحكات - ١٦٥٩ - طرطوف - ١٦٦٤ - ٦٧ - ٦٩  
- المتزمت - ١٦٦٦ - البرحوازي الشريف - ١٦٧٠ - النسب الطالت -  
١٦٧٢ - مريض الوهم - ١٦٧٣ -



## المسرحية

وأحداث مسرحية البخيل تدور في باريس وأهم شخصياتها :  
البخيل هارباجون واسم كليانت وابنته ايليز وشريف من نابولي يدعى  
انسيلم وابن هذا الشريف فالير وابنته ماريان وسمسار يدعى  
السيد سيمون وامرأة تقوم بدور « الخاطبة » تدعى فروزين والسيد جاك  
وهو في خدمة هارباجون يصبح بين وهيفتي « عريجي » و « طباح » وخادم  
كليانت واسم لافليس .

للموضوع هو تصوير البخيل .. والأحداث تتأني بمشروعات الزواج  
التي يكرها هارباجون من ناحية وتلك التي تلتصق به خيال ابنه وابنته  
من ناحية أخرى .. والبخل هو المحور الذي تدور حوله كل هذه الأحداث  
.. والمحنة تتكون في اللحظة التي يبني فيها هارباجون ابنه بمشروعاته  
المتسلسلة بالزواج والحل يتم في النهاية بتدخل الشريف انسيلم .

في الفصل الأول : تتلق ايليز مع فالير على الزواج وتعتبر « صه  
حيه » يدخل بها في خدمة أبيها فيقبله هارباجون في وظيفة مدير لشمعون  
بيته بدون أجر ويؤهب كليانت - من ناحية - في الزواج من ماريان  
ولكن يتحقق مشروعه بصطدم بشع أبيه .. ان هارباجون يمتلك حالا  
وغيرا يضعه في صندوق ويخشى ان يكتشفه أحد .. ويستولى البخيل  
من ان حاله لم يمس ثم يعود ليطلع ايليز وكليانت على مشايسته . انه  
يعترم ان يتزوج هو من ماريان وان يزوج ابنته من الشريف انسيلم الذي  
سيخفيها من المهر وأن يزوج ابنه من أوتة غنية !

وفي الفصل الثاني : يبحث كليانت عن وسيلة لاقتراض بعض  
المال .. ويسعى خاكتيه لافليس لتوفير هذا المال بمساعدة السمسار  
السيد سيمون .. ثم يجمع هذا السمسار الشباب بالرابي الذي ارتضى  
الراضيه ما يريد بعد أن فرض شروطا ناسية وأذا بكليانت يجد نفسه  
أمام أبيه وجهه لوجه فالرابي ليس سوى هارباجون نفسه .. وبعد ان  
يحتمل التناقض بينهما يعود هارباجون الى بيته ليلتقي بالوسيلة فروزين  
التي التفت لتطلعه على نتائج مساعيها المتعقدة بمشروع زواجه من  
ماريان ولتبتز منه بعض المال بفضل « قهرها » وتلقاها وما تكون من

أبناء مملكة .. لقد وقعت في انماش مزاج هاربايون ولكنها أخفت من  
المصول منه على قطعة واحدة من النقود لأنه أصم أدنيه ففادته وهي  
لنحو عليه بأن « تخلفه الحصى »<sup>١</sup>

وفي الفصل الثالث : يوافق هاربايون على أن يقيم وليمة احتفالا  
زواجه من ماريان ١ على ألا تكون هذه الولاية باعطة بالتكاليف ويظهر  
شخصه الشديد في التوصيات التي يدل بها إلى خدمه وإيمه .. وتصلح  
مرورين ماريان إلى بيت هاربايون ولا تكاد هذه الأخيرة تظل على وجهه  
حتى تنفرد من دماسته .. ولدهن الفتاة إذ تجد الامن - وهو غريم أبيه  
حاضرا .. إلا أن هاربايون يجهل مشروع كليانت .. وتسعد ماريان  
بهذا الالتقاء ويمعن كليانت في الاهتمام بها والاشادة بحسن اختيار أبيه  
بمهارات يصب فيها إعجابها هو بطريقة بليلة تقطع الفتاة إلى متزاها ..  
ويلمح الخاتم الكبير الفنى في أصبح أبيه فيخلصته على رفق ليريه ماريان  
وما أن استقر في أصعبها حتى يتوسل إليها أن تحتفظ به كهدية من  
صاحبه ! ويستقنع لون البكيل لكنه لا يملك أن يقول شيئا أمام الفتاة وأن  
كان له كمال لينة أقدم السباب في الخلفه .

وفي الفصل الرابع : يرنايب هاربايون في نيات ابنة كليانت اثر  
موقفه إزاء ماريان فينفرد به محاولا أن ينتزع منه اعترافه تكشف له  
الأمور .. يسأله عن رأيه في ماريان فيجيب بأنها مدللة سحلة الدماء  
تأفة العقلية .. ويتصنع هاربايون الأسف : أن التفكير هذه إلى الإقلاع  
عن مشروع زواجه من ماريان بسبب الفارق الكبير بين السر بينهما ولقد  
حسب أن ابنة أكثر ليالة صه .. هذا يعترف كليانت هنا بينه وبين هاربايون  
من حب متبادل .. ويظهر صواب هاربايون ويبدو بينه وبين ابنة «وإن  
محاسب .. وتسود الدنيا في نظر كليانت ثم يتألا الأمل في نفسه :  
فها هو خادمه « لافليس » يهرول إليه ويلقى في أذنه نبأ خطير - لقد  
سرق الصنوبر الذي يعوي مال البكيل حين كان هاربايون منهمكا في  
حديثه مع كليانت وهو يقسمه تحت تصرف سيده ليبيته على بلوغ مراه  
.. ثم يظهر هاربايون به أن اكتشف السرقة .. أنه في حالة يرثى لها  
وهو يرعد ويربك ويتوعد الدنيا كلها بل يهدد نفسه بالسحق إن هو لم  
يعثر على ما يهرب منه .

وفي الفصل الخامس : يفتح التحقيق فيتهم هاربايون الناس جميعا ..  
ويبدأ ربهل الشرطة مهمته باستجواب السيد جاك الذي يوجه البرية نحو  
قالبير - ( مدير شئون البيت ) لأنه لم يكن على وقام معه - إذ ينبغي أنه  
أبصره في المدينة ( يجب أن كان يوجه الكثر ) ..

ويلوم هارباجون فالير على استغلاله طبيته ودخوله بيته بنية خيائته  
 هنا يقع التباس غريب ٠٠ هارباجون يتكلم عن خزانته وقالير يتكلم عن  
 محبوبته ايليز ٠٠ ثم يظن البخيل الى ما يعنيه فالير بقوله : « انه على  
 استعداد لأن يموت من أجل عبيها الجميلتين » فتتضاعف ثورته ضد  
 فالير الذي ينسب بدوره فيكشف عن شخصيته الشبيهة : انه ابن حريف  
 من نابولي يسمى دون توماس دالبورسي ٠ ويقول السليم لفالير انه  
 صديق لذلك الحريف ويطلب اليه اثبات ما يزعم ٠٠ ويظهر فالير خائفا  
 صغيرا من الباقوت وسوارا من الطيق ( كان فالير قد حاول عبثا التصور  
 على آية بعد ان لبثا من الفسوق ) ٠٠ وتوسع ماويان وتوى فتعاقب  
 فالير ، انه اخوها وعانته انسلم انه أبوه ٠ ويطلب هارباجون الى انسلم  
 ان يطلع قيمة « ما سرقة منه فالير » ٠٠ ولا تكشف حقيقة السرقة  
 الا حين يعود كليات فيعترف بأن الصنفوق لديه ويستمرط لرحمة ان  
 يوافق أبوه على زواجه من « ماريان » وتتدخل « ماريان » وتطلب ان  
 يوافق « هارباجون » كذلك على زواج « فالير » من « اليزا » ويغرض  
 البخيل بدوره شرطا : ان يستوثق قبل موافقته من أن يسا لم تعبت  
 بما تحويه خزانته ٠٠ ويظهر « السليم » « والد فالير » بأنه لن يستطيع  
 منح ابنته مهورا ٠٠ ويحتم عليه أن يتكفل بنفقات الزوجين ٠٠ ويوافق  
 « انسلم » على جميع شروط « هارباجون » بما في ذلك تكفله بأعداد  
 ملابس جديدة ليرتديها البخيل من حفل الزفاف ٠٠ وتم السعادة جميع  
 الحاضرين الا شخصا واحدا هو رجل الشرطة الذي يأبى « هارباجون »  
 ان يدفع له « أتعابه » ٠٠ ويرفض « السليم » ان يتولى هو دفع هذه  
 الأتعاب بينما يصبح « هارباجون » في نسوة الفرح : « وأخيرا فاني ذاهب  
 لأعيد النظر الى خزانتي » ٠



نُذُورُ الْغَرْبِ

اشينجسر

۱۹۱۸





يعد اشبنجلر ( ١٨٨٠ - ١٩٣٦ م ) الفيلسوف الألماني من اللغز  
ذوى النظرة الأصلية الى التاريخ فلم يكن هذا الفيلسوف ناقلا عن غيره  
فوق متنازلا بأحد سوى جوته ونيتمشه حينما أعلن رأيه في التاريخ  
والحضارة بل كان في كل ما قاله في تحليلاته . ولهذا فقد كان له  
تأثير بالغ على من أتوا بعده من فلاسفة التاريخ وخاصة لرونولد توينبى .

ولقد أثارت أفكاره المختلفة النظريات الأخرى في التاريخ  
فعلمها في تقويم تلك النظريات وقد استفاد اشبنجلر من اطلاعه الواسع  
في التاريخ ومن تخصصه في العلوم الطبيعية والرياضية في تفسيره  
للحضارة تفسيراً بيولوجياً .

أحدث اشبنجلر ثورة أشبه بالثورة الكوبرنيكية في التاريخ حين  
صمم ذلك الوهم الذي كان يعيشه الأوروبي وهو يظن أن حضارته مركز  
الحضارات كما كان يتوهم كوبرنيكوس أن الأرض هي مركز الكون وهي  
ثابته وتدور حولها جميع الكواكب فكان المؤرخ الأوربي يتصور أوروبا  
الغربية قلباً ثابتاً للحضارات لستى الحضارات لأنه يعيش فوقها .  
والثورة الكوبرنيكية التي أحدثها اشبنجلر في النظر الى التاريخ انه نظر  
اليه لا على أنه مركز الحضارة الأوروبية وتدور حولها الحضارات الأخرى .  
بل نظر اليه على أنه مكون من حضارات ربما كانت بعضها فوق الحضارة  
الأوروبية من حيث عدد الشعوب المنتجة اليها ومن حيث قولها الروحية  
وهذا يتضح لو أن كل حضارة درست كوحدة جسمية .

انه يصف بنفسه ما قام به في كتابه الشهير " تدهور الحضارة  
الغربية " بأنه اكتشاف كوبرنيكي لم المليون التاريخي فهو لا يعترف بأي  
مركز ممتاز للحضارة الكلاسيكية أو الحضارة الغربية على الحضارات من  
هندية بابلية ، صينية ، مصرية ، هندية ومكسيكية . وهذه هي عوالم  
منفصلة لكنيونة ديناصيكية لها تماماً من حيث الكتلة داخل الصورة  
العامة للتاريخ ما للحضارة الكلاسيكية من قيمة . بينما انها تتجاوز  
مرارا الكلاسيكية من حيث الطيبة المروحية وقوة التماسك والتخليق .

فالتاريخ الذي في نظر اشبنجلر مكون من كائنات عضوية حية هي  
الحضارات وكل حضارة منها تقبى الكائن الحي المضوى تمام النسيب

فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان أو الحيوان أو الفجيرة سواء بمواء  
والتاريخ العام هو ترجمة حياة هذه الحضارات فإذا كان سياق الحياة  
واحدا بين الأفراد التي لتختل تحت نوع واحد فالحضارات جميعا سياق  
واحد تسير عليه .

### ☆☆☆

ولد « إرنولد اشبنجلر » في « بلاكبيرج » بجنال الهارز في ألمانيا في  
٢٩ من مايو عام ١٨٨٠ ، وتوفي في ٨ من مايو عام ١٩٣٦ وقد انتحى  
من ناحية أبيه من أسرة كانت تخرّف التعدين وقد تزجت الأسرة من  
جنوب ألمانيا إلى « الهارز » في القرن السابع عشر وقد اضطر والده -  
لما أصاب مناجم الهارز من الكساد وصوء الحال - إلى ترك التعدين  
والالتحاق بوظيفة في مصلحة البريد ومزود صديق « اشبنجلر » الحميم  
« أوجست البرر » تفوق صاحب في الرياضة وهوايه العلمية إلى ورائته  
من ناحية أبيه كما ورث حبه للفن واستطاعه لتتوقه من ناحية والدته .

وقد تلقى إرنولد تعليمًا جامعيًا ، فبعد أن تخرج في مدرسة  
« حال » العليا لدراة الأدب الكلاسيكي مسار على الحطة المتبعة في  
ألمانيا وهي الدراسة في جامعتين أو ثلاث جامعات على التوالي ليدرس في  
جامعات ميونيخ وبرلين وهال وأتم بها أعداد رسائله للحصول على لب  
دكتور وكانت الرياضيات والعلوم الطبيعية هي نواحي دراسته .

وقد احترف التدريس بعد تخرجه في الجامعات وحصل مدرسا في  
« ساوبروكن » ثم في « هسلدرف » و « همبرج » بعد ذلك وفي عام ١٩٠٨  
اختير مدرسا بمعهد همبرج العالي وقام بتدريس اللغة الألمانية والجغرافيا  
علاوة على المادتين اللتين تخصص فيهما وكان على ما يبدو مدرسا صالحا  
يبت الحياة في الموضوعات التي يتناولها ويجعلها شائعة محببة إلى نفوس  
الطلبة .

وظهرت في خلال التدريس مواهبه التي تجلت بعد ذلك رانصة  
منحلة في مؤلفاته الجببة الشأن ولوحظ أنه مع اعراضه عن توقيع  
المقويات القديمة على تلامذته كان شديد المحافظة على النظام ومع ميله  
إلى العزلة اكتسب تقدير زملائه وقد أسف زملاؤه المدرسون وظلمته حينما  
حصل على أجازة في سنة ١٩١٠ لمدة سنة ولم يعد بعدها إلى التدريس  
واستقال من وظيفته وانتقل من همبرج إلى ميونيخ واستقر بها قائما  
بدخل خاص متواضع ليصبح وقتئذ في الفراغ للتفكير الفلسفي وتسجيل  
ما يمن له من الخواطر والأفكار وكان يستكمل نقص دخله بكتابة بعض  
المنشورات الصغيرة .

وحينما ثبتت الحرب الكبرى الأولى تعرضت لمطالبات مالية فسيطة  
وقد أُعطي من القلعة العسكرية للصر في نظره لما كان يماثيه من ضعف  
القلب وكان عراؤه في أزماته المشددة وفي خروب الحرمان التي استهف  
لها إلى حد أنه كان يجد صعوبة في الحصول على الغذاء والكساء هو أن  
فكرة كبيّة غير واضحة ولا متماسكة كانت تكتلج في نفسه وتقرص  
نفسها عليه وقد عقد الزم على أن يعمل لإبرازها وإزالة الغموض عنها -

## فكرة الكتاب

وحينما أقدم استميتجر على طلب الأجازة من التدريس لم تكن هذه فكرة واضحة عما يبتوى عمله وغاية ما في الأمر أنه كان يشعر بحاجة ماسة إلى الانغماس في القراءة والاطلاع وملازمة الكتابة والتفكير - ولما حيونخ أحد القراء وأمعن في الاطلاع على التاريخ وبخاصة تاريخ الفن والفلسفة وأخذ يبالغ الكتابة في موضوعات شتى وقد قرض الشعر وألف روايات تمثيلية وقصصا قصيرة ولكن مواهبه الأصيلة لم تظهر مع ذلك في ميادين الأدب الخالص وإن كانت بعض كتاباته في تلك الفترة قد دلت على قوة عاطفته القومية وميله إلى الأكابر من شأن المجد العربي .

وفي خلال عام ١٩١١ ومضت في ذهن هذا التساب الألماني الذي لم تتجاوز سنه حينذاك الواحدة بعد الثلاثين فكرة لامعة كان ياعتبها الأزمة السياسية العادة التي حدثت بين فرنسا وكلايتسا في مراكش وأوشكت أن تؤدي إلى نشوب حرب بين الدولتين .

وهو يروي لنا في إحدى مذكراته التي طبعت بعد موته أن هذه الأزمة فتحت عينيه على طبيعة العصر الذي يعيش فيه فيقول :

« في ذلك الوقت بنت لي الحرب العالمية موشكة الوقوع باعتبارها ظهورا خارجيا للأزمة التاريخية لاناس في حدوثه وكان على أن أحاول فهم تلك الأزمة واطلعت اللثام عن أسرارها وذلك بطريق تبين دوح المقرون المسألة لا السنوات الماضية فحسب .. ولذلك رأيت الحاضر والحرب العالمية مقترنة في ضرو آخر ولم تصبح المسألة مجرد تلاق موقوف لوقائع عارضة باعتبارها المواطن القومية والمؤثرات الشخصية أو الانتماءات الاقتصادية التي أصبى عليها بعض المؤرخين مظهر الوحدة والحتمية ، جريا على طريقتهم في تلخيص الأسباب السياسية والاجتماعية لربط الحوادث وتعليلها وإنما كانت طرازا لتغير وجه من أوجه التاريخ يحدث في داخل عضوى تاريخي عظيم له محيطه المعلوم عند نقطة مقدرة له منذ مئات من السنين » .

وقد يرى لقارىء من القموض في هذا الكلام ولكن ما يفسده  
 استنبطه سيظهر فيما بعد عند استيفه توضيح نظرياته وآرائه في  
 تفسير التاريخ وبيان مختلفه الثقافات والحضارات التي يتكون منها  
 التاريخ .

واخفى الفكرة التي وضعت حرمومتها في نفسه الأداة المراكشية  
 تنمو وتطرح وتتسع آفاقها وتترامى أبعادها وانتقلت من ميدان السياسة  
 الى تأمل ايقاع الثقافات وتوالي الحضارات . واتفق في عام ١٩١٢ ان رأى  
 في واحدة إحدى دور الكتب كتابا عنوانه « تاريخ سقوط العالم القديم »  
 فأوحى اليه هذا العنوان فكرة عنوان كتابه الذي انتهى ان يصنعه الرؤية  
 التاريخية التي وجهته الى كشفها الالة المراكشية .

ولما نصبت الحرب الكبرى همه ذلك . بماض كان . فيه اتم كتابة لصول  
 كتابه . وفي اثناء الحرب واجه صعوباته وأصناف اليها ما استجد عدم  
 من المعلومات ولكنه واجه بهد ذلك صعوبة الحصول على لاثير يقبل ان  
 يتولى نشر هذا الكتاب الذي اصبح سالحا للنشر في عام ١٩١٧ وقد  
 عرضه على طائفة من دور النشر الشهيرة في ألمانيا فرفضته جميعها  
 وأخيرا قبلت نشره إحدى دور النشر في فيينا ولم يظهر من المجلد الأول  
 سوى الق وثمانمائة نسخة .

### \*\*\*

وفي يوليو ١٩١٨ ظهر الكتاب حاملا هذا الاسم للظفر المزعج  
 ( لعمور الحضارة الغربية ) وعلى غير انتظار الار عجة ولست الانتظار  
 وشغل الأفكار وكان مما يبعث على المحبة والدمعة انه لم يكن قصة  
 مسلية مثيرة أو رواية شائقة الحوادث خطبة الاسلوب وإنما كائن مؤلفه  
 فلسفيا ضخما عبقيا يتم على معرفة صيقة غزيرة وخيال مجتهد وقالب  
 وقدر على التفكير واستخلاص الفنايح ليست كثيرة الألقاب والظواهر .

ولم يكن الكتاب مع ذلك سهل القراءة واضح الفكرة فقد كانت  
 دوعة أسلوبه وشدة أسره وحوله بالأفكار والموازيف تنقص من اللذة  
 بذلك الجهد في تتبع عباراته واستكناه مراميها ولكن كانت هناك ظروف  
 خاصة قد ساعدت على رواج هذا الكتاب أنصها ان ألمانيا كانت قد باءت  
 بالاختلال والخسائر وخيرجت تهر لذيال الهزيمة من تلك الحرب القمورة  
 التي أثارتها في وجه العالم وتحدثت فيها مجموعة من أقوى أمم الأرض  
 وتطلعت الى السيطرة العالمية ليهتر لم كانت تسمية « الكالتور  
 العالمية » .

وكان من الطبيعي أن يحز ألم الهزيمة في نفوس الألمان وينجم على نفوسهم اليأس ولكن الألمان شجبت قوى الحيوية نزاع إلى التأمل والاستغراق في التفكير - - فهو لا يفنى نفسه حسرتاً في أعقاب الهزيمة وإنما يحاول أن يبيح أسباب الهزيمة وكيف حدثت ويفتن في تحليلها وتحري مصادرها - وقد مهدت هذه النوبة من التفتتوم وما تلاها من الإزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للسبيل لإقامة المؤلف الذي يحوى فلسفة جديدة من فلسفات التاريخ ألحقت بها اشينجلر السبب الألماني وفاد في ثروته الفكرية -

ولقد كشف هذا الكتاب لألمانيا المصنوعة الفؤاد المجروحة الآباء أن آمال أوروبا الوثابة مقوم لها أن تضيق وإن الحضارة الغربية مقيمة على عهد انحطاط وكما قلت لا مفر منه وإنما تعاني أعراض الشيوخوخة وعلامات الانحلال وفي هذا الايمان بالقدرية والحتمية التاريخية ضرب من السلوان يسكب العزاء على النفوس المكروية لأنه يوقع عن كاهنا القصور بالتيمة ، ويبيح لنا أن سبر الحوادث من وراء طاقة الاسمان وأن غايات القدر لا حيلة لنا فيها ولا يد لنا بدليها .

ولم يكن ظهور فلسفة جديدة للتاريخ في بلاد « كانت » و « شلنجر » و « فخته » و « لوتز » و « دانتاي » بالأمر الغريب - - لأن التسميمات الفلسفية المربعة والأبسية الفكرية الرائعة والنظريات الكونية الضاملة تجد في ألمانيا من ضروب الحكمة وآية السبقية . ولقد ألف الألمان أن يحسب لهم المفكرون أحداث التاريخ في الصيغ المناسبة وإن فهمتوا لهم حوادث الحياة وتجاوب للبشرية الغراب التي تنهض على تنظيمها وتنسيقها - - ولا مانع في بعض الأحيان من أن يجبر على الحوادث وتقطع أوصالها وتلوى الحقائق أو تنتقص أطرافها من أجل انتظام المنصب واتساق النظرية والتليل على صحتها والمطابقتها على الواقع ، وموجز رأى اشينجلر أن ما نسميه « تاريخاً » للبشرية أن هو في الحقيقة إلا مسيرة حياة أرواح مضمومة متشابهة البناء متسائلة المصير لكل منها حياته المعنية وفرديته المستقلة وخصائصه للميزة له -

ولقد كشف اشينجلر وجود ثلثي حضارات رئيسية هي : الحضارة المصرية القديمة والحضارة الصينية والحضارة البابلية الآشورية والحضارة المدرسية ( اليونانية الرومانية ) أو الإبولونية والحضارة العربية أو الماجية والحضارة الغربية أو الفاروسية .

وهذه الحضارات كتشابه في بنائها العام ودورات نموها ومرحلة وصيرها النهائي المحتوم وكل حضارة منها تحمل طابعها الخاص وروحها

المسرح وتطوى على أسرارها ودخائلها وكل منها ينضج لاسلوب خاص في التفكير والفسور والمنظرة إلى الحياة وكل حضارة من هذه الحضارات متفقة مكثفية بذاتها لا تستمد من غيرها وتتأثر به ولا تعتمد عليه وإنما تسج حيوطها من بين جنبها ومن مسجيم كياتها وتسترفد مناهجها الداخلية - - وهي من ثم لاتظم غيرها من الحضارات ، ولا تترك كنهه ، لأنها مستغرقة في ذاتها .

واشبهت بطر نفسه يزعم أنه وحده أوتي القدرة على معرفة كلمة السر التي يستطيع بها أن يفتل في صميم كل حضارة ويتصرف أسرارها ويكشف له القطة عن خصائصها . وهو يصارحنا بأنه لا يدرك ذلك بالعقل المفكر الواعي وإنما يدركه بالبداعة الخفية وقوة البصيرة .

وعنده أنه ليست هناك صلة ولا رابطة ولا وحدة بين الحضارات المختلفة وليست هناك ، انسانية ، عامة فإن هذا محض تجريد وزعم من الأوهام . وما دام أنه ليس هناك انسانية عامة يقتضى ذلك أنه ليس هناك رياضيات عامة أو علوم طبيعية أو فنون أو ثقافات مطلقة ، وإنما هنم الثقافات السنة مختلفة ولهجات حمارضة ، وقد استطاع من حل رموزها وتفسير قوامها .

## الخصارات تدبل وتغنى

ومع أن كل حضارة مستقلة عن الأخرى فإنها - من الوجهة الطبيعية - العضوية - حاضرة جميعها لقانون لا يتغير هو قانون الميلاد والنضج والتطور والضماء والخصارة أو الكثافة على الأصح حسب رأى اثنينجلر تنمى فى ناحية من النواحي وتلتو نمو النبات وتر بأدوار الأسمان السبعة فلها عهد الطفولة ولها دور الشباب والنضج والشيخوخة ولا يستتبع موتها فناء أهلها ، وإنما معناه فناء حيويتها وإطفاء شعلتها وأنها فقدت ميزتها من حيث هى قوة تاريخية محررة منتجة ، والخصارة تدبل وتغنى بعد أن تكثف عن خصائصها وممكناتها الموهبة لها مثل القوميات والديانات والآداب والفنون والعلوم وصور الحكم والسياسة .

ولما كانت كل مرحلة من مراحل الثقافة يمكن اشتباها من المرحلة التى سبقتها فمن إذن نستطيع - مادعنا نهتدى بهدى اثنينجلر - أن يكون عندنا معرفة فلكية اليقين مطردة السوابق والأشياء . . لما سيحدث .

والخصارة الغربية - أو الفلوسفية كما يحب اثنينجلر أن يسميها - مشرفة على عهد السطاط وتصور وفناء وليس معنى ذلك فناء أهلها . . . لأن الصين التى انتهى عهد حضارتها فى رأى اثنينجلر لا تزال موجودة وحصر التى لعبت حضارتها دورها المقسوم لها لا تزال كذلك على قيد الحياة ولكن الحضارة الصينية قد مضى عهدها والخصارة المصرية قد زالت .

وينكر اثنينجلر وجود وحدة إنسانية تاريخية ولا يترف بفكرة التقدم البشرى أو فكرة وجسود تاريخ للبشرية جميعها مستمر متتابع الأدوار متسلسل الحلقات ، وإنما يوجد تاريخ ثقافات مستقلة معزلة كل ثقافة منها قائمة بذاتها ولا تؤثر الثقافات فى بعضها الا اذا اتمرعت أحداها نمو الأخرى وقضت عليه كما فعل الإسبانيون بالخصارة المكسيكية .

وأكثر المؤرخين يسلون بالانصال الحضارة الهندية والحضارة الصينية اتصالا كبيرا عن الحضارة الغربية ولكنهم يرون أن الحضارة



الرومانية كانت الجسر الذي انتقلت به تأثيرات حضارة بابل ومصر  
والحضارة الأبولونية الى الحضارة الغربية .

واشبينجلر ينكر ذلك ويحمل نفسه هنا في هذا السبيل لتبسيط  
نظريته وإثباته مذهبه وهو يفصل الحضارات بعضها عن بعض ويضع  
بين الحضارة الأبولونية والحضارة الفاروسية والحضارة الغربية  
أو الملاجية .

وكل ثقافة من هذه الثقافات تثر في أدوار متشابهة خلال ذلك  
من الزمن متفاربة وكل حدث مهم في حياة ثقافة من هذه الثقافات له  
نظيره في الثقافة الأخرى ، فالعهد الاقطاعي والاصلاح الديني  
والبيوريتانية والبرعة الخالية الروحية والانحلاء المادي الواقعي والقبصرية  
التي يصحبها احياء ديني - كلها مظاهر يقع بعضها بعضا وتتوالى على  
التعاقب في حياة الحضارات فالاسلام مثلا هو دور البيوريتانزم في  
الحضارة الغربية ونايلون هو اسكندر الحضارة الغربية وسبيل  
رودس هو طينمة قبرية الحضارة الغربية .

لكل حضارة خصائصها ومبادئها واسلوبها وطرازها في السه  
القطري وحساب التفاضل والتكامل وحروب البحر والتصوير بالزيت  
وانشاء السكك الحديدية والنظام المال الحديث .. وما الى ذلك من مظاهر  
الحضارة الغربية تمرر جميعها عن الروح الفاروسية ولم يكن من قبيل  
المصادفة - في رأى الشينجلر - ان الحضارة الأبولونية وجدت اسمي  
تعبير عنها في النحت في حين ان الثقافة الفاروسية كشفت عن نفسها  
في الموسيقى -

وسنذكر فروق ملحوظة بين مختلف الثقافات .. فالفرق في الثقافة  
الفاروسية مطبوع على السبورة والنقود والاستعمال وهو يحاول ان  
ييسر منطلقاته على المكان والزمان ، وهي الحضارة الأبولونية يفتقر الفرد  
أفراديا معتصما بأبائيه وكبرياته يصابر غيره من الناس ولكنه ينأى بجانبه  
ويولد بفرديته ، وتقسية الفرد في الحضارة الغربية مفتاح الخير والشر  
والظلمة والنور والحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة  
الفاروسية .. تاريخية الزعة في حين ان الحضارة الأبولونية والهندية  
الهندية لا تكلفان بالتاريخ ولا تعينان به كثيرا .

والاعتقاد المبادئ هو ان الحضارة الغربية الفاروسية قد ورت  
عناصر كثيرة من الحضارات السابقة ولكن اشبينجلر ينكر ذلك فالديانة  
المسيحية مثلا من مختلف الحضارة الغربية الملاجية (الاشبهت مثلا من  
مختلفات الحضارة الأبولونية فكيف ينكر تأثيرها في الحضارة الغربية ؟

والجواب عن ذلك أن اشبنجر يذهب الى أن هناك ثلاثة أنواع من المسيحية : المسيحية العربية وهي مسيحية المسيح ومسيحية الغرب وهي مسيحية هلدبراند ولوتر وليولا ، ومسيحية روسيا وهي مسيحية حستوفسكى التى ستزدهر فى الألف القادمة من السنين لأن الحضارة الروسية فى العصر الحاضر تعد فى دود الطفولة والبوذية الهندية كذلك مختلفة عن البوذية الصينية وهناك ثلاثة أنواع من أرسطو : أرسطو الابولونى وأرسطو العربي وأرسطو الفلأوستى وكذلك توجد أنواع مختلفة من الرياضيات والطبيعات والكيمياء والنحت والتصوير والآداب والثقافات .

وروى اشبنجر انه ليس فى قدرة حضارة من الحضارات ان تزيد فى ثروة الحضارة الأخرى أو تصلح منها والمسا قد تعترض نموها وتطفى عليها -

### ★★★

وقد افاد كتاب " شعور الغرب " مد ظهوره حصة اساتذة التاريخ ووقف بعض المؤرخين المحترفين منه موقف المبدء والتفقد والتفديد ولوطظ بوجه عام انه قائم على معلومات غزيرة واطلاع واسع ولكنه من وجهة نظر بعض المتخصصين - لا يمكن الاطمئنان الى بعض أحكامه .. فمؤلفه صرف على آرائه شديد التعصب لأحكامه مزاع الى ما وراء الطبيعة .

ولكن الكتاب بصفحاته وغازاة انكاره وجرائها وقف فى طريق الباحثين وفرض نفسه عليهم فرضاً وبعض الباحثين لكى يتخلصوا من تأثيره لعادوا الى أساليب مختلفة : فمنهم من اجال على ذلك بالنقد القارس والتسفيه الشديد والاحتقار والسخرية ومنهم من لجأ الى انكار وجوده على الاطلاق وتجاهل نظرياته ومنهم من نذر جمهور القراء من قراءته .. ولكن القراء راقصوا التحذير وخالفوا أحكام المتخصصين ولم يعبأوا بشكوكهم واقبلوا على قراءة الكتاب متخطين الأجزاء الصعبة واجدين فى قراءته متعة فكرية قل أن يتيح مثلها غيره من المؤلفات الدارجة .

وربما كان من أسباب هذا الانشقاق بين آراء العلماء الدارسين والمؤرخين المتخصصين وجوهرة القراء العاديين أن أصبحت الكتابات عن اشبنجر تنقسم قسمين : قسم قائم على النقد الشديد وقسم آخر تبدر فيه حفاصة الاعجاب وسر التعدير ولكنه لا يخلو من مبالغة وميلاجة .

وقد لوطظ على اشبنجر ان نظريته للمجتمع البادية من حلال كتابته غير ديمقراطية . والنظرية الديمقراطية أساسها ان الناس قد ولوا متساوين وان من حكم ان تكون لهم حقوق متساوية ويعتد اشبنجر ان الحكومات على اختلاف صورها - سواء أكانت ملكية

أم جمهورية أم حكومة اشراف أم حكومة رجال دين أو حكومة برلمانية -  
حي هي الحقيقة سيطرة من الاقلية على الاكثرية .

وكل مجتمع لذلك ينقسم الى اقلية حاكمة واكثرية محكومة ولا يمكن  
الا ان تكون الامور على هذه التوزيع .

ولا يجعل اشبهانر قيمة النظام الديمقراطي ولكنه - يحكم التزامه  
موقف المؤلف الموضوعي الذي يرأى به سير الحوادث التاريخية وتتابعه -  
يحاولي الا يبدى رأيه في ترجيح نظام من أنظمة الحكم على نظام آخر .  
فهر يرى الديمقراطية وجها من أوجه التاريخ المتعددة ومسودة من صوره  
تتطلب فيها الطيقة البورجوازية بقوة عقليها وقوة ماله وبعي رغبتها في  
السيطرة والتحكم في الجماهير .  
وحرية الجماهير في الانتخاب  
حرية مسورة .

ولا خلاف في ان كل أمة من الأمم تحكمها اقلية ولكن هذه الاقلية  
مع ذلك - سواء آكأت من الكهنة أم الاشراف أم رجال البلاط والحاشية  
أم أعضاء البرلمان أو قادة العمال - لا يمكن أن تتجاوز حدود المدالة وحسن  
التأني في الامور دون أن تلقى جوارها وفي كل العصور تأتت الجماعات  
على ما اعتبرته انحرافا عن العدالة أو تعديا .

ولقد لقيت فكرة اشبهانر - أن الحضارات تولد وتنبو ويهلكها  
البلى وتعلوها الشيوخة كالأفراد - كثيرا من النقد .  
وذلك لسبب بسيط  
هو انه الحضارات في الواقع ليست كالأفراد ومن ثم هي لا تولد بأدوار  
الطفولة والشباب والشيخوخة مثل الأفراد والحضارة في رأى مؤلا  
النقاد مجموعة من المظاهر الثقافية : منها الجانب السياسي والحائنه  
الاقتصادي والمظهر العلمي والمظهر الديني والمظهر الاجتماعي وعلمه  
المظاهر قد تلقى في عصر من العصور لتتكون ماها ما يسمى حضارة وقد  
يوجد بعضها قبل ظهور الحضارة وقد يوجد كذلك بعضها بعد انتهاء  
الحضارة وتطورها وهذا يدل في رأيهم على أن الحضارة لا تولد في  
الواقع ولا تموت مظاهرها جميعها معا .

ويرى اشبهانر ان عالم التاريخ لا يشبه عالم الطبيعة ، وذلك لان  
عالم التاريخ تدفعه قوى غير خاضعة لقانون السببية بل قوى لا يستطيع  
ان يدرك كنهها التحليل العلمي للتاريخ يحسمه المفسر القاضى الفهم ،  
وهر يعمل بذلك حتمية مسقوط حضارة الغرب وسائر الحضارات  
السابقة .  
فسقوط الحضارة قدر محتوم لا حيلة للاسنان في دفعه متى  
استتمت الحضارة أدوارها المقدرة لها ، ومادام التاريخ في رأيه لا يخضع  
لقوانين المعلوم فلا فائدة الاذن من محاولة استنتاج المستقبل من الماضي .

واشتد جمل مع ذلك لا يرى أحسباً في التكهّن بالمستقبل ولكن من طريق الموازنة بين مصير الحضارات التي يحكمه القدر الفاضل لا عن طريق قانون السببية وربطه تقصيره للتاريخ بشدة الإمالة بالجبرية التاريخية لا يجعل المفكرين يسرعون إلى قبول آرائه لأن مسألة سرعة الإرادة مسألة شائكة قد تضاربت فيها الآراء على مر العصور وربما كانت من المشكلات غير القابلة للحل .

ومع ما وجه إلى كتاب « تدور الشرب » من نقد من ناحية المؤرخين والمحترفين وبعض المفكرين الاجتماعيين والفلسفيين فإنه كتاب جليل الشأن يجمع بين الهامات السبقية وحججيات النضال الرومانتيكي . قال عنه المؤرخ « هورنغا » : « إن قارئه يظن يشعر في أثناء قراءته أنه يقوم بجولة في جبل شاهق رائع الجلال يصحبه دليل يفهمه في مسالكه ولكن هذا الدليل الضيق يشعاب الجبيل فومض في عينيه من حين إلى حين ومضات الجنون » .

ولقد آرائه لا ينفي حقيقة أنه قد بدأ تسجيل هذه الآراء قبل اندلاع نيران الحرب الكبرى وأنه تكهن بقدوم عهد الحروب العالمية وظهور انديكتاتوريات ونمو المدى الكبيرة وظهور روسيا بوجه خاص وأسيا بوجه عام على مسرح السياسة العالمية كقوة فاصلة ولم تكن هذه المظاهر واضحة حينما بدأ اشتينجلر كتابه وظهرها اليوم .

ولقد ظهر في الثلاثينيات من هذا القرن كاتبان باحثان أحدهما انجليزى والآخر روسى أقام في أمريكا وتجنس بالجنسية الأمريكية - سارا على طريقة اشتينجلر وأخرج كل منهما فلسفة جديدة للتاريخ حاول فيها أن يتجنب الأخطاء والمبالغات التي توطئ فيها اشتينجلر ، وهذان الكاتبان المفكران هما أدتولد تولينبي وبيرتم سوروكين .

وقد سبق اشتينجلر إلى فكرة تعدد الحضارات واستقلال كل حضارة عن الحضارات الأخرى واقترب ظهور الحضارة الروسية بمهزاتها الخاصة الفكر الروسية داتيلفسكى . ولم يعرف به على وجه التحديد حل الم اشتينجلر بنظريات داتيلفسكى حينما كان حقلًا على تأليف كتابه أو لا ، ومهما يكن من الأمر فإن أوجه الشبه بين ما ذهب إليه في تفسير التاريخ تسترعي النظر .

## الهوامش :

- (١) الكبير ١ ص ٩ : ( ١٥٤٢م - ١٦٠٥م ) أهتم بإبادة الملوك في الهند . اسمه الأصلي جلال الدين ولقب بالأكبر لما ظم به من جلال الأعمال في أثناء حكمه ( ١٥١٦م - ١٦٠٥م ) .
- (٢) مصطلحته التي : كثيرة ص ٩٩ .
- (٣) ابن أمير الصيعة : ص ٩٨ . حقائق الدين في العواص أحمد بن القاسم بن خليفة ( ج ١٢٠٣ - ١٢٢٧م ) طبيب ومؤرخ وكه بدمشق .
- (٤) كالقور : ص ١٠٢ : أبو المسد كالقور الاخشيدى ( ٩٠٥ - ٩٦٨م ) كان عبد جيهة لشرارة ابن طنج مؤسس الدولة الاخشيدية ، لعبه اليه الاخشيد بالوصاية على والده ابن القاسم أبو جود . فاستقل وشمر الدولة .
- (٥) الخسوف بالسرراء : ص ١١٨ ، الخسوف مدينة على المسيرة البيزنطية ، والقور مدينة بالسرراء في شعر المتنبى لما لثارتها القصر أو للمم الذي سلكه حولها .
- (٦) صائغ : ص ١١٩ له من الأساطير اليونانية .
- (٧) زونون اليوناني : ص ١١٩ : فيلسوف يوناني ولد بين ٤٩٠ ق.م - ٤٨٥ ق.م .
- (٨) « مطالعات في الكتب والديانة » كتبه للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٢١ .
- (٩) للقور القور : ص ١٢٤ ، جاعة الكتب .
- (١٠) القورمان : ص ٢٠٨ : تحول للشماليين بعد خروجه لرومانوس إلى المسيحية واللغة الفرنسية ، ولكنهم احتفظوا بروح الحرب والغلبة . لغزوا إنجلترا سنة ١٠٦٦ بقيادة راييم نوبل لرومانوس الذي أصبح ملكا لإنجلترا .
- (١١) لسترايون ١ ص ٢١٢ : جغرافي يوناني ( ٨٨ ق.م - ٢٥ ق.م ) .
- (١٢) بحر الزقاق : ص ٢١٨ : ضيق جبل طارق .
- (١٣) الزخامة : ص ٢١٩ الجمره .
- (١٤) اللثم : ص ٢٢٠ : أي البردنة اللثم . أي البحر المرطبان الذي يستمر وجهه بالأم وهو يوصل بين المسلمين .
- (١٥) الاخشيد : ص ٢٢٠ . أي التي أحستها مصالحة الجبلية لفرنس شريعة البحر عليها . وذهب يعني شرب الخمر .
- (١٦) يفتيخوع : ص ٢٥٧ : معناه عبد يسوع . أسرة من سوريا . نبع من القرمان مد من الأطباء خدموا في بلاط العباسيين قرابة ثلاثة قرون .
- (١٧) ومقتله : ص ٢٥٥ : قتل لرومانوس واستقله مستشرق الثاني ( ١٨٠٨ - ١٨٩٩ ) نشر كثيرا من لمحات الكتب العربية .
- (١٨) الحركة البيروقراطية ( التطوير ) مذهب يرومستقاني وحده بمريج خاص من الأفكار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية واللامرية . ظهر في عهد الملكة فيزابيث مانييا بالقاء الأبناء والراف الكهنوتية .



## المراجع

- ١ - أصول الكتب الستة عشر .
- ٢ - مفكرون لكل العصور  
أنتحي المشرى
- ٣ - في موكب النهضة  
إبراهيم المشرى
- ٤ - دواء الطب  
جون رالكسون
- ٥ - الحضارة الإسلامية  
جوستاف جروندباوم
- ٦ - معالم تاريخ الإنسانية  
هــ ١ جـ ١ ولز
- ٧ - دائرة المعارف الإسلامية  
دار الشريعة
- ٨ - الحضارة  
أحمد حسن مصطفى
- ٩ - التراث والحضارة  
نجات أحمد فؤاد
- ١٠ - الحضارة العربية  
يـ ١ مل
- ١١ - الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب في عشرة قرون  
سليم اليازجي
- ١٢ - الغرب والحضارة - وتاريخ الحضارة  
كافين رايلي
- ١٣ - حضارتنا وحضارتهم  
عبد النعم النبر
- ١٤ - قصة الحضارة  
ول ديورانت
- ١٥ - معجم اعلام الفكر الانساني  
نخبة من الأساتذة
- ١٦ - تاريخ المسلم  
جورج ساركون
- ١٧ - معجم العلوم  
نخبة من العلماء
- ١٨ - للتنبؤ  
دـ ١ زكي المطاسي
- ١٩ - من اعلام الطب العربي  
أبو الفتح التواتي
- ٢٠ - الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية دـ ١ فاطمة مجيب
- ٢١ - تاريخ العالم  
أودونسيوس
- ٢٢ - إرستوفانيس ١١ عصره وعمله  
عبد نور
- ٢٣ - الطب  
دـ ١ أحمد محمد الحولي
- ٢٤ - فلسفة أيقظوا العالم  
دـ ١ مصطفى النشار
- ٢٥ - تاريخ الإنسانية  
أحمد حسن





## القرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ي . رامونيكاي	الإلكترونيات والبيئة الحديثة
الدى هكسل	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا في مائة علم
رايموند ويلز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فويس	تاريخ العلم والتكنولوجيا ( ٢ ج )
ليسترايل راي	الارض الخامسة
والتر آلن	الرواية الإنجليزية
لويس غارجاس	الرشيد في فن المسرح
فرانسوا دو ماس	الله مصر
د . قدرى حنى وأخرون	الإنسان المصري على الشاشة
أوليج لولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم للنهاس	الهوية القومية في الميثاق العربية
بقيده وكيام ماككوال	مجموعات النقود
عزيز الشبول	الوسيلة - تعبى تقنى - ومثاق
د . محسن جاسم الموسوي	عصر الرواية - مقال في النوع الأدبي
أشرف س . بي . كوكس	بيلان تونس
جون لويس	الإنسان ذلك الكائن الفريد
جول ويمن	الرواية الحديثة
د . عبد الحميد شعراوي	المسرح المصري المعاصر
أشور المعداوى	على مصود طه
بيل شول وأنيبت	القوة النفسية للأمرام
ه . صفاء خنوصي	فن الترجمة
والف في ثالثو	كولستوى
لوكتور بروسيه	مستدال

رسائل وأبحاث عن الخلفى	ليكنود مروج
الجزء والكل ( مصاورات في مختصر	فيرنز هينزبرج
الفيزياء ( القرية )	مدني حوك
انقراض الغامض ماوكس والماركسيون	ع - ح - انيكوف
فن اللعب الروائي عند تولستوى	هادى نعمان الهيتى
أدب الأطفال	د - نعمة رحيم المزوى
أحمد حسن الزيات	د - قاضى أحمد الطائى
أعلام العرب في الكيمياء	جلال المعزى
شجرة المرح	هنرى ياروس
الجميم	السيد علبوة
منع القرار السياسى	جاكوب يرونومسكى
الظهور الحصارى للألسان	د - روجر ستروجرمان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	كانى ثير
تربية الدواجن	د - سبتمبر
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	د - ناهوم بيتروفيتش
التحمل والطب	جوزيف دافوس
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	د - ليتوار تشامبوزرايت
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية لزاء	د - جون شطلر
مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤	بيير البيير
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د - هيرنال وحية
الصحافة	
الر الكوسميديا الالهية لداقتى في الفن	د - ريميسر عوض
التشكيلى	د - محمد نعمان جلال
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية	فرانكلين ل - باومر
ويعددها	شركت الربيعى
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د - محيى الدين أحمد حسين
فلكلور الأوربى الحديث ( ٤ ج )	
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى	
١٩٨٥ - ١٩٨٥	
الطفلة الأسرية والجناء الصغار	

نظريات التعليم الكبرى	ج . دابلي اندرو
مختبرات من الأدب القصصى	جوزيف كوزرك
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	جورمان دورشير
حروب القمامة	مناقشة من العلماء الأمريكين
إدارة المصروعات الدولية	د . السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د . مصطفى عطائى
مختبرات من اللعب البدائى	صبرى الفضل
الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج	لرانتكين ل . ياومر
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبلى
كتلة السيناريو السيتما	دوايت سبون
الزمن وقباسة	زافيلسكى ف . م
اجهزة كيف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والإنشباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوريف داهموس
التجوية اليونانية	س . م يورا
مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية	د . عاصم محمد روى
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د . ميمس
المسارح المصرى والفكر	وفورمانز د . افكوسون
حوار حول التنمية الاقتصادية	د . الكور عبد الملك
تبسيط الكيمياء	ولت ويتمان روستو
العادات والتقاليد المصرية	فريد س هيس
التنوق السيتماى	جون بوركهارت
التخطيط السياسى	الآن كامبيار
البذور الكويتية	ماسى عبد المحلى
براما الشافى ( ٢ ج )	فريد هويل
الهجرون والهجرون	شارلا ويكراما ماسينج
تجيب مطوف على الشاشنة	حسين حلى المهندس
مصور افريقية	روى روبرتسون
	هاشم الحماص
	دوركاسى ماكليتزوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية  
 وظائف الأعضاء من التلف إلى التيام  
 الهندسة الوراثية  
 تربية اسماء الزينة  
 الفلسفة وفتايا العصر ( ٣ ج )

الفكر التاريخي عند الاغريق  
 قضايا وملاحق الفن التشكيلي  
 التغذية في البلدان النامية  
 بداية بلا نهاية  
 الحرف والصناعات في عصر الاسلام  
 حوار حول المظالم الوثنيين  
 للكون

الارهاب

اختاتون

القبيلة الثلاثة عشرة

التوافق النفسي

النيليل البيولوجي والي

لقمة الصورة

الثورة الاجتماعية في اليابان

العالم الثالث ضا

الاتقراض الكبير

تاريخ المقبوء

التحليل والتوزيع الاوركستراي

المشاهدة ( ٢ ج )

الحياة الكريمة ( ٢ ج )

كتابة التاريخ في مصر

بيتر لوري  
 بريس فيدرويتش سرجيف  
 ويليام بينز  
 جيفيد النورث  
 جمها : جون ر - بورر  
 وهيلتون جولد ينجر  
 ارلوك تويني  
 د - صالح رضا  
 م - كنج وآخرون  
 جفرج جاموف  
 د - السيد طه أبو سديرة

جالييليو جالييليه

اريك موريس و آلان مو

مسيرول الخويهد

لور كيمستر

توماس ا - هاروس

مجموعة من الباحثين

روي ارنست

فاجاي مثنبيو

بول هاريمون

ميشائيل آبي ، جيمس الفورك

فيكتور مونجان

اعداد محمد كمال اسماعيل

الفردوس الطوسي

بيدوت بونتر

جاك كرايبن جوثور

من النقد السيمائي الأمريكي

تواقيم زواجنت

السيمياء العربية

دليل تنظيم المتاحف

سقوط المطر وقصص أخرى

جماليات فن الأفراج

التاريخ من شتى جوانبه ( ٣ ج )

الحملة الصليبية الأولى

التفصيل للسينما والتلفزيون

العثمانيون في أوروبا

صناع الخلود

ادوارد ميرى

اختيار / د. فيليب عطية

احمد / موني براخ وآخرون

ادامز فيليب

نادين جوردن وآخرون

زيجمونت ميشر

ستيفن أوزمنت

جوناثان ريلي سميت

توني بار

بول كولندر

موريس بير براير

الكفاح القبطية القديمة في مصر ( ٢ ج ) ألفريد ج. بثر

رحلات فاروقيا

انهم يستمعون البشر ٢ ج

في النقد السيمائي الفرنسي

للسيمياء الفيلائية

السلطة والفرد

الأزهر في الف عام

رواد الفلسفة الحديثة

سفر قامة

مصر الرومانية

كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

الاتصال والهيمنة الثقافية

مقالات من الآداب الاسبوية

كتب غيرت الفكر الاسلامي ( ٢ ج )

الشموس المظلمة

منزل الى علم اللغة

جانك كرليس جوليد

هربرت شيلز

اختيار / صبري الخليل

احمد محمد الشحاتي

اسحق عطينوف

لورينز تود





- انشودة التوحيد
- ميديا
- الضفادع
- مصنفات جالينوس الطبية
- الجامع لصناعة الطب «الهاوى»
- ديوان المتنبي
- تاريخ الأمم والملوك
- رسائل إخوان الصفا
- الشاهنامة
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
- معجم البلدان
- حياة الحيوان الكبرى
- حركات الكرات السماوية
- نظرية حركة القلب والدم
- البخيل
- تدهور الغرب
- اخناتون
- يورينيس
- أرسطوفانيس
- جالينوس
- الرازي
- المتنبي
- الطبري
- إخوان الصفا
- الفردوسي
- الأديسي
- ياقوت الحموي
- النعميري
- كوبر نيكوس
- وليم هارفي
- موليير
- اثنينجلر

